الجزء الثالث		المجلد الرابع والأربعون

مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق
« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

تموز « يوليو » سنة ١٩٦٩ م		ربيع الآخر سنة ١٣٨٩ هـ

بقايا الفصاح

تتصرّف العامّة في طوائف من الألفاظ الفصيحة تصرفاً عجيباً ، فإمّا أن تنقل معانيها من الحقيقة إلى المجاز وإمّا أن تحوّل هذه المعاني عن وجهها الشريف إلى وجهٍ دنيء ، ثم نراها في كثيرٍ من الأحيان تحافظ على معاني بعض التراكيب فلا تختلف هذه المعاني عمّا كانت عليه قبل ألف سنةٍ ، وقد نجدها تطلق أسماءً فصيحة على بعض المسمّيات إلاّ أن هذه المسمّيات لا تلبث أن تذهب فتموت الأسماء بذهابها أو تكاد .

فمن الألفاظ التي حوّلت العامّة معانيها عن وجهٍ إلى وجهٍ لفظة : الشبرقة ، لقد عاشت هذه اللفظة في لغتنا العامّة في دمشق حتى يومنا هذا ، ولكنّها لم تعش على أصل معناها فقد تصرّفت العامّة في هذا المعنى بعض التصرف ، فمن معاني الشبرقة في اللغة الفصيحة : نهش البازي الصيدَ

وتمزيقه وقطع الثوب ... أمّا الشبرقة في لغتنا العامّة فلها معنى آخر ، فالشبرقة أن يشتري الولد من هنا وهنا على سبيل التسلية ، فالأهل يدفعون إلى ولدهم يسيراً من المال ويقولون له اذهب إلى السوق وتشبرق ، أي اذهب واشتر ما يروقك من مأكول أو مشروب ، اذهب وأنفق ما أعطيناك ، فأيّ صلةٍ بين معنى هذه اللفظة الفصيح وبين معناها العامي ، أيّ صلةٍ بين نهش البازي صيده وتمزيقه وبين شراء الولد ما يَبرُّ به في السوق ، لا نجد في الظاهر شيئاً من هذه الصلة ، ولكن إذا اجتهدنا في الأمر بعض الاجتهاد اهتدينا إلى ظِلٍّ من الصلة على سبيل المجاز ، فكما ينهش البازي صيده ويمزّقه حتّى لا يبقى من هذا الصيد أثر فكذلك ينفق الولد ما دفعه إليه أهله من المال في شراء كذا وكذا حتى لا يبقى من هذا المال شيء ، فكما أن البازي نهش صيده فكذلك الولد نهش ماله أي صرفه كلّه . هذا تعليل قد نصيب فيه أو نخطئ ولكنّا نقبله على ظاهره حتى نهتدي إلى تعليل أقوى .

ومن هذا القبيل لفظة : النشّال الشائعة على ألسن أهل مصر ومعناها : السارق ، فالنشّال في اللغة الفصيحة كشدّاد من يأخذ حرف الجردقة ، وهي الرغيف ، فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه ومن معاني : نشل الشيء أسرع نزعه ، من هذا يتبيّن لنا أنّ النّشّال العامية أصلها فصيح ولكنّ العامّة تصرّفت في معناها فنقلت هذا المعنى من وجه إلى وجهٍ على سبيل المجاز ، فكما أنّ من ينشل الشيء يسرع نزعه ، فكذلك من ينشل الشيء من الثياب يسرع نزعه بحيث لا تقع عليه عين صاحبه ، وكما أنّ النشّال الفصيحة من يأخذ حرف الرغيف فيغمسه في القدر فيأكله دون أصحابه فكذلك النشّال العامية من يأخذ الشيء من ثياب صاحبه فيغمسه في جيبه ويستأثر به ، فالمنيان الفصيح والعامي متقاربان ولكن هذا التقارب على سبيل المجاز .

ومن هذا النمط ، وإن كان الأمر يختلف بعض الاختلاف لفظة : الشموذة ، فقد اتسعت العامّة في معنى هذه المادّة وفسحت لآفاقها ، فالشموذة في اللغة خفّة في اليد وأخذ كالسحر يري الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين وهو : مشعوِذ ومشعوَذ ، (بكسر الواو وفتحها) ، إلاّ أنّ العامّة اختارت كسر الواو ولم تكتف بأصل معنى هذه المادّة فقد وسّعت آفاقه ونقلته من معنى ضيق إلى معنى أرحب ، فلجأت إلى المجاز وأطلقت الشموذة على كل نوعٍ من أنواع الخفّة والسحر في السياسة أو العلم أو الدين ونظائر هذه الأمور ، فلم تبق الشموذة في لغة العامّة والخاصّة خفّة في اليد أو أخذاً كالسحر ولكنّها أصبحت خفّة في كثير من الأمور ، فهي خفّة في ستر حقائق الأشياء ، فالشموذ يرينا السياسة بغير ما عليه أصلها في رأي العقل وكذلك يرينا العلم أو الدين أو ما شابه ذلك ، وإذا كان المشعوذ قد يطول أمر شموذته في خفّة يده أو سحره فإن الشموذ في أمور السياسة أو الدين أو العلم قد ينفضح أمره في هذه الخفة وفي هذا السحر فينكشف باطنه وتعرف شموذته ، وما أظن أن لفظاً من الألفاظ أقوى من لفظ الشموذة في الدلالة على هذه الطبقة من الناس .

بقيت لفظة لا تحتاج إلى كثير من التعليل ، فهي عامية ولكن أصلها فصيح ، تقول في لغتنا العامة : فلان ذلق ... أو فلان ذلق لسانه ... ونحن نريد بقولنا هذا أن فلاناً كان يكتم عنّا أشياء ولا يريد أن يبوح بها إلاّ أنه في خلال حديثه قد تخونه الذاكرة فيبوح بما كان يكتمه فنقول : فلان ذلق فقال كذا وكذا ... وقد تعدّي العامّة هذه المادّة وتستعمل الفعل المشدّد فتقول : ذلّقه حتى قال كذا وكذا ... ماذا نجد في اللغة؟ إنّا نجد : ذلق اللسان كفرح ذرب فهو ذلق وأذلق ... وذلق اللسان كنصر وكرم فهو ذليق وذلق بالفتح إلى آخر ما جاء من مشتقات هذا الفعل ،

فاللسان الذليق هو اللسان الحديد ، البليغ ، ثم نجد معنى أذلقه : أقلقه وأضعفه ، ولا نريد التوسع أكثر من ذلك في معاني هذه المادّة ، فالقول العامي : ذلّق فلان فقال كذا وكذا . . لا يطابق القول الفصيح : ذلق اللسان فهو ذليق بمعنى بليغ ولكن قول العامّة : ذلّقه فقال كذا وكذا . . . لا يبعد كثيراً عن أذلقه بمعنى : أقلقه وأضعفه ، فقد يأتي بعد هذا الإقلاق أو هذا الإضعاف حمل الإنسان على البوح بما يكتم ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب الأغاني في الكلام على وقعة بدر ، فقد قبض على غلامين اعترفا بأنهما سقاة لقريش ولكن القوم رجوا أن يكون الغلامان لأبي سفيان فضربوهما ، فلمّا أذلقوهما قالا : نحن لأبي سفيان إلى آخر ما جاء في هذا الخبر ، فالذي يهمنا منه إنما هو فعل : أذلقوهما وما أدّى إليه هذا الإذلاق ، أي هذا الإقلاق والإضعاف ، فقد أدّى إلى الاعتراف بما يرضي الذين ضربوا الغلامين ، وإن كانت بقية الخبر تدلّ على أن الغلامين كانا صادقين فيها لقريش وليسا لأبي سفيان .

فإذا رجعنا إلى قول العامة : ذلّقه فقال كذا وكذا . . . وجدنا شيئاً من التقارب بين القول العامي والقول الفصيح ، والفرق بينهما أن العامّة تستعمل : ذلّقه بالتشديد ، واللغة الفصيحة تستعمل : أذلقه ، ومهما يكن من الأمر فإن الإذلاق أو التذليق إنما نتيجته البوح بما هو مكتوم سواء أوقع الإقلاق والإضعاف أو لم يقع .

وإذا انتقلنا من هذه الطبقة من الألفاظ إلى طبقة ثانية وجدنا أن العامّة قد تتصرف في بعض المعاني أقبح تصرّف ، فمن الألفاظ الفصيحة لفظة : العِلق ، (بكسر العين وتسكين اللام) ، ومعناها في اللغة : النفيس من كل شيء ، والجمع : أعلاق وعلوق ، إلاّ أن هذه اللفظة لم يبق لها في لغة العامّة معناها الفصيح ، فقد تصرفت فيها أسوأ تصرّف فأطلقت العلق

على كل مخنَّث أو متفنّج من الناس ، وهي تريد به أقبح الذم ، ولا يسرّ أحداً أن يقال فيه أنه علق ، واختارت العامة من صيغة الجمع : العلوق وطرحت الأعلاق في لغتها ، فإذا قالت في جماعة من القوم أنهم علوق فقد بلغت من قبح تصويرهم في المجتمع كلّ مبلغ ، وهكذا نجد أن بعض الألفاظ الفصيحة قد تنحدر في لغة العامّة من أفقها الأعلى إلى الأفق الأدنى .

وإذا كانت العامّة قد تتصرّف في بعض الأوقات في معاني فئةٍ من الألفاظ فإنها قد تحافظ في كثيرٍ من الأحيان على معاني تراكيب فصيحة استعملت في قديم أدبنا ، من هذه التراكيب : فلان يدي ورجلي ... الكلام معك ضائع ... يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى والمساكين .

نجد في الأغاني في أخبار منصور النمري هذه العبارة : استقبلت منصوراً النمري يوماً من الأيّام فرأيته مغموماً ، واجماً ، كئباً فقلت له : ما خبرك ، فقال : تركت امرأتي تطلق وقد عسر عليها ولادها ، وهي يدي ورجلي والقيّمة بأمري وأمر منزلي .... فهذه العبارة : فلان يدي ورجلي لا تزال مستفيضة في لغة العامّة ، وقوّتها ظاهرة ومعناها جزل ، فالذي يكون يدك ورجلك في أمورك إنما هو المعوّل عليه في هذه الأمور ، لا تستطيع أن تعمل عملاً دونه ، وهل يستطيع أن يتحرّك من لا يدَ له ولا رجل ، وهكذا نجد أن التراكيب السهلة ذات المعنى الخصب قد تعيش دهراً طويلاً في لغة العامّة فضلاً عن لغة الخاصة .

ومثل هذا التركيب في القوة قولنا : الكلام معك ضائع ... في أخبار حمّاد الراوية في الأغاني أن الطرمّاحَ أنشده قصيدة في مسجد الكوفة ، فلمّا سمعها حمّاد ادّعاها ونفاها عن الطرمّاح ، فطال الكلام بينهما في هذا الشأن حتى قال الطرمّاح لحمّاد : أنت رجل ماجن ، والكلام معك ضائع .

قد يشتدّ النزاع بين رجلين وقد يكون أحدهما على حقٍ فيحاول أن يقنع الآخر بالحجة ، أو أن يوبّخه إن كان يستلزم التوبيخ أو أن يدخل على ذهنه فكراً من الأفكار فيجده كأنه حائط ، لا يقنع ولا يلين ولا يأخذ بالصواب ، فتنفد حيلته معه فلا يهتدي إلى سبيل من السبل في ردّه إلى الصواب ، فلا يجد في مثل هذه الحال أبلغ من قوله : الكلام معك ضائع ... فلا الحجة تنفع ولا التوبيخ يفيد ولا المنطق ينجح ، فكل أمرٍ من هذه الأمور ونظرائها لا طائل فيه ، فالكلام مع هذا الرجل ضائع ، فهذه العبارة تغني عن كل حجة وعن كل توبيخ وعن كل منطق فضلاً عن أنها تجنّبنا كل عاقبة غير محمودة ، فما أحسن شيوعها على ألسن العامّة والخاصة حتى يومنا هذا .

أمّا التركيب الأخير : فلان يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى والمساكين فلا تقلّ قوّته عن أخويه ، نقرأ في الأغاني في نسب أبي العتاهية وأخباره أن أبا العتاهية لمّا تنسك جلس يحجم اليتامي والفقراء ليضع من نفسه وليكتسب الثواب وهو لا يعرف ما يحتاج إليه كل واحدٍ من الناس إلى أن يخرجه من الدم على قدر طبعه ممّا إذا زاد فيه أو نقص منه ضرّ المحجوم ، فقال بشر لأبي العتاهية : ما أراك إلاّ أردت أن تتعلّم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين !

هذه العبارة شائعة على ألسن الناس ، عامّتهم وخاصّتهم ، إلاّ أنهم يستعملون الرؤوس بدلاً من الأقفاء ، فقد يتطاول أحدنا لأمرٍ من الأمور ولم يأخذ لهذا الأمر عدّته ولا هيّأ له أسبابه ولا عرف مصادره وموارده ، ومع هذا فهو يدّعي العلم بهذا الأمر فيمارسه على جهله به والله أعلم بما يتمّ فيه على يده من الأذى ، ولكنّه يريد أن يتعلّم الحجامة على رؤوس اليتامى .

ولا أريد أن أختم هذا المقال دون الإشارة إلى لفظة قد تدلّنا على موت الألفاظ ، فإن للألفاظ حياة ، إن لها ميلاداً وموتاً ، من الألفاظ الشائعة في بنياننا لفظة : المشرقة ، فالمشرقة ، مثلثة الراء ، موضع القعود في الشمس بالشتاء ، وقد حافظت العامّة على هذا المعنى في لغتها ، فلم تنحرف هذه اللفظة عن معناها الفصيح ، وإذا كانت المشرقة مثلثة الراء فإن العامّة اختارت فتح الراء في كلامها ، إلاّ أن هذه اللفظة التي عاشت في دمشق زمناً طويلاً قد أوشكت أن تموت ، والسبب في ذلك عمراننا الحديث ، فالدور القديمة لها مشرقات ، وكان أهل هذه الدور يقعدون فيها بالشتاء للدفء أو ينشرون فيها غسيلهم ، فهي من أصل الدور وهي غير سطوح الدور ، ولكن عمراننا الحديث قد خلا من هذه المشرقات فأكثر الأبنية أصبحت ذات طبقات وكلّ طاقٍ خالٍ من المشرقة ما خلا الطاق الأعلى فإن له سطحاً فأهله يقولون : السطح ولا يقولون : المشرقة ، وعلى هذا نجد أن هذه اللفظة التي لا تزال تعيش في حارات دمشق القديمة قد ماتت في الحارات التي استفحل فيها العمران الحديث .

شفيق جبري





فقيد العروبة

الأستاذ الكبير ساطع الحصري

مجمعي افتقدناه

فقيد العروبة

الأستاذ ساطع الحصري

في صبيحة يوم الثلاثاء الواقع في الخامس من شوال سنة ١٣٨٨ هـ الموافق لـ ٢٤ كانون الأول سنة ١٩٦٨ م، روّع العالمَ العربي صوت من بغداد ينعى إليه الأستاذ الكبير **ساطعاً الحصري**، وكان لهذا الصوت صدى حزن وألم عمّ أرجاء الوطن العربي كافة، فقد خسر العرب بوفاته واحداً من أكبر علماء التربية والتعليم لديهم، وفقدوا رائداً من **أقدم رواد النهضة العربية الحديثة**، وداعية من أشد الدعاة إخلاصاً للفكرة العربية الناشئة، ومناضلاً من أشد المناضلين حماسة في الدفاع عن « **القومية العربية المعاصرة** » أفنى سمعه وبدد ضياء عينيه في تأريخ « **الثورة العربية** »، وتحديد معنى « **القومية العربية** » وفي الدفاع عنها بالتصدي لكل من خطّ حرفاً ليس في صالحها، أو فاه بكلمة ليست في جانبها، أو صدرت عنه حركة قد تسيء إليها، كان صلباً في عقيدته، لا تخلو ردوده أحياناً من قسوة، كما كان ثابتاً على رأيه، يندر أن يتزعزع في مواقف الدفاع، ولو تحالف عليه كل الأقوياء سواء بمراكزهم أو بحبهم له أو بتقديره إياهم، وقد حلا للكثيرين من الكتاب ورجال الصحافة إطلاق لقب « **أبو العروبة** » عليه، فقد عاش مؤمناً بالعروبة، منافحاً عن الأصالة العربية، ومات عن ثروة ضخمة من المؤلفات حاول فيها ترسيخ مفهومه للقومية العربية، وإفحام خصومها من شعوبيين أو من عرب تائهين.

ولقد خسر مجمع اللغة العربية بدمشق بموت الأستاذ ساطع الحصري ، عضواً من أبرز أعضائه العاملين ، فقد انتخبه المجمع في الجلسة التي عقدها في ١٧ من شباط (فبراير) سنة ١٩٥٥ م عضواً تقديراً لمكانته العلمية ، واعترافاً بما أداه للعربية من خدمات بآرائه الصائبة ومقترحاته المفيدة ، وقد صدر مرسوم جمهوري بتاريخ ٢٤ نيسان (أبريل) ١٩٥٥ م .

رحم الله فقيدنا الكبير رحمة واسعة ، فقد كان علماً من أعلام الفكر العربي المعاصر ، وفيما يلي نبذة عن نشأته وحياته وآثاره .



نشأته وحياته

كان محمد هلال الحصري ، من أهالي مدينة حلب في شمالي سورية ، قد قضى شطراً من شبابه في مصر يدرس في الجامع الأزهر علوم الشريعة والعربية ، فلما أجيز ، عين قاضياً في مدينة دير الزور ثم نقل إلى مدينة حماة السوريتين ، ثم عين رئيساً لمحكمة استئناف ولاية اليمن ، وفي مدينة صنعاء أقام القاضي الجديد سنة أو تزيد ، فلما كان الخامس من شهر آب (أغسطس) عام ١٨٨٠ ميلادية الموافق لسنة ١٢٩٧ للهجرة ، ولد له فيها غلام أسماه « ساطعاً » .

لم يقم محمد هلال الحصري الحلبي في صنعاء ، أكثر من سنتين نقل بعدها إلى أضنة ثم إلى أنقرة من بلاد الأناضول ، فإلى طرابلس الغرب في ليبيا ، ثم أعيد ثانية إلى اليمن ، فإلى قونية في تركية ، فثانية إلى طرابلس الغرب ، وهكذا كان الموظفون في الدولة العثمانية لا يستقر أحدهم في وظيفة عين فيها أكثر من سنتين على الأعم الأغلب ، وكثيراً ما كان أطفال هؤلاء الموظفين يتنقلون مع آبائهم كما وقع لساطع وليد الحصري الحلبي .

وعندما انتقلت وظيفة القاضي الحصري إلى طرابلس الغرب للمرة الثانية سنة ١٨٩٣ م ، كان ساطع ، الذي فاتته الدراسة الابتدائية النظامية ، قد استطاع بجهده الشخصي واجتهاده الشديد ، دخول القسم الإعدادي من « المدرسة الملكية الشاهانية » في استانبول . فتركته الأسرة المسافرة إلى ليبيا تلميذاً داخلياً في هذه المدرسة ، على أن يلحق بها في العطلة الصيفية ، وقد لحق بها في عطلة أول سنة ، ولما كانت عطلة السنة الثانية ، لحق بأسرته وهي في بني غازي حيث كان أخوه الأكبر يتولى وظيفة النيابة العامة فيها ، ولم تأت عطلة السنة الثالثة، إلا وكانت وظيفة ربّ الأسرة قد انتقلت إلى استانبول، فاستراحت واستراح الشاب الساطع ، واستطاع أن يكمل دراسته العالية في المدرسة الملكية سنة ١٩٠٠ م بتفوق ملحوظ .

عين ساطع الحصري ، بعد تخرجه مباشرة ، مدرساً للعلوم الطبيعية في إعدادية (يانيا) عاصمة مقاطعة أبيروس وهي اليوم جزء من دولة اليونان ، فظل في هذه المدرسة إلى سنة ١٩٠٥ م . وخلال مدة السنوات الثلاث الأخيرة من إقامته في يانيا عين « مأمور معية » إذ كان أمثاله يعينون كذلك تمهيداً لتعيينهم في الوظائف الإدارية ، مع السماح له بتدريس بعض ما كان يتولى تدريسه .

وفي سنة ١٩٠٥ م عين ساطع الحصري قائمقاماً لقضاء (وادو ويشته) في ولاية قوصوة ، ذي الأكثرية البلغارية ، وكان القضاء سياسياً في المنطقة النمساوية من المراقبة الدولية التي كانت قد فرضت على ولايات ماكدونيا الثلاث ، ثم نقل ساطع قائمقاماً لقضاء (فلورينه) في ولاية مناستر ، وكان هذا القضاء في المنطقة الإيطالية من المراقبة الدولية .

بقي ساطع الحصري قائمقاماً في (فلورينه) حتى الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨م ، ولما كان هواه مع الانقلابيين ، عهدوا إليه يوم إعلان الدستور بمهمة شرح

أهدافهم في عاصمة الولاية « مناستر » فقام يخطب في الجماهير يحمسهم لتأييد الانقلاب ، وفي وفود المهنئين به يشكرهم على تهانيهم .

ولم يمض على إعلان الدستور شهران ، إلا وأحب ساطع الحصري العودة إلى العاصمة ، فترك الوظائف الإدارية ، راغباً في العودة إلى تولي التعليم في المعاهد العالية ، فكان بدءاً من نهاية عام ١٩٠٨ م : أستاذاً للتربية في جامعة استانبول (دار الفنون) وأستاذاً لعلم الأقوام في المدرسة الملكية الشاهانية ، وقد أطلق عليها فيما بعد اسم « مدرسة العلوم الإدارية والسياسية » ، وأستاذاً لعلمي التربية والاجتماع في مدرسة (دار الخلافة العلية) وفي (دار المعلمين العالية).

وقبل أن ينقضي عام ١٩٠٩ م ، عين ساطع الحصري مديراً لدار المعلمين ، فأحدث تعيينه هزة كبيرة في الدار ، إذ أعقبه حدوث انقلاب جذري في نظامها وأصول التدريس فيها ، وإقامة نظام جديد مبني على أحدث أساليب التعليم ، مما كان له أثر كبير في تبديل اتجاهات التعليم في جميع ممالك الدولة العثمانية .

وقام ساطع الحصري أثناء توليه مديرية (دار المعلمين) بتأسيس مدرسة أطلق عليها اسم (المدرسة الحديثة) متبعاً في أنظمتها أحدث أساليب التربية والتعليم التي عرفتها البلاد الأوربية .

احتل ساطع الحصري ، بما قام به من تبديل في نظم التربية والتعليم وبما نشره من مؤلفات ومقالات ، مكانة عالية في الدولة العثمانية وتمتع بمركز علمي مرموق ، وأخذ اسمه مقروناً بالتقدير يتردد في كل المحافل العلمية والتربوية ، وقد انتخب عضواً في « جمعية المطبوعات العثمانية » منذ يوم تأسيسها ، وكان من آخر المراكز التي تبوأها في العهد العثماني رياسة « مؤتمر المطبوعات » .

ظل ساطع الحصري يعمل ويدأب في إصلاح نظم التربية والتعليم في الدولة العثمانية ، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م ، ولكنه ماكاد يسمع أنباء جلاء الأتراك عن دمشق ودخول الجيش العربي إليها ، إلا وتطلع إلى هذه الدولة الفتية تقوم في دمشق بعد زمن طويل من سقوط الدولة العربية الكبرى ، فما أن تلقى إشارة تدعوه الحكومة العربية بها إلى سورية ، حتى غادر استانبول ، رغم ما عرضه عليه الأتراك للبقاء في منصبه ، ووصل دمشق في مطلع عام ١٩١٩ م ، فبادرت الحكومة العربية فيها إلى تكليفه بالإشراف على معارف الدولة فكان على التوالي :

١ — مفتشاً عاماً للمعارف في سورية ، من تاريخ ١٩١٩/٤/١٦ حتى ١٩١٩/٤/٣٠ م .

٢ — مديراً عاماً للمعارف في سورية ، من تاريخ ١٩١٩/٥/١ حتى ١٩٢٠/٣/٩ م .

ويوم أعلن المؤتمر السوري استقلال سورية ووضع دستورها الأول الملكي بتاريخ ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠ م ، قامت في دمشق أول حكومة عربية دستورية ، واختير ساطع الحصري وزيراً للمعارف فيها ، فمارس مهام الوزارة من تاريخ ١٩٢٠/٣/١٠ حتى تاريخ ١٩٢٠/٧/٢٧ م ، يوم احتل الجيش الفرنسي دمشق ليفرض على الشعب السوري ما أسمته عصبة الأمم بـ « الانتداب » .

غادر ساطع الحصري سورية مع ملكها المبعد عن العرش فيصل الأول ، مرافقاً مليكه في رحلاته التي انتهت به ملكاً على العراق ، وفي بغداد تولى الحصري المناصب التالية :

١ — معاون وزير المعارف من تاريخ ١٩٢٢/٣/٥ إلى ١٩٢٣/١/١٧ م .

٢ — مدير المعارف العام من تاريخ ١٩٢٣/١/١٧ إلى ١٩٢٧/٨/٣١ م .

٣ — أستاذ علم التربية في دار المعلمين العالية من تاريخ ١٩٢٧/٩/١ حتى ١٩٣١/١٠/١ م .

٤ — مراقب التعليم العام من تاريخ ١٩٣١/١٠/١ حتى ١٩٣١/١٢/٢٢ م .

٥ — عميد كلية الحقوق من تاريخ ١٩٣١/١٢/٢٣ حتى ١٩٣٤/١٠/١١ م .

٦ — عميد كلية الحقوق ومدير الآثار القديمة من تاريخ ١٩٣٤/١٠/١٢ حتى ١٩٣٥/٩/١٦ م .

٧ — مدير الآثار القديمة ومراقب التربية والتدريس العام، من تاريخ ١٩٣٥/٩/١٦ حتى ١٩٣٦/٩/١٢ م .

٨ — مدير الآثار القديمة من تاريخ ١٩٣٦/٩/١٣ ، وظل يتولى هذا المنصب حتى الحادي عشر من حزيران (يونيو) سنة ١٩٤١ م ، يوم أبلغت الحكومة العراقية ، التي ألفت عقب فشل الثورة ضد الانكليز ، ساطعاً الحصري مدير الآثار القديمة ، قراراً بنزع الجنسية العراقية عنه بوصفه سوري الأصل ، وبضرورة مغادرته الأراضي العراقية ، فغادرها باليوم نفسه ووصل مدينة بيروت وفيها أقام أربع سنوات .

وفي أعقاب جلاء الجيوش الفرنسية عن سورية سنة ١٩٤٥ م ، قامت الحكومة السورية بتكليف ساطع الحصري بمهمة الإشراف على إعادة تنظيم المعارف ، وعينته مشاوراً فنياً لها لشؤون التربية والتعليم ، وظل يقوم بهذه المهمة ثلاث سنوات .

وفي ٢٥ شباط (فبراير) ١٩٤٧ م ، دعته وزارة المعارف المصرية لإلقاء محاضرات في اجتماعيات التربية في معهد التربية في القاهرة ، فاستمر يلقي المحاضرات في هذا المعهد مدة ثلاث سنوات أيضاً ، قامت خلالها جامعة الدول العربية بترشيحه لمنصب المشاور الفني للادارة الثقافية ، فشغل هذا المنصب من أول سنة ١٩٤٧ م ، بما عرف فيه من دأب على العمل وإخلاص فيه ،

حتى نهاية عام ١٩٥٠ م ، إذ بدا له أن يستقيل منه فاستقال . على أنه قبل عرض الإدارة الثقافية بأن يدير معهد الدراسات العربية العالية ، الذي قررت جامعة الدول العربية بمساعيه افتتاحه في القاهرة ، واستلم إدارة المعهد اعتباراً من أول نيسان (أبريل) سنة ١٩٥٣ م ، متولياً فيه كرسي « القومية العربية » . وفي سنة ١٩٥٦ استقال من إدارة المعهد ، ولم تمض سنة دراسية واحدة بعد ذلك حتى قرر ترك المعهد نهائياً ، لأنه لم يستطع تطبيق جميع ما يدين به من آراء ، فاستقال من التدريس أيضاً .

هذا وكانت الحكومة العربية السعودية قد كلفته خلال سنة ١٩٥٤ م ، بدراسة أحوال المعارف في المملكة ، وتقديم تقرير عن وسائل إصلاحها ، فقام بهذا الواجب خير قيام ضمن الحدود المرسومة وبحسب ما رآه مفيداً .

الدراسات التي استهوت الفقيد ونبغ فيها

عندما كان ساطع الحصري في « المدرسة الملكية الشاهانية » في استانبول ، لم يكن يرضى لنفسه الاكتفاء بالمحاضرات النظامية تلقى عليه ، وبالكتب المحددة المطلوبة منه ، فقد خُلق شديد الرغبة بالمعرفة والتقصي ، محباً للدراسة والتحصيل ، مولعاً بالعلوم الرياضية ، مندفعاً وراء كشف دقائقها ، فأخذ يلتهم كل ما تقع عليه يده من كتب ومجلات تبحث فيها ، مستعيراً من أصدقائه طلاب مدرستي الهندسة والأركان الكتب المقررة عليهم ، وبدأ يُعرف بقدرته على حل العويص من مسائل الرياضيات العالية ، فأطلق عليه رفاقه اسم « آرشيمد » وبه اشتهر مدة طويلة من الزمن .

وكما أولع ساطع الحصري بالعلوم الرياضية ، أولع بالعلوم الطبيعية ، واستهواه تشريح الحيوانات وتحنيطها ، فأتقن ذلك ، حتى كان في طليعة ما يفعله في المدارس التي تولى إدارتها ، إنشاء متاحف للتاريخ الطبيعي فيها .

ومن العلوم التي استهوت فقيدنا أيضاً ، علوم النفس والتربية والاجتماع ، فأخذ يتبحر فيها ويغوص وراء مشاكلها ، حتى غدا أستاذها الذي يشار إليه بالبنان في استانبول يوم كان فيها ، وعميد أساتيذها في أرجاء العالم العربي فيما بعد .

ومما ساعد ساطعاً ، في إتقان هواياته وإتقان أبحاثها ودقائقها ، الرحلات الدراسية التي قام بها إلى البلاد الأوروبية خلال أعوام ١٩١٠ — ١٩١٧ م ، فقد زار كلاً من إيطالية وسويسرة وفرنسة وانكلترة وبلجيكا وهولندة وألمانية ورومانية وبلغارية ، دارساً في كل منها نظم التربية والتعليم المطبقة والعيوب التي يُشكى منها ، والاتجاهات الحديثة التي يفكر فيها المصلحون في مختلف البلاد المذكورة .

اشترك ساطع الحصري في المؤتمر الدولي الثاني للتربية الأخلاقية في لاهاي سنة ١٩١٢ م ، وكان من أعضاء عمدة معهد جان جاك روسو الذي أسس في صيف السنة نفسها ، كما اشترك في المؤتمر الدولي لعلم الاجتماع في استانبول سنة ١٩٣٢ م ، ممثلاً لدولة العراق ، كما مثله في المؤتمر الدولي للحفريات الأثرية في القاهرة سنة ١٩٣٧ م . وقد جرى انتخابه سنة ١٩٣٨ م عضواً في لجنة المتاحف الدائمة المنبثقة عن اللجنة الدولية للتعاون الفكري .

★ ★ ★

مؤلفات الفقيد وآثاره

كان الفقيد من أكثر المفكرين العرب تدويناً لدراساته وبحوثه وآرائه والحوادث التي وقعت معه ، وقد نشر أكثرها كتباً يتداولها الناس ، إلى جانب العديد من مؤلفاته في مختلف العلوم والفنون .

كانت آثار فقيدنا المطبوعة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ م ، مكتوبة بالتركية اللغة الرسمية للدولة العثمانية ، وهي تنقسم إلى قسمين بحسب زمن كتابتها :

القسم الأول : آثاره قبـــل إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م

وهي عبارة عن سلسلة من الكتب المدرسية في عديد من العلوم الطبيعية ، وكانت وزارة المعارف العثمانية قررت تدريسها في جميع أنحاء الدولة ، وتبين موضوعاتها من العناوين التالية :

١ — معلومات زراعية ؛ ٢ — دروس الأشياء (للمدارس الابتدائية) .

٣ — علم الحيوان ؛ ٤ — علم النبات ؛ ٥ — تطبيقات زراعية (للمدارس الثانوية) .

وللفقيد مقالات كثيرة في مسائل عملية ، وفي وصف مخترعات حديثة ، نشرت له في المجلات العلمية والأدبية ، وعناوين بعضها كالتالي :

نحو القطب ـ التلغراف اللاسلكي ـ الأشعة المجهولة ـ الحياة في المناجم ـ مناظر الغروب : في الأرض ، وفي الكواكب .

القسم الثاني : آثاره بعد إعلان الدستور

أ — الكتب التي ألفها الفقيد :

١ — كتاب « فن التربية » ويشتمل على مجموعة دروسه في دار المعلمين ، وهو في مجلدين .

٢ — « اتنوغرافيا » [علم الأقوام] ، وهو كتاب يشتمل على مجموعة دروسه في المدرسة الملكية .

٣ - « تقاريري » [لايحه لرم] ، وهي عبارة عن كتاب يتضمن مجموعة التقارير التي قدمها إلى وزارة المعارف ، بعد عودته من رحلته الدراسية الأولى سنة ١٩١٠ م .

٤ — «الوطن» وهو كتاب يتضمن مجموعة محاضرات في الوطنية والتربية الوطنية .

٥ — « الأمل والعزم » وهو كتاب يتضمن مجموعة محاضرات .

٦ — « اليابان واليابانيون » عنوان محاضرة عن نهضة اليابان وعواملها .

ب — المجلات التي عمل الفقيد على إصدارها :

١ — « أنوار العلوم » ، وهي مجلة في العلوم والكشوف العلمية ، وقد صدر منها مجلد واحد .

٢ — « التدريسات الابتدائية » ، مجلة تعليمية صدر منها ثلاثة مجلدات .

٣ — « مجلة التربية » ، صدر منها عشرة أعداد فقط ، وكانت الأربعة الأولى مصورة .

ج — المقالات التي دبجها الفقيد :

اشتهر الفقيد بالمقالات الكثيرة التي كان ينشرها في مختلف الصحف والمجلات ، منتهزاً أي مناسبة يستطيع فيها أن يدلي برأيه ، أو يدافع عن مبادئه أو يشرح فيها أفكاره وعقيدته .

وليس من السهل على المرء تقصي كل ما كتبه الفقيد ونشره ، على أن معظم مقالاته كانت تربوية واجتماعية ، وكان قسم كبير منها نقداً أو دراسة للقضايا الإصلاحية الكبرى ، وبعضها كان سياسياً ؛ وكان من أهم المقالات التي نشرها في العهد العثماني ، وكان لها صداها في الرأي العام المقالات التالية :

١ — آثار الاستبداد وبذوره الباقية (أربع مقالات متتابعة) .

٢ — في سبيل إصلاح المعارف .

٣ — نظرية شجرة الطوبى والتفكير العلمي .

٤ — دوركهايم ونظرياته الاجتماعية (نقد) .

٥ — دفاع عن مدحت باشا .

٦ — قضايا التنظيمات .

٧ — معرض تورينو وطرابلس الغرب .

٨ — خطاب إلى طلعت بك .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن الفقيد نشر مقالات عديدة خلال سنتي ١٩٠٨ و ١٩٠٩ م في مجلة « نيثو حقيقت » ، التي كانت تصدر في مناستر ، بصورة سرية قبل إعلان الدستور ، وبصورة علنية بعد إعلانه ، وظل الفقيد يراسلها ويكتب فيها إلى ما بعد انتقاله إلى استانبول .

★ ★ ★

أما آثار الفقيد التي تؤلف ثروة ضخمة للمكتبة العربية ، فهي على نوعين أيضاً :

النوع الأول : ١ — مقالات منشورة في مختلف صحف ومجلات البلاد العربية ، ضمن الفترات الزمنية التالية :

أ — خلال وجود الفقيد في سورية (١٩١٩ — ١٩٢٠ م) ، وقد عمل على إصدار مجلة باسم « التربية والتعليم » نشر فيها عدة مقالات تربوية ووطنية .

ب — خلال وجود الفقيد في العراق (١٩٢٢ — ١٩٤١ م) وقد عمل على إصدار مجلة باسم « التربية والتعليم » أيضاً ، وصدر منها خمسة مجلدات بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣١ م ، وفيها كثير من المقالات والبحوث القيمة التي كتبها الفقيد .

ج — بعد إخراج الفقيد من العراق ، وقبل إقامته في مصر ، نشر كثيراً من المقالات والمحاضرات والأبحاث وقد جمع أكثرها في كتب مستقلة ، وكانت صحف بيروت ودمشق والقاهرة ومجلاتها ، ومجلة « الرسالة » في طليعتها ، هي الميدان الذي كان فقيدنا يناضل على صفحاتها .

د — بعد استقرار الفقيد في القاهرة ، أخذ ينشر آراءه ودراساته نشراً منظماً ، كوّن أهم مؤلفاته القيمة .

النوع الثاني : – الكتب ، وفيما يلي ثبت بما عرفناه منها :

١ – « القراءة الخلدونية » (الألفباء) .

٢ – « مرشد القراءة الخلدونية » (طريقة تعليم الألفباء) .

٣ – « مساعد القراءة الخلدونية » .

٤ – « دروس الأشياء » ، في أربعة أجزاء .

٥ – « أصول التدريس » و « أصول تدريس اللغة العربية » ؛ كل بحث في جزء .

٦ – «رسائل إلى بول مونرو»، نظرات نقد لتقرير مونرو عن معارف العراق.

٧ – « الإحصاء » ، مجموعة محاضرات في كلية حقوق بغداد .

٨ – « آراء وأحاديث في التربية والتعليم » .

٩ – « آراء وأحاديث في الوطنية والقومية » ، وهذا الكتاب والذي قبله تضمنا مجموعة مختارة من المقالات والمحاضرات التي نشرها الفقيد في مختلف الصحف والمجلات ، وقد طبعا في القاهرة سنة ١٩٤٤ م .

١٠ – « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » نشرت أولاً في بيروت سنة ١٩٤٤، ثم أعيد طبعها منقحة مزيدة في القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

١١ – « يوم ميسلون » ، مذكرات الفقيد عن الأيام الأخيرة للدولة العربية السورية سنة ١٩٢٠ م . وقد طبع في بيروت أكثر من مرة .

١٢ – « تقارير » ، وتتضمن دراسة مستفيضة حول المعارف في سورية ، صدرت في جزأين طبعا في دمشق، الأول سنة ١٩٤٤ والثاني ١٩٤٥م.

١٣ – « صفحات من الماضي القريب » وقد طبع في بيروت سنة ١٩٤٨ م .

١٤ – « آراء وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة » طبع في القاهرة سنة ١٩٥١ م .

١٥ — « آراء وأحاديث في التربية والاجتماع » ، طبع في القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

١٦ — « آراء وأحاديث في القومية العربية » ، طبع في القاهرة سنة ١٩٥١ م وأعيد طبعه في بيروت للمرة الرابعة .

١٧ — « العروبة بين دعاتها ومعارضيها » ، طبع للمرة الأولى في بيروت سنة ١٩٥٢ م .

١٨ — « محاضرات في نشوء الفكرة القومية » ، طبع لأول مرة في القاهرة سنة ١٩٥١ م ، وأعيد طبعه في بيروت للمرة الخامسة .

١٩ — « العروبة أولاً » ، طبع للمرة الأولى في بيروت سنة ١٩٥٥ م . ثم أعيد طبعه فيها أيضاً للمرة الخامسة .

٢٠ — « دفاع عن العروبة » ، طبع للمرة الأولى في بيروت سنة ١٩٥٦ م . وقد أعيد طبعه فيها للمرة الثالثة سنة ١٩٦٨ م .

٢١ — « آراء وأحاديث في اللغة والأدب » طبع في بيروت سنة ١٩٥٨ م .

٢٢ — « المحاضرة الافتتاحية » في معهد الدراسات العربية العالية ، طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٢٣ — « البلاد العربية والدولة العثمانية » ، طبع للمرة الأولى في القاهرة سنة ١٩٥٧ م ، وأعيد طبعه للمرة الثالثة في بيروت طبعة مزيدة ومنقحة .

٢٤ — « حوليات الثقافة العربية » ، وهي مجموعة دراسات وإحصائيات عن الثقافة العربية في أرجاء الوطن العربي ، صدرت منها الأجزاء التالية :

١ — السنة الأولى : عن السنوات التي سبقت ١٩٤٩ — ١٩٥٠ وطبعت في القاهرة سنة ١٩٥٠ م .

٢ – السنة الثانيـــة : عن سنة ١٩٥٠ – ١٩٥١ ، وقد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

٣ – السنة الثالثة : عن سنة ١٩٥١ – ١٩٥٢ ، وقـــد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٤ – السنة الرابعة : عن سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣ ، وقـــد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

٥ – السنة الخامسة : فيها صلة ما انقطع حتى سنة ١٩٥٧ ، وقد طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

٢٥ – « **البلاد العربية منذ ظهور الإسلام** » ، خريطة زمنية طبعت في القاهرة سنة ١٩٥٤ م .

٢٦ – « **آراء وأحاديث في الوطنية والقومية** » ، وقد طبعته دار العلم للملايين في بيروت للمرة الخامسة سنة ١٩٦٦ م .

٢٧ – « **حول الوحدة الثقافية العربية** » ، وقد طبع في بيروت .

٢٨ – « **ماهي القومية** » ، وقد طبعته دار العلم للملايين في بيروت للمرة الثانية .

٢٩ – « **الاقليمية . . جذورها وبذورها** » ، وقد طبعته دار العلم للملايين في بيروت للمرة الثانية سنة ١٩٦٥ م .

٣٠ – « **حول القومية العربية** » ، وقد طبعته دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٦٧ م .

٣١ – « **ثقافتنا في جامعة الدول العربية** » ، وقد طبع في بيروت .

٣٢ – « **مذكراتي في العراق** » الجزء الأول وفيه حوادث سنة ١٩٢١ حتى ١٩٢٧ م ، وقد طبعته دار الطليعة في بيروت سنة ١٩٦٧ م .

٣٣ – « **مذكراتي في العراق** » الجزء الثاني وفيه حوادث سنة ١٩٢٧ حتى سنة ١٩٤١ م ، وقد طبعته دار الطليعة في بيروت سنة ١٩٦٨ م .

★ ★ ★

بين الفقيد وبيني

تربطني بالفقيد الكبير صلة ودّ وتقدير عظيمة ، تمتد جذورها إلى سنة ١٩٣٩م يوم كنت في بغداد أزوره مع إخوان لي من شباب العرب المتحمسين لعروبتهم . كان الفقيد وهو شيخ يمشي نحو الستين من عمره ، يستحوذ على كل تقديرنا واحترامنا ، لاندفاعه وحماسه في الدفاع عن القومية العربية ، حماسة لا تعدلها حماسة الشباب ولا اندفاعه . وتوثقت صلاتي بالفقيد عندما أقام في دمشق سنة ١٩٤٥ م ، ثم اشتدت بعد أن أقام في القاهرة وكثر ترددي عليها ، أزوره أو يزورني فأقضي معه ساعات أفيد فيها من عقله وخبرته وقوته في الدفاع من آرائه .

وعندما أخرجت مطابع دار العلم للملايين في بيروت ، كتاب « حول القومية العربية » لفقيدنا الكبير سنة ١٩٦١ م ، قمت بتعريف الكتاب بكلمة نشرتها مجلة المجمع العلمي العربي في الجزء الأول من المجلد السابع والثلاثين لسنة ١٩٦٢ م ، وقلت مستهلاً تعريفي بالكتاب : [هذا كتاب جديد تصدره المطبعة العربية للعلامة ساطع الحصري ، إنه الحلقة الثامنة من السلسلة القومية ، سلسلة الكتب التي نشرها الأستاذ الحصري على الناس ، يحدثهم فيها حديث العلم الواثق بعلمه ، وحديث المؤمن القوي الإيمان بما يعتقده ، يحدثهم فيها عن القومية بمفهومها العام ، وعن القومية العربية بصورة خاصة] .

وكان من نقدي للكتاب نقد التعريف الذي أورده الأستاذ الحصري بأن : « العربي من تكلم بالعربية » ، وقد قلت في ذلك : [.. لا بد لنا إذن من إضافة عنصر الإرادة إلى هذا التعريف الناقص حتى يتم بقولنا :

« العربي من تكلم بالعربية وأراد أن يكون عربياً (١) » ومن المعلوم أن الشعور والإرادة هما العامل الثاني الأساسي في قيام جميع القوميات] .

وأدّى تقدي هذا إلى ردّ وتوضيح كتبه الأستاذ الحصري ، ثم إلى تعقيب مني على ردّه ؛ وقد نشرا في الجزء الثاني من المجلد المذكور من مجلة مجمع دمشق .

على أن ما دار بيني وبين الفقيد الكبير من جدال حول تعريف العربي ، وما كان يدور بيننا أحياناً من مناقشات حول القومية عامة ومدى علاقتها بالإسلام خاصة ، ما كان ليفسد ما بيننا من ودّ صاف وتقدير عظيم ، صورته في كلمتي التي أشرت إليها آنفاً قائلاً فيها : [إن الأستاذ الحصري يضفي على كل ما يكتبه فيضاً من إيمانه بالقومية العربية واعتزازه بها ، فيزيد المؤمن إيماناً والمعتز اعتزازاً ، وهو يفرض على قارئه الاحترام ، ولو كان له رأي يخالف رأيه ، أو كان يحتفظ لنفسه بقيود على بعض نظرياته ، وذلك لأن من يكتب عن عقيدة راسخة وإيمان لم يعتوره شك ، يوم كان المؤمنون قلة ، وظلام المستقبل يكتنفهم ، جدير بالاحترام] .



من أصداء موت الحصري

مات ساطع الحصري ، بعد حياة مديدة قاربت التسعين من السنين عدداً ، وكانت حافلة بالحركة الدائمة والنشاط الجم والأفكار القيمة العميقة ، وأحدث موته صدى أليماً في أرجاء الوطن العربي ، وحزناً لدى المفكرين عامة ، ولدى دعاة القومية العربية منهم بصورة خاصة ، وكان من أهم الأصداء الدالة على مكانة الفقيد في العالم العربي إعلان (اتحاد الصحفيين العرب) عن إقامة جائزة

(١) واضع هذا التعريف هو الأمير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي العربي الراحل . انظر كتابه عن « الاستعمار » ج ١ ص ١٣ القاهرة ١٩٦٥ م .

دروية يطلق عليها اسم (**جائزة ساطع الحصري السنوية**) ، وقد أعلن عن تخصيص ثلاث جوائز لسنة ١٩٦٩ م ، ذات قيمة مالية كبيرة تدفع لأحسن ثلاثة بحوث تقدم في أحد الموضوعات التالية :

١ ــ أثر القضية الفلسطينية في حركة الوحدة العربية .

٢ ــ التكامل الاقتصادي العربي .

٣ ــ موقف ساطع الحصري من النظم التربوية الحديثة .

★ ★ ★

رحم الله ساطعاً رحمة واسعة وغفر له وأنزله منازل الأبرار من عباده المؤمنين .

عدنان الخطيب



نظرة عيان وتبيان

في مقالة

(أسماء أعضاء الإنسان)

أضاف إليها ما يقابل الأسماء بالفرنسية والانكليزية مع شرح موجز

الدكتور صلاح الدين الكواكبي

— ٧ —

٢٠٥) الجَنْب

ف Plèvre (f.)

ز Pleura

في الأصل · — الجنب ، مجتمع الأضلاع وأسفل الضلوع .

في (ق)· — الجنب والجانب والجنبة شِقّ الإنسان وغيره والجَنْب مُعظم الشيء وأكثره .

قلت : في الطب يغلب استعماله مع الغشاء .

في (ل) ولاروس ذي المجلدين · — الجنب ، كيسٌ لا فتحة له من غشاء مصلي ، يُغطّي الزَّور ويُغلّف الرئتين اليمنى واليسرى .

ما أضفته :

١ً — غشاء جنب رقبي

ف Plèvre cervicale

ز Cervical pleura

٢ً — غشاء جنب ضلعي

ف Plèvre costale

ز Costal pleura

٣ً — غشاء جنب حجابي

ف Plèvre diaphragmatique
ز Diaphragmatic pleura

٤ً — غشاء جنب مَنْصِفي

ف Plèvre mediastinale
ز Mediastinal pleura

٥ً — جنبي

ف ، ز Pleural

٦ً — ذات الجنب

ف Pleurésie
ز Pleurisy

٧ً — ذات الجنب (= بِرْسام)

ف Pleurite
ز Pleuritis

٨ً — ُجناب

ف Pleurodynie
ز Pleurodynia ; pleuralgia

★ ★ ★

٢٠٦) الخَلْف = القُصَيْرى

ف Côte flottante
ز Floating rib

في الأصل . — ومما يلي البطن يقال له الخلف وهي أيضاً القصوى . (الخلف ما قصر من أضلاع الجنب ودقّ . شرح المحقق) .

في (ق) . — الخَلْف نقيض القُدّام ؛ وأقصر أضلاع الجنب . ج خُلُوف ؛ والظهر وما ولي البطن من صغار الأضلاع ؛ وحلمة ضرع الناقة . . . الخ .

والقُصْوى ، والقُصْيا في (ق) أيضاً : الغاية البعيدة .

ملاحظتي . — على اعتبار (القصوى) الغاية البعيدة ؛ فالمذكورة في الأصل مرادفةٌ للخَلْف تكون صفة لمحذوف هو (الضلع) (أي الضلع القصوى) . وفي رأيي انها ـ وإن صحّت مرادفةً ـ مصحّفةٌ عن (القُصَيْرَى : وهي أسفل الأضلاع وآخر ضلع في الجنب) . فيصح تخصيص (القصيرى) للضلع الثانية عشرة من أضلاع الهيكل البشري : لأقصى الأضلاع وهي أقصرها أيضاً . ولذا وضعتها مصححةً في (الرقم ٢٠٦) .

★ ★ ★

٢٠٧) الخاصِرة

ف Flanc (m.); côté

ز Flank ; side

في الأصل . — والخاصرة عند ذلك (قلت : أي عند أسفل الضلوع كما يتبين من سياق الجملة التي قبلها) .

في (ق) . — الخَصْر ، وسَط الإنسان ، وأخمص القدَم ؛ والخاصِرة ، الشاكلة وما بين الحرقفة والقُصَيْرَى .

قلت : أما الشاكلة فهي من الفرَس الجلد بين عُرض الخاصرة والثَّفِنة (هي من البعير الركبة ؛ ومن الإنسان مجتمع الساق والفخذ ؛ ومن الخيل موصل الفخذين في الساقين من باطن) .

وأما القصيرى فهي أسفل الأضلاع وآخر ضلع في الجنب .

في (ل) . — الخاصرة قسم البدن ، من الأضلاع حتى الوركين ؛ وعلى التوسع جانب الجسم .

★ ★ ★

٢٠٨) الصِّفاق

ف Péritoine (m.)
ز Peritoneum

في الأصل . — جليدة البطن التي تلي الجلدة الظاهرة (= ما بين الجلد والمصران) .

في (ق) . — الصفاق ككتاب ، الجلد الأسفل تحت الجلد الذي عليه الشعر ، أو ما بين الجلد والمصران ، أو جلد البطن كله .

في (ل) ولاروس ذي الجلدين . — غشاء مصلي كاسٍ أعضاء البطن داخلاً ، منلفٌ وحافظٌ جميع الأعضاء الموجودة في هذا الجوف .

ما أضفته :

١ً — صفاق جداري

ف Péritoine pariétal
ز Parietal peritoneum

٢ً — صفاق حَشَوى

ف Péritoine viscéral
ز Visceral peritoneum

٣ً — صفاقي

ف ، ز Péritonéal

٤ً — التهاب الصفاق

ف Péritonite
ز Peritonitis

★ ★ ★

٢٠٩) الحَشْوة = الحَشَى والحشا (*)

ف Viscère (m.); entraille (f.)
ز Viscera ; entrail ; bowels

(*) واوي ويائي .

في الأصل · — في البطن ، مما ضمت عليه الضلوع .

في (ق) · - الحَشَا ما في البطن ج أحشاء . والحَشَى ما دون الحجاب مما في البطن من كبد وطحال وكرش وما تبعه ؛ أو ما بين ضلع الخَلْف التي في آخر الجنب إلى الورك ، أو ظاهر البطن والحِضْن ؛ وحشوة الأرض بالضم والكسر حشوها ودغَلُها .

في متن اللغة · — الحشوة بالضم والفتح ، من الشاة : جوفها وأمعاؤها ، أو جميع ما في بطنها عدا الشحم ؛ وفي الأرض حشوها ودغَلُها (على المجاز) .

في (ل) · - الكلمة الأولى (Viscère) تطلق على كل من الأعضاء التي توجد في أجواف الجسم كالدماغ والرئتين ، والقلب الخ .

والكلمة الثانية (Entrailles) تُطلق على الأمعاء وهي الرَّبَض .

قلت : الكلمتان مترادفتان في الطب ، يراد بها الأحشاء عامةً .

ما أضفته :

١ً — ألم الأحشاء

ف	Viscéralgie
ز	Visceralgia ; neuralgia of visceral nerves

٢ً — مبحث الأحشاء

ف	Splanchnologie
ز	Splanchnology

٣ً — هبوط الأحشاء

ف	Viscéroptose ; splanchnoptose
ز	Visceroptosis

٤ً — حشوي

ف	Viscéral ; splanchnique
ز	Visceral ; splanchnic

★ ★ ★

٢١٠) الحِجَاب

ف Diaphragme (m.)

ز Diaphragm ; midriff ; phren ; diaphragma

قلت : و (الحاجز) كذلك . وقد يقال الحجاب الحاجزُ صفةً للأولى .

في الأصل . — الحجاب من الحشا ، جُلَيْدَةٌ لحمٍ يحجز بين الصدر والبطن.

في (ق) . — حجبَه حَجْباً وحِجاباً ستره كحجَّبه . والحاجب البواب. والحجاب ما احتُجِب به . ج حُجُب ، ولحمة رقيقة مستبطنة بين الجنبين تحول بين السَّحر (أي الرئة) والقَصَب .

في (ل) . — عضلة عريضة جداً ورقيقة تفصل الصدر عن البطن . بتقبضها يزداد حجم القفص الصدري وبالتالي الشهيق .

ما أضفته (أقسامه) :

١ — حُزَم ضلعية

ف Faisceaux costaux

ز Pars costalis

٢ — حُزَم قَصِّيَّة

ف Faisceaux stérnaux

ز Pars sternalis

٣ — حُزَم قطنية

ف Faisceaux lombaires

ز Pars lumbaris

٤ — فُوَّهة المريء

ف Orifice œsophagien

ز Foramen œsophagicum

٥ — فوهة الوتين

ف Orifice aortique

ز Aortic opening

٦ — فوّهة الوريد الأجوف السفلي

ف Orifice de la veine cave inferieure

ز Foramen venae cave

٧ — مركز حجابي

ف Centre phrénique

ز Central tendon

★ ★ ★

٢١١) الفؤاد = القلب

ف Cœur (m.)

ز Heart

في الأصل . — الفؤاد ، القلب .

في (ق) . — الفؤاد القلب أو أخص منه .

في متن اللغة . — القلب الفؤاد أو المضغة منه المعلّقة بالنياط ، أو العلقة السوداء في جوفه . ج قلوب .

والفؤاد : القلب لتفؤّده وتوقده أو لحركته ونبضه (مذكر) أو هو وسط القلب أو غشاؤه أو وعاؤه أو داخله أو ما يتعلق بالمريء من كبد ورئة وقلب فيكون أعم من القلب ج أفئدة .

في (ل) . — القلب عضو زَوْري مجفور [1] وعضلي بيضوي الشكل وهو عضو رأس للدورة الدموية . يغلّف هذا العضو ، التأمور [2] . ويتألف أساساً من عضلة هي عضلة القلب [3] . أما باطنه فمؤلف من الشغاف

أي بطانة القلب (٤) . في هذا العضو أربعة أجواف : أُذَيْنة (٥) وبُطين أيمن (= القلب الأيمن) ، وأُذينة وبطين أيسر (= القلب الأيسر) . الأذينة والبطين الأيمن يتصلان بصُفَيق (٧) - أي مصراع [ثلاثي الشُرَف (٨) من الأيمن ، وإكليلي (٩) من الأيسر] لا يسمح بمرور الدم إلا من الأذينة نحو البطين الأيمن . والدم يصل بالأوردة الجوفاء إلى الأذينة اليمنى ، ويمر إلى البطين الأيمن الذى يدفعه إلى الرئة حيث يتخلص من غاز حمض الفحم وحيث يتشحن بالاكسجين ، ثم يعود بعد ذلك إلى الأُذينة اليسرى ويمر إلى البطين الأيسر وأخيراً يوزّع على أعضاء البدن كافةً ماراً بالوتين (١٠) . أما عضلة القلب نفسها فتروّى من الدم بالشرايين والأوردة التاجية (١١) التي تأتي إلى العضلة القلبية بالدم اللازم لعملها (للقيام بوظيفتها) . وهنالك جملة عصبية مستقلة (١٢) تعمل على تنظيم تقلصات القلب . والجملة العصبية المستقلة هذه هي نفسها تراقبها ضفيرة (١٣) قلبية مؤلفة من تشعبات (١٤) الودي (١٥) ونظير الودي (رئوي معدي) اللذين ينقلان إليها التنبهات الواردة من الناظم القلبي (١٦) الموجود في البصلة السيسائية (١٧) اهـ .

وإليك ما يقابل الأرقام ، باللغتين الفرنسية والانكليزية :

١) Creux [hole , hollow , pit]
٢) Péricarde [pericardium]
٣) Myocarde [heart muscle]
٤) Endocarde [endocardium]
٥) Oreillette [oricle of the heart]
٦) Ventricule du cœur [ventricle of the heart]
٧) Valvule [valve]
٨) Tricuspide [tricuspide]
٩) Mitral [mitral]
١٠) Aorte [aorta]
١١) *Coronaire [coronary , coronal]*

١٢) Autonome [autononous]
١٣) Plexus [plexus ; network]
١٤) Ramifications [ramifications]
١٥) Sympathique , parasympathique [Sympathetic , parasympathetic]
١٦) Cardiorégulateur [cardioregulator]
١٧) Buble rachidien [spinal or rachidian bulb]

أم ما أضفته عن القلب :

١ — قلب جَنيني

ف Cœur fœtal
ز Primitive heart ; fœtal heart

ملاحظة . — أقسام هذا القلب الجنيني نسيجياً سبعة ، ذكرتهـــا في الاستدراك ـ الجنين) فليرجع إليها المستزيد .

٢ — قلب متحرِّك

ف Cœur mobile
ز Wandering heart

٣ — قلب متشحِّم (أو شَحِيم)

ف Cœur gras
ز Fatty heart

٤ — قلب مسترخٍ

ف Cœur en goutte
ز Pendulous heart ; drop - herat

٥ — قلبي ، مقوي القلب

ف ، ز Cordial

٦ — قلبي عِرْقي

ف Cardio - vasculaire
ز Cardiovascular

٧ — قلبيات

ف Cordiaux

ز Tonics ; cordials ; restoratives

٨ — قُلاب (مرض قلبي)

ف Cardiopathie

ز Cardiopathy

٩ — قلوبي (متخصص بأمراض القلب)

ف Cardiologiste ; cardiologue

ز Cardiologist

١٠ — مبحث أمراض القلب

ف Cardiologie

ز Cardiology

١١ — مقلوب (مصاب بقلبه)

ف Cardiaque

ز Cardiac

١٢ — تخطيط القلب الكهرباوي

ف Électrocardiographie

ز Electrocardiography

١٣ — مُخطَّط القلب ، الكهرباوي

ف Électrocardiogramme ; E C G

ز Electrocardiogram

أقسامه :

آ — صفحة ابتدائية للمشترك البُطيني

ف Phase initiale (Q R S) du complexe ventriculaire (E C G)

ز Initial deflection of the ventricular complex (Q R S) ; Q R S - group of ecg

ب — صفحة انتهائية للمشترك البُطيني

ف Phase terminale (T) du complexe ventriculaire (E C G)

ز Terminal deflection of the ventricular complex (T) (ecg); Q R S T · group of ecg

ج) مشترَك أذيني ؛ قفزة ـ پ

ف Complexe auriculaire; ressaut P (E C G)

ز Auricular comlex; deflection P (ecg)

د — مشترَك بُطيني

ف Comlexe ventriculaire (E C G); Complex Q R S T

ز Ventricular complex ecg; Q R S T — group of ecg

(يرادفه : مخطّط بطيني

(Ventriculogramme [ventriculogarm]

هـ — القسم البدائي للمشترَك البطيني

ف Partie initiale du complexe ventriculaire; Complexe Q R S (E C G)

ز First position wave of the ventricular complex; Q R S — group of ecg

(يرادفه : مشترك بدائي

(Complexe initiale [initial complex (ecg)]

١٤ — مقوٍ للقلب

ف Cardio · tonique; tonicardiaque

ز Cardiac Stimulant; cardiotonic; cardiac tonic

★ ★ ★

٢١٢) الخِلْب

ف ، ز . . . .

في الأصل . — الخِلْب ، غشاء القلب .

في (ق) . — الخِلب ، الظُّفْر . . . ولُحَيمة رقيقة تصل بين الأضلاع والكبد ، أو زيادتها ، أو حجابها ، أو شيء أبيض رقيق لازق بها ... الخ .

في معجم المتن . — الخلب ، الظُّفر عامّةً ؛ حجاب القلب والكبد ، أو لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع ، أو الكبد ، أو زيادتها ، أو شيء أبيض رقيق لازق بها ؛ أو عُظَيم مثل ظفر الإنسان لاصق بالحجاب مما يلي الكبد ، أو حجاب القلب ، أو حجاب ما بين القلب وسواد البطن . . . . والخِلْب ، الفُجْل ، وورق الكرم العريض .

قلت : وفق التعريف في أصل المقالة ، هل هو التأمور (Péricarde) ؟ ؛ ووفق التعريف في (ق) و (المتن) هل هو ما كان يطلق عليه (Péritoine ؟) ؛ أم هل هو الوَرْب (Intercostal) أي الفضاء ما بين ضلعين ؟ ولولا ذكر المؤلف للخلب في مقالته لأسماء أعضاء الإنسان ، لزدتُ أم هل هو الفِجْل (Radis) أم ورق الكرم (Feuilles de vigne) ؟ !

★ ★ ★

٢١٣) النِّياط

ف Aorte (f.)

ز Aorta

في الأصل . — نياط القلب عرقه الذي يعلق به (= العرق المعلق به القلب ، حسب شرح المحقق) .

في (ق) . — ناطه نَوْطاً علّقه . والأنواط المعاليق . والنياط ككتاب الفؤاد ، ومعلَّق كل شيء ، أو عرق غليظ نيط به القلب إلى الوتين ج أنْوِطة

وأنواط ونُوط بالضم . وعرقٌ مستبطنٌ الصلب تحت المتن كالنائط ، أو النائط يمتد في الصلب .

في متن اللغة . — النياط ، الفؤاد . وعرق متصل بالقلب من الوتين إذا قُطع مات صاحبه . أو عرقٌ مستبطن الصلب تحت المتن ، وهو العرق النائط . والنَّيِّط العرق المعلَّق به القلب ج نياط .

ملاحظتي . — لم آتين على التأكيد ما يُقصد من عرق القلب الذي يعلق به (والمعلّق به القلب حسب شرح المحقق) . ثم إن النياط في (الرقم ٢١٣) جمعٌ والشرح مفرد . وفي (ق) مفرد والجمع أنْوِطة وأنواط ونوط . وإن ما يعلق به القلب من العروق عديدة فلأي منهنّ يُخصَّص النيـاط ؟ فبحسب التشريح الوصفي للقلب في اليوم الحاضر أرى أن هذا العرق الغليظ الذي نيط به القلب ـ كما في (ق) وفي متن اللغة ـ (هو الوَتين) وشُعَبه .

وهذا ما جعلني أضع مقابلاً له الكلمتين الافرنجيتين في (الرقم ٢١٣) .

أمّ ما أضفته عن أقسام الوتين :

١ — وتين صاعد

ف Aorte ascendante
ز Ascending aorta

٢ — وتين نازل

ف Aorte descendante
ز Descending aorta

٣ — قَوْس الوتين

ف Crosse de l'aorte
ز Arch of the aorta

وأمّ ما أضفته عن شعب الوتين :

آ) السباتي الأيسر

ف Carotide gauche
ز Left carotid

ب) شريان تحت الترقوة

ف Artère sous - clavière
ز Subclavian artery

ج) شريان رئوي

ف Artère pulmonaire
ز Pulmonary artery

د) جِذْع عَضُدي رأسي

ف Tronc brachio - cephalique
ز Brachiocephalic artery ; innominate artery

وعلى وجه عام أضفت :

١ — التهاب الوتين

ف Aortite
ز Aortitis

٢ — رسم الوتين الشعاعي

ف Aortographie
ز Aortography

٣ — وتيني

ف Aortique
ز Aortic

★ ★ ★

٢١٤) حبّة القلب

ب ، ز .....

في الأصل . — سويداء وهي عَلَقة في جوفه (!) . ويقال الكبد والرئة والفؤاد ، وسواد البطن .

في (ق) . — ... وحبة القلب ، سويداؤه أو مهجته أو ثمرته أو هنة سوداء فيه . والعَلَق ، الدم عامةً أو الشديد الحمرة أو الغليظ أو الجامد ؛ والقطعة منه عَلَقة .

في معجم المتن . — حبة القلب ، وسطه ، سويداؤه ، وهي هنة سوداء فيه ، أو العلقة السوداء داخله ؛ ثمرته ومهجته .

ملاحظتي . — أيّة علقةٍ هي في جوف القلب ؟ هل هي قطعة لحمية ثابتة في تكوينه ، أم خُثارةُ دمٍ جامد فيه (كما في ق) ؟ أم ان الحبّة محض وصف عاطفي (؟) لثمرته أو مهجته (؟) . وفي ظني أن أكثر هذه الأوصاف يذكرها من شاهد قلباً نُزع من حيوان مذبوح أو ميتٍ فرأى فيه (علقة سوداء ، أو هنة سوداء) . ولا شك أنها خثارة دم من عروق القلب الخاصة أو مما تخثر من الدم في جوف القلب إثر الذبح أو الموت . أو ـ وهو الأغلب في الاحتمال ـ لعل هذه الهنة (لا العلقة) هي مصاريع القلب إذا نُظر إلى القلب مقطوعاً أو مشرَّحاً .

ومن الثابت اليوم أن أية علقة دموية أو خثارة مهما دقّت قد تسبب انسداداً لأحد الأوعية ، خطراً على الحياة سمي (حُشاء أو سُداد Infarctus) .

لهذا لا يصح بوجه من الوجوه أن يُقبل وجود علقة في القلب بمعنى الخثارة الدموية ، في حال الحياة ، فيجب أن يطوى ذكرها في معجم عربي حديث .

★ ★ ★

(يتبع) الدكتور صلاح الدين الكواكبي



صفحات من تاريخ الاستشراق

- ٥ -

النظرة الجديدة إلى الاسلام في القرن الثامن عشر :

إن النزعة العقلية التي تميزت بها « حركة النور » في القرن الثامن عشر كان لها تأثير كبير في تغيير نظرة الأوربيين إلى الشرق عامة . فقد كانت هذه الحركة ترمي ، قبل كل شيء ، إلى التحرر من سيطرة الكنيسة ومن القيود التي فرضتها على الحياة الفكرية . وكانت الجماهير قد عرفت الشيء الكثير عن البلاد الشرقية بفضل كتب الرحلات الحقيقية أو الخيالية التي شاعت في هذا العصر . وكان الإعجاب عظيماً بحضارة الصين خاصة . فأخذ الكتاب ينوهون بديانة (كونفوشيوس) وما امتازت به من حكمة وتسامح ويستندون إلى ذلك في مهاجمة تعصب رجال الدين المسيحي . ثم اتسع نطاق الاهتمام فشمل الهند وفارس والشرق الإسلامي كله .

وقـــد تبدلت النظرة إلى الرسول ﷺ ، فنرى الفيلسوف (لايبنيز Leibniz) يعتبره مبشراً بالديانة الفطرية . ولعل أبرز ممثل للاتجاه الجديد هو الكونت (هنري دوبولنفيه Henry de Boulainvilliers) (١٦٥٨ — ١٧٢٢) الذي مات قبل أن يتم كتابه عن (حياة محمد)[١] فنشر بعده في لندن سنة ١٧٣٠ وأعيد طبعه في آمستردام سنة ١٩٣١ .

---

(١) Le Comte Henry de Boulainvilliers : La vie de Mohamet, avec des réflections sur la religion Mahomerane et les coutumes de Musulmans. London 1730; 2ed. Amsterdam 1931.

يصرح (بولنفيه) بأنه يريد إثبات تفوق الإسلام على المسيحية. وهو قد وصف الرسول ﷺ بأنه مشرع حكيم، متنور، قاد شعبه إلى الحضارة وجاء بديانة «عقلية» لتحل مكان العقائد اليهودية والمسيحية المشبوهة. ثم إنه يهاجم الذين يشكّون في صدق الرسول ﷺ ويبين أن كل ما قاله محمد ﷺ عن تعاليم الدين الأساسية صحيح ولو أنه لم يكشف عن كل الحقائق.

لكن لا بد من الملاحظة أن (بولنفيه) لم يكن يعرف العربية وأن كتابه لم يأت بمعلومات جديدة. فهو قد جمع مادته من المؤلفات الأوروبية وأراد أن يستخدم الموضوع لمكافحة سيطرة الكنيسة.

ولقد لخص ناشر الكتاب رأي المعاصرين فيه بالعبارة التالية ضمن رسالة بعث بها إلى المستشرق الفرنسي (جان غانيه Jean Gagnier)، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة (اوكسفورد)، قال: «إن (بولنفيه) يمزج تاريخه بكثير من التأملات السياسية التي تعجب القراء لما فيها من طرافة وجرأة».

جان غانيه:

على أن المستشرق (غانيه) رأى في هذه التأملات الطريفة والجريئة خطراً كبيراً وشعر بأن من واجبه التحذير من كل تطرف والدعوة إلى اتباع الطريق الوسط بين ضلال المتعصبين وحماسة المتهوسين. وكان قد سبق لغانيه أن نشر القسم المتعلق بسيرة الرسول من تاريخ (أبي الفداء) باللغة العربية مع الترجمة اللاتينية في سنة (١٧٢٣) فقام بعد صدور كتاب (بولنفيه) وألف في سنة (١٧٣٢) كتابه عن «حياة محمد» باللغة الفرنسية.

يتبين من مقدمة هذا الكتاب أن (غانيه) ليس صادقاً في ادعائه الحياد . فهو لا يقتصر على مهاجمة كتاب (بولنفيه) ، الذي يزعم بأنه يستحق الحرق بل يطعن في الرسول أيضاً . وعلى الرغم من أن (غانيه) قد استند إلى القرآن والحديث وروايات المؤلفين المسلمين في وصف حياة الرسول ﷺ وشخصيته وأعماله وحاول أن ينقل النصوص بأمانة فان التحزب واضح في اختيار الشواهد وفي طريقة عرضها .

(سيل) و (سافاري) :

إننا نلمس الرغبة في الإنصاف وحب الحقيقة عند مستشرقين آخرين برزا في ذلك العهد وقاما بترجمة القرآن من جديد :

الأول هو المستشرق الانكليزي (جورج سيل George Sale) (١٦٩٧ — ١٧٣٦) الذي مهد لترجمة القرآن [١] بمقدمة ضافية بحث فيها عن العرب قبل الإسلام وعن حالة اليهودية والمسيحية في الشرق عند ظهور الرسول ﷺ وعن القرآن وتعاليمه ثم نفى عن الرسول المطاعن التي اعتاد الكتاب المسيحيون تكرارها وقارن بين محمد ﷺ والمشرعين اليونانيين .

أما المستشرق الثاني الفرنسي (قلود أتيان سافاري Claude Etienne Savary) فقد كتب في مقدمة ترجمته للقرآن [١] يصف الرسول ﷺ بأنه أحد أولئك الرجال العظام الذين يظهرون من وقت إلى آخر فيقلبون أوضاع العالم ويقودون البشر في طريق التقدم والنصر . ثم يقول : « ونحن إذا أمعنا النظر في سيرة محمد ﷺ لا بد أن نشعر بالاعجاب تجاه المعجزات التي تستطيع العبقرية البشرية تحقيقها إذا ما ساعدتها الظروف . فالرسول محمد ، على الرغم من

(١) George Sale, The Koran. London 1734 .

(٢) Claude Etienne Savary, Le Coran : Paris 1752 (2ed. 1783).

أنه ولد بين عبدة الأصنام ، قد استطاع أن يسمو إلى عبادة الإلـه الواحد . وهو قد لاحظ في رحلاته كيف كان المسيحيون يتنازعون وتلعن كل طائفة منهم الأخرى وكيف أن اليهود الذين هم حثالة الشعوب لا يتزحزحون عن تقاليدهم البالية . وعلى العكس من المسيحيين واليهود أسس محمد ديانة عالية تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلا ما يقره العقل من إيمان بالإلـه الواحد الذي يكافئ الفضيلة ويعاقب الرذيلة . . . »

وبعد أن ينوه (سافاري) بعبقرية الرسول السياسية والعسكرية وبقدرته في السيطرة على البشر يصرح بأن الغربي المتنور ، وإن لم يعترف بنبوءته ، لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ .

إن المباحث العديدة عن حياة الرسول ﷺ وشخصيته التي ظهرت في القرن الثامن عشر كانت خاضعة للنزعات السياسية والاتجاهات الفكرية ، إنها كانت تهدف إلى الدفاع عن مبدأ معين أو فكرة سابقة ، لذلك كان الاختلاف شديداً والتناقض ظاهراً بينها . وهي بالإجمال كان محكوماً عليها بأن تبقى عقيمة لا تؤدي إلى كشف حقائق جديدة أو إلى تقدم المعرفة . هكذا نرى (فولتير) يمثل لنا هذا الاضطراب إذ اختار شخصية الرسول موضوعاً لرواية تمثيلية (١) هاجمه فيها على أنه رمز للتعصب الديني ثم عاد في كتابه عن « الأخلاق والعادات » (٢) يلتزم الاعتدال في الكلام على الرسول ويعترف بنبوغه وعظمته .

(قارلايل) :

وقد ظل الرأي السائد بين الأوروبيين عن الرسول ﷺ غامضاً وأقرب إلى المعارضة والعداوة ، وقبل كل شيء ، بعيداً عن التحقيق التاريخي حتى

(١) Voltaire : Le Fanatisme ou Mahomet, le Prophète, Paris 1741.

(٢) Voltaire. Essai sur les moeurs. Paris 1756.

منتصف القرن التاسع عشر إذ قام ، من جهة (قارلايل) يدعو إلى الإنصاف ومن جهة ثانية ، بدأ غيره من المستشرقين يرجعون إلى المصادر العربية القديمة ويتبعون طرائق النقد التاريخي في دراستها .

في يوم الجمعة ، الثامن من آذار سنة ١٨٤٠ ألقى المستشرق الانكليزي (توماس قارلايل Thomas Garlyle) (١٧٩٥ — ١٨٨١) المحاضرة الثانية من سلسلة محاضراته التي جمعها من بعد في كتابه المشهور « الأبطال وعبادة الأبطال »[1] وكان موضوعها : (الرسول محمد) . قال (قارلايل) :

« لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب وأن محمداً خداع مزور . وقد آن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة ، المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا . أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً . فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول فما الناس إذن إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لا تخلق . » [تعريب : محمد السباعي]

ثم حلل (قارلايل) شخصية الرسول وكشف عن نواحي عبقريته التي تتجلى فيها أسمى معاني الوحي وانتهى إلى أن محمداً ﷺ كان مخلصاً في دعوته ، صادقاً في عقيدته مثل غيره من العظماء المؤمنين .

(١) Thomas Carlyle : On Heroes, Hero - Worship and the Heroic in History. London 1849

وكان (قارلايل) من الكتاب الانكليز البارزين يمتاز بأسلوب رائع ، فاستطاع أن يترك أثراً عميقاً في الرأي العام الاوروبي . إلا أن محاضرته عن الرسول لم تكن بطبيعة الحال ، تتضمن شيئاً من البحث في المصادر التاريخية ومناقشة الروايات ...

(وايل) والبحث التاريخي الانتقادي :

لذلك كان المستشرق الألماني (كوستاف وايل Gustav Weil) (١٨٠٨ — ١٨٨٩) ، حينما نشر كتاب « محمد الرسول ، حياته وتعاليمه »[١] على حق في قوله بأن كتابه هذا هو أول دراسة ذاتية مستقاة من المصادر العربية منذ كتاب (غانيه) الذي انقضى عليه أكثر من قرن ، عدا أن (غانيه) قد اقتصر على نقل بعض الأخبار عن (ابن العبري) و (أبي الفداء) دون أي نقد تاريخي . وهذان المؤلفان من الكتاب المتأخرين الذين لا يمكن الوثوق بهم .

إن (وايل) أيضاً يريد الاعتماد على المصادر العربية ، ولكنه يعتقد ، من جهة بضرورة الرجوع إلى جميع المصادر الممكن الحصول عليها ولا سيما المصادر القديمة ، ثم يطالب من جهة ثانية ، بإخضاع هذه المصادر إلى النقد التاريخي ومقارنتها وتمييز الروايات الصحيحة من المدسوسة أو المزورة أو المحرفة . ويمكن القول بأن (وايل) قد افتتح مرحلة جديدة في دراسة سيرة الرسول ﷺ . فهو أول مستشرق بحث بطريقة انتقادية في الروايات المتناقلة عن الرسول وحاول أن يميز الأخبار القديمة التي تستحق التصديق من الأساطير المتأخرة التي ليس هناك من دليل على صحتها . وهو لم يكتف

(١) Gustav Weil, Mohammed der Prophet, sein Leben und seine Lehre, 1843.

بالمصادر المعروفة قبله ، بل بحث في المكتبات عن مختلف المخطوطات المتعلقة بالسيرة واختار منها كتاب « إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون » المعروفة « بالسيرة الحلبية » تأليف (برهان الدين علي بن ابراهيم الحلبي) ، ثم تاريخ « الخميس » (الحسين بن محمد بن الحسن الدياربكري) . والمؤلفان من رجال القرن السادس عشر ، ولكنهما قد نقلا حرفياً كل ما عثرا عليه في الكتب القديمة منذ القرن الثاني للهجرة حتى عصرهما . وبعد ذلك أرسل إليه الأستاذ (أيوالد Ewald) ، المستشرق الألماني ، مخطوطة هامة جداً هي (سيرة ابن هشام) التي قام (وايل) في سنة ١٨٦٤ بترجمتها إلى الألمانية بعد أن تولى (وستنفلد Wuestenfeld) تحقيق النص العـــربي ونشره . ثم أقدم (وايل) على دراسة القرآن بمساعدة تفسير الجلالين وحاول ترتيب الآيات حسب تعاقبها الزمني ليستعين بها في متابعة حياة الرسول . وبعد ذلك سعى إلى دراسة شخصية محمد الإنسان والنبي والشرع بصورة موضوعية دون أي تحزب ديني .

وكان طبيعياً أن يراجع (وايل) كل المؤلفات الأوروبية عن حياة الرسول . وقد درس أيضاً بحوث (جايجر Geiger) و (جيروك Gerock) عن علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية .

والنتيجة التي انتهى إليهـــا (وايل) من دراسته تتلخص في قوله : « بالنظر إلى ما قام به محمد من نشر أسمى التعاليم الواردة في الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) بين شعب لم يصل إليه أي شعاع من نور الإيمان ، يجب على غير المسلمين أيضاً أن يعتبروه رسول الله . »

منذ نشر كتاب (وايل) تقدمت دراسات المستشرقين خطوات عظيمة وكشفت عن كثير من الحقائق الجديدة . ولكن لا ينكر أن لهـــذا العالم

فضل السبق إلى البحث العلمي الدقيق . والأحكام التي وصل إليها العلماء بعده لا تختلف بالإجمال كثيراً عن رأيه ...

(دو برسفال) :

هكذا نرى المستشرق الفرنسي (قوسان دوبرسفال Coussin de Perceval) يصدر ، بعد بضع سنوات ، حكماً مماثلاً في كتابه عن « تاريخ العرب »[١] ، الذي خصص الجزء الثالث منه لوصف حياة الرسول . ويتلخص رأيه في « أن محمداً (ﷺ) كان صادقاً ، مخلصاً ، مؤمناً بأنه مرسل لإنقاذ أمته من الضلال وبعثها إلى الحياة .. » وهو قد اقتصر على استعراض ما ورد في المصادر العربية دون تحليل ونقد . ولكنه كان يمتاز على المستشرقين السابقين بمعرفته العميقة للغة العربية وباطلاعه الواسع على أخبار العرب ، كما إنه استخدم مصادر جديدة لم تكن معروفة قبله . بذلك أصبح كتابه مرجعاً هاماً يستقي منه الباحثون . وإليه خاصة استند (رينان Renan) في دراساته عن الإسلام ومقارناته بين مختلف الأديان . وهو يصف الإسلام بأنه « ديانة طبيعية ، فطرية ، جدية ، متسامحة ، معقولة ... »

تطور الطريقة التاريخية ـــ الانتقادية :

لم يكن (وايل) و (دوبرسفال) يجهلان ما لحق أخبار الرواة المسلمين من تحريف وتزوير بسبب المنازعات الطائفية والاختلافات المذهبية . ولا شك في أنهما يمتازان على من سبقهما من المستشرقين بالسعي إلى التمييز بين الروايات الصحيحة والكاذبة . ولكن طريقتهما في النقد كانت تعتمد كلياً على مجرد

(١) Coussin de Perceval, Essai sur l'histoire des Arabes ... Paris 1847—1848.

الذوق السليم ولم تستند إلى نتائج البحث التاريخي نفسه . فهما لم يلاحظا كما ينبغي أن كتب السيرة قد تطورت في طريقة تأليفها وأسلوب كتابتها تبعاً لما حدث من تطور في العقيدة الإسلامية ذاتها . وقد غفلا عن أن الكثير من التعاليم والتقاليد التي شاعت بين المسلمين في العصور المتعاقبة وأصبحت تعتبر من صميم الإسلام لم يكن لها أي صلة بالعقيدة الإسلامية الأصلية . وقد بدأ المستشرقون ينتبهون إلى هذه الناحية حوالي سنة ١٨٦٠ كما يستدل من مؤلفات عديدة عن حياة الرسول ظهرت في ذلك العهد ، أهمها هي مؤلفات (موير) و (شبرنجر) و (نولدكه) .

(للبحث صلة) الدكتور محمد كامل عياد



فوات الوفيات في طبعته الجديدة

(الجزء الثاني)[1]

- ٤ -

١٦ - ووردت في الصفحة ١٦٢ ترجمة أبي فراس علي بن محمد بن غالب العامري المعروف بمجد العرب وقد جاء فيها « شاعر جال ما بين العراق والشام ومدح الملوك والأكابر ولبس أخيراً لبس الأتراك وتوفي بالموصل سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة » . ولم يعلّق الشيخ الفاضل محقق الكتاب عليه شيئاً ، لأنه لم يعرف من سيرته ومراجع ترجمته ما يعلّقه ، ولذلك بقي الخطأ لابداً في سنة وفاته التي جعلته من أهل القرن الثامن للهجرة ، مع أنه من أهل القرن السادس ، ترجم له العماد الأصفهاني المتوفى في أواخر المائة السادسة للهجرة وهل يترجم أديب من المائة السادسة لأديب من المائة الثامنة (٢) ؟! قال العماد الأصفهاني : « الأمير مجد العرب مظفر الدولة أبو فراس علي بن محمد بن غالب العامري - رحمه الله - هو الداهية الدهياء وأعجوبة الدنيا ، يصب الشعر في قالب السحر ويُباهي الفضلاء بالنظم والنثر ... وقصائده بالشام أجزل وأحسن مما أنشأهُ بالعراق »(٣) .

(١) نشر أول هذا البحث في الصفحات ٢٧٢ و٣٠٥ و ٧٤٩ من المجلد (٤٣) .

(٢) أزل هذا الوهم قدم التحقيق في خريدة القصر « قسم الشام ج ١ ص ٧٩ » فقد نقل هذا الوهم إلى الحاشية الأولى من الصفحة المذكورة وجاء فيها « توفي بالموصل سنة ٧٥٣ » .

(٣) خريدة القصر « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس « مختار الخريدة ٣٣٢٦ و ٢٧ » .

وقال العماد أيضاً : « وآخر عهدي به بالموصل سنة ٥٧٠ لابساً زي الأتراك ، جليساً للأملاك » . وقال محب الدين ابن النجار : « علي بن محمد بن غالب أبو فراس العامري المعروف بمجد العرب ، شاعر مجيد جال ما بين العراق والشام ومدح الملوك والأكابر ونشر فضله وأظهر نبله » ثم نقل باسناده من تاريخ دمشق مشافهة من مؤلفه ابن عساكر ما هذا نصّه « علي بن محمد ابن غالب أبو فراس العامري المعروف بمجد العرب ، شاعر بغدادي قدم دمشق وأنا ببغداد وسمع منه بها شيئاً من شعره صديقنا أبو الندى يمر بن ألب شاور المقرئ وكان يذكره ويثني عليه ويصفه بالبلاغة والكرم » ثم قال : « كتب إليّ أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد الكاتب » وذكر موجز ما ذكر في الخريدة من سيرته ثم قال ابن النجار أو العماد : « توفي بالموصل سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة (١) » .

وذكره ابن الفوطي في الملقّبين بالمظفر قال : « المظفر مجد العرب أبو فراس علي بن محمد بن غالب العامري الأديب الشاعر ، كان من أعيان الأدباء وأماثل الشعراء (٢) » . وذكر له بيتين من الشعر ولم يذكر وفاته ، وهو أمر عجيب الوقوع من ابن الفوطيّ وهو مؤرخ بغداديّ وابن النجار مؤرخ بغداد وتاريخ وفاته مثبت في تاريخه (٣) .

١٧ — وكرّر في الصفحة ١٧٧ التصحيف الذي ذكرته في تعقيبي على الجزء الأول وهو جعل « النيربين » مثنى النيرب الموضع النزه المشهور قرب دمشق « النيّرين » وذلك في قول ابن وداعة الكندي :

ويوم لنا بالنيربين رقيقـــة حواشيه خال من رقيب يشينه

---

(١) التاريخ المجدد لمدينة السلام « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢١٣١ و ١٢،١١ ».
(٢) تلخيص مجمع الآداب « ج ٥ الترجمة ١٢٣٥ من باب الميم من طبعة الهند » .
(٣) وممن ذكر وفاته الصفدي قال : « وتوفي بالموصل سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة » . « الوافي بالوفيات نسخة المجمع اللغوي العربي بدمشق ، الورقة ١٨٢ » .

١٨ — ووردت في الصفحة ١٨٨ ترجمة « علي بن يحي القاضي الوجيه المعروف بابن الذروي ، شاعر مجيد وكانت وفاته بالديار المصرية سنة » . ولم تُذكر السنة ، وقال الشيخ الفاضل في تعليقه : « لم أعثر له على ترجمة فيما بين يدي من كتب الرجال » . مع أنَّ له ترجمة في خريدة القصر[1] ، وقال محققو الكتاب : « نقلنا هذه الترجمة من المغرب لابن سعيد .... ولم ننقلها من مختصر الخريدة لأنه أشد اختصاراً ويبدو من المغرب أنَّ هذا كل ما قاله العماد في الخريدة ... وقد توفي ابن الذروي سنة ٥٧٧ ، انظر ترجمته في المغرب وفي كتاب الروضتين ٢ : ٢٧ ... وحسن المحاضرة ١ :٢٦ » .

١٩ — وردت في الصفحة ١٩٣ ترجمة « علي بن يوسف بن شيبان جلال الدين الماردينى المعروف بابن الصفار » ولم يُحل محقق الكتاب على مرجع آخر لترجمته ، وقد جاء في الترجمة « وتولّى كتابة أشراف دبيس ثماني عشرة سنة » . فمن هؤلاء أشراف دبيس ؟ تركهم المحقق على حالهم من التصحيف ، والصواب « تولى كتابة إشراف دنيسر ثماني عشرة سنة » . وهو ما ذكره اليونيني ، وجاء في الحاشية القديمة من كتاب اليونيني « دنيسر بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينها فرسخان » .

٢٠ — وورد في الصفحة ٢٤٣ « حكي أن أبا الهيجاء بن عمر بن شاهين صاحب النطيحة قال : كنت أساير معتمد الدولة أبا المنيع قرواش بن المقلد ... » . ولم يبحث الشيخ الفاضل عن « النطيحة » هذه ما هي ؟ والقصَّة في فوات الوفيات تدور حول « قصر العباس بن عمرو الغنوي » ، قال ياقوت الحموي في معجم البلدان في « قصر العباس بن عمرو الغنوي » ما هذا نصه « وقرأت في كتاب ألفه عميد الدولة أبو سعد محمد بن الحسين بن عبد الرحيم الوزير : حدثني أبو الهيجاء بن عمران بن شاهين أمير البطيحة ... » . وذكر القصَّة ،

(١) خريدة القصر ، قسم مصر ج ١ ص ١٨٧ » .

فهي البطيحة لا النطيحة ، ثم إن الشيخ الفاضل أعاد نشر وفيات الأعيان وقد وردت هذه القصة بعينها في ترجمة أبي حسان المقلد بن المسيب العقيلي » .

والبطيحة وجمعها البطائح كما في معجم البلدان لياقوت : « أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديماً قرى متصلة وأرضاً عامرة ، فاتفق في أيام كسرى أبرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات بخلاف العادة فعُجز عن سدها فتبطح الماء في تلك الديار والعمارات والمزارع ، فطرد أهلها عنها ... » . والتتمة والتفصيل في المعجم .

٢١ — وجاء في ترجمة القاسم بن القاسم أبي محمد الواسطي الأديب الشاعر ــ ص ٢٥٩ ــ « وقرأ اللغة على سيد الرؤساء هبة الله بن أيوب » . وجاء في الصفحة ٣١٤ « اشتغل بالحلّة على عميد الرؤساء أيوب » . وأشار الشيخ في الحاشية إلى أن ترجمة القاسم واردة في معجم الأدباء لياقوت الحموي وبغية الوعاة للسيوطيّ ، ولكن من فوائد الإحالة الاستفادة من المقابلة ، ففي معجم الأدباء « قرأ النحو بواسط وبغداد على الشيخ مصدق بن شبيب ، واللغة على عميد الروساء هبة الله بن أيوب » . وفي بغية الوعاة « عميد الرؤساء هبة الله بن أيوب » . والصواب هو ما ورد في معجم الأدباء والبغية وغيرهما لا ما ورد في فوات الوفيات ، قال ياقوت الحموي في معجم الأدباء : « هبة الله ابن حامد بن أحمد بن أيوب بن علي بن أيوب أبو منصور ، يعرف بعميد الرؤساء ، أديب فاضل نحوي لغوي شاعر ، شيخ وقته ومتصدر بلده (١) ... » . وقال السيوطي : « هبة الله بن حامد بن أحمد بن أيوب بن علي بن أيوب أبو منصور ، يعرف بعميد الرؤساء (٢) ... » ونقل قول ياقوت . وقال

(١) مختصر الجزء السابع من معجم الأدباء « ص ٢٣٤ طبعة مرغوليوث » .
(٢) البغية « ص ٤٠٧ » .

كمال الدين ابن الفوطي : « عميد الرؤساء أبو منصور هبة الله بن حامد بن أحمد ابن أيوب الحلي اللغوي [١] ... » .

٢٢ – وورد في الصفحة ٢٦٥ في ترجمة قرواش بن مقلد العقيلي « فقام بعده أبو المعالي قريش بن بدر بن مقلد ابن أخيه » . وكنت نقلت هذه الجملة في الكلام على وفاة قرواش في النقدة الثالثة عشرة ، والصواب « قريش ابن بدران » بالألف والنون قال العماد الأصفهاني الكاتب : « وفي سنة ٤٥٣ توفي قريش بن بدران وتولّى ولده مسلم إمارة بني عقيل [٢] » . وقال عز الدين ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٣ من الكامل : « ذكر وفاة قريش صاحب الموصل وإمارة ابنه شرف الدولة : في هذه السنة توفي قريش بن بدران صاحب الموصل ونصيبين ... » . وقد ذكره على هذه الصورة في كامله غير مرّة ، وذكر أبو المظفّر سبط ابن الجوزي وفاته في سنة ٤٥١ قال في وفياتها : « قريش بن بدران أبو المعالي ويلقب بعلم الدين أمير بني عقيل ، كان داهية بخيلاً سفاكاً للدماء بعيد النور غداراً [٣] ... » .

٢٣ – وجاء في الصفحة ٢٨٨ في ترجمة لوط بن يحيى أبي مخنف الأزدي أن من كتبه « حديث روشنقياذ » فقال الشيخ الفاضل محقق الكتاب معلقاً : « في ب روشنمياد وفي الفهرست روستقبان » . قلت : إن الشيخ أحال بترجمته على معجم الأدباء فكان حرياً أن يقابل بين الاسمين في الكتابين أولاً ، ففي معجم الأدباء « روستقباد » على ما جاء في طبعة مرغليوث الأولى

---

(١) تلخيص مجمع الآداب « ج ٤ القسم ١ ص ٩٦٦ نشرة وزارة الارشاد السورية بتحقيقي » .

(٢) زبدة النصرة في دولة آل سلجوق « ص ٢٢ طبعة مطبعة الموسوعات بالقاهرة » .

(٣) مرآة الزمان « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ١٥٠٦ الورقة ٦٧ » . وورد في ترجمة الأمير ابن أبي حصينة من معجم الأدباء ٤ : ٦٩ قريش بن بدران بن المقلّد بن المسيب .

« ٤ : ٢٢١ » وهذا هو أقرب إلى الصحة من غيره ، والصحيح « روستقباذ » بالذال المعجمـــة ، فقد جاء في كتاب المسالك لابن خُرداذبه ـ ص ٦ ـ « طسّوج روستقباذ » قال : « وترجمة الطسوج : الناحية » ثم قال في الصفحة ١٣ : « طسّوج روستقباذ ، الحنطة ألف كرّ ، الشعير والدخن ألف وأربعمائة كر ، الورِق مائة ألف وسبعون ألفاً » . وتكرر الاسم في الصفحة ٢٣٥ والصفحة ٢٣٨ .

٢٤ — وجاء في الصفحة ٢٩٦ في ترجمة مالك بن نويرة ما نصه « فقتل ضِرار بن الأزور مالكاً وسمع خالد الداعية ، فخرج وقد فرغُوا منهم » . فقال الشيخ الفاضل محقق الكتاب وضابطه ومعلق حواشيه ،ملقاً على الداعية : « في ب الداهية وما أثبتناه مُوافق لما في ث » ، قلت : « وليكن مُوافقاً لما في تلك النسخة فما الفائدة ؟ القارىء المبتدىء يحتـــاج إلى الصحيح فما معنى الداعية ُهنا ؟ الداعية هي الدعوة كالكاذبة بمعنى الكذب ، ولا حادي على استعمالها هنا ، فالصحيح السليقة يُدرك أنها « الواعية » أي الصُّراخ على الميت ونحوه ، ولكن الشيخ الفاضل رضي بالموجود ، ثم إن المؤلف ـ أعني ابن شاكر الكتبي ـ صرّح في أول الخبر بأنه نقله من كتاب الأغاني ، فلم يرجع الشيخ إلى كتاب الأغاني ، على حين كان ذلك من السهولة بمكان ، قال أبو الفرج : « فقتل ضِرارُ بن الأزور مالكاً ، فسمع خالد الواعية ، فخرج وقد فرغوا منه (١) » . وقال محقق ذلكم الجزء من الأغاني : « الواعية الجَلَبة والصُراخ على الميت ونعيه . حـ الراعية ، وفي سائر النسخ ما عداها ومب الداعية ، صوابها من النسختين والطبري » . قلت : صوابها قبل كل شيء من السليقة العربية والذوق اللغوي العربي وعليها اعتمدت .

---

(١) الأغاني « ج ١٥ ص ٣٠١ طبعة دار الكتب المصرية » .

٢٥ — وورد في الصفحة ٣١٠ في ترجمة نصير الدين الطوسيّ وذكر تآليفه « ورسالة أبي نجم الدين الكاشي » فمن أبو نجم الدين الكاشي ؟ الصحيح أن « أبي » تصحيف « إلى » فهي رسالة علمية أرسل بها النصير الطوسي إلى نجم الدين ، ومَن نجم الدين هذا ؟ مرَّ به الشيخ وهو المترجم في هذا الجزء نفسه - ص ١٣٤ - باسم «علي بن عمر بن علي العلامة نجم الدين الكاشي (كذا) دبيران بفتح الدال المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء وبعدها راء وألف ونون القزويني المنطقي الحكيم » . وقال الشيخ معلقاً على الكاشي : « في ب الكاتي » . ووقف عند هذا القول ، لأنه لم يجد مرجعاً تاريخياً آخر لهذا العلامة . والذي علمناه وحفظناه هو « الكاتبي » بالتاء والباء وكذلك ورد في ترجمة الصفدي له ، قال : « علي بن عمر بن علي العلامة نجم الدين الكاتبي دبيران (بفتح الدال . . .) القزويني المنطقي الحكيم [1] . . . » وكأن ابن شاكر نقل ما ذكر الصفدي بنصّه ونسي ذكر سنة مولده . وقال حاجي خليفة في « الملخص » من كشف الظنون : « الملخص في الحكمة والمنطق للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة ست وستمائة وشرحه أبو الحسن علي بن عمر القزويني الكاتبي [2] . . . » . وقد كان قال في « الشمسيّة » من كتابه المذكور : « الشمسية من مختصر في المنطق لنجم الدين عمر بن علي القزويني المعروف بالكاتبي » . وقال الصفدي في ترجمة ابن واصل الحمويّ : « وحضر حلقته نجم الدين الكاتبي المعروف بدبيران المنطقي [3] » . وكرّر الصفدي هذه الجملة ولم ينقص منها حرفاً في تاريخه للعميان [4] . وفذلكة القول أن

(١) الوافي بالوفيات « نسخة مجمع اللغة العربية بدمشق المصورة » و ١٣١ » .
(٢) كشف الظنون « طبعة وكالة المعارف التركية ، العمود ١٨١٩ » ومنه أي من شرح الملخص نسخة في دار كتب ليدن واسمه فيه « الكاتبي » .
(٣) الوافي بالوفيات « ٣ : ٨٠ » .
(٤) نكت الهميان « ص ٢٠١ » .

التواريخ والفهارس والاجازات أجمعت على أنه « الكاتبي » حتى جرجي زيدان وإن كان متأخراً لا يتخذ وحده حجة فقد قال تحت عنوان « العلوم الدخيلة في العصر المغولي : . . في الفلسفة ١ - نجم الدين الكاتبي القزويني ويعرف بدبيران توفي سنة ٦٥٧ له الرسالة الشمسيّة في القواعد المنطقية [١] ... » . وورد كذلك في كتاب الاجازات من بحار الأنوار للعلامة محمد باقر الإيراني المجلسي ، وروضات الجنات للخونساري .

٢٦ — وجاء في الصفحة ٣١١ من الترجمة المذكورة « قال شمس الدين الحريري قال حسن بن أحمد الحكيم ... » . فالمؤلف نقل قول مؤرخ من المؤرخين ، والذي علمناه وحفظناه أنه « شمس الدين الجزريّ » لا الحريري ، وإذ كان ابن شاكر الكتبي قد اقتبس أكثر تراجم كتابه من الوافي بالوفيات فلننظر ماذا يقول في ترجمة النصير الطوسيّ خاصاً بهـــذه المسألة ، قال : « قال شمس الدين الجزري قال حسن بن أحمد الحكيم [٢] » . وشمس الدين الجزري من مشهوري المؤرخين وإن لم يطبع تاريخه .

٢٧ — وورد في الصفحة عينها « والرصد البيساني في حدود الشام » . فعلق الشيخ عليه ما نصه « في ث البنياني » . ولم يعلم القارئ الشادي أيّهما الصواب . وجاء في كتاب الصفدي المذكور « والرصد البناني في حدود الشام [٣] » . والكتاب مطبوع باعتناء المستشرق هـ . ريتر ، ولم يعلّق ريتر عليه شيئاً ، والصواب « الرصد البتّاني » نسبةً إلى عبد الله محمد بن جابر الحراني البتّاني ، قال القفطي : « وكان بعض أرصاده التي ضمّنها زيجه في سنة تسع وستين ومائتين من الهجرة ، ومن ذلك في سنة سبع وثمانين [ومائتين]

(١) تاريخ آداب اللغة العربية « ٣ : ٢٥٠ » .
(٢) الوافي بالوفيات « ١ : ١٨٢ طبعة استانبول سنة ١٩٣١ » .
(٣) الوافي بالوفيات « ١ : ١٨٣ » .

ولا يعلم أحد في الإسلام ، بلغ مبلغـــه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها »[١] .

وقال ابن خلكان : « أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الأصل ، البتّاني الحاسب المنجم المشهور صاحب الزيج الصابي ، له الأعمال العجيبة والأرصاد المتقنة ، وأول ما ابتدأ بالرصد في سنة أربع وستين ومائتين إلى سنة ست وثلاثمائة ، وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة تسع وتسعين ومائتين ، وكان أوحد عصره في فنه ، وأعماله تدل على غزارة فضله وسعة علمه ، وتوفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة عند رجوعه من بغداد بموضع يقال له قصر الجص ولم أعلم أنه أسلم لكن اسمه يدل على إسلامه ، وله من التصانيف الزيج وهي نسختان أولى وثانية ، والثانية أجود . . . والبتّاني بفتح الباء الموحدة وقال أبو محمد هبة الله بن الأكفاني : بكسرها ، وبتشديد التاء المثناة من فوقها وبعد الألف نون . هذه النسبة إلى بتّان وهي ناحية من أعمال حرّان[٢] . . . » . وفي هذا كفاية للاثبات .

٢٨ — وورد في الصفحة ٣١٤ « اشتغل بالحلة على عميد الرؤساء أيوب » وقال في الحاشية معلقاً : « في ب حميد الرؤساء » . وقد أشرنا إلى ذلك في النقدة الحادية والعشرين وبرهنا على أن عميد الرؤساء هبـــة الله بن أيوب لا هبة الله أيوب ولا حميد الرؤساء ولا سيد الرؤساء فأغنى ذلك عن الإعادة .

٢٩ — وورد في الصفحة ٣١٩ ترجمة من اسمه في هذه الطبعة من هذا الكتاب « محمد بن محمد بن بنان أبو طاهر بن أبي الفضل الكاتب ، من أهل

(١) أخبار الحكماء « ص ٢٨٠ طبعة ليبزيك » .
(٢) وفيات الأعيان « ٢ : ١٩٦ طبعة إيران وهي أصح الطبعات إلى الآن » . وقال الذهبي في المشتبه : « وبكسر ذلك وقيل بالفتح والتشديد (البتّاني] محمد بن جابر ابن سنان الحراني البتاني الصابي صاحب الزيج ، هلك بعد الثلاثمائة » .

مصر وأصله من الأنبار » . فعلّق عليه المحقق ما هذا نصه « له ترجمة في شذرات الذهب ٤ : ٣٢٨ وسماه محمد بن محمد بن أبي طاهر بن محمد بن بيان الأنباري ، وقال : توفي في ربيع الآخر من سنة ٥٩٦ وله تسع وثمانون سنة ، وذكره الذهبي في وفيات ٥٩٦ محمد بن محمد بن بيان الأنباري ، وفي حسن المحاضرة للسيوطي محمد بن محمد بن أبي الطاهر محمد بن بيان الأغاري » . قلنا : إذا لم ينصّ المؤلف على الحروف المشتبهة فليس لنا حق في أن نلقي المهدة عليه ، ثم إن تعليق الشيخ لم يقفنا على الوجه الصحيح في تسمية هذا العين من الأعيان ، فالصحيح الرجوع إلى الكتب الضابطة . قال الزكي المنذري في وفيات سنة ٥٩٦ : « وفي ليلة الثالث من شهر ربيع الآخر توفي القاضي الأثير ذو الرئاستين أبو الطاهر محمد ابن القاضي الأجل ذي الرئاستين أبي الفضل محمد ابن القاضي الأجل ذي الرياستين أبي الطاهر محمد بن بُنان الأنباري الأصل المصري المولد والدار الكاتب ، بالقاهرة ودفن من الغد . ومولده بالقاهرة سنة سبع وخمسمائة ... وبُنان بضمّ الباء الموحدة وفتح النون وبعد الألف نون أخرى [١] » . وقد نقلنا هذا الضبط إلى حاشية ترجمته في مختصر تاريخ ابن الدبيثي [٢] .

٣٠ — وجاء في الصفحة ٣٢١ ترجمة أبي الحسن محمد بن محمد بن أحمد البُصروي وجاء فيها « وبُصرى قرية بدجيل دون عكبرة » ، كذا وردت عكبرة بالهاء ، وأشار المحقق إلى أن للرجل ترجمة في النجوم الزاهرة ومعجم البلدان — يعني في بُصري — على حين أن له ترجمة في تاريخ بغداد للخطيب البغدادي « ٣ : ٢٣٦ » والمنتظم لأبي الفرج ابن الجوزي « ٨ : ١٥٢ »

---

(١) التكملة لوفيات النقلة « نسخة المجمع العلمي العراقي المصورة ، الورقة ٣ » .
(٢) المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدبيثي « ١ : ١٢٢ طبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٥١ بتحقيقي » .

والوافي بالوفيات للصفدي « ١ : ١٢٠ » . قال الخطيب البغدادي : « محمد بن محمد بن أحمد بن خلف أبو الحسن الشاعر البصروي ، من أهل بُصرى وهي قرية دون عكبرا » . فهي إذن إما « عكبرا » وإما عكبراء لا « عكبرة » كما جاء في فوات الوفيات بتحقيق الشيخ ، وكأن الصفدي نقل قول الخطيب فقد قال : « وبصرى قرية بدجيل دون عكبرا » . وقال ياقوت : « عكبرا بضم أوله وسكون ثانيه وفتح الباء الموحدة وقد تمد ويقصر والظاهر أنه ليس بعربي » .

٣١ وورد في الصفحة ٣٤٣ « محمد بن أحمد بن الحسين بن محمود الفدوخي أبو نصر الكاتب الأوّابي » . هكذا ورد « الفدوخي » و « الأوّابي » بتشديد الشيخ للواو ، من غير أن يحيل على كتاب أو يذكر الأسباب ، لأنه لم يجد لترجمته مظنّة غير هذا الكتاب ، فلماذا شدّد الواو وأكد صحّة الباء ؛ والصواب « محمد بن أحمد بن الحسين بن محمود بن أبي عبد الله ابن علي بن محمود الفروخي أبو نصر الكاتب الآواني (١) » . فالفروخي وهو من الأنساب المشهورة تصحف عليه إلى « الفدوخي » . والآواني تصحف عليه إلى « الأوابي » فشدّد الواو ، وقال العماد الأصفهاني الكاتب : « السديد أبو نصر محمد بن أحمد بن محمود الفروخي الكاتب الآواني ، من قرية يقال لها أوانا بدجيل وهي ذات سوق كالبلدة كبيرة (٢) » .

وقال ابن العماد في وفيات سنة ٥٥٧ : « وفيها أبو نصر محمد الفروخي الكاتب ، كان أديباً فاضلاً ، من شعره ... » (٣) . وأورد له بيتين ،

---

(١) الوافي بالوفيات « ١ : ١٠٩ ، ١١٠ » .
(٢) خريدة القصر « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٣٣٢٧ الورقة ٨٢ » .
(٣) شذرات الذهب « ٤ : ١٨٠ » .

ولا أرى حاجة إلى ذكر الكتب الخطية كذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثي وتاريخ الإسلام للذهبي وإنما أجتزئ باختصار الذهبي لتاريخ ابن الدبيثي فإنه مطبوع وقد جاء فيه « محمد بن أحمد بن محمود بن الحسين الكاتب أبو نصر ، من أهل أوانا (١) - يعني الأواني - والد شيخنا محمود وكان كاتباً شاعراً توفي سنة سبع وخمسين وخمسمائة (٢) » . وبما ذكره ياقوت في معجم البلدان قال : « أوانا بالفتح والنون ، بليدة كثيرة البساتين والشجر ، نزهة من نواحي دجيل ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت وكثيراً ما يذكرها الشعراء الخلعاء في أشعارهم ... وينسب إلى أوانا قوم من أهل العلم ... وأبو نصر محمد بن أحمد بن الحسين بن محمود الأواني ، كاتب سديد وشاعر مجيد وله رسائل مدونة وأشعار حسان منها رسالة في حسن الربيع أجاد فيها وله غير ذلك ومات بأوانا سنة « ٥٥٧ » .

٣٢ — وورد في الصفحة ٣٤٥ في ترجمة ابن سيد الناس أبي الفتح محمد ابن محمد اليعمري « فكاد يدرك القمر ابن السخاوي فماقه بليلتين » . وفي مصدر آخر « الفخر بن النجاري » ذكرها محقق الكتاب في الحاشية وهي الصواب عندي ، وبقي تصحيف في « فماقه » والصواب « ففاته » أي توفي قبل وصول المترجم له إليه بليلتين ، ولو جاءه قبلها لوجده حياً وسمع منه أو قرأ عليه .

٣٣ — وجاء في الصفحة ٣٥٦ في ترجمة أبي العبر الهاشمي « وعلى رأسه قطعة رقة حبك مشدود بالشوطة » . وهذه الجملة العربية أحالها التصحيف

(١) قلت في الحاشية : « قال ابن عبد الحق في المراصد : بليدة من دجيل كثيرة البساتين والشجر بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من فوقها ، تحاذي عكبرا ، كانت بينها الدجلة واستحالت عنهما » .

(٢) المختصر المحتاج إليه « ١ : ٥ طبعة المجمع العلمي العراقي بتحقيقي » .

إلى النبطيّة والسليقة العربية تحكم بأنها في الأصل « وعلى رأسه قطعة رثّة من حبل مشدود بأنشوطة » . أو أنها « وعلى رأسه رُمَّة حبل مشدود بأنشوطة » . فشرح بعضهم الرُمَّة بالقطعة فأدخلها الناسخ في الأصل ، على ما أحسب .

٣٤ – وجاء في الصفحة المذكورة « وفي كتاب بئر الدر باقي نوادره » . ولم يبحث المحقق عن كتاب بئر الدر ولا عن مؤلفه ، والصواب « نثر الدر » أو « نثر الدرر » بالنون ، جاء في كشف الظنون « نثر الدرر في المحاضرات لأبي سعيد منصور بن الحسين الآبي المتوفى سنة [٤٢٢] في سبع مجلدات كلها بخطب بليغة على عدة أبواب لم يجمع مثله ... » . وهو كتاب معروف مشهور منه أجزاء في دور كتب العالمين وخزائنها .

٣٥ – وورد في الصفحة ٣٥٦ في ترجمة ابن الظهير الإربلي محمد بن أحمد الأديب « وكانت وفاته سنة سبع وتسعين وستمائة » . وإذا كان الشيخ الفاضل أحال بترجمته على الوافي بالوفيات والجواهر المضيئة لزمته الاستفادة من الإحالة ، ففي الوافي بالوفيات ١ : ١٣٣ « ولما توفي سنة سبع وسبعين وستمائة دفن بمقابر الصوفية » . والفرق عشرون سنة ، وما في الوافي هو الصواب ، أما إحالته على الجواهر المضيئة فأخذها من حاشية ترجمته في الوافي بالوفيات وهي لمحقق ذلك الكتاب ، أعني الوافي ، وهي إحالة ناقصة ومغلوط في أرقامها ، أما نقصانها فان ترجمة هذا الأديب مُوردة في الكتاب على حسب ترتيب اسمه « ٢ : ١٩ » فلم يقف عليها محقق الوافي بالوفيات بل أحال على ترجمة ثانية له في الجواهر المضيئة في باب « ابن فلان » وفيها سنة الوفاة قد سقط رقمها الأوسط فجاءت « ٦٠٧ » وأما سنة وفاته في ترجمته الأصلية فهي سنة « ٦٧٧ » كما في الوافي بالوفيات ، وقال المقريزي في وفيات سنة ٦٧٧ : « وتوفي مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أبي شاكر ابن الظهير الاربلي

الحنفي عن خمس وسبعين سنة بدمشق [١] » ، ووهم ابن المهاد فقد لقبه « الظهير » مع أنه لقب أبيه قال في وفيات سنة ٦٧٧ : « وفيها الظهير العلامة مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الاربلي الحنفي الأديب . ولد سنة اثنتين وستمائة باربل . . . [٢] » . ثم إن عمره معلوم وهو « ٧٥ » سنة .

ووردت في الصفحة ٣٧٧ ترجمة « بهاء الدين كافي الكفاة أبي المعالي محمد ابن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي الكاتب المؤلف صاحب التذكرة المشهورة التي هي من أمّهات كتب الأدب أو أمّاتها على قول بعضهم ، فعلّق الشيخ الفاضل على اسمه ما هذا نصه : « له ترجمة في الوافي ٢ : ٣٥٧ وفي بغية الملتمس ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان (الترجمة ٦٢٦ بتحقيقنا) . وفي شذرات الذهب ٥ : ٣٢ وسماه الحسن بن محمد بن الحسن وذكر وفاته في سنة ٦٠٨ » .

قلت : الذي ذكره مؤلف الشذرات وأشار إلى اسمه الشيخ الفاضل هو ابنه « الحسن » الأديب المتصرّف المشهور عند المختصين بالتاريخ ، لا هو ، وإنما تابع ابن العماد شمس الدين الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ في وهمه بإسناده تأليف التذكرة إلى الابن [٣] لا إلى الأب مؤلفها باجماع المؤرخين ، وإجماع نسخ الكتاب الخطية ، وقد ناقض ابن العماد نفسه بعزوه التذكرة إلى الحسن ابن حمدون ، فإنه قد ذكر الوالد مؤلفها في وفيات سنة ٥٦٢ وفات الشيخ وجدان ترجمته بسبب من أسباب الغفلة التي تعرض لكل إنسان ،

(١) السلوك « ج ١ ص ٦٥١ » .
(٢) الشذرات « ٥ : ٣٥٩ »
(٣) وذلك في كتابيه « العبر في خبر مَن عَبَر » ج ٥ ص ٢٧ وتاريخ الإسلام .

قال ابن العماد في وفيات تلك السنة : « وفيها محمد بن الحسن ابن حمدون صاحب التذكرة الحمدونية ، ولاّه المستنجد ديوان الزمام ، ووقف المستنجد على كتابه فوجد فيه حكايات توهم غضاضة من الدولة ، فأخذ من دست منصبه وحُبس إلى أن رُمس (١) » .

أمّا ابنه الحسن بن محمد ابن حمدون الذي ظنّه الشيخ إياه فأشهر من أن يذكر ، ترجم له ياقوت الحموي ترجمة مفصلة (٢) ، قال : « الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون أبو سعد بن أبي المعالي بن أبي سعد الكاتب ، قد تقدم ذكر أبيه صاحب الديوان بهاء الدين أبي المعالي وذكر عمه أبي نصر محمد بن الحسن كاتب الإنشاء . . . » . هكذا قال ياقوت مع أن ترتيب كتابه معجم الأدباء ليس على ترتيب كتب التاريخ التي تقدم أسماء المحمدين لشرف هذا الاسم ، فياقوت نقل هذه التقدمة من تاريخ آخر (٣) وما عقلها ولا فكر في دلالتها ، فكيف تقدم اسماها وترتيبه يوجب إيرادها في جزء المحمدين المتأخر عن هذا الجزء ؟

هذا وقد وردت ترجمة أبي سعد الحسن ابن محمد بن حمدون في مختصر تاريخ ابن الدبيثي الذي اختصره الذهبيّ (٤) ، وذكره عز الدين ابن الأثير

---

(١) الشذرات « ٤ : ٢٠٦ » .

(٢) معجم الأدباء « ٣ : ٢٠٩ طبعة مرغوليوث الأولى » .

(٣) الظاهر لي أنه نقلها من ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثيّ والتاريخ المجدد لمدينة السلام فابن الدبيثي قال في ترجمة الحسن : وقد تقدم ذكر أبيه وجدّه » وعنى بجده الحسن بن محمد بن علي ابن حمدون وقد ترجم له .

(٤) المختصر المحتاج إليه « ٢ : ٢٣ طبعة المجمع العلمي العراقي بتحقيقي » .

في وفيات سنة ٦٠٨ قال : « وتوفي أيضاً أبو سعد الحسن بن محمد بن الحسن ابن حمدون التغلبي العدوي وهو ولد مصنف التذكرة وكان عالماً » . وقد كان ذكر أباه في حوادث سنة ٥٦٢ ووفاته مسجوناً .

٣٧ — وجاءت في الصفحة ٣٨٣ ترجمة « شمس الدين محمد بن دانيال ابن يوسف الموصلي الأديب المُفتَنّ المشهور ، الذي اختلط شعره بترجمة إبراهيم بن سليمان بن حمزة ابن النجار الدمشقي المجود المتوفى سنة ٦٥١ بعد تولّيه نقابة الأشراف (١) ، مع أنه كان في هجاء أحمد بن البَقَقيّ المتهم بالزندقة المقتول عليها سنة « ٧٠١ » بين القصرين (٢) ، وجاء في ترجمة ابن دانيال ما هذا نصه « وكانت وفاته بالديار المصرية في شهور سنة ثمان وستمائة » . فكيف يهجو المتوفى سنة ٦٠٨ رجلاً قُتل سنة ٧٠١ ؟ ثم إن ابن شاكر قال في ترجمة ابن دانيال هذا : « قال الشيخ صلاح الدين الصفدي : هو ابن حجاج عصره وابن سكرة مصره ... » . ولم يراجع الشيخ الفاضل ترجمة ابن دانيال في تاريخ الصفدي للرجال وهو الوافي بالوفيات « ٣ : ٥١ » لأنه لم يُحل عليه في الحاشية ، وترجمته واردة في تاريخ رجال القرن الثامن لابن حجر ، قال ابن حجر : « مات في ١٢ جمادى الآخرة سنة ٧١٠ (٣) » . وفي تاريخ ابن تغري بردى في حكام مصر قال ابن تغري بردي في وفيات سنة « ٧١٠ » من تاريخه الموصوف : « وتوفي الحكيم الأديب البارع شمس الدين محمد بن دانيال الموصلي صاحب النكت الغريبة والنوادر العجيبة وهو مصنف

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب « ص ٨ — ١٠ » .
(٢) راجع الجزء الأول أيضاً « ص ١٣٤ » .
(٣) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣ : ٤٣٦ » .

طيف الخيال (١) ... » . وفي تاريخ المقريزي الكبير فقد قال في وفيات سنة « ٧١٠ » منه : « ومات الأديب البارع شمس الدين محمد بن دانيال ابن يوسف ابن معتوق الخزاعي الموصلي في ثامن عشري (٢) جمادى الآخرة ، ومولده بالموصل سنة سبع وأربعين وستمائة وكان كثير المجون (٣) ... » . وفي تاريخ ابن العماد الحنبلي فقد ترجم له في وفيات سنة ٧١١ قال : « وفيها الأديب الخليع الحكيم شمس الدين محمد بن دانيال مؤلف كتاب طيف الخيال (٤) ... » .

يتبع : (بغداد) مصطفى جواد



(١) النجوم الزاهرة « ٩ : ٢١٥ » .

(٢) أي الثامن والعشرين .

(٣) السلوك « ج ٢ ص ٩٥ » .

(٤) الشذرات « ٦ : ٢٧ » .

شعر
الوقوف على الأطلال
من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

— ٤ —(١)

٣ — تخريب الديار

من المعاني العامة الأساسية في شعر الوقوف على الأطلال ذكر خراب الديار واندثار بقاياها بعد رحيل أهلها . وقد ألح الشعراء على هذا المعنى ، فذكروه كثيراً في أشعارهم ، حتى لا تكاد تخلو منه قصيدة في الوقوف على الأطلال . والصفة العامة التي تشترك فيها الديار وبقاياها جميعاً في هذا الشعر هي صفة القِدم والبِلى . كما أن الصفة العامة التي تشترك فيها جميع التشبيهات والتصاوير التي أتى بها الشعراء في معرض وصف الديار وبقاياها هي صفة القدم والبلى أيضاً .

وقد ذكر الشعراء في عرضهم هذا المعنى الأسباب في خراب الديار واندثارها . فحاولنا استقراء هذه الأسباب ، فانتهى بنا الاستقراء إلى أن الشعراء يرجعون خراب الديار إلى عاملين اثنين . أحدهما تقادم العهد ومرور الزمن ، وثانيها حوادث الطبيعة .

أما تقادم العهد ومرور الزمن فقد جعله الشعراء سبباً لخراب الديار في شعر الوقوف على الأطلال ، ولكنهم لم يهتموا به كثيراً ، ولم يقفوا عليه

(١) نشر القسم الأول في الصفحات ٣٥١ و ٦٣٥ و ٨٤٩ من المجلد (٤٣) .

طويلاً ، فما كان يرد في أشعارهم إلا الفينة بعد الفينة . وما كان ذكرهم له مع ذلك إلا سريعاً خاطفـاً ، لا يعتمد على تصوير أو تشبيه ، ولا يعدو الإشارة العابرة . قال عَبِيدُ بن الأبرص (١) :

تغيَّرت الديارُ بذي الدفينِ فأودية اللِّوى ، فرمالِ لينِ
فخَرْجَيْ ذِرْوةٍ ، فقَفا ذَيالٍ يُعَفِّي آيَه سلفُ السنينِ (٢)

فقد تغيرت آيات الديار وعفت ، لأن مرَّ السنين قد بعدت بها عن أيام غناها بأهلها وساكنيها .

وأما حوادث الطبيعة فقد جعلها الشعراء سبباً لخراب الديار أيضاً ، وذكروها كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال ، وتداولوها وأفرطوا في ذلك ، ولا سيما شعراء العصر الأموي . وحوادث الطبيعة التي اعتاد الشعراء أن يذكروها منذ الجاهلية ، ولم يكادوا يخرجون عن ذكرها في العصور التالية ، هي الرياح وما تذريه من التراب والرمال ، والسحاب وما ينشأ عنه من الأمطار والسيول . قال النابغة الذبياني (٣) :

أمِن ظُلامةَ الدِّمَنُ البوالي بمُرْفَضِّ الحُبَيِّ إلى وُعالِ
تعاوَرَها السواري والغوادي وما تَذْري الرياحُ من الرمالِ (٤)

* * *

ذكر الشعراء فيما يتعلق بالرياح أنها تعفي الديار ، وتمحوها بما تسفي عليها من الحصى والتراب والرمال ، فتدفنها وتخفيها عن العيون . وقد عدَّدوا في

(١) ديوانه ١٣٢ .
(٢) الخرج يعني الوادي ها هنا . وآيه : أي علاماته وآثاره ، واحدها آية .
(٣) ديوانه ٦٤ .
(٤) السواري : السحاب التي تنشأ في الليل ، من سرى يسري ، إذا سار ليلاً . والغوادي : السحاب التي تنشأ في الغداة ، أي الصباح ، من غدا يغدو ، إذا سار في الغداة .

معرض ذلك أكثر أنواع الرياح المعروفة عند العرب ، ومنها الرياح اللينة اللطيفة مثل ريح الصَّبا ، ومنها الرياح الشديدة العنيفة مثل ريح الشمال . وذكروا منها أيضاً الرياح التي تهب في فصول السنة المختلفة ، كالصايف وهي الرياح التي تهب في الصيف ، والمرابع وهي الرياح التي تهب في الربيع .

وقد عمد الشعراء في ذكر الرياح إلى شيء من الوصف والتصوير . فشبهوا أنينها بحنين النوق وهي تحِنُّ إلى أولادها التي سُلِبَتْ منها حنيناً حزيناً موجعاً . قال إياس بن عامر أعشى طرود (١) :

وعَرْصةُ الدار تستَنُّ الرياحُ بها تحِنُّ فيها حنينَ الوُلَّه السُّلُبِ (٢)

والتشبيه واقع بين حنين النوق الحزين الرتيب وبين دوي الريح الكئيب الرتيب حين هبوبها ومرورها بالديار . ولم يكثر الشعراء من تشبيه صوت الرياح بحنين النوق ، فلم ترد هذه الصورة في شعر الوقوف على الأطلال إلا نادراً . وربما كان السبب في ذلك دقة هذه الصورة ، وحاجتها إلى حس رهيف دقيق ، يخترق حجاب الواقع المنظور إلى ما لا تراه العينان .

على أن هؤلاء الشعراء قد أكثروا في وصف تخريب الديار من تشبيه الرياح بالعروس وبأذيال ثوبها التي تجرهـا وراءها . قال الأسود بن يعفر في ذلك (٣) :

جَرَّتْ بها الريحُ أذيالاً مُظاهَرَةً كما تجرُّ ثيابَ الفُوَّةِ العُرُسُ (٤)

(١) ملحقات ديوان الأعشى ٢٨٤ .

(٢) تستن الرياح بها : أي تسرع فيها .

(٣) ملحقات ديوان الأعشى ٣٠٠ ، واللسان (فو) .

(٤) الفوة : عروق نبات يستخرج من الأرض ويصبغ بها الثياب . والعرس : جمع عروس .

وقال عبيد بن الأبرص (١) :

جرَّتْ عليها رياحُ الصيف، فاطردتْ والريحُ فيهــــا تعفيها بأذيالِ (٢)

فالريح تمر بالديار وقد جرت وراءها سحباً من التراب والرمال ، تطمس بها آثار الديار ، كما تجر العروس أذيال ثوبها خلفها ، وتطمس بهـا آثار أقدامها على الأرض .

وقد لاحظ الشعراء حركة الرياح الدورية في دفن آثار الديار بما تحمله من التراب والرمال ، ثم الكشف عنها بنسف التراب والرمال . فكلما دفنته هذه بالرمل سفرت عنه الأخرى الرمل وأظهرته . لاحظوا هذه الحركة الدائمة ، وشبهوها بعمل النسج ، نسج الثياب .

قال امرؤ القيس في مطلع معلقته (٣) :

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحوملِ
فتُوضحَ فالمِقْراة لم يَعْفُ رسمُها لما نَسَجَتْها من جَنوب وَشمْألِ (٤)

فشبَّه حركة الرياح الدورية من جنوب مرة وشمال مرة بعمل نسج الثياب ، لأن الحائك يداول في حركته أثناء النسج يمنة مرة ، ويسرة أخرى .

وقال ذو الرمة في ذلك أيضاً (٥) :

خليليَّ ، عُوجا عوجةً ناقتيكما على طلل بين القِلاتِ وشارعِ
به ملعبٌ من مُعْصِفات نَسَجْنَه كنسج اليماني بُرْدَهُ بالوشائعِ (٦)

---

(١) ديوانه ١٠١ .
(٢) جرت عليها : أي جرت الريح التراب عليها كما تجر العروس أذيال ثوبها .
(٣) ديوانه ٨ .
(٤) نسجتها : تعاقبت عليها مرة هذه ومرة هذه . والجنوب : ريح الجنوب . والشمأل : ريح الشمال .
(٥) ديوانه ٣٠٥ .
(٦) المعصفات : الرياح الشديدة . والوشائع : لفائف الغزل ، واحدتها وشيعة .

فالرياح العاصفة تلعب بالديار ، وتنسج آثارها بألوان وأشكال مختلفة كما ينسج الصانع اليماني الثوب ، ويزينه بالوشائع . والصورة هنا تختلف عن الصورة الأولى ، لأن امرأ القيس اهتم بالحركة ، وعني برسم حركة المداولة في هبوب الرياح على آثار الديار ، وفي عمل الحائك في نسج الثوب ، بينما اهتم ذو الرمة بالألوان والأشكال الحادثة من عصف الرياح بآثار الديار ، ومن تزيين الصانع ثوبه بالوشائع حين نسجه .

* * *

وأما فيما يتعلق بالسحاب وتخريبها الديار فقد جعل الشعراء السحاب تعفي الديار بما ينشأ عنها من أمطار وسيول تمحو الرسوم ، وتجرف الدمن ، وتهدم النُّئيّ . وقد أكثروا من وصف السحاب والأمطار والسيول في معرض وصف تخريب الديار . وأكثروا من ذكر أنواعها وأشكالها وألوانها ، دون أن يعمدوا كثيراً إلى التصوير والتشبيه . ولكنهم وصفوا خلال ذلك العواصف وثورات الطبيعة وزحف السحاب وهطول الأمطار ، فأتوا من ذلك بصور جميلة شيقة ، ولا سيما شعراء العصر الأموي . ولقد فاق الأخطل أصحابه في ذلك كله . وهذا وصف له لعاصفة هبت على آثار ديار أحبته (١) :

دِمَنٌ تذعذعها الرياحُ ، وتارةً تُسْقى بمرتجِز السحاب ثِقالِ (٢)
باتتْ يمانيةُ الرياح تقـــوده حتى استقاد لها بغير حبالِ (٣)

---

(١) ديوانه ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٢) الدمن : الآثار التي يتركها الناس في الديار ، واحدتها دِمْنة . وتذعذعها : تفرقها .
(٣) تقوده : أي تقود الرياح السحابَ .

في مظلم غَدِق الرَّباب ، كأنما يَسْقي الأشقَّ وعالجاً بدوالي (١)

فهو يصور هنا عاصفة ثائرة ، نرى فيها الرعد مرتجزاً مدوياً ، والسحاب متراكماً ثقيلاً ، تدفعه الرياح الهائجة ، فيتدافع ويقبل بالمطر غزيراً كثيفاً ، وقد أظلم الجو ، واسودت جوانب السماء . وكل ذلك في لفظ يسير ، وجمل قليلة قصيرة ، تمضي سريعة كسرعة العاصفة الهائجة .

٤ — الحيوان الذي يألف الديار

كان العرب في الصحراء يتوخَّوْن في الأرض التي ينزلونها الخصب والإنبات وملاءمة شروط الحياة . ولذا كانوا يختارون أخصب الأماكن ، وأغناها بالماء والكلأ لنزولهم . ويبدو لنا أن وحوش الصحراء كانت تألف هذه الأراضي أيضاً ، وتُوطن بها ، بعد أن يخليها أهلها ، ويرحلوا عنها . كأن لها غريزة تشبه غريزة الإنسان في البحث عن المكان الملائم لشروط حياتها .

وكان العرب يمرون في أسفارهم ورحلاتهم بالديار التي هجروها ، فيرون الحيوانات تسرح وترتع في الأماكن التي عمروها هم في الأيام الماضية ، وقضوا فيها شطراً من حياتهم ، يرونه عزيزاً غالياً ، فكان ذلك يؤلمهم ويثير في نفوسهم ذكريات حلوة جميلة . ولذا كان الشعراء يذكرون هذه الحيوانات التي أوطنت بديارهم في شعر الوقوف على الأطلال ، كأن نفوسهم تأسى لذلك ، وكأن لسان حالهم يقول : ما أقسى صروفَ الأيام ! لقد عمرنا هذه الديار حيناً من الدهر ، ثم اضطررنا لهجرها ، فسكنتها بعدنا الوحوش . وكأننا

(١) في مظلم : أي في سحاب مظلم ، والسحاب المظلم يكون مليئاً بالماء . والغدق : السحاب الغزيرُ المطرِ . والرباب : السحاب المتعلق الذي تراه كأنه دون السحاب . والأشق وعالج : موضعان . والدوالي : جمع دالية ، وهي الدولاب يديرها الثور ، أو الناعورة لسقي الأرض .

بهؤلاء الشعراء يضنون بهذه الديار على الوحوش ، لأن فيها بقية من ذكريات حياتهم الماضية ، مازالت أطيافها تتردد جائية ذاهبة في ساحاتها وجنباتها .

ومهما يكن من أمر فقد ذكر الشعراء الحيوانات التي تألف الديار في شعر الوقوف على الأطلال ، وأكثروا من ذكرها ، حتى جعلوا ذلك معنى من المعاني اللازمة التي وردت في هذا الشعر على مدى العصور .

وحيوانات الصحراء قليلة ليست بالكثيرة . ومن استقراء شعر الوقوف على الأطلال نجد أن الشعراء لم يذكروا فيه سوى البقر الوحشي والظباء والنعام ، وصغار هذه الحيوانات أحياناً ، ثم الطيور ، ولا سيما الحمام . وقد أكثر الغزلون البداة من ذكر الحمام ، وتغنوا بصوته خاصة دون غيرهم من الذين سبقوهم أو الذين جاءوا بعدهم .

ويمكننا أن نقول إن الشعراء قد ذكروا هذه الحيوانات في معرض وصف الديار بالخلو والإقفار . فمرة يقولون إن الديار خالية مقفرة ، ليس بها أحد سوى قطيع من البقر ، أو سرب من الظباء ، أو إجل من النعام ، كما قال المرقش الأكبر (١) :

أمستْ خــلاءً بعد سكانها مقفرةً ما إن بهــا من إرَمْ (٢)
إلاّ من العين تَرَعّى بهــا كالفارسيِّين مشَوْا في الكُمَمْ (٣)
بعد جميع قد أراهم بهـــا لهم قِباب ، وعليهم نَعَمْ (٤)

ومرة يقولون إن الديار قد أقفرت من ساكنيها ، وتبدلت بهم الحيوانات ،

(١) المفضليات ٢٢٩ .
(٢) من إرم : أي من أحد .
(٣) العين : بقرات الوحش ، واحدتها عيناء . والكمم : القلانس .
(٤) الجميع : القوم المجتمعون النازلون في موضع واحد . وعليهم نعم : أي لهم أنعام تروح عليهم ، وهي الإبل .

كما قال النابغة الذبياني (١) :

عهدتُ بها حياً كراماً فبُدِّلَتْ خناطلَ آجالِ النعام الجوافلِ (٢)
ترى كلَّ ذيَّالٍ يعارضُ رَبْرَباً على كل رَجَّافٍ من الرمل هائلِ (٣)
يثرن الحصى حتى يباشرنَ برده ، إذا الشمسُ مجَّتْ ريقها،بالكلاكلِ (٤)

وقد وصف الشعراء هذه الحيوانات بصفات كثيرة ، وشبهوها في أثناء ذلك تشبيهات مختلفة ، حسب أنواعها كما رأينا في المثالين اللذين ذكرناهما . ولكنهم لم يقفوا على صور معينة يتداولونها ، ولا يخرجون عنها ، كما كان الأمر في وصف الديار وتصويرها مثلاً . ونحن نذكر ، إلى المثالين السابقين ، طرفاً من هذه التشبيهات على سبيل المثال .

شبَّهَ طرفة النعامَ بالإماء ، وهن يحملن حزمَ الحطب على رؤوسهن في قوله (٥) :

حابسي رسمٌ وقفتُ به لو أطيع النفسَ لم أرِمْهْ
لا أرى إلا النعامَ به كالإماء أشرفتْ حُزَمُهْ

والصورة طريفة جداً ، فالنعام قوائمه طويلة ، تبدو دقيقة بالقياس إلى جسمه الثقيل المشرف ، ويزيده إشرافاً ريشه المتدلي على جانبيه . وهو

(١) ديوانه ٦٣ .
(٢) الخناطل : الجماعات ، واحدتها خنطلة وخنطل . والآجال : قطعان النعام ، واحدها إجل .
(٣) الذيال : ثور الوحش الطويل الذيل والربرب : قطيع بقر الوحش . والرجاف من الرمل : الذي يتحرك وينهار حين وطئه من لينه . والهائل : الذي ينهال .
(٤) ريق الشمس : لعابها وهو يبدو في الهاجرة كأنه يسيل من شدة الحر . بالكلاكل : أي يثرن الحصى بالكلاكل ، وهي الصدور ، واحدها كلكل .
(٥) ديوانه ١٥٠ .

يُشبه بهذه الحالة الإماءَ اللواتي يحملن حزمَ الحطب على رؤوسهن ، فتبدو أجسامُهن دقيقةً رقيقةً تحت هذه الحزم العريضة المشرفة .

وشبَّهَ عبيد بن الأبرص الظباءَ بأباريق الفضة في قوله (١) :

بُدِّلَتْ منهم الديارُ نعاماً خاضباتٍ يُزْجين خَيْطَ الرئالِ (٢)
وظباءً كأنهن أباريقُ لُجَيْنٍ ، تحنو على الأطفالِ

والصورة هنا طريفة جداً أيضاً . والظباء تشبه أباريقَ الفضة حقاً بطول أعناقها وحسنها في دقتها ورقتها ورشاقتها وبياضها .

وقد أكثر الشعراء من وصف بقر الوحش بالعَيَن وطول الذيل والخَنَس . قال النابغة الذبياني (٣) :

أهاجكَ من سُعْداكَ مغنى المعاهدِ بروضة نُعْميٍّ فذات الأساودِ
تعاوَرَها الأرواحُ يَنْسِفْنَ تربَها وكلُّ مُلِثٍّ ذي أهاضيبَ راعدِ (٤)
بها كلُّ ذيَّالٍ وخنساءَ ترعوي إلى كل رَجَّافٍ من الرمل فاردِ (٥)

وهم قد أكثروا أيضاً من وصف هذه الوحوش بأنها مَوْشِيَّةُ الأكارع ، ولا سيما الشعراء الأمويون ، حتى صار ذلك شبه قاعدة عامة عندهم .

---

(١) ديوانه ١٠٦ .

(٢) نعام خاضبات : خضب الكلأ سيقانها في الربيع . والخيط : جماعة النعام . والرئال : فراخها ، واحدها رأل .

(٣) ديوانه ٣٣ .

(٤) تعاورها : تداولها هذه مرة ، وهذه مرة . والملث : السحاب يكون مطره دائماً . والأهاضيب : دفعات المطر .

(٥) الخنساء : بقرة الوحش التي في أنفها خَنَس . وترعوي : تعطف وترجع . والرجاف من الرمل : الذي يتحرك وينهار قليه .

قال الأخطل (١) :

فما به غيرُ مَوْشيٍّ أكارعُه إذا أحسَّ بشخص نابئٍ مَثَلا (٢)
يرعى بخينفَ أحياناً ، وتُضْمِره أرضٌ خلاءٌ وماء سائلٌ غَلَلا (٣)

والشعراء منذ الجاهلية قد اعتادوا كذلك عند ذكر هذه الحيوانات أن يذكروا معها صغارَها أحياناً ، وهي تتبع أُمَّاتها ، أو تمشي أمامها .

قال زهير (٤) :

هاج الفؤادَ معارفُ الرسمِ قفر بذي الهضبات كالوشمِ (٥)
تمشي به عينٌ ملمعةٌ تزجي جآذرَها مع الأُدْمِ (٦)

(يتبع) الدكتور حمزة حسن



(١) ديوانه ١٣٨ ـ ١٣٩ .
(٢) موشي أكارعه : أي نور في قوائمه سواد وبياض . ومثل : أي إذا أحس بشخص آتٍ زال عن موضعه .
(٣) خينف : وادٍ بالجزيرة . وسائل غللاً : أي يسيل متغلغلاً من مكان إلى مكان .
(٤) ديوانه ٣٨٢ .
(٥) معارف الرسم : علاماته المعروفة .
(٦) العين : بقرات الوحش ، واحدتها عيناء ، سميت بذلك لسعة أحداقها . والملمعة : التي بها لمع تخالف سائر لونها . والجآذر : أولادها ، واحدها جؤذر . والأدم : الظباء البيض .

أبو علي القالي وكتابه الأمالي

هو أبو علي القالي البغدادي . واسمه اسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان . وجده سلمان هذا مولى عبد الملك ابن مروان الأموي (١) . ولد سنة ٢٢٨ هـ ، ٩٠١ م . وقيل سنة ٢٨٠ هـ في بلدة « منازجرد » أو « منازكرد » في إرمينية من أعمال ديار بكر بالقرب من بحيرة « وان » التي تقع شرقي الفرات . ومنازجرد — كما يقول ياقوت — بلد مشهور بين خلاّط وبلاد الروم (٢) ، وأهلها أرمن وروم ، وفيها قلعة عرفت بهذا الاسم . غير أننا لا نجنح إلى رأي ياقوت الذي ينعت منازجرد بأنه مشهور ، بدليل أن أبا علي نفسه عدل عن الانتساب اليه وآثر بلداً آخر أكثر شهرة وهو « قالي قلا » الذي كان مركزاً للمجاهدين والغزاة المسلمين . وإلى مناز جرد ينسب الشاعر أبو نصر المنازي صاحب الأبيات المشهورة في وصف الطبيعة ، ومنها قوله :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا ... حنوّ المرضعات على الفطيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

وحين بلغ أبو علي الخامسة عشرة من عمره شعر أن منازجرد القصية لا تتسع لمطامحه فشد الرحال إلى بغداد طلباً للعلم ، وكانت منتجع الأدباء

---

(١) انظر وفيات الأعيان ١ : ٢٠٤ . وفي إنباه الرواة ١ : ٢٠٧ لا يرد ذكر لسلمان بل سليمان عوضاً عنه ، كما يذكر الحميدي في جذوة المقتبس أن جده سليمان كان مولى محمد بن عبد الملك .

(٢) معجم البلدان ٥ : ٢٠٢ . وخلاّط كما يذكر ياقوت عاصمة ارمينية .

وقبلة الطلاب والمريدين ، وفي ابهاء مساجدها كان يتربع شيوخ اللغة والأدب والنحو .. ومن حولهم حلقات حاشدة من طلاب المعرفة أمثال القالي . وقد روى أبو علي نفسه قصة رحلته ولقبه لتلميذه أبي بكر الزبيدي صاحب « مختصر العين » ، فقال :

« رحلت إلى بغداد سنة ثلاث وثلاثمئة ، فأقمت بالموصل ، وكتبت عن أبي يعلى الموصلي وغيره . ثم دخلت بغداد سنة خمس وثلاثمئة ، فأقمت بها إلى سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة . . . » قال الزبيدي : « وسألت أبا علي لم قيل له القالي ؟ فقال :

« لما انحدرنا إلى بغداد كنا في رفقة ، فيها أهل قاليقلا ، فكانوا يحافظون لمكانهم من الثغر ، ورأيت الناس يعظمونهم . فلما دخلت بغداد انتسبت إلى قاليقلا وهي قرية في منازجرد ورجوت أن انتفع بذلك عند العلماء فلم انتفع بذلك ، وعرفت بالقالي »

وفي هذا النص ما ينم على عصامية القالي ، وأنه وهو الغريب في بلد كبير مثل بغداد كان عليه أن يبدأ الطريق من أوله وأن يجد له مكاناً بين الزحام ، حتى قيض له أن يبلغ أقصى درجات الشهرة في المشرق والمغرب .

ونحن لا نعرف الكثير عن هذه المرحلة من حياة أبي علي مرحلة إقامته بالعراق . وبوسعنا القول إنه استطاع أن يعقد صلات علمية وثيقة مع شيوخ العلم في الموصل وبغداد ، وأن نباهته لفتتهم إليه وجعلته مقرباً اليهم . وأغلب الظن أن شهرته أخذت تستفيض بعد وفاة اكثر شيوخه وبخاصة ابن دريد صاحب كتاب « الجمهرة في اللغة » . وإذا ذاك استقل ابو علي * بشخصيته وتم له النضج ، وغدا بذكائه واقتداره في الرواية وتمكنه في اللغة ذا شأن في بغداد . يؤيد ذلك ما تذكره كتب الأدب

والتراجم من أمر إرسال خليفة قرطبة الأموي اليه يستدعيه وهذا يعني استفاضة شهرته حتى بلغت الأندلس . وقد يكون من أسباب إيثاره دون سائر العلماء بهذه الدعوة السامية أن جده البعيد سلمان أو سليمان في بعض الآراء كان مولى لعبد الملك بن مروان الأموي . غير أن بروكلمان يجنح إلى خلاف هذا الرأي ، فيرى أنه لم ينبه للقالي ذكر في بغداد وأنه « لما لم ير بعد دأب خمس وعشرين سنة أن دراساته قد أينع ثمرها وآنت أكلها عوّل على الرحيل إلى بلاد المغرب »[1] . ويبدو أن بروكلمان يفترض أن أبا علي رحل عن العراق مهاجراً يائساً ، ويغفل أمر دعوة الخليفة الأندلسي له ، وفرق كبير بين هذا الحافز وذاك .

ومهما يكن من أمر فقد كان خروج أبي علي من بغداد قاصداً إلى المغرب سنة ٣٢٨ هـ وكانت سنه يومئذ تناهز الأربعين . وقد مر أبو علي بأرض مصر حيث علم بوفاة احمد بن عبد ربه[2] صاحب كتاب « العقد الفريد » . ثم بلغ المغرب ووصل الأندلس سنة ٣٣٠ هـ بعد نحو ثلاث سنوات ، فاستقبل استقبالاً عظيماً وكان في مقدمة مستقبليه الأمير الحكم ولي العهد ولفيف من وزراء والده الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ولاة الأندلس من الأمويين في قرطبة ، وكان أول من تلقب بألقاب الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين وأقوى من حكم الأندلس . وكان الناصر قد استدعاه بعد أن بلغته شهرته وعلم فضله ، فوكل إليه أمر تعليم ابنه ، وعهد إليه بتربيته وتهذيبه ، « فتلقاه الحكم بالجميل ، وحظي عنده ، وقرب منه ، وبالغ في إكرامه . ويقال إنه هو كان قد كتب اليه ، ورغّبه في الوفود عليه . وكان قبل ولايته الأمور وبعد أن صارت اليه ، يبثه على

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧٨ .
(٢) تراث الإنسانية ، العدد الأول من المجلد الخامس . بقلم الدكتور أحمد كمال زكي .

التأليف وينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط والإكرام »[1] ويعد الحكم بن عبد الرحمن من أشدّ ملوك الأندلس شغفاً بالعلم وأكثرهم اشتغالاً به وحرصاً عليه . وبعضهم يعزو إلى القالي هذا الفضل وأنه غرس في نفس تلميذه الحكم حب المعرفة [2] ، ولكننا لا نذهب إلى هذا المدى في تأثير أبي علي في الحكم ، لأن الحكم كان في الثامنة والعشرين من عمره سنة وصول أبي علي إلى الأندلس [3] .

استوطن أبو علي قرطبة ونشر علمه بها وألف فيها أكثر كتبه ، وفي طليعتها كتاب الأمالي والنوادر وكتاب البارع في اللغة ، وكان يملي معارفه أيام الأخمسة بقرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء ، « فاستفاد الناس منه وعوّلوا عليه واتخذوه حجة فيما نقله » .

وكما عرف أبو علي في العراق وسائر المشرق بالقالي عرف أيضاً بالبغدادي بين أهل المغرب والأندلس بعد رحيله اليهم . وقد يرى بعض الباحثين في إطلاق المغاربة الأندلسيين لقب البغدادي على أبي علي ما يشير إلى مذهبه في اللغة والنحو والتصريف الذي اتّسم به نتيجة إقامته في بغداد وأخذه عن عدد من الشيوخ البغداديين في العراق . فكأنه الناقل لهذا المذهب البغدادي والمبشر به في المغرب والأندلس . غير أننا لا نجنح إلى هذا الرأي لأسباب ؛ منها أن مدرسة بغداد لم تكن مدرسة متميزة بالمعنى الدقيق وذات ملامح بارزة كما كان شأن مدرستي الكوفة والبصرة المتنافستين ، ولكنها

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ١٥٥ .
(٢) يجنح الأستاذ أحمد أمين إلى هذا الرأي في كتاب « ظهر الإسلام » ٣ : ٨٢ ـ ٨٣ .
(٣) تولى الحكم خلافة الأندلس من ٣٥٠ ـ ٣٦٦ سنة وفاته ، وكان مولده سنة ٣٠٢ .
(٤) معجم الأدباء ٧ : ٣١ .

خصيلة مشتركة للتفاعل العلمي بين البصريين والكوفيين ، وإن كان الميل إلى البصريين غالباً عليها . يؤيد ذلك ما نجده في العديد من كتب السلف من تجاوز لمذهب بغداد ، مثل كتاب « طبقات النحويين واللغويين » لأبي بكر الزبيدي ، فقد ميز البصريين من الكوفيين ثم أتبعهم المصريين والأفريقيين والأندلسيين بل ان كتاب الزبيدي نفسه يصنف أبا علي القالي في الطبقة السابعة من اللغويين البصريين ويعده من أصحاب ابن دريد ، كما يجعله في موضع آخر من كتابه في الطبقة العاشرة من النحويين البصريين ويذكر أنه من أصحاب ابن درستويه (١) . يضاف إلى ذلك أن أكثر من ترجموا لأبي علي في القديم أشاروا إلى أنه كان أعلم الناس بنحو البصريين . على أن أبا علي نفسه لم يكن في مصنفاته البارزة نحوياً بقدر ما كان لغوياً يعتني بنوادر العربية وغريبها ، ولغات العرب وأشعارهم ، ينمّ على ذلك كتاباه الكبيران : الأمالي والبارع . وقد ذكر الحميدي أن « أكثر من يحدث عن القالي بالمغرب أو يحكي عنه يقول أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي ، نسبوه إليها لطول مقامه بها ووصوله إليهم منها » أما أبو علي نفسه فقد آثر أن يجمع بين النسبتين حين استهل كتابه « الأمالي » بقوله : « قال الشيخ أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي رحمه الله .. » .

شيوخ القالي :

أتيح لأبي علي ان يتتلمذ على نخبة من العلماء الأجلاء ، فأخذ الحديث النبوي في بغداد عن أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي محدث العراق في عصره (— ٣١٧ هـ) وأبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني من فقهاء

(١) طبقات النحويين واللغويين ١٣٢ ، ٢٠٥ .

العراق (— ٣١٦ هـ) وأبي سعيد الحسن بن زكريا العـــدوي البصري (— ٣١٩ هـ) ، ويوسف بن يعقوب القاضي (— ٢٩٧ هـ) وابن صاعد يحيى ابن محـمد (— ٣١٧ هـ) ، وأبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المقرىء (— ٣٢٤ هـ) ، وحسين بن اسماعيل المحاملي ... وكلهم من علماء الحديث الذين تضبط عليهم الرواية بدقة وتشدد . وحين قصد أبو علي إلى الموصل في أول مقامه بالعراق لازم فقيهها وعالمها أبا يعلى الموصلي .

وما من شك في أن هؤلاء الشيوخ المحدثين تركوا أثراً منهم عند أبي علي القالي من حيث اعتماده الكبير على الرواية والحفظ وتوخيه الدقة والاتقان وحرصه على التمسك بالأسانيد ، على غرار كتب الفقه والحديث ، مما نلمسه بوضوح في كتب القالي وبخاصة في الأمالي والبارع .

وأخذ أبو علي علوم العربية عن أبي محمد عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي ويعـد أبرز تلاميذ المبرد (— ٢٨٨ هـ) ، وأبي اسحق ابراهيم بن السرى الزجاج من تلاميذ المبرد أيضاً (— ٣١١ هـ) ، وأبي الحسن علي بن سليمان المعروف بالأخفش الصغير (— ٣١٥ هـ) ، وأبي عبد الله ابراهيم بن محمد المعروف بنفطويه (— ٣٢٣ هـ) ، وأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي صاحب الجمهرة (— ٣٢١ هـ) ، وأبي بكر بن محمد بن السراج النحوي (— ٣١٦ هـ) ، وأبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري من أبرز علماء الكوفة (— ٣٢٨ هـ) ، ومحمد بن مزيد بن أبي الأزهر ومن شيوخ أبي الفرج الأصبهاني (— ٣٢٥ هـ) ... وسوى هؤلاء من اللغويين والنحويين . وكان أكثرهم من تلاميذ المبرد اللامعين وعرفوا مثله بكثرة المحفوظ ودقة الرواية وبغلبة الطابع العربي في ذلك كله بعيداً عن المؤثرات الثقافية التي كانت ترفد الفكر العربي من الفرس واليونان وتتجلى في نتاج فئة أخرى من الأعلام كالجاحظ وابن قتيبة وأبي الفرج الأصفهاني وقدامة بن جعفر وسواهم .. على

تفاوت في مدى هذا التأثر. وثمة شيوخ آخرون أخذ عنهم أبو علي ومنهم ابن شقير والطرز وجحظة وابن قتيبة الابن ... غير أن أبرز من أخذ عنهم أبو علي أبو بكر بن دريد، فقد كان شديد الملازمة له والأخذ عنه، كما ملأ كتبه بأخباره وأقواله ومجالسه، «وقد روى عنه كتابه الجمهرة رواية واعية متقنة وبخطه». وعندما توفي حزن حزناً شديداً وقال: «لا أرجو أن أقيم بعده في بغـــداد. وهذا ما حدث بعد حين من الزمان، فلم يلبث أبو علي في العراق سوى بضع سنين رحل بعدها إلى الأندلس. وقد كان آخر ما أورده أبو علي في كتابه «النوادر» قصيدة طويلة في رثاء ابن دريد، وكأنه أراد بها أن تكون خاتمة لكتابه الجليل ودليلاً على ما يكنه لشيخه من محبة ووفاء.

تلاميذ القالي:

رحل أبو علي عن بغداد وهو يناهز الأربعين، ولم يتح له أن يترك أثراً كبيراً في تلاميذه هنـــاك. على أن الحال كان على خلاف ذلك في الأندلس حيث ذاع فضله وكثر قاصدوه ولعل الحكم بن عبد الرحمن الناصر الأموي كان في طليعة الذين أفادوا من علمه. وأبرز من تتلمذوا على أبي علي إطلاقاً أبو بكر الزبيدي الأشبيلي، وهو لغوي كبير اشتهر بكتابيـه «مختصر العين» و«طبقـات اللغويين والنحويين»، «وكان إماما في الأدب ولكن عرف فضل أبي علي فمال اليه واختص به واستفاد منـــه وأقر له». (٢) وتذكرنا ملازمة الزبيدي لأبي علي في قرطبة بملازمة أبي علي لابن دريد في بغداد. وفي مؤلفات الزبيدي جانب كبير مما أخذه عن

(١) مقدمة الجمهرة في اللغة ١٧.

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت ٧: ٣٠، وجذوة المقتبس للحميدي ١٥٤.

شيخه وكان يجله إجلال أبي علي لابن دريد ، وفيه يقول [١] : « ولا نعلم أحداً من المتقدمين ألف مثله »

ومن النابهين الذين أخذوا عن أبي علي أحمد بن أبان اللغوي [٢] ويذكر السيوطي أنه صنف كتاباً اسمه « العالم » في اللغة ويقع في مئة مجلد ، وقد رتبه على الأجناس ، وبدأ فيه بالفلك وختم بالذرة . وأغلب الظن أن هذا الكتاب حصيلة تأثر ابن أبان بالقالي في نزعته اللغوية ، ولعل صاحب « العالم في اللغة » كان يضع نصب عينيه كتاب « البارع في اللغة » لأبي علي ويحرص على مباراته في مادته وحجمه .

ثقافة القالي :

إن معرفتنا بشيوخ القالي تتيح لنا أن نقف على طبيعة ثقافته ولون معارفه ، كما تلقي في الوقت نفسه ضوءاً على مذهبه في اللغة ومنهجه في التأليف . وقد رأينا أن معظم شيوخه في الموصل وبغداد كانوا نحاة مشهورين ومحدثين بارزين اتسموا بالطابع العربي الخالص وعرفوا بالضبط والإتقان .

وأكثر من ترجموا لأبي علي يشيرون إلى اقتداره في النحو ، فيصفه ياقوت بأنه أعلم الناس بنحو البصريين [٣] ، ويجعله القفطي في عداد أنباه النحاة ويقول عنه : « إنه قرأ على ابن درستويه كتاب سيبويه أجمع ، واستفسره جميعه وناظره فيه ، ودقق النظر وكتب عنه تفسيره وعلل العلة ،

(١) معجم الأدباء ٧ : ٣١ .
(٢) هو أحمد بن أبان بن سعيد اللغوي الأندلسي ، ترجم له السيوطي وقال إنه كان عالماً إماماً في العربية حاذقاً أديباً سريع الكتابة . توفي سنة ٣٨٢ هـ .
(٣) معجم الأدباء ٧ : ٣١ .

وأقام عليها الحجة ، وأظهر فضل البصريين على الكوفيين .. »[١] وعلى الرغم مما توحي به هذه العبارات فإن النحو لم يستأثر باهتمام أبي علي إلى هذا المدى . ومع أن أبا علي ألف في النحو كتباً مثل كتـــاب « المقصور والممدود » وكتـــاب « فعلت وأفعلت » ومشاكلها فإن هذه البحوث تعد أدخل في علم الصرف منها في النحو ، وطابعها لغوي أكثر منه نحوياً . كما أن مثل هــذه الكتب يقل في منزلته وأهميته عن سائر كتب أبي علي اللغوية وفي مقدمتها كتابه « الأمالي » ومعجمه « البارع » فنزعة أبي علي اللغوية بارزة في هذين الكتابين وغالبة على ما عداها . وعلى ذلك لا نعد أبا علي في عداد النحاة على علو كعبه في النحو على حين يتبوأ منزلة رفيعة بين اللغويين وأصحاب المعاجم في تراثنا العلمي . ولعل أبا علي في هذا الشأن أشبه ما يكون بالخليل بن أحمد الذي جعله بعض الذين ترجموا له في عداد النحويين البصريين دون اللغويين ، ومنهم أبو بكر الزبيدي في طبقاته ، على حين عرف الخليل باللغة وكان له فيه معجم العين كما كان لأبي علي معجم البارع . على أن أبا عليّ عرف لدى بعض القدماء بهذا الفضل وأنه « كان إماماً في علم اللغة متقدماً فيها متقناً لها »[٢] . وهكذا تكونت شخصية القالي على أنه إمام ثبت وحجة ثقة ، وأنه راوية للغة والأخبار في غاية التقييد والضبط . وقد عرف فضلاً عن ذلك بسعة العلم وقوة الحفظ وأنه كان يملي معارفه عن ظهر قلبه [٣] .

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١ : ٢٠٥ .

(٢) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ٢١٧ .

(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١ : ٢٠٥ .

كتب القالي :

ألف أبو علي كتباً عديدة مازال بعضها بعيداً عن متناول الأيدي بعد أن عبثت به الأيام . « وكانت كتبه في غاية التقييد والضبط والإتقان . وقد ألف في علمه الذي اختص به تآليف مشهورة تدل على سعة علمه وروايته »(١) ومن هذه المؤلفات التي نوردها كتب التراجم والفنون :

كتاب المقصور والممدود والمهموز : وقد بناه على التفعيل ومخارج الحروف من الحلق . وقد وصفه القفطي في إنباه الرواة بأنه « مستقصى في بابه ، لايشذ عنه شيء في معناه ، لم يوضع له نظير » . ونعته الحميدي بأنه لم يؤلف في بابه مثله (٢) ، ويقع في عشرة أجزاء (٣) .

كتاب الإبل ونتاجها وما تصرف معها ، ويذكر أيضاً باسم كتاب الإبل ونتاجها وجميع أحوالها ، وهو في خمسة أجزاء .

كتاب حلى الإنسان والخيل وشياتها .

كتاب فعلت وأفعلت : وقد جعله ثلاثة أمثال ما كان للزجاج (٤) .

كتاب أفعل من كذا (٥)

كتاب مقاتل الفرسان

(١) بغية الملتمس ٢١٨ .

(٢) يرد اسم الكتاب في جذوة المقتبس بأنه كتاب المقصور والممدود والمهموز ، ١٠٦ . على حين تورده كتب التراجم الأخرى باسم كتاب المقصور والممدود .

(٣) فهرست ابن خير ٣٥٣ ـ ٣٥٥ .

(٤) فهرست ابن خير ٣٥٣ .

(٥) انفرد بذكره ابن خير وأسنده إلى شيوخه في رواية متصلة .

كتاب تفسير القصائد والمعلقات : ولعله هو نفسه كتاب : تفسير السبع الطوال الذي ذكره ياقوت .

كتاب الأمالي ، وذيل الأمالي والنوادر : وهو أجل كتبه وأشهرها .

كتاب البارع : وهو معجم مسهب في ألفاظ العربية .

وينسب إلى القالي أيضاً أنه شرح ديوان ذي الرمة . ولكن أكثر المصادر لا تشير إلى ذلك .

ويحسن بي أن أقف وقفة طويلة بعض الشيء عند كتابين بارزين من هذه الكتب وهما : البارع ، والأمالي .

كتاب البارع كتاب في اللغة (١) ، بناه أبو علي على حروف المعجم . وتذكر كتب التراجم أنه جمع فيه كتب اللغة ، وعزا كل كلمة من الغريب إلى ناقلها من العلماء وأنه اختصر الاسناد عنهم . ومما يؤسف له أن هذا الكتاب الجليل لم يصل إلينا كاملاً . وقد نشر الأستاذ (فلتون A. S. Fulton) الجزء المخطوط لديه في المتحف البريطاني مصوراً عام ١٩٣٣ ، ويقع في ١٤٨ صفحة وقدم له بالانكليزية . غير أن أصل الكتاب أضعاف هذا الجزء . وقد ذكر ياقوت أنه يشتمل على ثلاثة آلاف ورقة وأنه يحتوي مائة مجلد وفي وفيات الأعيان وإنباه الرواة ان كتاب البارع يشتمل على خمسة آلاف ورقة . وأغلب الظن أن الذين تكلموا على البارع من المشارقة لم يصفوه من كثب ، ولذلك يبقى ابن خير وهو أندلسي عرف بتدقيقه أفضل من يحدثنا عن هذا المعجم الكبير . فهو يحدد حجمه بقوله : « إنه في مائة وأربعة وستين جزءاً ، عدد ورقها أربعة آلاف ورقة وأربعمئة ورقة وست

(١) انفرد حاجي خليفة في كشف الظنون بأنه ذكر للقالي كتاباً اسمه « البارع في غريب الحديث » ولم يذكر له البارع في اللغة ، ونظن أن هذا وهم منه ، أنظر ١ : ٢١٦ .

وأربعون ورقة » ويورد ابن خير مزيداً من التفصيل عن هـذا الكتاب فينقل عن الزبيدي تلميذ أبي علي قوله . « وهو في اللغات كلها ، زاد على كتاب الخليل نيفاً وأربعمئة ورقة مما وقع في (العين) مهملاً فأملاه مستعملاً ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة ، ومما جاء دون شاهد فأملى الشواهد فيه »[1] .

ويكاد المصنفون يجمعون على إجلال هذا الكتاب ، فيقول فيه الحميدي إنه « كاد يحتوي على لغة العرب »[2] . ويقول فيه ياقوت إنه « يحتوي على مائة مجلد لم يصنف مثله في الإحاطة والاستيعـاب » ، ثم ينقل عن الزبيدي قوله : « ولا نعلم أحـداً من المتقدمين ألف مثله »[3] . وبرغم اشتهار هـذا المعجم لم يمل الناس إليه منذ زمن قديم ، يقول السيوطي : « ولم يعرجوا أيضاً على بارع أبي علي البغدادي »[4] ولعل ذلك هو السبب في أننا لم تصل إلينا نسخة كاملة من المعجم[5] ومهما يكن من أمر فإن الأندلس تبقى حتى القرن الرابع ليأتيها القالي من المشرق ويؤلف فيها كتاب البارع أول معجم عربي في تاريخها[6] .

ونفهم مما قاله ابن خير وسائر من ترجموا للقالي ومن بعض أقوال أبي علي نفسه ان مصنفات أبي علي في معظمهـا قد ألفها في الأندلس وأنهـا

---

(١) الفهرست ٣٥٤ .
(٢) جذوة المقتبس ١٥٦ .
(٣) معجم الأدباء ٧ : ٢٩ .
(٤) المزهر ١ : ٤٥ ، والمعجم العربي : حسين نصار ٢٨٧ .
(٥) المعجم العربي : حسين نصار ٢٨٧ .
(٦) ذكر ابن خير أن الزبيدي ألف كتاباً اسمه « المستدرك » من الزيادة في كتاب البارع لأبي علي البغدادي ، على كتاب « العين » للخليل بن أحمد ، ٣٥٠ .

أهديت من صاحبها إلى الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وبخاصة كتاب الأمالي وكتاب البارع وكتاب فعلت وأفعلت . وقد ذكر ابن خلكان أن أبا علي اتخذ قرطبة مقاماً له وأن « أكثر كتبه بها وضعها ولم يزل بها » (١) .

كتاب الأمالي

كتب الأمالي :

الأمالي جمع إملاء على غير قياس . أو أنها جمع أملية كأغنية وأحجية وأثفية وأمسية . وقد ذكر السيوطي ان طريقة الإملاء أعلى وظائف حفاظ الحديث (٢) . وقال حاجي خليفة يصف التأليف في هذا الفن « هو أن يقعد عالم وحوله تلاميذه بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه ، ويكتبه التلاميذ فيصير كتابا ، ويسمونه الإملاء والأمالي . وكذلك كان السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية » (٣) . فالأمالي كل ما يمليه شيخ على طلابه في العلوم والمعارف المختلفة من فقه وتفسير وحديث نبوي ولغة ونحو وأدب . وهي في رأينا تطابق في مدلولها كلمة المحاضرة في العصر الحديث ، بل ان المحاضرة بهذا المعنى اصطلاح قديم إلا أنه لم يشتهر اشتهار الإملاء ؛ فقد ذكر أبو منصور الأزهري ان الأصمعي كان أملى ببغداد كتاباً في النوادر ، فزيد عليه ما ليس من كلامه ، فأنكر ذلك وقال : « خير العلم ما حاضرت به » (٤) . وإذا كان ثمة فارق بين

(١) وفيات الأعيان ١ : ٢٠٥ .
(٢) المزهر ٢ : ٣١٣ .
(٣) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ١ : ١٦١ .
(٤) انظر تهذيب اللغة ، المقدمة للأزهري .

الأمالي وبين المحاضرات فهو أن الأمالي تُملى في الغالب من الذاكرة وتلقى إلقاء مرتجلاً عن ظهر قلب ، على حين تتلى المحاضرة من أوراق أعدت من قبل . وبتعبير آخر أن المحاضرة صورة جديدة ومتطورة للإملاء تتسم بالتركيز ووحدة الموضوع . وكثيراً ما كان يستعاض عن كلمة أملية أو إملاء بكلمة مجلس . وثمة كتب عديدة تحمل هذا الاسم أشهرها « مجالس ثعلب » وتعرف أيضاً بأمالي ثعلب ، والتداخل بين هذين الاصطلاحين أيضاً شائع . في أمالي القالي مثلاً نجد مادة الكتاب مقسمة إلى مجالس ، وواضح أن المراد بكلمة المجلس مايلقى في جلسة واحدة ولعله يشبه الفصل أو الباب .

ومن هنا وتبعاً للمدلول الواسع لكلمة الأمالي كثرت الكتب التي تحمل هذا الاسم كثرة بالغة في تراثنا العربي على صعيد اللغة والنحو والأدب والفقه والتفسير ... الخ . وفي كتب التراجم والفنون مثل فهرست ابن النديم وفهرست ابن خير وكشف الظنون وسواها مصنفات لا تكاد تحصى وتحمل جميعاً كلمة الأمالي عنواناً لها . ولا يعنينا من هذه الكتب إلاّ ما كان في اللغة والأدب وهو أيضاً كثير نعدد منه ولا نعده :

أمالي ثعلب (— ٢٩١ هـ) .

أمالي اليزيدي (— ٣١٠ هـ) .

أمالي الزجاج (— ٣١٦ هـ) .

أمالي ابن دريد (— ٣٢١ هـ) .

أمالي أبي بكر الأنباري (— ٣٢٨ هـ) .

أمالي الزجاجي (— ٣٤٠ هـ) .

أمالي القالي (— ٣٥٦ هـ) .

أمالي بديع الزمان الهمذاني (— ٣٩٨ هـ) .

أمالي المرزوقي (— ٤٣١ هـ) .

أمالي المرتضى (— ٤٣٦ هـ) .

أمالي أبي العلاء (— ٤٤٩ هـ) .
أمالي ابن الشجري (— ٥٤٢ هـ) .
أمالي الزمخشري (— ٥٣٨ هـ) .
أمالي ابن الحاجب (٦٧٢ هـ) .

ولسنا ندري على وجه الدقة متى عرفت تسمية الكتب بالأمالي واختيرت لمصنفات بعينها ، ولكننا نرجح أن كتب الفقه والحديث كانت أسبق من سواها في هذا الصدد . ونحن نرى مثلاً كتاباً في الفقه يحمل اسم الأمالي لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٧ هـ ، وهو صاحب أبي حنيفة [١] . وهذا يدل على أن التسمية عرفت منذ القرن الثاني ، ثم شاعت خلال القرنين الثالث والرابع . ولعل أول كتاب بارز في اللغة والنحو والأدب من هذه الزمرة كتاب « مجالس ثعلب » من رجال القرن الثالث ويبقى كتاب ثعلب هذا إلى جانب أمالي القالي وأمالي ابن الشجري أشهر كتب الأمالي في هذا الموضوع .

منزلة أمالي القالي :

أما كتاب الأمالي لأبي علي القالي البغدادي فهو أشهر كتبه ، وبه عرف في مضمار التأليف . ولعله أشهر كتب الأمالي قاطبة . وكثيراً ما يطلق على أمالي القالي اسم (النوادر) . ولعل هذه التسمية من قبيل إطلاق الجزء على الكل . فالمعروف أن جزءاً من الكتاب يلي الأمالي كان مؤلفه قد ألحقه به وأسماه : « النوادر » كما أن الكتاب نفسه يعرف أيضاً باسم آخر هو « النوادر والأمالي » [٢] .

(١) طبع الكتاب في حيدر اباد سنة ١٣٦٠ هـ ويقع في نيف وسبعين صفحة .
(٢) انظر إنباه الرواة ١ : ٢٠٥ .

ولكتاب الأمالي منزلة رفيعة في تراثنا العربي، وقد عرف القدماء فضله وقدموه. يقول ابن خلدون في مقدمته: «وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم: أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين، وهي كتاب الكامل للمبرد وأدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي. وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع منها».

وفي تقديرنا أن كتاب الأمالي حظي بشهرة واسعة في الأندلس، وكان له صدى بعيد في محافلها الأدبية، لأنه أول كتاب من نوعه ألف في تلك الربوع [١] وغدا عمدة في موضوعه وأنموذجاً يحتذى في غزارة المادة وغنى النصوص وإتقان الرواية ودقة الضبط. يضاف إلى ذلك ما أصاب أبا عليّ نفسه مؤلف الكتاب من حفاوة بالغة في إثر وصوله إلى الأندلس وخروج جمع حاشد من العلماء وجلة القوم لاستقباله، على رأسهم الأمير الحكم نيابة عن أبيه الخليفة الناصر وما من ريب في أن نباهة شأن أبي علي على هذا النحو قد انعكست على ما كان عليه في قرطبة وبالتالي على كتابه «الآمالي».

وكان من أصداء هذه الشهرة أن أبا عبيد البكري الأندلسي [٢] نشط

(١) ذهب الأستاذ أحمد أمين في مجلة «الثقافة» ١٥ اكتوبر ١٩٤٠ إلى أن أمالي أبي علي النواة الأولى التي بذرها القالي في الأندلس من علوم المشرق. وفي هذا غلو ولا يتفق والحقيقة. وهذا الرأي قاده إلى الوهم حين قال إن مشهوري الأدباء في الأندلس ومنهم ابن عبد ربه قد تخرجوا في مدرسة ابي علي. وهذا يعني أن القالي أسبق وجوداً وتأليفاً وان ابن عبد ربه بمثابة تلميذه، على حين توفي ابن عبد ربه قبل بلوغ أبي علي الأندلس، وقد ناقش هذا الرأي بدقة محمد سعيد العريان في تقديمه للعقد الفريد.

(٢) هو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري عالم في اللغة والأنساب والشعر والأخبار سكن قرطبة وتوفي سنة ٤٨٧ هـ.

لشرح الأمالي وتفسير نوادره في كتابين يحمل أحدهما اسم « اللآلي في شرح أمالي القالي »[١] ، والثاني « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه »[٢] . وعلى الرغم مما يوحي به عنوان الكتاب الثاني من تحامل ومن حرص لدى البكري على تسقط هفوات أبي علي فإن هذه التعليقات زادت شهرة الكتاب استفاضة . وإن تصدي البكري للأمالي ينطوي في الوقت نفسه على إقرار بأهمية الكتاب وجلال شأنه .

كما أن أحمد بن عبد المؤمن الشريشي المتوفى سنة ٥١٩ هـ عمد إلى اختصار أمالي القالي . ومن جهة أخرى حرص بعضهم على احتذاء كتاب الأمالي والنسج على منواله ، كما فعل اللغوي الوافد على الأندلس أبو العلاء صاعد بن الحسن الذي ألف للخليفة الأموي المنصور كتاب « الفصوص » على نحو كتاب النوادر لأبي علي القالي[٣] . وكان أبو علي قد أملى كتابه من حفظه في الأخمسة بقرطبة وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة ، ثم أهدى أماليه إلى الخليفة الحكم وأشاد بفضله في خطبة كتابه .

نشر الأمالي :

نشر كتاب الأمالي أول مرة في مصر بمطبعة بولاق سنة ١٣٢٤ هـ[٤] .

---

(١) طبع في القاهرة سنة ١٩٣٦م بتحقيق جيد من قبل العلامة الهندي عبد العزيز الميمني . والكتاب يزيد في حجمه على كتاب الأمالي نفسه .

(٢) عمل على نشره الأب أنطون صالحاني وظهر في أربعة أجزاء بدار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ ، وطبع مع كتاب الأمالي نفسه ملحقاً بكتاب النوادر . انظر بروكلمان ٢ : ٢٧٩ .

(٣) انظر جذوة المقتبس للحميدي ٢٢٣ .

(٤) ذكر محمد عبد الجواد الأصمعي في خلال تصديره طبعة دار الكتب المصرية لكتاب الأمالي أن تاريخ نشره كان سنة ١٣٢٢ هـ ، على حين يذكر بروكلمان في تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧٩ أن نشره الأول كان سنة ١٣٢٤ هـ ، ويظاهره في ذلك عبد السلام هارون وهو في صدد تقديمه لأمالي الزجاجي . ونحن لم نوفق في الوقوف على الطبعة الأولى .

وقد صنع المستشرقان كرنكو ويفان فهارس للأشعار التي وردت في كتاب الأمالي وأصدراها في كتاب عام ١٩١٣ بمطبعة ليدن . ثم طبع الأمالي ثانية في دار الكتب المصرية عام ١٩٢٦ . وبعد ذلك أعيدت طباعته مرات في القاهرة ودمشق وبيروت ، وأكثرها كان بطريقة التصوير عن طبعة بولاق أو طبعة دار الكتب . وطبعة دار الكتب تشير إلى أن كتاب الأمالي مؤلف من جزءين يليهما جزء ثالث هو « ذيل الأمالي والنوادر » ثم جزء رابع صغير هو كتاب « النوادر » .

ويبدو أن تقسيم كتاب الأمالي لم يكن على هذه الصورة لأن كتب التراجم تفيد أن صاحبه جعله ستة عشر جزءاً للعامة ، ثم زاد فيه فبلغه عشرين جزءاً[1] . أما السيوطي فيقول في مقدمة (بغية الدعاة) انه اعتمد عليه في كتابه وأنه في خمسة مجلدات ، وقد كرر هذا القول في كتاب « المزهر » .

محتوى الأمالي :

قال أبو محمد بن حزم « كتاب نوادر أبي علي مبارٍ لكتاب (الكامل) الذي جمعه المبرّد ، ولئن كان كتاب أبي العباس أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب أبي علي أكثر لغة وشعراً » [2] . وقد وصف القفطي الكتاب أيضاً فقال[3] : « وهذا الكتاب غاية في معناه وهو أنفع الكتب ، لأن فيه

(١) انظر تراث الإنسانية ، المجلد الخامس : العدد الأول ، بقلم الدكتور أحمد كمال زكي .
(٢) معجم الأدباء ٧ : ٢٨ .
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١ : ٢٠٥ .

الخبر الحسن والمثل المتصرف والشعر المنتقى في كل معنى . وفيه أبواب من اللغة مستقصاة وليست توجد في شيء من كتب اللغة مستقصاة مثل ماهي في هذا الكتاب . وفيه القلب والإبدال مستقصى ، وفيه تفسير الإتباع وهو مما لم يستيقظ إليه أحد ، إلى فوائد كثيرة » .

على أن القالي نفسه يتكلم في خطبة كتابه على محتوى أماليه فيقول « وأودعته فنوناً من الأخبار ، وضروباً من الأشعار ، وأنواعاً من الأمثال ، وغرائب اللغات . على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته ، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته ، ولا فناً من الخبر إلا انتخلته ، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته .

ثم لم أخله من غريب القرآن وحديث الرسول ﷺ . على أنني أوردت فيه من الإبدال مالم يورده أحد وفسرت فيه من الإتباع مالم يفسره بشر » .

فمادة الأمالي كما أرادها أبو علي أمشاج من الأخبار والأشعار والأمثال ، يتخللها شيء من تفسير القرآن وحديث الرسول . ويغلب على ذلك كله الطابع اللغوي الذي يميز الكتاب ، على حين أننا قلما وجدنا المؤلف يتعرض لقضايا في النحو ، وهو في ذلك يسير في « أماليه » وفي « بارعه » أيضاً على هدي أستاذه ابن دريد . ومن خلال سطور المقدمة هذه أيضاً يتجلى أبو علي مؤلفاً شديد الثقة بنفسه معتداً بعلمه وبخاصة في مجال التصريف . وليس هذا تبجحاً منه ، فما بين دفتي كتابه من نصوص قيمة أمر لاينازع فيه ويدل على أن صاحبه حوى خطير علوم العربية في عصره .

منهج الأمالي :

إن غزارة المادة في كتاب الأمالي سمة بارزة فيه ؛ فهو غني بنصوص الشعر والنثر مما يعز وجوده في كثير من كتب الأدب . وإذا تساءلنا

عن المنهاج الذي آثره القالي في كتابه القيم هـذا خاب أملنا . إنه أشبه بمنجم من المعادن الثمينة تناثرت كنوزه وتوعرت إليه الدروب . وهذه السنة في التأليف التي تضيق بالتزام الموضـوع وتحديد إطاره ابتدعها الجاحـــظ ووطد أسسها في كتبه وقلما استطاع المؤلفون بعده أن يتحرروا منها . وكان جديراً بالقالي وقد عاش في القرن الرابع أي بعد المرحلة الجاحظية الرائدة بأكثر من قرن أن يعمد إلى شيء من تنسيق الأشباه والنظائر في كتابه . فقد رأينا عدداً ممن عاصروه بل سبقوه كابن قتيبه وابن عبـد ربه يجنحون إلى نوع من التبويب في مصنفاتهم الكبيرة ، برغم بقـاء ظاهرة الاستطراد فيها . ويمكن القول إن أبا علي مازال في عصره — القرن الرابع الهجري — يمثل الاتجاه العربي الخالص ، وينطوي على سمات المحافظـة دون أن يسمح بمقدار كافٍ للمؤثرات الدخيلة لتؤثر في منهجه ، على حين نجد بين معاصريه علماء كانوا في الطرف المقابل كقدامة بن جعفر الذي اصطنـــع في كتابه « نقد الشعر » تقسيمات شديدة التحديد .

لقد كان القالي حريصاً على التمسك بتقاليد العرب العلمية الـتي كانت ترتكز لديه على شعور الوفاء لشيوخه العلماء وتتجلى في الرواية عنهم وإسناد المنقول إليهم . وهذه الظاهرة تبرز أمامنا في كتاب أبي علي وتشيع في سائر كتبه ؛ حتى إننا قلما نقع خلال الأمالي على فقرة لاتبـــدأ بإحدى العبارات التقليدية المألوفة : (حدثنـا ، أو ، أنشدنا ، أو ، قرأت على فلان . . .) . حتى إن الرواية عن الآخرين تكاد تطغى على ما عداها من أقوال المؤلف وآرائه . إن أبا علي في أماليه باهت الشخصية ، يصطنع مذهب رجال الحديث في الرواية والإسناد ، ثم يدلي أحياناً بدلوه بين الدلاء في تواضع جم .

إن طابع الإملاء واضح في كتاب الأمالي ، وكأني بأبي علي في مسجد قرطبة وحوله جمع غفير من المريدين والطلاب والمتأدبين ، وقد أخذ يسترسل في إيراد الأخبار ويتدفق في إنشاد الأشعار ، ثم يجلو عويصها ويفسر غريبها ويشرح غامضها . وقد تدعو فكرةٌ فكرةً أخرى خطرت بباله ، أو قصيدة تذكره بما يشبهها في عبارة وردت فيها أو معنى عرض خلالها ، فإذا الرجل آخر الأمر قد ابتعد عن موضوعه الأول أشواطاً . ولم يكن هذا الاستطراد في ذلك العصر عيباً ، بل كان مزية يراد منها أن تذهب عن الطلاب السأم وتنتقل بهم أو بقراء الكتاب في جواء مختلفة الألوان والطعوم .

ولعل من أسباب ضعف التبويب وقلة التنظيم في كتاب الأمالي أن مؤلفه كان يعتمد على طريقة الإلقاء والإملاء من محفوظه وعن ظهر قلبه . ولا ريب أن في هذا اقتداراً ينتزع الإعجاب . وقد قال القفطي في كتاب أبي علي (١) : « وأملاه ظاهراً من قلبه ... وارتجل تفسير ما فيه » . وأبو علي نفسه يعتد بغزارة محفوظه فيقول في خطبة كتابه : « فأمللت (٢) هذا الكتاب من حفظي » . ويؤثر عن القدماء أنهم كانوا يرون أن الحفظ أعلى منازل العلم ، وأن الحفاظ في أسمى منزلة بين الفقهاء والمحدثين . لقد كان أبو علي من هذا القبيل ، وهو يباهي بأنه حوى علوم السلف ، غير أنه لم يكن يحرص على تجاوز هذا النطاق . ويبدو هذا الاعتداد أيضاً في خطبة كتابه حيث يقول .

« لما رأيت العلم أنفس بضاعة أعملت نفسي في جمعه ، وشغلت ذهني بحفظه ، حتى حويت خطيره ، وأحرزت رفيعه ، ورويت جليله ، وعرفت دقيقه ، وعقلت شارده ، ورويت نادره » . وهذا النص واضح الدلالة

(١) إنباه الرواة ١ : ٢٠٥ .
(٢) أمللت الكتاب على الكاتب إملالاً وأمليته عليه إملاءً أي قلته له فكتب عني ، والأولى لغة الحجاز وبني أسد والثانية لغة بني تميم وقيس . (المجلة)

على حرص أبي علي على الجمع والاستيعاب ، شأنه في ذلك شأن أكثر المؤلفين القدامى . وقد ذكر ابن بسام (١) أن أبا علي كان يقول لأهل الأندلس : « إن علمي علم رواية وليس بعلم دراية ، فخذوا عني مانقلت » وفي هذا القول ما يكشف عن طابع كتاب أبي علي فضلاً عن أنه ينم على تواضعه ، وهو ماهو بين العلماء في عصره .

وأغلب الظن أن أبا علي كان يأنس من أهل الأندلس وجمهور قرطبة شغفاً بأخبار المشارقة وإقبالاً على علمهم وأدبهم ، فيعمد من جهته إلى إرضاء هذا التطلع في نفوسهم ، ويحرص على أن يبهرهم بسعة محفوظه وغزارة علمه وكأنه يضع بين يديهم حصيلة ما حواه شيوخه وما آل إليه منهم . ومما يؤيد هذه الرغبة في نفسه أنه وهو المعدود على مذهب البصريين كان لا يتردد في النقل عن الكوفيين وأحياناً عن بعض الكوفيين غير الموثقين .

وينبغي أن نقر في الوقت نفسه أن أبا علي لغوي كبير وعالم جليل ، انفتح ذهنه على المعارف كلها دون تمييز بين مذاهب أهلها . وفي فهرست ابن خير ثبت طويل بأسماء الكتب التي حملها أبو علي معه إلى الأندلس ، من بينها كتب لعدد من علماء الكوفة كما أن أبا علي يكثر في أماليه من الرواية عن أبي بكر بن الأنباري وينقل أيضاً عن الكسائي وعن الفراء وعن ثعلب وسواهم من الكوفيين ، وينقل في الوقت نفسه عن سائر اللغويين والنحاة البصريين كالمبرّد والأخفش وابن درستويه وابن دريد والزجاج .

وفي رأي المستشرق بروكلمان أن أبا علي القالي كان أول من نقل علم الأدب إلى الأندلس (٢) وهذه منزلة رفيعة لم يبلغها أحد من المشارقة قبل

(١) انظر مقدمة كتاب الأمالي نقلاً عن جزء مخطوط من الذخيرة .

(٢) تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٧٧ .

أبي علي وبعده في مضمار اللغة والأدب ، ولا يضارعه فيها إلا زرياب في الموسيقي والغناء .

على أننا قد نظلم القالي إذا عددناه في كتابه جامعاً حافظاً للنصوص فحسب فالحق أنه فقيه لغوي قل نظيره ، مقتدر على شرح العويص من الألفاظ ، غير أنه بالإضافة إلى ذلك بل فوق ذلك ذواقة للنصوص ، بصير بجميل الشعر والنثر . ولعل قيمة كتابه الحقيقية إنما تكمن في هذه الناحية ، لأنه حوى زبدة فنون القول وآداب العرب . إن كتاب الأمالي في جملته مختارات أدبية رفيعة تتسم في الغالب بالأصالة والندرة ، وتنطوي في الوقت نفسه على الفائدة والمتعة .

الدكتور عمر الدقاق



ملاحظات

على الموسوعة العربية الميسرة [1]

– ٥ –

(حرف العين)

٢٨٤ — ص ١١٧٣ « عارف حكت ... أسس مكتبة باستانبول ... » .
من الملاحظات : إن الموسوعة لم تذكر أنه نقل مكتبته إلى المدينة ، وما تزال فيها ، ولها شهرة بمخطوطاتها .

٢٨٥ — ص ١١٧٤ « عائشة بنت أبي بكر ... كانت أديبة شاعرة . »
من الملاحظات : أنها لم تكن شاعرة . . .

٢٧٦ — ص ١١٧٥ « عائشة بنت طلحة . . . أديبة عـالمة ، عرفت بجمالهـا . . . » .

في الحديث عن عائشة بنت طلحة تقدم مسألة الجمال على غيرها ، وقد تكون عائشة أديبة بمعنى ما ، ولكن لا داعي إلى « عالمة » في موسـوعة ميسرة ولا سيما إذا وردت الصفة من غير تخصيص .

٢٨٧ — ص ١١٧٥ « عائشة التيمورية ... لها ديوان اسمه حلية الطراز ولها كتاب نتائج الأحوال » أما ديوان شعرهـا التركي فاسمه كشوفة . . . وللآنسة مي دراسة مشهورة عنها حيث أطلقت عليها اسم شاعرة الطبيعة » .

---

(١) نشر أول هذه الملاحظات في الصفحات التالية : ٢٨٥ و ٤٧٧ من المجلد (٤٢) و ١٠٤ و ٣٤١ و ٦٢٧ من المجلد (٤٣) .

أ ـ حلية الطراز ـ ط . نتائج الأحوال ـ ط . ب ـ كشوفه : شكوفه ـ ط . ج ـ ليست دراسة مي من النبوع بحيث يمكن وصفها بأنها مشهورة . د ـ شاعرة الطبيعة : شاعرة الطليعة .

الكتيب في الأصل « محاضرة » ألقتها مي في جمعية « فتاة مصر الفتاة » ونشرت فصولاً منها في المقتطف . . . وأعادت دار الهلال نشر هذه الفصول وزادت عليها مابقي مخطوطاً منها ؛ وصدرت باسم « شاعرة الطليعة » . . . ويبدو أن التسمية من إطلاق دار الهلال مشتقة إياهـا من الموامل التي قدمتها مي لدراستها الشاعرة : « إن عائشة تيمور طليعة اليقظة النسوية في هـذه البلاد . . . » صدر الكتيب في سلسلة كتاب الهلال . العدد ٦٨ .

٢٨٨ ـ ١١٧٥ « العباس : عم النبي ... وإليه يصمد العباسيون ... »

من الملاحظات : خير من « يصمد » : ينتسب (أو ينتمي) .

٢٨٩ ـ ص ١١٧٦ « العباس بن مرداس . . . شـاعر فارسي » : . . . فارس .

٢٩٠ ـ ص ١١٧٦ « العباسيون . . . قسّم [الرشيد] دولته قبل وفاته بين أولاده : الأمين والمأمون والقاسم ... »

أصح من هذا أن يقال بين أولاده : محمد وعبد الله والقاسم ... » (أو الأمين والمأمون والمؤتمن ـ إذا كان لابد من ذكر الألقاب) .

٢٩١ ـ ص ١١٧٨ « عبد الله بن رواحة ... شاعر فارسي ... » : فارس .

٢٩٢ ـ ١١٧٩ « عبد الباقي العمري ... له ديوان الترياق الفاروقي ، وديوان أهلة الأفكار في معاني الابتكار و « نزهـة الدهر في تراجم فضلاء العصر » .

أ ـ الترياق ـ ط ، ولا نعرف عن الكتابين الآخرين شيئاً يذكر .

ب – تكررت ترجمة عبد الباقي في ثلاثة أماكن من الموسوعة مرة تحت « عبد الباقي » ومرة « العمري » وثالثة « الفاروقي » . وأقل مايمكن عمله في هذه الحالة أن يترجم له في مكان ، ويحال على هذه الترجمة في الأماكن الاخرى .

٢٩٣ – ص ١١٨٣ « عبد العزيز بن سعود ١٨٨٠ – ١٩٥٣ ... أسس أسرته بنجد محمد بن عبد الوهاب واضع المذهب الوهابي » .

لم يؤسس أسرته بنجد محمد بن عبد الوهاب ، فقد كانت قائمة قبل ذلك ، وكان أميرها محمد بن سعود في الدرعية . ومحمد بن سعود هو مؤسس دولة آل سعود وليس محمد بن عبد الوهاب . وأهم ما يذكر من الأمر أن محمد بن عبد الوهاب لما ضاق ذرعاً ببلدته العيينة لجأ إلى الدرعية وفيها تم الاتفاق بينه ومحمد بن سعود ...

٢٩٤ – ص ١١٨٦ « عبدان : مدينة ج . غ إيران ... » : عبّادان .

٢٩٥ – ص ١٢١١ « العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله ... خلف ديوان شعر ، ألف عدة كتب في اللغة مثل : « التلخيص » وجمهرة الأمثال وشرح الحماسة .... وفي الأدب مثل « معاني الأدب » والمصون » ... الخ .

أ – لم يصل إلينا ديوانه . ب – لم تميز الموسوعة ما وصل من كتبه وما لم يصل ، وما طبع وما بقي مخطوطاً . ج – المصون ، ليس للعسكري أبي هلال وإنما هو للعسكري أبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد . وهو مطبوع . (الكويت . تح . عبد السلام محمد هارون ١٩٦٠) .

٢٩٦ – ص ١٢٢٠ « العقاد ... عني بابن الرومي ، وكتب عنه كتاباً كبيراً » : كتابا .

٢٩٧ — ص ١٢٣٦ « عمر أبو ريشة . . . له عدة قصائد » : له ديوانان وعدة قصائد . . .

٢٩٨ — ص ١٢٣٧ « عمران بن حطان . . . كان ثقة صادقا . . . » : . . . صدوقا .

٢٩٩ — ص ١٢٣٨ « عمرو بن قميئة . . . خرج مع امرئ القيس إلى قيصر ، ومات في الطريق . . . ذكره امرؤ القيس في معلقته » .

لم يذكره امرؤ القيس في معلقته . وذكرت الرواية أن عمرو بن قميئة هو المقصود بقول امرئ القيس : بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ....»

٣٠٠ — ص ١٢٣٨ « عمرو بن كلثوم . . . له ديوان أشهره معلقته . . . التي رددتها تغلب . . . وأخذ شعراؤها يضيفون إليها ، فبلغت قريباً من ألف بيت ، وصل إلينا جزء منها » .

لا قيمـــة للخبر الأخير ، ولا داعي إلى ذكره ـ على أي حال ـ في موسوعة ميسرة .

٣٠١ — ص ١٢٣٨ « عمرو بن معدي كرب ... شاعر فارسي » : عمرو ابن معديكرب (وهذا الخط أسير) شاعر فارس .

٣٠٢ — ص ١٢٣٨ « العمري ، عبد الباقي ... تزعم الأدب في أيامه ... » .

أ — مرت ترجمته على ص ١١٧٩ من الموسوعة وستمر تحت الفاء (الفاروقي).

ب — لم يتزعم الأدب في أيامه .

٣٠٣ — ص ١٢٤١ « عنترة . . . شاعر فارسي » : فارس .

(حرف الغين)

٣٠٤ — ص ١٢٤٩ « غ (غين) . . . قيمته في حساب الجمل ١٠٠ » : ١٠٠٠ .

٣٠٥ — ص ١٢٥٤ « الغزالي . . . درس علوم الفقهاء » : الفقـــه ،

٣٠٦ — ص ١٢٥٧ « الغلاييني ، مصطفى ... » لم تذكر له الموسوعة « الدروس العربية » وجامع الدروس العربية » .

(حرف الفاء)

٣٠٧ — ص ١٢٦١ « فاجنر ، ريتشارد . . . كما يعد من عباقرة الموسيقى فهو أيضاً في الصدارة من كتاب القصص » .

مسألة الشطر الثاني من الحكم فيها نظر .

٣٠٨ — ص ١٢٦٢ « فاجيه ، أميل . . . » : الصحيح فاگ[ـه] أو فج[ـه] لأنه Faguer .

٣٠٩ — ص ١٢٦٣ « فارس أو فارستان ... » لا داعي لـ « فارستان » ولعلها غير موجودة .

٣١٠ — ص ١٢٦٤ « الفاروقي ، عبد الباقي بن سليمان العمري ... شغف بالشعر الصوفي ومدائح الرسول ... له ديوان مطبوع باسم « الترياق الفاروقي من منشآت الفاروقي ... » .

أ — تكررت الترجمة للمرة الثالثة . ب — من منشآت : في منشآت .

٣١١ — ص ١٢٦٧ « . . . وفيما يلي ثبت بأسماء سلاطين الفواطم . . . »

أ — سلاطين : الخلفاء . ب — الفواطم : الفاطميين .

٣١٢ — ص ١٢٧٥ « الفتوة نظام أخذت به بعض البلدان العربية ، يستهدف إعداد تلاميذ المدارس الثانوية للحياة العسكرية » .

لم تشر الموسوعة إلى « الفتوة » في التاريخ العربي وهو أمر جدير أن يرعى ، ولا إلى الفتوة في المعنى الاصطلاحي لدى المتصوفة والشطار ، ولا إلى دلالتها في عهد الخليفة الناصر العباسي (تنظر مقدمة الدكتور مصطفى جواد على كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادي الحنبلي — بغداد ١٩٦٠) .

٣١٢ — ص ١٢٨٠ « فرانس ، أناتول . . . » لم تذكر الموسوعة بين ما ترجم له إلى العربية « الآلهة عطاش » (القاهرة ، ١٩٥٢) .

٣١٣ — ص ١٢٨٣ « فرح أنطون . . . ترجم « أتالا » لشاتوبريان » اتالا : أتالا Atala .

٣١٤ — ص ١٢٨٧ — ٨ « الفرزدق ... هو أحد الشعراء الثلاثة الذين عدّهم النقاد أمراء الشعر الأموي . تفوق على زميله في الفخر ... » .

أ — من عدّهم أمراء ؟ أي من أطلق هذه اللفظة ؟ إنها ليست مما يطلقه القدماء . إنما هم فحول . . .

ب — الشعراء الثلاثة . من هم ؟ كان المناسب أن تنص الموسوعة على أسمائهم : جرير والفرزدق والأخطل .

٣١٥ — ص ١٣٣٢ « فورستر ... روائي انجليزي ... اشتهر بالنقد الأدبي وبخاصة في كتابه أوجه الرواية .

ترجمت له مجموعة من القصص ، وترجم كتابه النقدي بعنوان « أركان القصة » .

٣١٦ — ص ١٣٣٤ « فوق الواقعية أو سيريالية ، حركة أدبية وفنية . . . أسسها . . . أندريه بريتون . . . » .

أ — سيريالية : سريالية Surréalisme . ب — كان المفروض أن يعرف بها في حرف السين (سريالية) لأنها هكذا عرفت وشاعت . فاذا وصلنا إلى حرف الفاء ، قلنا — إذا كان لا بد من القول — : فوق الواقعية ينظر سريالية . جـ — اندريه بريتون : أندرَ[ه] برتون André Bréton .

٣١٧ — ص ١٣١٣ « فلوبير ... أصيب بمرض عصبي جعله يمكث طويلاً في كرواسيه ... » .

كرواسيه : كرواَس[ه] Croisset .

٣١٨ — ص ١٣٣٦ « فنون تشكيلية ... في العراق ... حافظ الدروبي ، وطارق مظلوم وجواد سليم وفاضل عباس واسماعيل الشيخلي ومحمود صبري » .

أ — كان الأولى أن يدل تسلسل الأسمـــاء على أمر نسبي من المهم والأهم ، ويكون المناسب في هذه الحالة البدء بجواد سليم .

ب — بين الأسماء التي ذكرتها الموسوعة من لم يبلغ درجة الذكر ووصفه بالقطب .

حـ — أغفلت الموسوعة أسماء لامعة مبدعة مثل فائق حسن ، خالد الجادر ، جميل حمودي ، كاظم حيدر ، محمد غني حكمت ، ضياء العزاوي ...

٣١٩ — ص ١٣٠٢ « فضولي ... اتصل بسليمان القانوني ... فهنـــأه بقصيدة كوفىء عليها بماهية شهرية ... » .

كلمة « ماهية » لاتليق بموسوعة وكان من الممكن استعمال : رسم أو مرتب أو راتب أو مشاهرة ...

٣٢٠ — ص ١٣١٢ « فلنسيا ... » : بلنسية .

٣٢١ — ص ١٣٥١ « فيلبي ، ... عين ... وزيراً للداخلية في العراق (١٩٢٠ — ١٩٢١) ولكنه استاء من سياسة الحكومة البريطانيـة إزاء ذلك القطر فاستقال ١٩٢٥ .

أ — لم يعين فلبي — ولا أي انجليـزي آخر — وزيراً للداخليـة (أو غيرها) في العراق .

ب — إنما كان مستشاراً للداخليـة (١٩٢٠ — ١٩٢١) ثم خرج من العراق لدى مجيء فيصل . حـ — مسألة « استـــاء » فيها نظر .

د — لم يبق في العراق بعد ١٩٢١ أي أنه لم يكن فيه حتى ١٩٢٥ .

٣٢٢ — ص ١٩٥٧ فيـني ... فرنسي ... من أشهر قصصه ... شاترتون ... » شاترتون مسرحية وليست قصة .

٣٢٣ — ص ١٣٥٨ « ڤيت ... مستشرق فرنسي ... حقق الجزء الأول من كتاب « الخطط » للمقريزي .

لقد حقق ڤيت أكثر من جزء .

حرف القاف

٣٢٤ — ص ١٣٦٣ « القالي ... ولد في منز اجرد بأرمينية » مناز جرد (أو مناز كرد . قال ياقوت » مناز جرد بعد الألف زاي ثم جيم مكسورة وراء ساكنة ودال ، وأهله يقولون بالكاف ... » .

٣٢٥ — ص ١٣٧٢ « قذر البواليع » : « تتركب الأنظمة الحديثة لنقل مياه القاذورات بالمدن إلى مجار من الحديد أو الخرسانة . . . ينطلق فيها قذر البواليع من التركيبات الصحية إلى مجاري النازل ومنها إلى مجاري الشارع » .

أ — هل يكون قذر البواليع مصطلحاً ؟ ب — لم التخصيص بالبواليع ؟ حـ — البواليع : البلاليع .

٣٢٦ — ص ١٣٧٣ « قرامطة ... حمدان ولقبه قرميطي أي أحمر العينين ... » .

أ — قرميطي : القرمطي . ب — جاء لدى الطبري ، حوادث سنة ٢٧٨ « ... وكان في القرية رجل ... أحمر العينين شديد حمرتها ، وكان أهل القرية يسمونه : كرميته لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العينين » .

٣٢٧ — ص ١٣٧٤ « قرائيون » : قرّاءون .

٣٢٨ — ص ١٣٧٥ « قرطاچة » : قرطاجة .

٣٢٩ — ص ١٣٧٦ « قرطاچنة » : قرطاجنة .

٣٣٠ - ص ١٣٧٩ « القزويني ، زكريا . . . كتاب عجائب البلدان أو « آثار وأخبار العباد » وفي رواية ... آثار البلاد وأخبار العباد .

٣٣١ — ص ١٣٨٣ « قصة قصيرة ... ادجار آلن پو » : ألن Alan .

٣٣٢ — ص ١٣٩٣ «قم‌مدينة...وسط إيران ... يحج إليها الشيعة » :يزورها.

٣٣٣ — ص ١٤٠٨ « قولي خان ، محمد هادي رضا خان » : رضا قليخان هدايت ...

(حرف الكاف)

٣٣٤ — ص ١٤٢٨ « الكاظمي ... له ... ديوان شعر في جزءين ... » : له ديوان صدرت منه مجموعتان (جزءان) وأعلن عن الثالثة .

٣٣٥ — ص ١٤٤٧ « كربلا . . . يحج إلى كربلا الآلاف من الزوار المسلمين » : يزورها .

٣٣٦ — ص ١٤٦٤ « الكعبة . . . ترسل كسوة الكعبة من مصر كل عام منذ عهد الملك الصالح نجم الدين إلى اليوم » : توقف الإرسال منذ حوالي عشر سنوات وأقامت المملكة العربية السعودية مصنعاً خاصاً بكسوة الكعبة .

٣٣٧ — ص ١٤٧٦ « كليلة ودمنة ... ترجمها عبد الله بن المقفع إلى العربية وابتغى في ترجمتها إرشاد الخليفة المنصور إلى ما يجب أن يتمسك به من خُلُق » .

الرأي شخصي وخاص وليس مقرراً ، فهو لا يصلح أن يعرض في موسوعة ميسرة ، وإذا كان لا بد من ذكره ، وجب الإشارة إلى ذلك وسبقه بكلمة مثل : ربما ، ويُظن ، ويمكن القول . . . الخ .

٣٣٨ — ص ١٤٩٦ « كوپيه . . . من أهم مسرحياته « في سبيل التاج » . . . التي ترجمها المنفلوطي إلى العربية » .

أ — كوبيه : كوبِّ[٤] Coppée . ب — المنفلوطي لا يترجـــم ، ولا يعرف الفرنسية ، إنما يترجم له ، ويُلخص ويتصرف . جـ — جاءت في اللغة العربية على شكل قصة .

٣٣٩ — ص ١٥٠٧ « كوكتو ... من أشهر مسرحياته « الأبناء المتعبون » ...

أ — مسرحياته : قصصه . ب — الأبناء المتعِبون (بكسر العين ، إذا كان لا بد من الاحتفاظ بالترجمـة) لأنها Les Enfants Terribles .

٣٤٠ — ص ١٥٠٩ « كولت أديبة فرنسية ، أهم رواياتها « عزيزتي » .

عزيزتي : عزيزي (إذا كان لا بد من الاحتفاظ بترجمـة الموسوعة . وإلا فهي حبيبي إذا أريد معناها ، وهي شيري Chéri إذا طلبت الدقة والصحة فلقد استعملت اللفظة علماً للفتى الذي أحبته بطلة القصة الكهلة Léa . وبهذا الاسم أي (شيري) نقل القصة إلى العربية محمد بدر الدين خليل (القاهرة . سلسلة الروايات العالمية ـ الدار القومية ـ) .

٣٤١ — ص ١٩١٩ « كونديه أسرة أمراء فرنسية » : كونْدَ [٥] Condé .

٣٤٢ — ص ١٥٣١ « كيمياء قديمة (الخيمياء) » ، لا معنى لـ (الخيمياء) هنا ، ولا سبب .

(حرف اللام)

٣٤٣ — ص ١٥٣٨ « لاروشفوكو ... شهرته الأدبية تعزى إلى الحكم والأمثال التي برع في نظمها .

أ — إنها خطرات وأقوال أكثر منها (حكماً وأمثالاً) ... Réflexions .

ب — في نظمها : في كتابتها ، لأنها نثر وليست شعراً .

٣٤٤ — ص ١٥٥٩ « لغة العرب ... الأب أنستاس ماري الكرملي — أصدر جريدة العرب .... » .

لم يصدر « العرب » الكرملي ، وإنما أصدرتها السلطة الإنكليزية المحتلة ، واختارته محرراً لها . . .

٣٤٥ — ص ١٥٧٧ « لوساج ، الن رينيه . . . كتب قصة « مغامرات جيل بالاس ... » .

أ — .... رنَ[ـه] René . ب — « قصة جل بلاس Histoire de Gil Blas .

(حرف الميم)

٣٤٦ — ص ١٦٣١ « المأمون . . . . ولم ينتقل المأمون من مرو إلى بغداد قبل ست سنوات » . العبارة غير مستقيمة قد يكون أفضل منها : لم ينتقل المأمون من مرو إلى بغداد إلا بعد مضي ست سنوات على بدء خلافته . . .

٣٤٧ — ص ١٦٤١ « متحف الآثار المصرية . . . » .

كان المناسب في موسوعة عربية أن تعرف ـ إلى جوار تعريف متحف الآثار المصرية ـ بمتاحف الآثار الأخرى ، كالعراقية والسورية . . . الخ .

٣٤٨ — ص ١٦٧٠ « مدحت باشا . . . » .

ليس من المعقول أن تتحدث موسوعة عربية عن مدحت باشا دون الإشارة إلى تاريخه في العراق .

٣٤٩ — ص ١٦٧١ « مدرسة : ليس أدل على حب المصريين للعلم من أنهم أطلقوا على دور العلم والمعرفة : بيوت الحياة . وبيت الحياة علم عند الفراعنة على كل دار لها صلة بالكتابة والقراءة والثقافة . . . وكلها تابعة للمعبد . . .

. . . ولا نظن أن المدرسة في مصر القديمة اختلفت كثيراً عن مثيلتها أيام العصور الوسطى . فقد كانت كذلك في معابد اليهود ، ثم في كنائس النصارى ، وأخيراً في المساجد عند المسلمين » .

أ — المفروض في كلام على مادة « مدرسة » أن يبدأ ـ أو أن يتضمن

في الأقل ـ تعريفاً لها وتحديداً لنشوء اللفظة تاريخياً عند العرب ـ ولكن شيئاً من هذا لم يقع . ب — بل إن الموسوعة لم تتعرض ـ كما يجب ـ إلى المدرسة عند العرب والمسلمين ، ويكفي أنها لم تقترب من اسم « النظامية » و « المستنصرية » . . . جـ — وليس المهم الاقتصار على الزمن الفرعوني وإهمال العهد العربي الإسلامي . . . د — مسألة « بيوت الحياة » فيها نظر . . .

٣٥٠ — ص ١٦٨٠ « مرجليوث . . . مستشرق انجليزي . . . حقق ونشر « ديوان الحماسة » . . .

كلام به حاجة إلى التحديد .

٣٥١ — ص ١٦٨٨ « مرميه ، پرسپر ... تعزى شهرته إلى القصص القصيرة التي كتبها ، ومنها كولومبا ... وكارمن ... »

أ — مرميه ، پرسپر : مَرمَــ[٩] (أو مريـ[٩] ، پروسپر . Mérimée , Prosper

ب — كولومبا وكارمن منقولتان إلى اللغة العربية .

٣٥٢ — ص ١٧٣٠ « المقتدر بالله . . . وأسس الفواطم دولتهم » : الفاطميون .

٣٥٣ — ص ١٧٥٥ « منصور فهمي ، فيلسوف وباحث عربي ... » . ليس منصور فهمي فيلسوفا وإن درّس الفلسفة والأخلاق بالجامعة المصرية.

٣٥٤ — ص ١٧٨٠ « موسوعة ... وكان تطور التأليف الموسوعي الذي يعتمد على الترتيب الأبجدي بطيئاً ... أبجدياً ... أبجدياً ... ثم ظهرت بين عامي ١٩١٣ — ١٩٣١ دائرة المعارف الإسلامية ... وبدأت سنة ١٩٥٤ لجنة من المستشرقين المحدثين بإشراف كرامرز وجيب وبرنارد لويس في إخراج طبعة جديدة ... أبجدياً ... »

أ — كل « أبجدي » : هجائي ب — درست الموسوعة الميسرة مانشر بعنوان « دائرة معارف » تحت حرف الميم (موسوعة) كأن الأصل هي

لفظة موسوعة وكأنها اللفظة التي لاتوجد سواها ، وهذا غير صحيح ، لأن لفظة « دائرة معارف أشهر وأقدم » ولذا حسن — في أقل تقدير — أن تكتب تحت حرف الدال : دائرة معـارف تنظر موسوعة . ج — كرامرز : Kramers .

٣٥٥ ص ١٧٨٥ « الموطأ : « كتاب لابن مالك ... انظر ابن مالك ، أنس ص ٢٦ ... »

ابن مالك ، أنس : ابن أنس ، مالك (لأنه مالك بن أنس) .

٣٥٦ — ص ١٧٩٠ « مونتسكيو ... مؤلفه « الرسائل الفارسية » ... وروح القوانين ... »

أ — الرسائل الفارسية : رسـائل فارسية Lettres Persannes - مترجم إلى العربية ب - روح القوانين — ت

٣٥٧ — ص ١٨٠٠ « مئذنة ... وكانت تسمى منارة ... » : منارة (كانت ومازالت ...)

٣٥٨ — ص ١٨١١ « النابغة الجعـدي ... هـاجى ... أوس بن مغراد » : مغراء .

٣٥٩ — ص ١٨١٤ « ناجي ، إبراهيم ... أصدر ديوانين « وراء الغمام » ١٩٣٤ ، و« ليالي القاهرة » ١٩٤٤ ... »

نشر ابراهيم ناجي في حياته ديوانين من شعره ، هما : « وراء الغمام » .. وليالي القاهرة ... ونشرت له دار المعارف بعد وفاته ديواناً ثالثاً هو « الطائر الجريح » ثم تألفت لجنة لجمع شعره في « ديوان ناجي » فصـدر عن دار المعارف سنة ١٩٦١ ولكن لهذا الديوان مشكلة فقد ضمنه الجامعون شعراً لغير ناجي ... »

٣٦٠ — ص ١٨١٦ « الناصر لدين الله : لقب عـدة أمراء زيديين في اليمن ... »

أهملت الموسوعة « ناصراً » مهماً جداً هو الخليفة العباسي أبو العباس أحمد بن المستضيء المتوفى سنة ٦٢٢ من الخلفاء العظام — ولا يمكن أن يهمل .

(حرف النون)

٣٦١ — ص ١٨٢٩ « زفال ، جيراردي كاتب فرنسي ترجم عن الألمانية كثيراً من القطوعات الأدبية ، منهـا مسرحية « فاوست » ١٨٢٨ وبعض الأقاصيص مثل « بنات النار » ١٨٥٤ و « رحلة إلى الشرق » ١٨٥١ ، وأخيراً « أورليا ١٨٥٤ » .

أ — القطوعات الأدبية ، منها مسرحية فاوست . . . : الآثار الأدبية ، ولعلها في الأصل : المسرحيات . ب — يفهم من نص الموسوعة أن كل هذه الآثار المذكورة ترجمات وهذا غير صحيح لأن بنات النار . . . الخ من تأليف زفال . ج — إذا كان تاريخ كتابة « رحلة إلى الشرق » سنة ١٨٥١ — وهو صحيح فلم تؤخره عن « بنات النار » ١٨٥٤ !

٣٦٢ — ص ١٨٣٨ النظامية . . . وقام نظام الملك بالتعليم بالمدرسة . . . وأساتذتها جميعاً من أهل السنة . . . » .

أ — لم يكن نظام الملك معلمًا . . . ب — السنّة : الشافعية .

٣٦٣ — ص ١٨٥٦ « نوح باني سفينة نوح . . . » .

لم تشر الموسوعة إلى أنه « نبي » .

٣٦٤ — ص ١٨٦٨ « نيكلسون . . . مستشرق انجليزي . . . ألّف « التاريخ الأدبي للعرب » : تاريخ الأدب العربي Aliterary his. of The Arabes .

(حرف الهاء)

٣٦٥ — ص ١٨٩٦ « هرون الرشيد ... ثار عليه الخوارج بقيادة الوليد ابن طريف الشاربي » : الشاري .

٣٦٦ — ص ١٩٠١ « همدان : مدينة ... بغربي إيران : همذان .

٣٦٧ — ص ١٩١٤ « هورثون نثانيل ... روائي وكاتب قصصي أمريكي » هوثورن Hawthorne .

٣٦٨ — ص ١٦١٤ « هوجو . فكتور ... من أشهر مسرحياته هرناني ، الترجمة الإنجليزية ١٨٣٠ ... ومن أعظم رواياته : البؤساء ١٨٦٢ ، عربها الشاعر حافظ إبراهيم » .. دفن في الباتثيون .. »

أ — Hernani مهمة في تاريخ المسرحية الفرنسية (الرومنطيقية) ، وعام ١٨٣٠ تاريخها بالفرنسية وهو أولى أن يذكر من تاريخ الترجمة ...

ب — حافظ إبراهيم لايعرف اللغة الفرنسية ولم يعرب البؤساء وإنما ظهر باسمه تعريب لجزء يسير من هذه الرواية الضخمة . إن الذي عربها هو منير بعلبكي وجاءت مترجمة في خمسة مجلدات (بيروت . دار العلم للملايين

حـ — الباتثيون : البانتيون Panthéon .

٣٦٩ — ص ١٩٢٩ « هيكل ، محمد حسين ... ولد في قرية هيكل بمركز السنبلاوين بمصر ... »

جاء في كتاب « الدكتور محمد حسين هيكل » الذي أشرف عليه أحمد لطفي السيد (القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٥٨ وكتب فيه حياة محمد حسين هيكل الدكتور حسين فوزي النجار : « ولد .. لأبوين من صميم الريف المصري بقرية كفر غنّام إحـدى قرى مديرية الدقهلية . وكان أبوه حسين أفندي سالم هيكل سيد قومه وعشيرته ... »

(حرف الياء)

٣٧٠ — ص ١٩٩٧ يونس بن حبيب لغـوي ولد ببلدة (جبل) بالعراق .... »

جبل : جَبُّل ، قال ياقوت : جَبُّل (بفتح الجيم وتشديد الباء وضمها ولام) بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي ... » — وينظر نور القبس المختصر من المقتبس ص ٤٨ : « قيل إنه من أهل جَبُّل » ؛ أنساب السمعاني (الجَبُّلي) ، ابن خلكان (يونس) ٦ : ٢٤٥ .

الدكتور علي جواد الطاهر



كتاب «الجوهرتين»

Al Hamdani: Kitab al Gauhratain Al 'Atiqatain Al - Ma'iatain von Christopher Toll, Uppsala 1968 P. 389.

الهمداني أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب لسان اليمن ، كما اختار أن يلقب نفسه ، طود من أطواد الثقافة العربية ، ومع شهرته لدى المستشرقين فانه يكاد يكون مغموراً بين بني قومه من العرب ، إلا منذ عهد قريب حيث تصدى لنشر بعض مؤلفاته أحد أبناء اليمن وعلمائها : الأستاذ المحقق محمد ابن علي الأكوع الحوالي الحميري ، فنشر الجزأين الأولين من « الإكليل » وقام بتحقيق « صفة جزيرة العرب » ، فأعدَّهُ للنشر ، ومن قَبْلُ طُبع هذا الكتاب طبعتين ، وطبع الجزآن : الثامن والعاشر من كتاب الإكليل.

والهمداني كما قلنا في كلمة سابقة ، واسع جوانب المعرفة ، وهو مع ما قاساه في حياته من ضيق وحبس وتعذيب ، لم يترك مجالا من مجالات العلم المعروفة في عهده إلاَّ ألَّفَ فيه ، فقد ألف في الفلسفة « سرائر الحكمة » ، وصل إلينا منه الباب العاشر في التنجيم ، ويصف صاعد الأندلسي وابن القفطي الهمدانيَّ بأنه فيلسوف ، ويقول صاعد في « طبقات الأمم » ما معناه : إنه لم ينبغ في الفلسفة من العرب سوى اثنين : أبو اسحاق الكندي ، وأبو محمد الهمداني ، وقد عرفه علماء الأندلس قبل أن يعرفه المشارقة ؛ فوصلت إليهم كتبه ، واستفادوا منها - كما هو الحال مع أبي علي الهجري - قبل أن تصل إلى المشارقة .

ومن مؤلفات الهمداني غير « الإكليل » كتاب « الحرث والحيلة » وكتاب « الإبل » وكتاب « القسي والنبال » وكتاب « القُوى » وكنت ظننت أن هذه الكلمة محرفة عن القوس ، غير أنني رأيته يذكر هذا الكتاب في مؤلفاته .

ومن أهم كتبه : كتاب « الجوهرتين العتيقتين المائعتين من الصفـــراء والبيضاء » ، ولعل هذا الاسم المسجوع الطويل مما نفر الباحثين عن العناية به ، وقد سبق أن تحدثت عنه في هذه المجلة [1] ، وتحدثت عنه في مجلات أخرى ، وقمت بنسخه ، وهيأته للنشر ، غير أن ذلك لم يتهيأ لي ، بل تهيأ لأستاذ غَرْبي جليل هو (كريستوفر تُولّ) .

وقد قام بترجمة الكتاب إلى الألمانية ونشر الترجمة مع النص العربي ، في منشورات (جامعة أبسالة سنة ١٩٦٨) بعد أن وضع للكتاب مقدمة باللغة الألمانية ، تحوي موجزاً عن تحصيل الناشر ثم ترجمة موجزة للهمداني فوصفاً للمخطوطات الثلاث المعروفة من الكتاب ، مخطوطة جامعة ابسالة ومخطوطة مكتبة المستشرق الألماني (جلازر) في مكتبة ميونخ ومخطوطة مكتبة امبروزيانا في ميلانو في إيطاليا والأولى أوفى النسخ ، ثم دراسة مفصلة عن موضوع الكتاب.

وقد بذل المحقق الناشر جهداً كبيراً في إبراز الكتاب بأوضح صورة استطاعها .

ولا يدرك ذلك الجهد إلا من اطلع على النسخ المخطوطة ، فرأى رداءتها ، وكثرة التحريف فيها وإيراد كثير من الكلمات غير معجمة ، ومنهـــا كلمات لأسماء آلات في التعدين ، لا تحوي كتب اللغة التي وصلت إلينا وصْفها ، وأخرى كلمات أعجمية كان الهمداني يتلقاها مشافهة من المعَدّنِينَ في اليمن ، وكانوا من الفرس ، وكلمات عربية فصيحة يوردها الهمداني ، ولكنهـــا مما تَضنّ معجمات اللغة بإيضاحه ، والهمداني لغوي كبير مترجَم في كتب اللغويين ، وشاعر تصدّى العالم النحوي ابن خالَوَيْه ، لجمع ديوانه في ثلاثة أجزاء وشرحه .

(١) المجلد السادس والعشرون ص ٥٣٥ ــ وما بعدها ــ .

ولقد بلغ من حرص الناشر الكريم أنه عمد إلى الكتاب ، فنسخه بخط يده ، ثم صور ما نسخ ، لكي يسلم من هفوات الطبع ، وأشار في ذيل الصفحات إلى اختلاف النسخ ، وخَرَّج بعض الأشعار ، ورجع إلى مصادر كثيرة عربية وعجمية ، فاستحق بعمله التقدير ، كلَّ التقدير ، من كل ذي غيرة على التراث العربي . ولعل من مظاهر التقدير لعمل هذا الأستاذ الكريم أن نشير إلى بعض ملاحظات قد تفيده أو يستفيد بها من يقتني مطبوعته ، مؤازرة في إخراج هذا الكتاب بأقرب صورة إلى الأصل ، وندع الحديث عن موضوعه ، فقد أوضحناه في كلمتنا المنشورة قديماً في هذه المجلة .

آ — لقد استعصى على الناشر الفاضل فهم كلمات كثيرة من هذا المخطوط فاكتفى بأن وَضَعَ في أمكنتها نقطاً ، وأشار إلى صورها في الهوامش ، وكنا نرى إبقاء الصورة بموضعها من الكتاب ليكون أسهل للقارئ ، خاصة وان الناشر الكريم صور ما كتب تصويرا ، ولهذا لا يستعصي عليه أن يصور الكلمة الغامضة نفسها .

ب — ظهر لي عند مطالعة الكتاب أن الناشر الفاضل أورد كلمات على غير وجهها الصحيح ، فرأيت ذِكرَ بعضها مما أميلُ إلى صحته ، أما الكلمات التي أخالف الناشر الفاضل في كيفية نطقها ، مما عول فيه على إحدى النسخ ، فإنني أترك ذكرها لوقت آخر . وسأشير إلى صفحات النص العربي حسب ترقيم الناشر الكريم .

١ — ص ١ : (فلم يغل) : (فلم يعل) . بالعين المهملة .

٢ — ص ١ : (يأكلون التراث . . . يحبون المال) : (وتأكلون التراث . . . وتحبون المال) آية قرآنية معروفة .

٣ — ص ٢ : (فصيحاء مساكين العرب) : (فصحاء مساكين العرب) .

٤ — ص ٢ : (يقول العرب بينهم) : (تقول العرب بينهم) .

٥ — ص ٢ : (آتيه) : (أتَيْتُه) .

٦ — ص ٢ : (يرضىً عوَضاً) : (يُرْضَى عوَضاً) .

٧ — ص ٢ : (وكانَ أساورة ... الفرَسِ) : (وكأنَّ أساورة ... الفُرْس) .

٨ — ص ٢ : (وجعله من أعظم ما في هذه الدنيا دينار) : أرى حذف كلمة (دينار) إذ لا محل لها .

٩ — ص ٣ : (وان كل لمـــا) : (وإنْ كُلُّ ذلِكَ لمَّا) . وهي آية قرآنية .

١٠ — ص ٣ : (ويقول العرب) : (وتقول العرب) ، والهمداني يكرر هذا التعبير كثيراً .

١١ — ص ٣ : (ولا ان بكلمة التقوى) : (ولا أنَّ لنَا بكلمـة التقوى) كما في نسخة ابسالة وبها يستقيم المعنى .

١٢ — ص ٣ : (إن الذين يكنزون) : (والذين يكنزون) كما في القرآن الكريم .

١٣ — ص ٣ : (ثم ما يُشَدِّد الله ... ما يشدد) : (ثم ما تَشَدَّدَ الله .. ما تَشَدَّدَ) .

١٤ — ص ٣ : (وما اوتيتم .. لتربوا ... ربوا) : (وما آتيتم .. ليربو .. يَرْبُو ..) آية قرآنية .

١٥ — ص ٤ : (عدى بن زيد) : (عدى بن بَدَّا) . وانظر ضبط هذا الاسم في كتاب « الإكمال » لابن ماكولا ١ : ١٢٣ .

١٦ — ص ٤ : (من بركة ابن مارية) : (من تَرِكَة ابن مارية) . والقصة معروفة .

١٧ – ص ٤ : (ابن الرقيات) : (ابن قيس الرقيات) . الشاعر المعروف .

١٨ – ص ٤ : (وشروه وباعوه) : الصواب حذف الواو : (باعوه) .

١٩ – ص ٤ : (يَكُفُّ المُنْتقدُ) : (بِكَفِّ المُنْتَقِدْ) .

٢٠ – ص ٥ : (كانت بَشَّارَةَ وَنَهَّارَةَ) : (كانت نَشَّارةً وَنَهَّارةً). والحديث معروف ، وانظره في « تاج العروس » ٣ : ٢٩٥ و ٥٣٨ و ٦١٩ .

٢١ – ص ٥ : (فزوجتُها حَوْرانيا) : (فزوَّجتَها حُورانيا) .

٢٢ – ص ٥ : (من زالها) : (من بزالها) . انظر « التاج » ٧/٢٢٦ .

٢٣ – ص ٥ : (تَنْشِقُ) : (تَنْشَقْ) .

٢٤ – ص ٦ : (كل أَيَّانِ) : (كل إِبَّانِ) .

٢٥ – ص ٦ : (يُراجِع ماء الدر) : (تَرَاجُعُ ماءِ الدَّرِّ) .

٢٦ – ص ٦ : (لا يشرف) : (لا يشرب) .

٢٧ – ص ٦ : (رَفْمُ وَجْهِهِ) : (رُقَيْمَ وَجْهُهُ) .

٢٨ – ص ٦ : (وما قرب منها) : (وما غزر منها) .

٢٩ – ص ٦ : (والجيل والعراق) : (والجَبَلُ والعراق) .

٣٠ – ص ٧ : (ما كان أعلاه) : (ما كان أغلاه) .

٣١ – ص ٧ : (مجذوف) : (محذوف) أي مقصوص الذنب .

٣٢ – ص ٧ : (في مولد) : (في مولود) .

٣٣ – ص ٨ : (وقيل : إبل المسجد) : (وقيل : بَلِ العَسْجَدُ) .

٣٤ – ص ٨ : (وثاني عسجد) : (وَبَاَبِي عسجد) . من أرجوزة الرداعي التي وصف بها طريق الحج .

٣٥ – ص ٨ : (فيا له بيتاً) : (فيا له بيت) .

٣٦ – ص ٨ : (وجه العروس) : (وَجْنَةُ العَروس) .

٣٧ ـ ص ٨ : (وهي الذاهب) : (وهي الذاهيب والذاهب) .

٣٨ ـ ص ٨ : (تضمُّ اللام) : (بِضَمّ اللام) .

٣٩ ـ ص ١٠ : (الأحلول مدرها وهي النزاعة) : (الأُمْلول مِدْرَهاً ، وهي البراعة) .

٤٠ ـ ص ١٠ : (وسمي الرجال) : (وسمي الرجل) .

٤١ ـ ص ١٠ : (ومثل قول (...) وغيره : ما نبأ مصمئل) : (ومثل قول التأبط : خَبَرٌ ما نَابَنَا مُصْمَئِلُّ) وهذا شطر بيت من قصيدة تأبط شراً ، التي أولها :

إنَّ بالشِّعْبِ الذي دُونَ سَلْعٍ لقتيلاً دمه ما يُطَلُّ

والهمداني يعبر عن تأبط شراً ، بقوله التأبط كما في شرحه لقصيدته الدامغة ، الورقة ٤٠ النسخة الخطية .

٤٢ ـ ص ١٠ : (أو دقت علَيْها) : (أو دَقَّتْ عِلَّتُهَا) . وقد فسر الهمداني العلة في الكتاب .

٤٣ ـ ص ١١ : (واني شاري البعير) : (وأَيْنَ شارِي البعير ؟) .

٤٤ ـ ص ١١ : (فحسنه ما قلتُ) : (فَحَسَنَةٌ ما قُلْتَ) .

٤٥ ـ ص ١١ : (في ما) : (في من) .

٤٦ ـ ص ١١ : (اسماء من اسماء) : اسْماً من أَسْماء) .

٤٧ ـ ص ١٢ : (الفلال) : (القلال) .

٤٨ ـ ص ١٣ : (وكل ناقٍ من الجواهر) : (وكل ناهي من الجواهر) وكلمة ناهي يستعملها الهمداني .

٤٩ ـ ص ١٤ : (دائمة مستدية) : (دائمة مستحيلة مستدية) .

٥٠ ـ ص ١٤ : (جلجلت الأرض) : (خلخلت الأرض) .

٥١ ـ ص ١٥ : (وناسبه اتصالا طبيعيا) : (ومَاسَّهُ اتِّصالاً طبيعياً) .

٥٢ ـ ص ١٦ : (من اوجه بين) : (مزاوجة بين) .

٥٣ ـ ص ١٦ : (تسعة درجات) : (تسع درجات) .

٥٤ ـ ص ١٦ : (فكذلك) : (فذلك) .

٥٥ ـ ص ١٦ : (فصارت رأس الحمل) : (فصارت من رأس الحمل) .

٥٦ ـ ص ١٦ : (الحلاوة فيه) : (الحرارة فيه) .

٥٧ ـ ص ١٧ : (َحرّان) : (َحارّانِ) .

٥٨ ـ ص ١٨ : (يسر اجزاء الحجر) : (يشدُّ أجزاء الحَجَر) .

٥٩ ـ ص ١٨ : (القَهر من هذه الحجارة) : (الفِهْر من هذه الحجارة) .

٦٠ ـ ص ١٨ : (قبول صدقه) : (قبول صُدْفَةٍ) .

٦١ ـ ص ١٨ : (كالحجر التي) : (كالحجرة التي) .

٦٢ ـ ص ٢٠ : (على الذات والدوام) : (على الدأب والدوام) .

٦٣ ـ ص ٢٠ : (ما لا انقض له) : (ما لا انقضاء له) .

٦٤ ـ ص ٢٠ : (وفسادها) : (وفساده) .

٦٥ ـ ص ٢٠ : (النيازك والذوائب) : (النيازك والذوانب) .

٦٦ ـ ص ٢٢ : (بقي الحرارة) : (نفي الحرارة) .

٦٧ ـ ص ٢٢ : (حرارة الاج) : (حرارة الأجسام) .

٦٨ ـ ص ٢٢ : (البخارات المتجدد) : (البخارات المتجددة) .

٦٩ ـ ص ٢٣ : (في اجزاء نفسه) : (في أجزاء اليبس) ،

٧٠ ـ ص ٢٣ : (يملان مكة) : (بِعِمْلاَةِ مكة) .

٧١ ـ ص ٢٤ : (الأعنوج) : (الأعْرَج) .

٧٢ ـ ص ٣٤ : (افيقمة) : (أُفَيْعِيَةُ) وهو منهل معروف . ويسمى (أفاعية) أيضاً .

٧٣ ـ ص ٢٤ : (وابناء شمام) : (وابنا شمام) وهما اثنان .

٧٤ ـ ص ٢٥ : (يعلمونه) : (يعملونه) .

٧٥ ـ ص ٢٥ : (بخار) : (بخارى) .

٧٦ ـ ص ٢٦ : (مدحج) : (مذحج) .

٧٧ ـ ص ٢٧ : (حجزنه) : (حجزته) .

٧٨ ـ ص ٢٧ : (معروفا) : (معروقا) ـ بالقاف ـ .

٧٩ ـ ص ٢٧ : (وتمصد) : (وتفصد) .

٨٠ ـ ص ٢٨ : (لا تتفرق) : (لا تتمرق) .

٨١ ـ ص ٢٨ : (خلة التيسر) : (حلة التبر) .

٨٢ ـ ص ٢٨ : (على المرقين) : (على العراقين) .

٨٣ ـ ص ٢٩ : (وتبرأ منه الذهب) : (وتتبين منه أسنة الذهب المتشزر) .

٨٤ ـ ص ٢٩ : (أوْ أنّ) : (أو َانْ) .

٨٥ ـ ص ٣١ : (فتقع اللهب) : (فيقع اللهب) .

٨٦ ـ ص ٣١ : (يحذو اللسان) : (يحوذ اللسان) .

٨٧ ـ ص ٣١ : (حتى ينفياها) : (حتى ينقياها) .

٨٨ ـ ص ٣٢ : (النار اذا انسفرت) : (النار إذا استعرت) .

٨٩ ـ ص ٣٢ : (يسبك) : (سبك) .

٩٠ ـ ص ٣٢ : (ثم (...) : (ثُمَّ أُحيرَ الماء والهواء) :

٩١ ـ ص ٣٢ : (ولم ... الماء والهواء) : (ولم ينقص احرارا شديدا يطير الماء والهواء) .

٩٢ ـ ص ٣٢ : (نصفي بيضة كينمتين) : (نصفا بيضة كثيفتين) .

٩٣ ـ ص ٣٢ : (المتضمدة ... يضمد) : (المتصمدة ... يصمد) .

٩٤ ـ ص ٣٢ : (فاذا عم الصف الدواء) : (فاذا تَمَّمَ ألصَقَ الدواء) .

٩٥ ـ ص ٣٣ : (تضايع لقوم) : (بضائع لقوم)

٩٦ — ص ٣٣ : (الاذهاب والتنور) : (الأَذْهَابُ والتَّنُّورُ) .

٩٧ — ص ٣٣ : (حتى يصل البرودة ويرتقي) : (حتى تصل البرودة وترتقي) .

٩٨ — ص ٣٣ : (خلة الزاج ودقته) : (جلة الزاج ودقته) .

٩٩ — ص ٣٣ : (بمائيه ذلك) : (بمائِيه ذَلك) .

١٠٠ — ص ٣٤ : (حدة الزاج على قدر حدته) : (حدة الزاج على قدر جِدَّتِه) .

١٠١ — ص ٣٤ : (كيلا تَزَل ... شيء) : (كيلا يَزِلَّ ... شيء) .

١٠٢ — ص ٣٤ : (وان استحسن أحدها) : (وإن استخشن أحدها) .

١٠٣ — ص ٣٥ : (الجرش) : (الجَرْس) .

١٠٤ — ص ٣٥ : (ما ينقس (..) واحدة ما (..) : (ما ينقص في المعاد ، وأخذ ما يزيد) .

١٠٥ — ص ٣٥ : (بما صف ... المطرقة) : (بما صف الا بما رَمَى بأثر المطرقة) .

١٠٦ — ص ٣٥ : (من جهات فيها) : (من جهاتٍ : منها) .

١٠٧ — ص ٣٦ : (قدر مُرَازَةٍ) : (قدر مُرادِهِ) .

١٠٨ — ص ٣٦ : (بما انفق) : (بما اتَّفَقَ) .

١٠٩ — ص ٣٦ : (الشعث والكلام) : (الشغب والكلام) .

١١٠ — ص ٣٧ : (حبة واكثر) : (حبة ، حبة ، واكثر) .

١١١ — ص ٣٧ : (لنا ان نطير) : (لها أن تطير) .

١١٢ — ص ٣٧ : (ذلك يستوي) : (ذلك لأن يستوي) وانظر ص ٣٨ .

١١٣ — ص ٣٧ : (وآمن السباك أن يسوط) : (ومن السباك من يسوط) .

١١٤ — ص ٣٨ : (اثنان مستعملان ورأيته) : (اثنان : مُسْتَعْمَلٌ ، ورأيته) .

١١٥ — ص ٣٨ : (تبلغ قدرهن) : (يبلغ قدرهن) .

١١٦ — ص ٣٩ : (حذو القِدّة بالقِدّة) : (حذو القُذّة بالقُذّة) .

١١٧ — ص ٤٠ : (وايها حذاءها) : (وانها حَذّاهُمَا) .

١١٨ — ص ٤٠ : (كما يتهيأ) : (كما نَبَّهْنا) .

١١٩ — ص ٤٠ : (وايها جذرها) . (وأنها جذرها) .

١٢٠ — ص ٤٠ : (الارادة) : (الإدارة) .

١٢١ — ص ٤٣ : (جادت النار) : (جارت النار) .

١٢٢ — ص ٤٣ : (فقد فيه) : (فقد أصبح فيه) .

١٢٣ — ص ٤٣ : (سوى فذلك) : (سواء ، فذلك) .

١٢٤ — ص ٤٤ : (خمسة في نسق سوى محمد بن ابراهيم بن محمد ابن عبد الرحمن،من محمد إلى محمد) . : (خمسة ، في نسق ، سوى محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ، من محمد إلى محمد) .

١٢٥ — ص ٤٤ : (وان ما ذهبوا له) : (وان ما ذهبوا إليه) .

١٢٥ — ص ٤٤ : (لا يسقط عن خطّائين): (لا يسقط عن خَطَأٍ بَيِّنٍ).

١٢٦ — ص ٤٤ : (ولا يبين ضعفه) : (ولا يميز ضعفه) .

١٢٧ — ص ٤٥ : (فاذا استوت على انها) : (فاذا استوت ، علم أنها) .

١٢٨ — ص ٤٥ : (من الكفة الأخرى) : (في الكفة الأخرى) .

١٢٩ — ص ٤٦ : (كل ما يفرغ من هذه) : (وكل ما تفرع من هذه) .

١٣٠ — ص ٤٧ : (أو رجحانات) : (أو رجحان) .

١٣١ — ص ٤٨ : (أو حزن كثيرة الوعث) : (أو طرق كثيرة الوعث) .

١٣٢ — ص ٤٨ : (ينادى الى هذا) : (يَتَأَدَّى إلى هذا) .

١٣٣ — ص ٤٨ : (من المياه إلى الريق) : (من المياه إلى الرنق) .

١٣٤ — ص ٤٨ : (ما يستوى بين الناس) : (ما يسوي بين الناس) .

١٣٥ = ص ٤٨ : (اجر الساق البتراء وقدر بما) : (أخَّر الساق والسر ، وقدر له بما) .

١٣٦ — ص ٤٨ : (على ما (...) اليه) : (على ما يغلب إليه) .

١٣٧ — ص ٥٠ : (ثُمَّ : باب حكومة) : (تَمَّ باب حكومة) .

١٣٨ — ص ٥٠ : (فينتقي أن يعرف ذلك ، فأما) : (فينبغي أن يعرف ذلك تماماً ، فأما) .

١٣٩ — ص ٥٠ : (فإن تصور) : (بِأَنْ تَصَوَّر) .

١٤٠ — ص ٥١ : (فحينئذ تجنَّى) : (فحينئذ يَجِيء) .

١٤١ — ص ٥١ : (تقابض من جنوبها) : (تفايض من جنوبها) . من َفاضَ .

١٤٢ — ص ٥١ : (بصرف بئس) : (بصرف نفيس) .

١٤٣ — ص ٥١ : (فاذا استوت هَنْدمة) : (فاذا استوت َهندَمْتَ) .

١٤٤ — ص ٥١ : (ولا تغدو به الجفنة) : (ولا يعدونه الجفنـة) .

١٤٥ — ص ٥١ : (فتشع ما كان) : (فتتبع ما كان) .

١٤٦ — ص ٥١ : (حَيَّ به) : (حَيِيَ به) .

١٤٧ — ص ٥١ : (يخل من القلة) : (َنحَلَ من القلة) .

١٤٨ — ص ٥١ : (ثخينا ، لأن) : (ثخيناً ، لَيِّناً) .

١٤٩ — ص ٥٣ : (لما في أول) : (كما في أول) .

١٥٠ — ص ٥٣ : (ثم يعتمد) : (ثم يَعْمَدُ) .

١٥١ — ص ٥٣ : (ثم عره عليه وعمد) ، (ثم عره عليه عَرْعَرَةً غليظةً ، وعمد) .

١٥٢ — ص ٥٤ : (إذا يصح) : (إذا نضج) .

١٥٣ — ص ٥٤ : (فورت) : (فُوِّرَتْ) .

١٥٤ — ص ٥٤ : (امرأته قد احب) : (امرأته فقال : أُحِبُّ) .

١٥٥ — ص ٥٤ : (ففرغ) : (ففزع) .

١٥٦ — ص ٥٥ : (ليست بعده) : (ليست نقده) .

١٥٧ — ص ٥٥ : (عن بعض المفسدين) : (عن بعض المفسرين) .

١٥٨ — ص ٥٥ : (وجففت ...) : (وجففت بتبن) .

١٥٩ — ص ٥٦ : (الثخان) : (التجاب) . والتجاب — ككتاب — ما أذيب مرة من حجارة الفضة ، أو الخط من الفضة يكون في حجر المدن (اللسان) ، وهو المقصود هنا - كما يفهم من الكلام .

١٦٠ — ص ٥٧ : (النفيس الغزير) : (النفيس العزيز) .

١٦١ — ص ٥٧ : (الرداة) : (الرداءة) .

١٦٢ — ص ٥٧ : (المشاش) : (الأمشاش) .

١٦٣ — ص ٥٧ : (ولا يشاءه) : (ولاشاه) . من اللاشاة

١٦٤ — ص ٥٧ : (فعلى عصر ذلك) : (فعلى عكس ذلك) .

١٦٥ — ص ٦٠ : (المرتضاة الحروف) :(المرتضاة لأن أصلها الحروف) .

١٦٦ — ص ٦٠ : (فهي باهية) : (فهي ناهية) أي جيدة .

١٦٧ — ص ٦١ : (الجب وهو الجرة) : (الحُبُّ وهو الجَرَّة) .

١٦٨ — ص ٦١ : (في الارطال) : (من الأرطال) .

١٦٩ — ص ٦١ : (لأنها تهوى) : (كأنما تهوى) .

١٧٠ — ص ٦١ : (وقد تهرج) : (وقد يهرج) .

١٧١ — ص ٦٢ : (فعزل جله) : (فعزل ما به) .

١٧٢ — ص ٦٢ : (الاخلاص) : (الخلاص) .

١٧٣ — ص ٦٢ : (على حَدَه) : (على حِدَةٍ) .

١٧٤ — ص ٦٢ : (بلا ماءٍ) : (تَلاءَمَا) . من الملاءمة .

١٧٥ — ص ٦٣ : (وبه نفس ، وأما الذي لا نفيس فيه) : (وبه نقش ، وأما الذي لا نقش فيه) .

١٧٦ — ص ٦٣ : (تعمد الطبخ) : (بعد الطبخ) .

١٧٧ — ص ٦٣ : (النطائق) : (التطابق) .

١٧٨ — ص ٦٤ : (الخوذ واللوز) : (الجوز واللوز) .

١٧٩ — ص ٦٤ : (مدلق بمرار البقر) : (مُدَيَّف بمرار البقر) .

١٨٠ — ص ٦٤ : (استفرع) : (استفزع) .

١٨١ — ص ٦٤ : (كيّهُ الحديدُ) ، (كَيَّةُ الحَدِيد) .

١٨٢ — ص ٦٤ : (ويسمر البائنة من الفلوق ... فيصرف فلقها) : (وتسمر البالية العلوق ... فيصرف علقها) .

١٨٣ — ص ٦٤ : (التفرى) : (النضرة) .

١٨٤ — ص ٦٤ : (متصعد من بخاره) : (فتصعد من بخاره) .

١٨٥ — ص ٦٥ : (عند الناس منه) : (عند اليأس منه) .

١٨٦ — ص ٦٦ : (فتطلى ما شبب) : (فتطلي ما شئت) .

١٨٧ — ص ٦٧ : (تحوذ .. وتنقي) : (يُجَوَّدُ .. ويُنَقَّى) .

١٨٨ — ص ٦٧ : (ولُوِّنَ فثاب) : (ولُوِّنَ ، فبان) .

١٨٩ — ص ٦٧ : (كانت أقل اخذها) : (كانت أقل لأخذها) .

١٩٠ — ص ٦٧ : (شيء ما كان) : (شيء مما كان) .

١٩١ — ص ٦٧ : (سحائب زَبَد) : (سحائب رُبْدٌ) .

١٩٢ — ص ٦٨ : (قد فني عنه) : (قد فثأ عنه) .

١٩٣ — ص ٦٨ : (لين اللوز) : (لِأنَّ اللوز) .

١٩٤ — ص ٦٨ : (تكسرمن .. ميمانه) : (تكسر من جيدُتِه ميمانه).
١٩٥ — ص ٧٠ : (تخسر وترفع) : (تُحَسِّنُ وتُرْفع) .
١٩٦ — ص ٧٠ : (تبين عتق الذهب) : (يبين عتق الذهب) .
١٩٧ — ص ٧٠ : (وكما ما هو أخف) : (وكل ما هو أخف) .
١٩٨ — ص ٧١ : (اول الكواكب ضررا): (أقل الكواكب ضررا).
١٩٩ — ص ٧١ : (قصب المُصَّان) : (قصب المُضَّار) . وقد ذكره في « صفة الجزيرة » ص ١٩٣ .
٢٠٠ — ص ٧١ : (قوم يعصونه) : (قوم يُعَصِّرونه) .
٢٠١ — ص ٧٢ : (اللوابي تحجبن) : (اللواتي يحجبن) .
٢٠٢ — ص ٧٢ : (وجعلوا ما في ارجل) : (رجعوا الى ما في أرجل).
٢٠٣ — ص ٧٢ : (بحال اليبس) : (لحال اليبس) .
٢٠٤ — ص ٧٣ : (الحدة .. خلق) : (الجدة .. خلق) .
٢٠٥ — ص ٧٣ : (في البقاء) : (في النقاء) .
٢٠٦ — ص ٧٤ : (اعظم يدينون به) ، (أعظم ما يدينون به) .
٢٠٧ — ص ٧٥ : (صدى المطرقة) : (صدأ المطرقة) .
٢٠٨ — ص ٧٤ : (من بعديومئذ) : (من بعد ، ويومئذ) آية قرآنية .
٢٠٩ — ص ٧٦ : (واما علة لأنّ) : (واما علة لين) .
٢١٠ — ص ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ : (النفييت) : (التفتيت) .
٢١١ — ص ٧٧ : (لينبت الدينار) : (ليثبت الدينار) .
٢١٢ — ص ٧٧ : (فإنّ فيه الميل) : (بانَ فيه الميلُ) .
٢١٣ — ص ٧٧ : (وان جل طوقه) : (وان كان جل طوقه) .
٢١٤ — ص ١٧ : (وسِرُّه الوضمات) : (وشَرُّه الوضمات) .
٢١٥ — ص ٧٨ : (فمن صدر السكةوحفظها):(فمن حدر السكةوخفضها).

٢١٦ — ص ٧٨ : (ومن يضرب السكة ورفعها) : (ومن نصب السكة ورفعها) .

٢١٧ — ص ٧٨ : (يلقاها الراحة) : (تلقاها الراحة) .

٢١٨ — ص ٧٨ : (وما كان هشا في ..) : (وما كان هشاً من وجه) .

٢١٩ — ص ٧٨ : (وجدة الاكرع مع بتاتها) : (وحِدَّةُ الاكرع مع ثباتها) .

٢٢٠ — ص ٧٨ : (تحينا) : (ثخينا) .

٢٢١ — ص ٧٨ : (يصلدم ما تحته) : (يصادم ما تحته) .

٢٢٢ — ص ٧٨ : (فيجرج الأسفل على...) : (فيخرج الأسفل على الثبات).

٢٢٣ — ص ٧٩ : (فقد يصدأ ولكنه) : (فقد يُفْضيء ولكنه) .

٢٢٤ — ص ٧٩ : (بنقوش) : (يَتَنقَوَّسُ) .

٢٢٥ — ص ٧٩ : (وقد يعرف الحديد) : (وقد يعرق الحديد) .

٢٢٦ — ص ٧٩ : (لأن البقار) : (لأن النعال) .

٢٢٧ — ص ٧٩ : (ثم ريزج وصقل) : (ثم رُنْدِجَ وصُقِلَ) .

٢٢٨ — ص ٨١ : (النحلي) : (التخلي) اسم موضع في صفة جزيرة العرب ص ١٩٠/٢٤٠ .

محمد الجاسر



وصف الطبيعة في شعر الصنوبري

— ٢ — (١)

ويمكننا أن نعتبر الحقل الرابع من شعر الصنوبري والذي سنقف عنده وصف المياه وما يجري هذا المجرى . ويستوقفنا هنا وصف الثلج ووصف البركة ووصف نهر حلب المسمّى بقويق .

على سبيل العموم ، نلاحظ قلّة احتفال الصنوبري بوصف المياه من خلال المقطّعات التي في الذيل . ولعل نهر قويق استنزف منه قريحته في هذا الموضوع فما خرج إلينا في سواه بغير العاديّ . والمياه توصف عنده عادة بالصفاء والرقة ، وتشبّه بالفضّة والبلّور ، وسطوحُ بجاميمها تتغضّن إذ ما لمستها يدُ الريح كأنها الدروع الزرديّة .

ونحفل بوصف الثلج لقلّة ورود هذا المعنى في الشعر العربيّ ، ولا حرج . فقلة الثلج في العالم العربي أدّت إلى ذلك ولا غرو . في مقطوعة يردُ بها ذكر الثلج لم يأتِ الصنوبري على شيء سوى ذكر الثلج وتسميته وتشبيهه بالورد الأبيض :

وردُ الربيع مورّد والورد في تشرين أبيض

وله قصيــــدة أخرى في وصف سقوط الثلج ، يتّصلُ الوضع الطبيعيّ فيها بالوضع الإنساني . فَنَدْفُ الثلج يحدو الصنوبري لأن يُهيبَ بصحبه إلى اللهو والقصف . على أن ما يستوقف الناظر حال النهار الضاحك المتقنّع بغلالة من فضة . وهو ولا شك معنىً مطروق من كلا شقّيه ليس لشاعرنا فضل سوى الجمع تحت عنوان جديد . وخلاف هاتين القطعتين « الثلجيتين » لا نعثر له على شيء في الموضوع .

---

(١) نشر أول المقال في الصفحة ٨١٠ من المجلد (٤٣) .

أمّا احتفالنا بوصف البركة فلورود معنىً رائع فيه . وقد جاء خلال وصف الشاعر لرياض حلب الشهباء حيث يذكر أن وسط ساحات هـــذه الرياض بركاً ماؤها زجاج مُذاب ، ولُجَين مسبوك ، ولصفـاء ماء هذه البرك تغدو :

هي الجوّ من رقّة غير أنّ ‏ ‏ مكان الطيور يطير السمكْ

لقد حاول البحتري أن يقول قبل الصنوبري مثل هذا المعنى في قصيدته بوصف بركة المتوكّل :

يَعمْنَ فيهـا بأوساط مجنّحة ‏ ‏ كالطير تنقضُّ في جوٍّ خوافيها

ولكنّه قصّر عن معنى شاعرنا .

وأما الصنوبري ونهر حلب فبينهما غرام وعشق . فهو لا يرى من هذا النهر إلاّ المحاسن والفضائل . رياض قويق نضرة مزهرة عَبِقَة ، تحرّض على حثّ الكؤوس ، وماؤه نقيٌّ كالبلّور يلمع كَلَمْع ِ اللؤلؤ ، وهو يأبى أن يحمل على ظهره السفائن ، وله من العلاجيم (١) ما يسبّح بحمد الله له . ولكنّ الذي أقضّ مضجع شاعرنا أن هذا النهر « إذا جدّ جِدّ الصيف » غادر الماءُ جِسْمَهُ فبدا شحيحاً . فيحاول الصنوبري أن ينتحل له العِلَل ، فيقول أوّلاً بمرضه :

قويق على الصفراء ركِّبَ جِسْمُه ‏ ‏ ورُباه بهــذا شُهّدٌ وحدائقُهْ
إذا جَدّ جِدّ الصيف غادر جِسْمَهُ ‏ ‏ ضئيلاً ، ولكنّ الشتاء يوافِقُهْ

ولكنّ المرض من العيوب ، وأيُّ حسْنٍ يكمنُ في جسدٍ رُكّب على الصفراء ! فيذهب يَلْتَمِسُ له العذر من العاطفة السامية ، الحب :

---

(١) العُلْجوم جمعها : علاجيم ، وهو الضفدع الذكر ، وله معان أخرى . (المجلة)

وقد عابه قومٌ وكلُّهمو له   على ما تعاطوه من العيبِ ، عشّاقُ
يهابُ قويقٌ أن يُمَلّ فإنّما   يقيم زماناً ثم يمضي فنشتاقُ ...

كأنّ هذا النهر محبٌ خفيف الظلّ يزور غبّاً كي يزداد حبّاً :

فلو دام في الحبِّ الوصالُ ولم يكُنْ   فراقٌ ولا هجرٌ لَمَا اشتاق مشتاقُ ..

ولكنّ قويقاً قويٌّ في الشتاء ، فما بالُ حسّادِه يعذلونه :

تذهبُ أمواجُه كخيلٍ   شقرٍ لها وسطها ذهابُ

وهل موجه كالخيل وحسب ، إنّه إن شمّ ريح الشتاء تاه وتكبّر :

وناسبَ دجلة والنيل والـ   ـفراتَ بهاءً وحسناً وطيبا

ولكنّ ماءَه شحيح في الصيف . ما باله هكذا ؟ إن هذا ليؤلم شاعرنا ويحزنه . لا بدّ وأن يعتذر لهذا . وما له من حيلة أو مخرج سوى الخفوتِ في الاعتذار . فيرثي له ويعتذر عنه ويثير الشفقة فيك علّك تصفح وتعفو :

وإن أقبلَ الصيف أبصرته   ذليلاً حقيراً حزيناً كئيبا
إذا ما الضفادع ناديْنه   قويقٌ ، قويق ، أبى أن يجيبا

وهنا تكمن الشاعرية .

اسم هذا النهر لايوحي بالموسيقى اللفظية مطلقاً . ومن جهة أخرى ، يعتبر نقيق الضفادع مزعجاً ممقوتاً . ولكن شاعرنا استعار الواحد للآخر ، ومزجهما ، فأعطاك أبدع صورة وأدقّ تعبير تنقّ الضفادع له ... وهكذا تقول : قويق قويق ... ولكنه لا يجيب ! فهل هنالك من عاتب عليه بعد الآن ؟ ولا حاجة لنا بعد هذا كلّه أن نشير إلى بلاغة التجريد والتشخيص والوجدانية فيما مضى .

أما الحقل الخامس من شعر الصنوبري فهو وصف المدن والأماكن. وهو ضربٌ من الوصف لايهمنا كثيراً إلا بالقدر الذي تناول فيه وصف رياضِ هذه الأماكن والمدن. وقد ألمحنا لذلك في مكانه حيث تحدثنا عن شعره في الرياض، صناعيّةً وطبيعية.

والحقل الأخير الذي سنشير اليه هو ذلك النوع من القصائد التي تحدّث بها على سجيّتهِ فصوّر شعوره النفسيّ تجاه الطبيعة وأظهر ذلك واضحاً جليّاً. وهذا نهجٌ وجدانيّ صرف.

الشعور العام الذي يرافق هذا الحقل في تلك القصائد واحدٌ في التسلسل، واضحٌ لا لبس فيه ولا غموض. ولنتمثّل على ذلك ببعض المقاطع لنتخلّصَ إلى حكم عامٍ بشأن هذا الحقل الأخير. يقول الصنوبري في إحدى قصائده بعد مطلعِ غزلٍ:

لا تلمني بالرّقتين ودعني إنّ قلبي بالرقتين رهينُ

يا نديمي ألا تحنّ إلى القصف فهذا أوانُ يبدو الحنينُ

إلى أن يقول:

كم غدا نحو دير زكّى[1] من قلبٍ صحيح فراحَ وهو حزينُ

ويُتبِعُه بستّة أبيات في الغزل.

ومن قصيدة أخرى يفتتحها بالوصف حتى يقول:

أيا متنزّهي في دير زكّى ألم تكُ نزهتي بك نزهتينِ

إلى أنْ يصل بقوله:

(١) ضبط المؤرخون كلمة: (زكّى) بالزاي المفتوحة مع الكاف المفتوحة المشددة، ثم ألف مقصورة أو ألف ممدودة وكلاهما صحيح (الديارات للشابشتي ص ١٣٩ كوركيس عوّاد). والبيت مضطرب الوزن (المجلة)

ترانا واصليك كما عهدنا وصالاً لا ننغصه ببين
ألا ياصاحبيّ خذا عناني هواي ، سلمتما من صاحبين
لقد غصبتنيَ الخمسونَ فتكي وقامت بين لذاتي وبيني
وكان اللهو عندي كابنِ أمي فصرنا بعد ذاك كعلتين

وبين الحين والحين يطلع علينا بيت كهذا :

حُثّ الكؤوس فإنّ هذا وقتُها وَصِل الرياضَ فإنّ ذا إبّانُها

أو كهذا :

ذَهّبْ كؤوسك يا غلامُ فإن ذا يومٌ مُفَضَّضْ

أو كهذا :

فاشربْ على ذا الشقيق كاساً تشرب عقيقاً على عقيقِ ...

الملاحَظُ أنه لو حصرنا كلّ شعره الذي في هذا الموضوع فإنا نرى قصائده الوجدانية المتصلة بالرياض ، تبدأ بالحنين إلى الطبيعة ثم إلى وَصلِها من أجل اللهو والقصف . فالأمر إذاً أمرُ لذّاتٍ وشهوات ، وما الطبيعة عنده الا مُنْتَجَعٌ للشربِ وحثّ الكؤوس . فهل نَغْلُو إذا قلنا إن نزعته نواسيّة الجذور . ولكنه يشدّد على الروض بدل التشديد على الخمر ومفعولها كما هي الحال عند زعيم هذه المدرسة ؟ هذا غلوٌّ ولا شكّ ، ولكن لا بدّ أن يكون تحته شيء من الصحّة والصواب .

* * *

(١) في المختارات ص ١٤٠ : لعلتين ، وربما كان الصحيح : فصرنا بعد ذلك علتين. (المجلة)

ونختم هذا البحث بعد أن تدرَّج بنا إلى هذا الحد. وقد كان بالإمكان أن يطول ويتشعَّب . نختمه بكلمـــــة موجزة قصيرة حول أسلوب الصنوبري الشعريّ .

أوّل ما يلفت الانتباه سرعة العطاء الشعري ، وازدحام الصور الوصفيّة في مخيّلة الشاعر حتّى تطغى عليه ، فإذا به يذكر الأشيـاء ذكراً دون وصفها . والسرعة تورثه أحياناً التدفق في العطاء ، وهذا غير ما سبق ، لأنه يتأنّى على الصورة ويتفنّن في إخراجها والتعبير عنها فهو إن قال :

أقحوان وسوسنٌ وشقيق وبهارٌ يُجْنَى وآذريونُ

نلمس السرعة في العطاء الشعريّ حيث ازدحام الصور . وهو إن قال :

وكأنّ محمرّ الشقيق إذا تصوّب أو تصعّـــدْ

أعلام ياقوتٍ نشرن على رماحٍ من زبرجَـــدْ

نلمس تدفّق التعبير لصورةٍ واحدة .

وممّا يسترعي الانتباه أيضاً الجزالة وشدّة الأسر في شعره مما يُنْتج فكرة سرعة العطاء لديه وتدفّق التعبير .

أمّا ألفاظه فسَلِسَةٌ على العموم ، وقلّما تقع له على اللفظة النافرة أو الحوشيّة المَخْرَج . فكأنما الكلمات لسلاستها « يأخذ بعضها برقاب بعض » . انظر مثلاً هذا البيت :

وبدا النرجس البديعُ كأمـــــثال عيون ترنو إليها عيونُ

حتّى إن الوقفة القصيرة ما بين صدر البيت وعجزه قد اختفت في العديد من أبياته فيغدو البيتان أو الثلاثة أو الخمسة أحياناً لا يفصل بينها من ناحية تدافع الألفاظ إلاّ هذه القافية الميرنان . وإذا أنت أمام مقطوعـة تسلبُ

النَفَس وتأسر الأعصاب . وأمّا تناسق اللفظ والمعنى من جهةٍ وتوافق اللفظ والمعنى والموسيقى الشعرية من ناحية أخرى فقد رأينا مثالاً رائعاً على ذلك في نداء الضفادع لقويق .

وهنالك ظاهرة بارزة بجلاء وهي إغراقه في استعارة ألوان الجواهر والأحجار الكريمة ، وتشبيه ألوان الزهر والنبتِ بها . وهذا ضرب من التشبيه الخيالي . فلو أخذنا وصفه للنرجس حين يقول :

أقداح ياقوت تعاطيكهـــا أناملٌ من لؤلؤ رطبِ

نرى أنه جمع ما بين الأقداح والياقوت والأنامل واللؤلؤ الرطب . والأربعة تُدرك بالحسّ العادي منفصلةً ، ولكن متى جُمعت تعذّر ذلك وأصبح يقع ضمن إطار الخيال . وأغلب خيالاته من هذا النوع ، قريبة المنال بعيدة عن الغموض والتكلّف . وقلّما يقع شاعرنا في الغلوّ .

أما الصفة الغالبة على شعر الصنوبري من حيث منطقية الوصف فنحن لا نرى ذلك عنده كما نُرى عند البحتري مثلاً من حيث أخذ الأخير المعنى العام للموصوف ثم الدنوّ شيئاً فشيئاً إلى الجزئيّات الدقيقة ، ولم يكن الصنوبري ممن يأخذ المعنى ويشتطّ في تقليبه على وجوه ، كما كان يفعل أبو تمّام ، وإنما نرى معاني الصنوبريّ وصورَه تستقلّ الواحدة عن الأخرى وتتقدّم أو تتأخّر دون إخلالٍ بالاطـار العام . على أن همّه الأول كان دائماً نقل الصورة مستطرفةً إذا أراد التصوير الموضوعيّ ، وإذا أراد بث شعور التعاطف مع الطبيعة أغرق في الوصف الوجدانيّ .

* * *

قبل أن ننتقل إلى القصائد المختارة في الذيل أودّ أن أسطّر بعض الحقائق عن حياة الصنوبري .

هو أبو بكر أحمد بن محمد الضبّي (وليس الصيني) الصنوبري . كان في بلاط سيف الدولة الحمداني بالموصل متسلّماً خزانة كتب الأمير . وقد مدح كبار عصره ووجهاء دولته بالعديد من المطوّلات ، ناهيك عن مدائح آل البيت الشريف . ثم لمّا استولى سيف الدولة على حلب انتقل الصنوبري معه ، ومات فيها سنة ٣٣٤ للهجرة .

يُقال ، والله أعلم ، إن المتنبي كان من بعض تلامذته أو الناشئة الذين طلبوا رأي الصنوبري بشعرهم واستقوا آراءه في ذلك . ويقال كذلك إن سيف الدولة كان يزوره في جنّةٍ كبيرة ابتناها وحشد فيها صنوفاً من الطير والزهر والمياه مما يفوق الوصف .

على أنّ حياة هذا الشاعر مجهولة الغاية ، وهو كابن الرومي ، ينتظر من يبعثه من رقاد الأجيال وينفض عنه غبار السنين .

فواز أحمد طوقان



محكمة المياه في بلنسية

قال المقري؛ نقلا عن الجغرافي البكري وتشابه اسبانيا بلاد الشام بسحر مناخها وصفاء هوائها ، واليمن بمناخها المعتدل صيفاً وشتاء ، والهند بعطورها الزكية الرائحة ، وبلاد فارس بأهمية مكوسها وعدن بمنتوجات سواحلها ، .

وعلى ذكر منتوجات سواحلها أقول بأن العرب في أقطارهم لايعرفون أسبانيا معرفة تامة ، فقد رحلت إلى هذا الفردوس المفقود وشاهدت بأم عيني أرض الأندلس وسواحلها ، وكورها ومزارعها ، ومدنها وقصباتها ، وأهلها في حواضرهم وأريافهم ، وعاينت سحنهم وأشكالهم وعاداتهم وأخلاقهم . وقد تبين لي : بعد أن زرت هذا القطر بأن اسبانيا في حاضرها مدينة للعرب بتراثها الحضاري وطابعها الأحيائي (البايولوجي) المتجسم في خلقة أبنائها ، وبوفرة إنتاجها الزراعي وجودته ، وكمثال على أثر الحضارة العربية على أسبانيا أذكر أعمال الري في منطقة بلنسية فإنها شاهد صـــدق على ما أقول .

لقد حول العرب بلنسية إلى بستان حقيقي رغم أن تربتها ليست فائقة الجودة ، كما أن ميزات مناخها ليست أفضل الميزات الزراعية إذ أن نسبة هطول الأمطار منخفضة جداً (٤٨٠ مليمتراً في السنة) . ولكن عرف العرب طرق الاستفادة من مياه نهرها الغزير (نهر توريا) منذ الف سنة أو أكثر فانشأوا السواقي المديدة تروي الأراضي القاحلة بمياه النهر فأحالتها إلى جنات تجري من تحتها الأنهار .

إن السواقي التي أوجدها العرب مازالت باقية حتى أيامنا هذه ، وهي تشكل عملاً هندسياً رائعاً بشهادة أبرز الشخصيات الفنية الحديثة ، فلا عجب ان أصبحت منطقة بلنسية اليوم عبارة عن بستان كبير كثير الخصب وافر المنتوجات ، تلك المنتوجات الزراعية التي حازت اليوم تقدير المستهلك وإعجابه داخل اسبانيا وخارجها .

إن هذه الجنة التي يرجع عهدها الى أكثر من ألف سنة ، تجري فيها سبع سواق تشير أسماؤها إلى مصدرها العربي وهي : ساقية قوارت ، وابن عشار ، ومسلطة ، وفبارة على الضفة اليمنى وساقية الترمس ، ومستليـا وراسكانيا على الضفة اليسرى للنهر ، ويتفرع منهـا قنوات وافرة تنقسم بدورها إلى فروع عديدة تشمل مساحة واسعة من أراضي الري .

هذا وقد أشاد الدكتور (روزيه) رئيس جامعـة لوزان في سويسرا بهندسة الري العربية في بلنسية إذ قال (لقد طوفت بلاد الأندلس ورأيت آثارها الباقية من عهد العرب فأعجبت بها كل الإعجاب ومما شهدته السدود القائمة الى اليوم في ولاية بلنسية فان أهل هذه الولاية من الأسبان اليوم يعيشون بفضل هندسة مهندسي العرب لهذه السدود ، ولم يتيسر لمدنيـة القرن العشرين أن تقيم أرقى مما أنشأ أبناء جنسكم (ويعني العرب) في القرون الوسطى ، ولحسن الحظ لم يقو التعصب الديني الذي دك كثيراً من المعـالم في أرض الأندلس ، على نسف هذه السكور على وادي الأحمر وغيرها وإلا لهلكت ولا من يبكيها فقبح من قضوا عليها (راجع مجلة المجمع العلمي العربي ، الجزء السابع من المجلد الثاني تموز سنة ١٩٢٢) .

مها يكن من أمر فان العرب لم يقتصروا على القيام ببناء القنوات على هذه الطريقة العجيبة بل نظموا أيضاً توزيعها بين المزارعين بشكل قانوني ليستفيدوا جميعهم منها فأنشأوا هيئة تحكيمية تسمى « محكمة المياه » ، قلم يخلقها

الخليفة الأموي الحكم الثاني خليفة قرطبة ، وكان قاضيه في بلنسية آنذاك عبد الرحمن بن حبال ، وقد تأسست هذه المحكمة في أواخر عام (٩٦٠ م) وما زالت تقوم بدورها في الوقت الحاضر . وعندما فتح الملك خيمي الأول بلنسية احترم هذه الهيئة الشرعية وحافظ عليها كما احترمها جميع الحكام الذين استلموا زمام الأمور في اسبانيا حتى يومنا هذا . واعترف التشريع الاسباني بشرعية وقوانين المحكمة المذكورة اعترافاً صريحاً .

لقد كان عام (١٩٦٠م) عام الذكرى الألفية لتأسيس « محكمة المياه » وحضر الاحتفالات بهذه الذكرى وزير العدل الاسباني وبصحبته وزراء الزراعة والأشغال العامة ، وقد أشاد الخطباء في تلك الاحتفالات الباهرة بالحضارة العربية وبمآثر العرب الرائعة في الأندلس ، ومما يلاحظ بأن تكفير الاسبان عن خطاياهم التي ارتكبوها ضد العرب قد جاء متأخراً جداً .

أما محكمة المياه هذه الطارقة التليدة فتقام في العراء كل خميس في مدينة بلنسية منذ تأسيسها من قبل العرب حتى اليوم ، وانتخب يوم الخميس من بين أيام الأسبوع لتجري فيه محاكمات المياه لأنه اليوم السابق للعطلة الإسلامية (الجمعة) ويتم اجتماع المحكمة عند مدخل كاتدرائية بلنسية التي كانت المسجد الجامع للمسلمين زمن العرب .

تتألف المحكمة من سبع قضاة ينتخبهم الشعب من بين المزارعين المنتجين ، قاض عن كل ساقية . واختصاص هذه المحكمة هو الفصل في الدعاوى الناتجة عن توزيع المياه . ويقوم عادة الحارس الأكبر لكل ساقية بتقديم الدعوى بناء على طلب المدعي الذي يعتبر نفسه مغبونا ، فيقدم الاستدعاء ويحضر المدعي والمدعى عليه أمام المحكمة ، ويدافع المدعى عليه عن نفسه ، ويجوز إحضار الشهود والكشف عن الحوادث في المكان عينه ، ولكن يكتفي غالباً بسرد الواقع لتعرف المحكمة تفاصيل القضية ، وبعد تداول يجري بصوت منخفض بين أعضاء المحكمة يعلن الرئيس الحكم وهو غير قابل للاستئناف .

لمحكمة المياه ميزات نادرة ، تجري المحاكمة في العراء كما قلنا ، ويتكلم الجميع اللغة البلنسية ، وعلى القضاة أن يرتدوا اللباس الرسمي — وهو عبارة عن قميص أسود — (وهذا الزي تقليـــد عربي) وذلك قبل الجلوس على مقاعدهم ، وتفرض العقوبة المالية بالنقد المتداول ، ولكنــــه يجب الإشارة الى قيمتها بالليرات القديمة . ويتقاضى الرئيس عادة نصف ليرة من الحلوى عن كل جلسة ، وهـــذه الحلوى تصنع في معمل خاص مشهور ببلنسية يكلف بإعدادها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن القوانين التي تطبقها المحكمة مقتبسة بأكثرها عن قوانين الري التي كانت سارية ببعلبك في القرن الثامن الميلادي ، وبعضها مقتبس من مجموعة قوانين (حمورابي) التي ترجع إلى ما قبل أربعة آلاف سنة ، وهذا يعني أن أقدم الشرائع في العالم تطبق في القرن العشرين كل يوم خميس عند مدخل كاتدرائية — مسجد — بلنسية .

إن قوانين بعلبك وشرائع حمورابي دخلت إلى أسبانيا عن طريق الجيش العربي الذي جاء لنصرة طارق بن زياد ، وشارك في فتـــح بلنسية التي استوطن فيها .

في خلال الحرب العالمية الثانية كان أحد سفراء الدول العظمى بمدريد ذا ثقافة عالية وميل شديد إلى الدرس والتنقيب في البحوث التاريخيـة ، حضر محكمة المياه ودرس تاريخ نشأتها وبعد أن اطلع على تاريخها الطويل المستفيض قال : يظهر أن هذه المحكمة خالدة إلى الأبد ، ويظهر أن العرب لم يتركوا الأندلس نهائياً بعد .

اقول أجل ان هـــذه المحكمة خالدة خلود التراث العربي في الأندلس وباقية بقاء السمرة العربية الظاهرة على ملامح الأسبان في الفردوس المفقود .



الدكتور فيصل دبدوب

مجتمع الهمذاني

من خلال مقاماته

بحث يحلل المقامات ويستشف من ورائها صورة المجتمع الذي أنشئت فيه

— ٤ — (١)

٣ — في الدُّور والأسواق

(الدور — المساجد — البيمارستانات — الحمّامات — المطاعم — الحوانيت — الخانات — الأسواق ..)

الدور في التاريخ : لسنا في حاجة إلى ذكر ما كان القوم عليه من عناية بالعمران وتفنن في هندسة الأبنية وزخرفتها ، فهذا أمر معروف عن حضارة القرن الرابع ، والحق أن كتب الحضارة وصفت لنا كثيراً من الأبنية والقصور ، وإن كانت قد اقتصرت على قصور الخلفاء والمساجد حيث كثر الإنفاق أو ظهرت آثار الفن وروعته ، وأما دور الشعب ومساكن الطبقة العامة فقد لا نعرف عنها الكثير من خلال تلك الكتب . ولعل أكثر مانعرفه عنها مقتبس من بعض الكتب الأدبية التي تعرّضت في مناسبات مختلفة ، لوصفها ككتاب « الأغاني » و « المقامات » .

الدور في المقامات : لسنا نكتم أن الهمذاني لم يوفّ الدور حقّها من الوصف ، وأن حديثه عنها كان موجزاً وسريعاً ؛ إنه يذكر ما كلّفت من

(١) نشر أول البحث في الصفحات ١٢٤ و ٦٠٥ و ٨٢٦ من المجلد (٤٣) .

أموال ، وقد كانوا يتفاخرون بكثرة الإنفاق ، ويذكر أحياناً ما يتصل بدقة الصنعة وجمال الشكل .. وهو إذا فصّل ففي وصف باب أو حلقة ، وليس في وصف البيت وتخطيطه ، ومن الحق أن نشير إلى أن حديث الهمذاني عن الدور ووصفها لايقارب ما نقله « آدم متز » مثلاً في الموضوع نفسه (١) قال الهمذاني على لسان أبي الفتح : « واتهينا إلى باب داره ، فقال : هـذه داري ، كم تقدر يا مولاي أنفقت على هـذه الطـاقة ؟ أنفقت عليها والله فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ؟ انظر إلى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجها فكأنما خط بالبركار ، وانظر الى حذق النجار في صنعة هذا الباب ، اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم ؟ هو ساج من قطعة واحدة لامأروض ولا عفن » (٢) .

وواضح من هذا أنهم يصنعون أبواب بيوتهم من الخشب ويتخذون على الباب حلقة تدور بلولب يُطرق بها البـاب ، وبالجملة كان الخشب يستعمل كثيراً وكان أحب أصنافه عند السراة خشب الساج الهندي (٣) .

ويتابع الهمذاني حديثه عن الدار فيقول « وهذه الحلقة تراهـا ؟ ... فيها من الشبه ستة أرطال ، وهي تدور بلولب في البـاب ... ثم قرع الباب ودخلت الدهليز فقال : عمـرك الله يا دار ، ولا خربك يا جدار ، فما أمتن حيطانك ، وأوثق بنيانك ، وأقوى أساسك ، تأمل بالله معارجها ، وتبيّن دواخلها وخوارجها .. (٤) » وقال : « فقمت ، فقـال : أين تريد ؟ فقلت : حاجة أقضيها . فقال : ياموي تريد كنيفاً يُزري بربيعي الأمير

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٥١ وما بعدها .
(٢) المقامة المضيرية : ١١٣ .
(٣) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٦٠ .
(٤) المقامة المضيرية : ١١٤ .

وخربق الوزير ؛ قد جُصِّص أعلاه وصُهرج أسفله ، وسطح سقفـــه ، وفُرشت بالمرمر أرضه ، يزلّ عن حائطه الذرّ فلا يعلق ، ويمشي على أرضه الذباب فيزلق ، عليه باب غير أنه من خليطي ساج وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج » (١) .

وقد كانت الدور موضعاً للاجتماع والسمر ؛ ففيها يجتمعون للسمر والطرب ، قال « وجعلت للدار حاشيتي النهار (٢) » وقال « بت ذات ليلة في كتبية فضل من رفقائي فتذاكرنا الفصاحة ، وما ودعنا الحديث حتى طرق علينا الباب (٣) . . »

المساجد في التاريخ : غير خاف أن المساجد من الموضوعات التي عنيت بها كتب الحضارة الإسلامية ؛ فوصفت بناءها وفنّها وزخرفتها ، وذكرت عدد العاملين في بنائها ومدى ما أنفق عليها . . . وزاد بعض المؤرخين فتناول أحوال القوم فيها ؛ قال المقريزي . . إنهم كانوا يجتمعون في المساجد ، وقد يولمون فيها وينامون . . وروى لنا قصّة حدّث بها الأمير عليّ تاج الملك جوهر المعروف بالشمس الجيوشي ذكر أنهم اجتمعوا ليلة في مسجد فعملوا أسماطاً وأكلوا ثم تحدثوا وناموا . . وكانت ليلة باردة فناموا عند المنبر . » (٤) وكذلك نقل آدم متز كثيراً من أخبار المساجد واجتماع القوم فيها ليلاً ونهاراً (٥) .

المساجد في المقامات : لا يقف الهمذاني بنا خارج المسجد ليصفه لنا وإنما يأخذ بأيدينا الى داخله ليطلعنا على ما يحدث فيه ويسمعنا الأحاديث

(١) المقامة المضيرية : ١٢٢ .
(٢) المقامة القريضية : ٩ .
(٣) المقامة الناجمية : ١٩٩ .
(٤) الخطط والآثار ٢ : ٣١٩ .
(٥) الحضارة الإسلامية ٢ : ٨٥ وما بعدها .

التي تدور في حلقات القوم ؛ فقد كانوا يجتمعون في أفنية المساجد وتدور بينهم الأحاديث المختلفة ويمرّ بهم المكدّون ...

لقد حدثنا الهمذاني عن إقبال القوم على الصلاة في المساجد وإجابتهم داعيها ، وعن عادة بعض الأئمة في إطالة الصلاة ، وعما يحدث بعد انقضائها من مفاجآت المكدّين ، وقد حدث مرة أن « نودي للصلاة نداء سمعته وتعيّن فرض الإجابة ، فانسللت من بين الصحابة أغتنم الجماعة أدركها »[1] وكانت صلاتهم طويلة « تقدّم الإمام إلى المحراب فقرأ فاتحة الكتاب ، بقراءة حمزة مدّة وهمزة ... وأتبع الفاتحة الواقعة »[2] وانتهت الركعة الأولى « .. وقام الإمام إلى الركعة الثانية فقرأ الفاتحة والقارعة ، قراءة استوفى بها عمر الساعة ، واستنزف أرواح الجماعة ، فلما فرغ من ركعتيه ، وأقبل على التشهد بلَحيَيْه ، ومال إلى التحية بأخدعيه ، وقلت : قد سهّل الله المخرج وقرّب الفرج ، قام رجل وقال : من كان منكم يحبّ الصحابة والجماعة ، فليعرني سمعه ساعة . قال عيسى بن هشام : فلزمت أرضي صيانة لعرضي . فقال : حقيق عليّ ألاّ أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق ... »[3] ويتابع حديثه حتى يصل إلى مطلوبه فيذكر حاجته إلى المال ..!

وكذلك يذكر الهمذاني تلبية الدعوة إلى الصلاة في المقامة الحرية حين « ثوّب منادي الصبح ... فبادرنا إلى الدعوة وقمنا وراء الإمام قيام البررة الكرام .»[4]

(١ و ٢) المقامة الأصفهانية ٥٦ و ٥٧ .

(٣) المقامة الأصفهانية : ٥٨ .

(٤) المقامة الحرية : ٢٤٥ .

وأما دخول المكدّين إلى المساجد فقد مرّ ذكره في المقامة النجارية حيث يقول « حدثنا عيسى بن هشام قال أحلّني جامع بخاري معهم وقد انتظمت مع رفقة في سلك الثريا وحين احتفل الجامع بأهله طلع إلينا ذو طمرين قد أرسل صوانا واستتلى طفلاً عُريانا . . . » (١)

ويشير الهمذاني إلى أنهم كثيراً ما كانوا يعرّجون على المساجد تخفيفاً لمشقة أو فراراً من حرّ فيقول في المقامة الرصافية : « خرجت من الرصافة أريد دار الخلافة ، وحمّارة القيظ تغلي بصدر الغيظ ، فلما نصفت الطريق اشتدّ الحرّ وأعوزني الصبر ، فملت إلى مسجد قد أخذ من كل حسن سرّه . » (٢)

البيمارستانات : إن اتخاذ الناس للبيمارستانات أمر قديم ، وقد ذكروا أن هذه الأماكن كانت منتشرة في القرن الرابع (٣) ، بل هي معروفة قبل ذلك التاريخ إذ قيل إن أول من بنى المارستان هو أحمد بن طولون بناه في مصر سنة ٢٥٩ هـ . وكانت أمور المارستانات بيد ذوي المناصب الرفيعة ، حكى ابن الأثير أنه توفي سنة ٣٩٦ عبد الرحيم المرزباني الأصبهاني قاضي خراسان وقال « وإليه كان أمر البيمارستانات » (٤)

وأما الهمذاني فيأخذ بأيدينا إلى مارستان البصرة ويسمعنا كلام بعض المجانين من نزلائه ، وقد سمعناه في بحث الردّ على المعتزله (٥) ، وذلك حين

(١) المقامة النجارية : ٨٧ .
(٢) المقامة الرصافية : ١٦٥ .
(٣) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٤٧ وما بعدها .
(٤) الكامل ٩ : ٦٦ .
(٥) انظر ما سبق في ص : ٨٤٦ من المجلد ٤٣ .

دخل المارستان مع أبي داود المتكلم[١] ، ورأينا أن الخطرين منهم كانوا يفيئون خوف أذاهم إذ أن أحدهم ما هو « إلا شيطان في أشطان »[٢]

الحمّامات : كانت الحمامات معروفة منذ القديم ، ولكن عناية الناس بها زادت بعد الإسلام ، وذكر الطبري أنه لم يكن للفرس عهد بالحمامات قبل الإسلام . أما عند المسلمين فقد شاعت وانتشرت وتنافست البلاد في كثرتها ، على أن ذوي الورع لم يمدحوها ، ونقل عن عليّ أنه قال : « بئس البيت الحمّام ، تكشف فيه العورات وترفع فيه الأصوات ، ولا تقرأ فيه آية من كتاب الله » . وقد بلغ عدد الحمامات في النصف الأول من القرن الرابع في جانبي بغداد عشرة آلاف حمام »[٣] ولم يغفل الهمذاني ذكر الحمامات في مقاماته وإنما تحدث عنها وذكر عناية القائمين عليها بزائريها من المستحمّين . لقد طلب ابن هشام أن يرشدوه إلى حمام « واسع الرقعة نظيف البقعة ، طيب الهواء معتدل الماء »[٤] فأشار إلى ما كان الناس يتوخونه في الحمام ، ثم دخل ابن هشام الحمام وقال « وأتبناه فلم نر قوامه ، لكني دخلته ودخل على أثري رجل وعمد إلى قطعة طين فلطّخ بها جبيني ووضعها على رأسي . . »[٥] ثم يتابع حديثه عما جرى له وكيف تشاجر عليه اثنان من المستخدمين كلّ يدّعي أنه له و « ما لبث أن دخل الأول فحيّا أخدع الثاني بمضمومة قعقعت أنيابه ، وقال : يالكع مالك ولهذا

(١) المقامة المارستانية : ١٢٧ .
(٢) المقامة المارستانية : ١٣٢ .
(٣) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٦٢ .
(٤) المقامة الحلوانية : ١٨٠ .
(٥) المقامة الحلوانية : ١٨١ .

الراس وهو لي ، وعطف الثاني على الأول بمجموعة هتكت حجابه ، وقال : بل هذا الراس حقّي ، وملكي في يدي ، ثم تلاكما حتى عييا . . »(١)

وكان الهمذاني قد أدخلنا حماماً وأطلعنا على ما يحدث فيه ، وكيف نستقبل لو ذهبنا إليه ، وأشار إلى أخلاق أصحاب هذه الحرفة ... ولسنا ندري سبب الخصام بين المستخدمين في الحمّام ولكن لعلّه أراد أن يشير إلى أن كلاّ من المستخدمين كان يشتغل لحسابه الخاص ، أو أن صاحب الحمام كان يحاسبهم على « الراس » !

المطاعم والحوانيت والمآكل : تحدث كتاب « الوزراء » عن بعض ولائم القوم وعاداتهم فيها ، ووصف لنا مثلاً وليمة دعا إليها الوزير ابن الفرات جماعة من أصحابه ، وجاء في الحديث ذكر لبعض أنواع الطعام والعادات ، إلا أنه وغيره من أخبار التاريخ غير كاف لعرض صورة عن أسواق القوم ومطاعمهم الشعبية وما فيها من المآكل ؛ نعم نحن نجد فيها أخبار ولائم العظماء ونسمع أسماء أطعمة عربية وغير عربية ولكننا لا نستطيع تصوّر تلك الأطعمة لأنها سردت لنا أسماؤها دون أن توصف لنا .

وأما بديع الزمان فقد استطاع بوصفه للجزئيات أن يضع أمامنا صورة للسوق وما فيها من حوانيت ومناظر ، وللمطاعم وما فيها من مآكل ... ولنترك للهمذاني أن يأخذنا إلى تلك الأماكن كما أخذنا إلى الحمام ، وأن يمرّ بنا عبر الطرقات ويقدّم لنا بعض المآكل :

يصل الغريب الى البلدة فيشعر — كما شعر السوادي في بغداد — بالجوع يستولي عليه ، فيتقدّمه الهمذاني أو ابن هشام إلى مطعم شعبي

---

(١) المقامة الحلوانية : ١٨١ .

(٢) الوزراء : ٢٤٠ .

انتشرت منه روائح الشواء ... وفي هذا المطعم نجد اللحم والخبز والحلوى وكأننا في مطعم من مطاعم احيائنا الشعبية في حي السيدة زينب بالقاهرة أو باب الجابية أو الدرويشية بدمشق .

ويصف الهمذاني لنا ماني هذا المطعم الشعبي من أطعمة فيفصّل ويجيد إجادة تجعلنا أمام ذلك الطعام أو تجعله أمامنا ، بل يقدّمه لنا حتى نكاد نذوقه ونعرف أنه يذوب كالصمغ قبل المضغ .. يقول الهمذاني « ثم أتينا شوّاء يتقاطر شواؤه عرقاً وتتسايل جوذاباته مرقا . فقلت : افرز لأبي زيد من هذا الشواء ثم زن له من تلك الحلواء . واختر له من تلك الأطباق وانضد عليها أوراق الرقاق ورشّ عليها شيئاً من ماء السمّاق ... ، فانحنى الشوّاء بساطوره على زبدة تنوّره فجعلها كالكحل سحقاً وكالطحن دقاً ... وقلت لصاحب الحلوى : زن من اللوزينج رطلين ، فهو أجرى في الحلوق وأمضى في العروق (١) » وإن كنا لاندري مااللوزينج فالهمذاني لايتركنا كما يتركنا كتاب التاريخ أمام اسم مبهم الدلالة ولكنه يصفه ويوضحه فيقول « وليكن ليليّ العمر يومي النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤي الدهن ، كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ... (٢) » .

ويذكر الهمذاني الماء المثلّج فيقول : ... « ماأحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارّة ويفثأ هذه اللقم الحارّة ... (٣) » والماء المشعشع بالثلج ألذّ ما يتناوله الناس في الصيف ، ويحكى أنه يوم تولى ابن الفرات الوزارة ، وكان يوماً شديد الحر ، سقي في داره أربعون ألف رطل من الثلج في يوم وليلة (٤) .

---

(١) المقامة البغدادية : ٦٥

(٢ و ٣) المقامة البغدادية : ٦٦ .

(٤) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٨٤ .

ويذكر الهمذاني في مقامات أخرى كثيراً من أنواع الأطعمة ؛ ففي المقامة الساسانية مثلاً يقول زعيم المكدّين :

أريد منك رغيفا يعلو خوانا نظيفا
أريد ملحاً جريشا أريد بقلاً قطيفا
أريد لحماً غريضا أريد خلّاً ثقيفا
أريد جدياً رضيعا أريد سخلاً خروفا
أريد ماءً بثلج يغشى إناءً طريفا
أريد دنّ مدام أقوم عنه نزيفا (١)

وفي المقامة المضيرية يحدّثنا عن المضيرة ويعدّد المواد التي طبخت بها (٢) ويذكر أن الخبز عندهم كانت أرغفته رقيقة واسعة ينضجونها في التنور فهي « أوراق الرقاق » (٣) أو هي « صلائق كأنها القباطيّ المنشّر أو الفوهي المصّر » (٤) تطلع من « تنّور مسجور » (٥) ويذكر من مآكلهم البقل والسمك والباذنجان والتفاح والأنقال ... يقول في المقامة الجاعية « فما قولك في رغيف وبقل قطيف الى خل ثقيف وخردل حرّيف وشواء صفيف ، وأوساط محشوّة وأكواب مملوءة وأنقال معددة ... ولحم طريّ وسمك نهري وباذنجان مقليّ وراح قطربُلي وتفاح جنيّ ... » (٦) كما يذكر

(١) المقامة الساسانية : ٩٧ .
(٢) المقامة المضيرية : ١٢٢ .
(٣) المقامة البغدادية : ٦٥ .
(٤) المقامة النهدية : ١٨٩ .
(٥) المقامة البغدادية : والأرمنية : ١٩٦ .
(٦) المقامة الجاعية : ١٣٣ .

التمر مع الزبدة التي هي « نهيدة فرق كهامة الأصلع »(١) وربما شربوا معها الحليب في « أقعب قد احتلبن من الجلاد الهرمية ....»(٢) . ومنها نوع يصنع من الدقيق الذي يعجن بالحليب ويشوى ويصنع على أشكال مختلفة كالكمك ، ثم يصبّ عليه العسل ويشرب معه الحليب ، وهو يبيّن لنا طريقة صنعه ويصفها خطوة خطوة (٣) ، ومن ذبائحهم العتاق النجدية تقدّم مع الخبز وبعض مايقوّي الشهيّة كالخردل والأصباغ (٤) .

ومن طعام فقرائهم الخبز اليابس والتمر الرديء وهو ماقدّم لابن هشام إذ يقول « فأتتنا ابنته بطبق عليه جِلفة وحُثالة ولَويَّة . »(٥)

وأما الأغنياء وأهل اليسار فقد ذكر ابن هشام بعض ماناله عندهم من لذيذ المأكل والمشرب فقال « فلم نزل في صبوح وغبوق نتغذّى بالجدايا الرضّع ، والطباهجات الفارسية ، والمدقّقات الابراهيمية ، والقلايا المحرّفة ، والكباب الرشيدي ، والحُملان ، وشرابنا نبيذ العسل ... ونَقْلنا اللوز المقشّر ، والسكر والطَبَرْزَد ... »(٦) « وكانت لنا طبّاخة حاذقة فاتخذت عشرين لوناً من قلايا محرّقات .. »(٧) .

وهكذا دخلنا مطاعم القوم وشهدنا بعض ولائمهم وعرفنا بعض مآكلهم ، وما زال الهمذاني يتقدّمنا في الأسواق حتى وقف بنا أمام بائع للفواكه حسن الذوق جيد الترتيب فهو قد « أخذ أصناف الفواكه وصنّفها ، وجمع

(١ ـ ٤) المقامة النهدية ١٨٥ وما بعدها .
(٥) المقامة النهدية : ١٨٩ . والجلفة : قطعة الخبز اليابسة . واللويّة : ما يخبأ .
(٦) المقامة الصيمرية : ٢١٦
(٧) « « : ٢٢١

أنواع الرطب وصفّفها ... (١) ثم وقف أمام بائع الألبان الذي صفّف الأواني النظيفة وفيها أنواع الألبان ... (٢) .

وأما صاحب الخبز فهو يُعنى بنظافة رغفانه ويرمي ما شك في نظافته حتى استغلّ ذلك ابو الفتح على نحو ماجاء في المقامة الأرمنية حين قال « وسرنا في طلب أبي جابر فوجدناه يطلع من ذات بطن تُسجر بالغضا ، فعمد الاسكندري إلى رجل فاستماحه كفّاً ملح وقال للخباز : أعرني رأس التنور فإني مقرور ، ولما فرّع سنامه وجعل يحدث القوم بحاله ويخبرهم باختلاله وينشر الملح في التنّور من تحت أذياله يوهمهم أن أذّى بثيابه . فقال الخباز : ما لك لا أبا لك ؟ اجمع أذيالك فقد أفسدت الخبز علينا . وقام إلى الرغفان فرماها وجعل الاسكندري يلقطها ويتأبطها .. » (٣) .

الخانات : وما نزال نسير مع الهمذاني حتى يقبل الليل وتبدأ الحانات بفتح أبوابها واستقبال زبائنها ، ولكل حانة باب وكلاب ومستخدمون يتكفّلون بدوابّ الزبائن ، وصبايا حسان ، ومطربون .... ففي المقامة الخمرية أنه « لمّا حسرج النهار أو كاد نظرنا فإذا برايات الحانات أمثال النجوم في الليل البهيم ، فتهادينا بها السرّاء وتناشرنا بليلة غراء ووصلنا إلى أفخمها بابا وأضخمها كلابا .... فدُفعنا إلى ذات شكل ودلّ ووشاح منحلّ ، إذا قتلت ألحاظها أحيت ألفاظها ، فأحسنت تلقّينا ... وأسرع من معها من العلوج إلى حطّ الرحال والسروج .... قلنا « هذه الضالّة وأبيك

(١) المقامة الأزاذية : ١٤ .
(٢) المقامة الأرمنية : ١٩٧ .
(٣) « « : ١٩٦ .

فمن الطرب في ناديك ؟ قالت : إن لي شيخاً ظريف الطبع طريف المجون . . . »(١)

في الطرقات : ولا يكتفي الهمذاني بأن يرينا ما على جوانب الطريق من مطاعم وحوانيت وحمامات وحانات وحلاقين . . . وإنما يرينا أيضاً ما يعترض سبيل المارّة في عرض الطريق ، فمن قوم تحلّقوا حول قرّاد ، إلى صبية يستهزئون بالمارّة . . . ففي المقامة القردية يقول « بينا أنا في مدينة السلام أميس ميس الرجلة على شاطىء الدجلة . . . إذ انتهيت إلى حلقة رجال مزدحمين ، يلوي الطرب أعناقهم ، ويشق الضحك أشداقهم ، فساقني الحرص إلى ما ساقهم حتى وقفت بمسمع صوت رجل دون رؤية وجهه لشدة الهجمة وفرط الزحمة فإذا هو قرّاد يُرقص قرده . »(٢) وفي المقامة المضيرية أن أبا الفتح حين فرّ من وليمة صاحبه وجعل يعدو أخذ صاحبه يعدو خلفه ويصيح « يا أبا الفتح المضيرة . . . فظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه »(٣) وأخيراً ينبغي لنا أن نذكر أن هناك جزئيات تافهة ومع ذلك لم يغفل الهمذاني عن ذكرها ، وتلك ميزة أدبية تساعد على التوضيح ، ولا يقوى عليها من الأدباء إلا من كان شديد الملاحظة حادّ الذكاء لا تفوته ملاحظة الأشياء الصغيرة كما لا يفوته الحديث عنها ؛ فالهمذاني مثلاً يذكر أن بعض الناس كان يحمل ما يشتريه من السوق في منديل واسع كما يفعل بعض الناس اليوم ، وأن بعضهم كان يضع ما يشتريه

(١) المقامة الخمرية : ٢٤٧ .
(٢) المقامة القردية : ١٠١ .
(٣) المقامة : ١٢٣ .

في طرف إزاره كما في المقامة الأزاذية حين قبض من كل شيء أحسنه وقرض من كل نوع أجوده، فجمع حواشي الإزار على تلك الأوزار ... »(١)

أدواتهم : مازالت الحضارة تقدم للإنسان اليوم الكثير من الأدوات والوسائل التي تملأ حياته راحة ورفاها ، وتيسّر عليه العمل الشاق وتوفّر له الكثير من وقته ... وألف الإنسان ما يستعمل حتى نسي ما كان يتخذه سلفه الأول من أداة ومتاع ؛ لقد ألف الكهرباء حتى نسي شكل السراج ، وألف السيارة حتى نسي شكل جدّه وهو على دابّته ... ولقد ذكّرنا بديع الزمان بالكثير من أدوات القوم وأثاثهم ؛ أما الأغنياء فإن عندهم « حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وخيلاً مسوّمة ، وقناطير مقنطرة ، وعُدّة وعديدا ومراكب وعبيدا .. »(٢) وذكر أحدهم ما كان معه فقال « ومعي جراب دنانير ومن الخرثيّ والآلة وغير ذلك ما لا أحتاج معه إلى أحد » وعند بعضهم « صنان ، كل صنّ بأربعة آذان . »(٣) وقصاع كبيرة يذلّ عنها الطَرف ...(٤) ومن أدواتهم الخوان والإبريق والطست والمناديل المطرّزة ، وقد ذكرت في المقامة المضيرية ، وكانوا يستنيرون بضوء السراج وهو « حوت مصرور في بعض البحور مختطف الحصور يلدغ كالدنبور ويمتّ بالنور ، أبوه حجر وأمه ذكر ، ورأسه ذهب واسمه لهب وباقيه ذنب ، له في اللبوس عمل السوس ، وهو في البيت آلة الزيت

(١) المقامة الأزاذية : ١٤ .

(٢) المقامة القزوينية : ٩٤ .

(٣) المقامة الصيمرية : ٢١٥ ــ ٢٢٢ والصن وعاء كبير يشبه السلّة .

(٤) المقامة المضيرية : ١٠٩ .

شرّيب لا ينقع ، أكول لا يشبع ، بذول لا يمنع . ينمي إلى الصمود ، ولا ينقص ماله من جود ، يسوءك ما يسرّه وينفعك ما يضرّه . . . » (١)

أما المطبخ فلك أن تتخيّل ما لم يذكره من أدواته حين تدخله مع أبي الفتح لترى المرأة فيه وهي تدور من التنور إلى القدور ، تنفث بفيها النار وتدق بيديها الأبزار . . . » (٢)

ومما كان معروفاً عندهم المنزل ، وقد عرفناه في بعض دورنا القديمة ، والأمشاط ، وقد ألغز فيها الهمذاني في المقامة المغزلية وأورد لكل من المغزل والمشط كثيراً من الأوصاف (٣)

وكذلك ذكر في المقامة الساسانية بعض أدواتهم في مثل قوله :

أريد مشطاً وموسى أريد سطلاً وليفا (٤)

الشطرنج : وهو من وسائل التسلية عندهم ، وقد كان معروفاً من قبل ، وعُدّ الصولي والخليفة المأمون من المهرة فيه (٥) . أما الهمذاني فقد ذكره حين أراد أن يصف يد أبي الفتح وجولانها بين الصحون فقال

---

(١) المقامة الابليسية : ١٩٣ .

(٢) المقامة المضيرية : ١١١ .

(٣) المقامة المغزلية ١٧٤ .

(٤) المقامة الساسانية : ٩٨ .

(٥) الحضارة الإسلامية ٢ : ١٨٧ .

إنها « تسافر على الخوان وتسفر بين الألوان وتأخذ وجوه الرغفان وتفقأ عيون الجفان » فهي « تجول في القصعة كالرخّ في الرقعة »[١] والرخّ من قطع الشطرنج ذو جولة وصولة وقوة ومنعة حتى سمّاه بعضهم بالقلعـــة .
وورد اسم الشطرنج أيضاً في وصية الاسكندري لابنه حين كان يلقنه أصول التجارة فقال له « كن مع الناس كلاعب الشطرنج؛ خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك[٢] » .

(يتبع) الدكتور مازن المبارك



(١) المقامة الجاحظية : ٧٩ .
(٢) المقامة الوصيّة : ٢١٤ .

نافذة تطل على تاريخ اليزيدية

منذ أمد طويل وأنا أتتبع ما يكتب ويقال عن اليزيدية ، ولم تكن نفسي تطمئن إلى شيء من ذلك .

ومنذ أمد اطلعت على نص نفيس يكشف القناع عن هذه الفرقة ويوضح تاريخها الذي اختلفت فيه الآراء ، وكنت أحاول نشره في مجلة المجمع العلمي العربي حينما اطلعت على ما كتبه الأستاذ محمود الملاح في المجلد الثامن والثلاثين ص (٣٣٤) وكانت العوائق تحول دون ذلك ، والآن وقد كتب لي بعض الفراغ من الوقت فاني اكتب هذه اللمحة لتضاف إلى ما كتب عن هذه الطائفة الغامضة مقدّماً عليها كلمة تمهيدية .

سياسة بني أمية ومعاوية وابنه يزيد :

كانت سياسة بني أمية تقوم على تقديس رجالاتهم والطعن في خصومهم خصوصاً الطالبيين ، وهذا بديهي لا يحتاج إلى سرد نصوص تؤيد ذلك .

فمعاوية وابنه يزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والحجاج ابن يوسف الثقفي وأضرابهم كان لهم من القدسية والاحترام في العصر الأموي وإلى منتصف العصر العباسي مثل ما لآل البيت النبوي في عصرنا .

يذكر المقدسي[1] أنه دخل مدينة أصبهان فوصف له رجل معروف بالزهد والتعبد ، قال : فقصدته وتركت القافلة خلفي وبت عنده تلك الليلة ،

(١) أحسن التقاسيم ص (٣٩٩) والمقدسي هذا كان حيّاً سنة (٣٧٦ هـ) .

وجعلت أسائله إلى أن قلت : ماقولك في الصاحب [١] ؟ فجعل يلعنه ، ثم قال : أنه أتانا بمذهب لانعرفه .

قلت : وما هو :

قال يقول : معاوية لم يكن مرسلا .

قلت : وما تقول أنت ؟

قال : أقول كما قال الله تعالى (لا نُفَرِّقُ بينَ أحدٍ مِن رُسُلِهِ ، (٢ : ٢٨٦) أبو بكر كان مرسلا ، وعمر كان مرسلا ، حتى ذكر الأربعة ثم قال : ومعاوية كان مرسلا قلت : لا تفعل ، أما الأربعة فكانوا خلفاء ، ومعاوية كان ملكا ، وقال النبي ﷺ : الخلافة بعدي إلى ثلاثين سنة ، ثم تكون ملكا ، فجعل يشنع علي وأصبح يقول للناس : هذا رجل رافضي ، فلو لم أتدارك القافلة لبطشوا بي ، ولهم [أي لأهل أصفهان] في هذا الباب حكايات كثيرة .

ويقول المقدسي أيضاً [٢] : وببغداد غالية يفرطون في حب معاوية .

وهناك نص يفيد بأن أهل الكرخ كانوا من جماعة معاوية وأنصاره ، فقد سب إبراهيم بن رستم معاوية ، فقال له رجل : لم لاتقول هذا بالكرخ ؟ فقال [إبراهيم بن رستم] ولم لاتصلي أنت على محمد — صلى الله عليه وعلى آله — بالقسطنطينية [٣] .

ويقول المقدسي في أحسن التقاسيم [٤] : كنت يوماً بجامع واسط وإذا برجل قد اجتمع عليه الناس ، فدنوت منه فاذا هو يقول :

---

(١) أي الصاحب ابن عبّاد .
(٢) أحسن التقاسيم ص ١٢٦ .
(٣) البصائر لأبي حيان التوحيدي ج ٢ ص ٤٢٠ تحقيق الدكتور ابراهيم الكيلاني ،
(٤) ص ١٢٦ .

حدثنا فلان عن فلان عن النبي ﷺ : أن الله يدني معاوية يوم القيامة فيجلسه إلى جنبه ويغلفه بيده ، ثم يجلوه على الخلق كالعروس ، فقلت له : بماذا ؛ بمحاربته عليا ؛ رضي الله عن معاوية وكذبت أنت ياضال . فقال خذوا هذا الرافضي فأقبل الناس عليّ ، فعرفني بعض الكتبة فكركروهم عني .

مثل هذا الاحترام والتقديس عند بعض الناس لمعاوية انتقل إلى ابنه يزيد فكان فيهم من يعتقد مثل هذا أو قريباً منه في يزيد ، وتفيد فتوى الشيخ الإمام أحمد بن تيمية (١) التي نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي أن بعضاً من الناس في عصره يعتقد أنه كان صحابياً وبعضاً آخر يعتقد أنه كان نبياً وقد ردّ الشيخ ابن تيمية على هذين القولين وذكر اعتقاد أهل السنة في يزيد راجع (المجلد ٣٨ ص ٤٥٢) من هذه المجلة .

وبعد هذه المقدمة نعود إلى النص الذي أشرنا اليه في أول المقال وهو من طرائف النصوص النادرة .

التعريف بصاحب هذا النص :

هو أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق الفارقي ، ولد بمدينة ميافارقين في شهر شوال وعاش ما بين سني (٥١٠ — ٥٩٠) رحل خلالها إلى مدن الجزيرة والعراق والشام والعجم قابل فيها الخلفاء وأبناء الخلفاء والملوك والسلاطين والعلماء وكبار رجال الحكم ، وألف تاريخاً لمدينة ميافارقين نقل عنه ياقوت الرومي وابن خلكان وابن شداد في الأعلاق الخطيرة .

---

(١) سؤال في يزيد بن معاوية لشيخ الإسلام ابن تيمية نشره مع جوابه الدكتور صلاح الدين المنجد في المجلد المذكور .

طبع جزء من هذا التاريخ بالقاهرة سنة ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م، وقام بتحقيقه ووضع مقدمة له دوكتور بدوي عبد اللطيف عوض، وهـذا النص ممـا أثبته الدكتور في هذه المقدمة ص ٤٢ لطرافته وهو :

في سنة ثمان وأربعين وخمس مئة هجرية كان مؤرخنا في تفليس وأقام بها مدة ، . . . . . . وهناك اتصل بملك الابخاز وصاحب تفليس الملك ديمتري ابن داود ، ثم التحق بخدمته وبقي عنده مدة ، وسار في ولايته ورأى بلاداً وأماكن كثيرة لم تتح لغيره من المؤرخين والكتّاب .

ويسجل لنا ابن الأزرق في تاريخه بعض الحوادث الهامة التي وقعت له مع الملك فيقول ما ملخصه :

بينما كان يسير ذات يوم مع ملك الابخاز إذ وصلا إلى مرج واسع تحت جبل قلمة شاخة ، فنزلا هناك ، وعرفه الملك بأن في هذه القلعـة رجلاً غريباً أسيراً من ولاية حلب ، ثم طلب منه أن يصعد إليه في باكورة الغد معتزماً أن يرجو الملك في إطلاق سراحه ، وبينما هو يتأهب للقاء الرجل وقت السحر وصل الخبر إلى الملك أن بعض الولاة قد ثاروا وتمردوا عليه فذعر الملك وارتحل لوقته وارتحل معـه ابن الأزرق ولم يقدر له الاجتماع بهذا الرجل .

كما يسجل لنا حكاية طريفة وقعت له مع الملك أيضاً في مدينة الدربند [١] :

في سنة تسع وأربعين وخمس مئة رحل ابن الأزرق إلى مدينة الدربند ، وفي ذات يوم خرج الملك ديمتري في عسكره وأخذوا يطوفون من جهة إلى

(١) ويسميها العرب أيضاً : الباب والأبواب ـ أو ـ باب الأبواب وهي بلدة على الشاطئ الغربي لبحر الخزر وهي الساحل الوحيد لبلاد الداغستان . انظر معجم ياقوت مادة : باب الأبواب ، دربند ، خنليق ، وترجمة دائرة المعارف الاسلاميـة مادة : دربند داغستان .

أخرى وينتقلون من موضع إلى آخر في الولاية ، ولما نزلوا في ولاية الدربند ، وهو الدربند خيزران الذي بناه كسرى ، ترك الملك العسكر في مرج[1] تحت الجبل وأتى اليه الأمير أبو الظفر ملك الدربند ، وكان صهره على ابنته ، واستقبله استقبالاً كريماً وحمل اليه من الخدم والضيافة والإقامة .

وبينما الملك وعسكره نازلين في هذا المرج ومعهم ابن الأزرق ، إذا بجماعة يأتون إليهم من ضياعهم ، فمر أحدهم إلى ابن الأزرق وتحدث معه بالعربية فعجب لذلك ودار بينهما الحديث التالي .

من أين أنت يافتى ؟ ، إني ما رأيت بهذه الأرض مستعربا .

من تلك القرية وأشار إلى قرية على قمة في وسط الجبل .

ومن أين هذا الكلام العربي ؟

إن جميع من في القرية عرب ، ونحن جميعاً نتكلم العربية .

ومتى حللتم في هذا المكان ؟

منذ خمس مئة سنة .

ومن أي العرب أنتم .

نحن من بني أمية ومن كندة ومن قبائل أخرى

وما الذي جاء بكم إلى هذا المكان ؟

لا أعلمك .

ولماذا ؟ — إني أرى أنكم من قتلة الحسين الذين انهزموا من وجه المختار الثقفي وهربوا إلى هذه الجهات .

وكيف تعلم ذلك ؟

من المعلوم والثابت في الكتب أن جماعة من قتلة الحسين انهزموا أمام المختار إلى الدربند .

ثم انصرف الفتى .

(١) في الأصل : برج في الجميع ، وما أثبتناه هو ما رجحناه .

ولما مضت تلك الليلة وكان الغد حضر الفتى ومعه جماعة عند ابن الأزرق وتحدثوا ساعة ، وكان فيهم شيخ كبير يسمى محمد بن عمران أخذ ابن الأزرق يسأله عن مقامهم في تلك البلاد ، وكيف استقروا فيها ولم يعودوا إلى بلادهم الأولى ، وكيف احتفظوا بلغتهم العربية إلى هذا الوقت .

فقال هذا الشيخ : إن هذه البلاد أصبحت لنا وطناً ، ويوصي بعضنا بعضاً أن لا نترك العربية مطلقاً .

ونساؤنا لا تكلم الأطفال إلاّ بالعربية لكي ينشأوا على اللسان العربي الفصيح .

فقال ابن الأزرق : وكيف أحوالكم هنا ؟

فقال له : في خير ، ما بيننا وبين أحد معاملة ، ولنا هذه الأرض التي مساحتها خمسة فراسخ في مثلها نحرث ونزرع ما نحتاج إليه وما يمارضنا أحد ، وهذا الأمير صاحب الدربند يحسن إلينا ويوفر علينا مصالحنا وكل من ولي أمر هذه البلاد يحسن إلينا ونكون عنده في أحسن منزلة .

وبعد تلك الحادثة الطريفة أخبر محمد بن عمران الفارقيّ : أنهم حقاً انهزموا أمام المختار ، ولكنهم لا يعلمون أين صارت تلك الطائفة الأخرى وما هي أخبارهم الآن .

فقال له ابن الأزرق : إن العصبة الأخرى التي تقصدها انهزمت إلى الموصل ، وجبل الجزيرة (١) فأنفذ إليها إبراهيم بن الأشتر النخعي وحاربهم فانهزموا أمامه ، وهربوا إلى ولاية ميافارقين فأرسل إلى محاربتهم عبد الله ابن مساور ، فانهزموا أمامه إلى جبل السناسنة (٢) فوق ميافارقين ، وأقاموا

---

(١) الظاهر أنه يريد بهذا الجبل جبل سنجار .
(٢) السناسنة قبيلة من الأرمن لها حصون منيعة تجاور خلاط (تاريخ ميافارقين ص ٧٥) .

عند ملك سنحاريب ملك السناسنة وهم طائفة من الأمويين .

فقال محمد بن عمران : صدقت ، ثم قال له : وهل بقي إلى اليوم من نسلهم أحد ؟

فقال له ابن الأزرق : نعم .

وحينئذ انصرف هؤلاء الجماعة من العرب بعد أن قضوا مع ابن الأزرق يوماً كاملاً .

وبعد فان هذا النص لا يدع شكاً لمستريب في أصل اليزيدية ، ويجب أن يعاد النظر في تاريخ اليزيدية على ضوء هذا النص النادر الطريف .

دمشق : محمد أحمد دهمان



التعريف والنقد

كتاب (الأثيقون)

أو فلسفة الآداب الخلقيـــة

تأليف : ابن العبري

ترجمه عن السريانية الملفان مار غريغوريوس بولس بهنام

عدد الصفحات (٤٤٠) من القطع المتوسط

مطبعـة الشباب ـ القامشلي (سورية)

ما زالت الكنيسة السريانية تبدي نشاطاً كبيراً في إرشاد أبناء الطائفة والمساهمة في الأعمال الوطنية والمحافظة على التراث السرياني .

ومن المعروف أن آثار العلامـة (مارغريغوريوس أبي الفـرج ابن العبري) [سنة ١٢٢٦ ــ ١٢٨٦ ميلادية] تؤلف جزءاً هاماً من هذا التراث الثقافي . فهو قد ألف ستة وثلاثين كتاباً في الديانة والفلسفة والطب واللغة والتاريخ أكثرها بالسريانية وبعضها بالعربية كما ترجم إلى اللغـــة السريانية كتاب الإشارات والتنبيهات في الفلسفة ، وقسماً من كتاب القانون في الطب للشيخ الرئيس ابن سينا . وقد سبق أن ذكرنا في مجلة مجمع اللغة العربيـــة [1] كيف أن المستشرق الانكليزي (بوكوك) نشر النص العربي لكتابه « تاريخ مختصر الدول » وترجمته إلى اللغـة اللاتينية وأشرنا

(١) راجع الجزء الثالث من المجلد (٤٣) صفحة (٥٧٣) .

إلى القول الشائع في أن تسميته بابن العبري يرجع سببها إلى أن أباه كان يهودياً اعتنق المسيحية .

على أن نيافة الملفان (بهنام) ، مطران بغداد والبصرة ، الذي ترجم كتاب (الأثيقون) أو (فلسفة الآداب الخلقيـــة) تأليف ابن العبري إلى العربية ينفي في مقدمة الكتاب هذه النسبة ويقول إن سبب التسمية هو أن أباه (أوجده) كان قد نزح من قرية (عبري) ، التي كانت قائمة يوماً على نهر الفرات بقرب مدينة (ملطيـة) . وفي الوقت نفسه تكرم قداسة بطريرك انطاكية وسائر الشرق فلفت نظرنا إلى هذا الأمر ، وأرشدنا إلى ما كتبه قداسته في العدد ١٦/ السنة الثانية من « المجلة البطريركية » ينقـد الأخطاء التي ارتكبها الأب (بولس موترد) اليسوعي في ترجمة حياة العلامة ابن العبري في دائرة معارف (فؤاد افرام البستاني) ويرد بالأخص على ترداده القول الشائع بين المستشرقين بأن ابن العبري من أصل يهودي . فرأينا من الضروري الإشارة إلى ذلك ...

يبحث كتاب (الأثيقون) ، كما يدل عنوانه اليوناني ، في الأخلاق وآداب السلوك وقد قسمه المؤلف إلى أربع مقـالات كبرى تحوي كل منها أبواباً وفصولاً شتى . وموضوع المقالة الأولى هو ترويض الجسد وتنظيم حركات تمرينه فيستعرض المؤلف هنا الصلاة وفضيلتها وآثارها ثم أعمـــال النسك والسهر وقوانين النوم وترتيل المزامير وتأثير الألحان وفوائد الصوم والعزلة والغربة وزيارة الأماكن المقدسة . وتبحث المقالة الثانية في أعمال الحيـاة الجسدية من طعام وشراب . وزواج شرعي وتربية أطفال وإعطاء الصدقات . وفي المقالة الثالثة يتكلم المؤلف على تنقيـــة النفس من الأهواء الشريرة فيشرح معنى النفس ويبين قواها وخصائصها ثم يتعرض إلى ترويض النفس وإصلاح العادات وعلاج الشراهة واجتناب عثرات اللسان ، والابتعاد عن

الحسد والحقد والغضب وعن الشهوات وحب المال والرياء والكبرياء والخيلاء. وأخيراً فهو يكرس المقالة الرابعة لموضوع تجميل النفس بالفضائل من علم وإيمان وتوبة وصبر وشكر وتقوى وزهد وتوكل وصداقة وذكر الله ومحبته والتفكير في الموت ...

إن طريقة ابن العبري في بحث الموضوعات الأخلاقية تشبه طريقة الإمام الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين. فهو يستشهد في كل موضوع بأقوال آباء الكنيسة والقديسين ثم يلجأ إلى التحليل النفسي والبراهين العقلية. كذلك نلاحظ التشابه مع الإمام الغزالي في تطوره الفكري الذي انتهى به إلى التصوف [1] فقد تحدث ابن العبري أيضاً في كتابه (الحمامة) عن اجتيازه مرحلة قاسية من الاضطراب النفسي والتشكيك الى أن أشرقت عليه أنوار الحقيقة وسار في طريق الصوفية وكيف أنه تأثر في ذلك بآراء ابن سينا وأمثلة المتصوفين اليونانيين والمسيحيين. وتتجلى نزعة ابن العبري الصوفية في كتاب (الحمامة) وفي عدد من القصائد ثم في أكثر فصول كتاب (الأثيقون) وعلى الأخص عند البحث في معرفة الله ومحبته والشوق إليه، وعند الكلام على مبادىء الزهد والنسك وأساليب الرياضة الروحية لتطهير القلب ...

وفي الختام لابد من التنوية بالجهود الصادقة التي بذلها نيافة المطران (بهنام) في ترجمة كتاب (ابن العبري) النفيس بلغة عربية مشرقة، واضحة وسلسة، كما أنه لا يسعنا إلا لبداء الإعجاب بالمقدمة الشيقة التي صدر بها الكتاب وتكلم فيها بإسهاب على تصوف ابن العبري.

الدكتور كامل عياد



(١) كما وصف ذلك في كتابه « المنقذ من الضلال ».

المعلّم رفيق قيريش

حياته — آثاره

عنوان كتاب أهدت إلى مجمعنا نسخةً منه ـ مشكورةً ـ سفارة الجمهورية التركية بدمشق .

أعدّ الكتاب — بمناسبة مرور مائة عام على مولد المعلم المشار إليه — أحد أبناء قيريش (فؤاد آرون) أصغر أنجال المرحوم ، وطبع في آنقرة (١٩٦٨) طبعاً متقناً . والعنوان على الغلاف الأسود (بحروف سود بارزة) بالحروف التركية الجديدة على رقعة مستطيلة صفراء ذهبية اللون . عـــدد صفحاته ٢٤٤ . في أولى صفحاته صورة للمربي القدير المرحوم حسين رفيق قيريش أخذت له في استانبول بعد إحالته على التقاعد ، وقد تجاوزت خدمته في التعليم أكثر من نصف قرن تخرّج على يديه إلى الوطن الألوف من النشء المتعلم بالإضافة إلى كثير من الأصدقاء .

كتب (المقدمة) السيد فؤاد نفسه ، براً بوالده وتخليداً لذكرى أبيـه الذي قارب الثمانين من العمر يوم غادر هذا العالم الفاني الى دار البقـاء ، تاركاً بعده — إلى الذكر الحسن — مؤلفـاته ، وما ترجمـه من آثار ، وما نشره وما لم ينشره في عالم المطبوعات ، من المقالات والأشعار أو ماكتبه كمذكرات متناثرة بين أوراقه .

ولا عجب في عمل هذا النجل النبيل وهو الذي أخذ عن أبيه المعلم الحافلة حياته بالتعليم والإرشاد والوعظ ـ بله حرصه على تعليم أولاده وتهذيبهم وإرشادهم ـ الرعايةَ لحقوق الوالدين براً بهما ، وهو نوع من اتصال عمل المتوفى ،

في الدنيا الوارد ذكره في الحديث الشريف : (... وولدٌ صالح يدعو له . أو كما قال عليه السلام) .

فجمع ما تيسر له من المعلومات المتوفرة في المعاهد والمؤسسات العلمية والمكتبات الخاصة والعامة من الأصدقاء المخلصين والطلاب الأوفياء ، عدا عما لديه هو ، من الأوراق كما حصل على صور تذكارية للمرحوم كان أهدى في حال حياته إلى أصحابه وأصدقائه عدداً منها ؛ واخرج إلى عالم المطبوعات كتاباً عن حياة هذا المربي الجليل تبقى ذكرى بين أصدقائه ، ونموذجاً ينسج على منواله الملهون الشباب الجدد . وهو في خمسة فصول جميـــل الطبع حسن التبويب :

في الفصل الأول . — ترجمة حياة رفيق قيريش وأسرته .

في الثاني . — ما أدّاه للوطن من الخدمات الرسمية وغير الرسمية والفخرية .

في الثالث . — آثاره ، المطبوع منها وغير المطبوع من المؤلفات والترجمات مع مقالات له في موضوع الدين والأخلاق (اتحاد المسلمين ـ فضائل الصوم ـ يوم الخضر . الخ) وجوابه على عشرة أسئلة وجّهتها وزارة المعارف إلى العلماء والمفتين (بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٢) وفيها ظهرت مقدرته ، إنشاءً وبياناً وقوةَ حجة ، وحسنَ جواب ، وكانت فصل الخطاب .

في الرابع . — أشعاره : في الولادات ، في الوفيات ؛ في حرب الاستقلال ، وذكريات شتى .

في الخامس — سنواته الأخيرة ، وفاته وما بعد ذلك .

ملحق وجيز. — في تفسيره باللغة التركية للآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة ، والأدعية المأثورة .

ثبتٌ . — لبعض المصطلحات القديمة وما يقابلها بالتركية الحديثة .

الكتاب ، قصةُ حياةٍ واقعية ، مثيرة فيها عظة ؛ حقيق أن تكون مثالاً يحتذيه جيل صاعد راغب في سلك التعليم .

القصة : تسرد بصدقٍ وبساطة حياةَ معلم جليل القدر ، واسع الصدر ، تلقّي صدمات الدهر وعقباته بثبات ورضى ، واجتاز مراحلها بعزم وحزم ، وهو يتنقل في أرجاء الوطن من وظيفة إلى أخرى في التعليم . ولقد أفنى من عمره نصف قرنٍ في التعليم ، فإدارة معاهد علمية من الولايات العثمانية سابقاً منذ سنة (١٨٨٨) [في الشام ، في اللاذقية ، في بغداد ، في كربلاء] فالولايات التركية [سيواس ، وان ، قونية ، استانبول] . قام بوظيفته التعليمية أحسن قيام وخرج منها يوم أحيل على التقاعد ، ناصع الجبين مرتاح الضمير ، فخوراً بما قدَّم للوطن من هذا العدد المديد من الشباب المتعلم ، إلى يوم لفظ أنفاسه الأخيرة مودّعاً هذه الدار الخلابة المظاهر ، بين لفيف من أفراد أسرته وأقاربه الأدنين .

وأروع ما في الكتاب وأدعى للتأثر والاعتبار : ما كتبه في آخر أيامه وهو في سرير المرض بعنوان (في فراش المرض) (ص ١٨٣) يخاطب نفسه ، شعراً ونثراً استلهمه عن إيمانه العميق ، وبخطه وتوقيعه (١٥ شباط ١٩٤٥) . وهي قطعة بليغة حقاً ، فيها تتجلى : التقوى والعقيدة المتينة ، والإيمان الصادق الراسخ في قلب مؤمن مخلص لله تعالى . وبها عظة وعبرة لابن آدم هذا المخلوق المعدّ للفناء ، المغرور المتكبر ، على عجزه ، من غير تعقل وتفكر ، الذي تصرعه حُمَةُ جرثومٍ تلقيه في دمه (بَرْغَشَةٌ) ضئيلة !

أثارت مطالعة الكتاب فيَّ الذكرى ـ والذكرى تشوّق ـ إلى ربوع العاصمة التركية القديمة الجميلة ، المليئة بالأحداث التاريخية الهامّة التي لقّبها شاعرهم المبدع (توفيق فكرت) بـ (العجوز الفتّانة الأرملة البكر) في قصيدته العصماء الرائعة بما اشتملت عليه من حسن الوصف ، والتي رفعته

إلى قمة الشاعرية وعنوانها (الضباب (*)) في يوم غشّى الضبابُ الكثيف العاصمة ، أقول أثارت في نفسي الذكرى والحنين إلى العاصمة استانبول ، القديمة وأكثر ما ورد ذكره في الكتاب من أحيائها هو مما تفتحت عيناي منذ طفولتي ، على أرجائها وعشت فيها أعواماً طوالاً .

فمرّت أمام عيني مرور الصور على الشاشة السينمائية ، كما مرت المدارس التي تلقيتُ دروسي الأولى فيها ، والأسواق والطرق التي نجتازها إلى المدرسة (المكتب) ، والحدائق التي كنا ورفاق المدرسة نلعب فيها ، فرحين دون أن ندري ما يخبؤه المستقبل .

وشخصت أمام بصري أشباح المعلمين الأتراك الذين أخذتُ عنهم بلغتهم ، منذ الطفولة ، من (الابتدائي) و (الرشدي) و (السلطاني) وهم لا يزالون من نفسي في محل الإجلال والإكبار .

ومما يلفت النظر - زيادةً عن كل ما ورد عن حياة المعلم المرحوم من جلائل الأعمال تعليماً وإدارةً - ما كان يتحلى به من التقوى والصلاح والحرص على أداء الفرائض الدينية ، والنصح والإرشاد .

دخل المعلم رفيق ، سلك التعليم في الدولة العثمانية (سنة ١٨٨٨) بالشام (مركز ولاية سورية آنذاك) معلماً للإملاء ، في مدرسة (الرشدية العسكرية) بعد نجاحه في المسابقة التي أجريت لذلك ، وكان في الشام عمه (حسين أفندي) منفياً ، نفاه عبد الحميد الثاني ، الذي لم يَرُق له أن يبقى في استانبول أحدٌ ممن كانت لهم صلة بسراي السلطان مراد الخامس . ووالي ولاية الشام إذ ذاك هو أحمد مدحت باشا .

(*) (سيس) بالتركية : ألهمه إياها ضبابُ يوم ، كثيف ، غطّى العاصمة ، وهو مطلٌ من شرفة بيته العليا في (بيك) ، الذي أسماه (آشيان) ومعناه (عش الطير) تشبيهاً منه ، نفسه - وهو الشاعر الصداح - بالطير المغرّد من عشه . ويعدّه الأدباء الأتراك مؤسسي مدرسة الشعر الحديث في الأدب العثماني السابق .

وعلى الرغم مما عُرض عليه من الوظائف الملكية الأخرى آثر البقاء في سلك التعليم ، فعلّم في الشام ثم في اللاذقية التابعة لولاية بيروت في ذلك العهد ، ثم في مدارس بغداد ، ثم في (سيواس ، وان ، قونية ، استانبول) . ففي بعض منها قام بالتعليم ومعاوناً للمدير ؛ وفي بعض منها كان مديراً . ثم عيّن مديراً للمعارف ، فمديراً لشعبة الحقوق من دار الفنون .

ولطول إقامته في البلاد العربية معلّماً ، أتقن اللغة العربية تكلماً وكتابة . كما تعلم اللغتين الفرنسية والفارسية فبلغ فيها درجةً تمكّنه من التكلم والكتابة بها .

في الكتاب صور شتى خارج المتن ، عدا الصورة الأولى للمرحوم ، صور تذكارية في أعوام مختلفة . وخريطة لولاية سينوب فيها اسم القرية التي ولد فيها المرحوم (*) .

منها بين الصفحتين (١٦ — ١٧) صورة له حين كان بالشام معاون مدير للإعدادية الملكية سنة (١٨٩٢) ، وصورة أخرى له في المدرسة نفسها مع طلبته وهو يلقي عليهم درساً في الهندسة وتطبيقات المسح (١٨٩٣) .

وبين الصفحتين (٤٨ — ٤٩) صورة له وهو ملتح ، بعد أن عُين مديراً لإعدادية اللاذقية وعاد مأذوناً لدمشق (١٨٩٧) .

وبين الصفحتين (٦٤ — ٦٥) صورة له حينما كان مديراً للمعارف ببغداد ، وصورة أخرى بجانبها وهو بالزي البغدادي بالعباءة والعقال (١٩٠٦) .

وصور شتى له في مدارس الولايات التركية واستانبول أخيراً .

(*) ولد عام (١٨٦٨) في قرية (گوللي كوي) في ناحية (گرزة) في ولاية سينوب الواقعة على البحر الأسود . وتوفي باستانبول (حي بشكطاش) حزيران ١٩٤٥ ودفن في مقبرة (يحيى أفندي) ، في حظيرة الأسرة .

وفي الصفحتين (١٤٦ — ١٤٧) روسمٌ لدعاء خطبة الجمعة بالنص العربي وبخط رقعي مشكول ، جميل (بجيد المرحوم الخطاين الرقعي والديواني) .

وفي الصفحتين (١٥٦ — ١٥٧) روسمُ قصيدةٍ لمعروف الرصافي بعنوان (سعادة رفيق بك) يوم كان المرحوم مديراً للمعارف في بغداد وكان الرصافي معلماً للعربية (١٩٠٦) بخط رقعي جميل بالحروف العربية [بعد ذلك ترجمةُ القصيدة إلى التركية بالحروف التركية الجديدة] .

يُشكر نجله الفاضل (فؤاد آرون (*)) لعمله المجيد هذا في تخليد ذكرى والده المربي المناضل تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه .

وتُشكر سفارة الجمهورية التركية بدمشق ، لهديتها لمجمعنا نسخةً من هذا الأثر التاريخي المتعلق بالعلم والتعليم ، لعله يكون مثالاً جميلاً عن حياةٍ طويلة تقضَّت بشرف وأمانة ، لمن يطالعه من الجيل الصاعد فيقتدي به إذا انخرط في سلك التعليم .

الكواكبي

ملاحظة . — لم يرد ذكر قصيدة الرصافي المتعلقة بالمرحوم في ديوان الرصافي المطبوع سنة ١٩٣١ فرأيت من المفيد إثبات نصها هنا خدمة للتاريخ والذكرى .

(ص ١٥٦ — ١٥٧)

(*) ولد السيد فؤاد آرون (سنة ١٩٠٩) في يوم تنصيب السلطان رشاد ملكاً على عرش السلطنة ، بعد خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن عرشه (ص ٥) . وهو حالياً مقيم في (يكيشهر — أنقرة) أمدَّ الله في عمره وأكثر من أمثاله من الأولاد النجباء البررة الأوفياء .

سعادة رفيق بك

معارفنا منك استنارت بدورها … على حينَ قد كانت سراراً شهورها
وقد أصبحت أفلاكها مستديرةً … بحسن انتظام حيث أنت مديرها
وكان بنوها يشتكون انحرافها … فما جئت إلا واستقامت أمورها
سعيت إلى تقويمها سعي قادرٍ … بسَوْرة عزمٍ يستحيل فتورها
محباً لأبناءٍ حوت حجراتها … رفيقاً بأبناءٍ تضم حجورها
فكنت لها كالغيث باكر روضةً … ذوت لانقطاع الغيث عنها زهورها
فأضحت بها الأزهار ريّا نديّةً … تغنّي على الأغصان فيها طيورها
تسنّى عسيرٌ من طريق رُقيّها … ولولا رفيق ما تسنّى عسيرها
أشار إلى غاياتها بدلالةٍ … فياحبذا الغايات وهو مشيرها
له ذلّ من أرض السياسة صعبها … فلو شاء لانت في يديه صخورها
تأمّل في أحكامها بفراسةٍ … فبانت له أعجازها وصدورها
فألقت إليه بالأمور وإنه … جدير بأن تُلقى إليه أمورها
وصارت مقاليد الرياسة رُجّعاً … إليه ألا نعم المصير مصيرها
إذا ما طريق للنجاح توعّرت … وسار بها عادت سهولاً وعورها
وأقلامه في الطرس إن هي أعملت … يروع قلوب المنشئين صريرها
تلوح بها الأفكار بيضاً وجوهها … إذا انتظمت في الصُحْف سوداً سطورها
رأت سعةً في الفضل منك وفي النُّهى … أمانيّنا حتى استطال قصيرها
وماجت بنا في بُعْدِ فضلك مثلها … يموج بأبعاد الفضاء أثيرها
وكم لك آراء حكين كواكباً … يشق عمى الأبصار بالحق نورها
أعيذك بالصدق الذي أنت أهله … من القوم إن القوم يخدع زورها

فديتك إن القوم صالية الحشا ... بنيران حقد لا يبوخ سعيرهـا
فكم سلكوا بي في مفاوزَ للقِلى ... عليَّ تلظّى بالعِداء هجيرهـا
فلله أشكو ثم لله معشراً ... يُضام بتضييع الحقوق عشيرها
ولستُ بأحداث الليالي مبالياً ... أهبت صباها رخوةً أم دبورها
أدامك ربّ الناس للناس ناصراً ... إذا عزَّ في دار الهوان نصيرهـا

بغداد في ٣ مارت سنة ٣٢٢ الداعي

معروف الرصافي

[٣ مارت سنة ٣٢٢ توافق سنة ١٩٠٦ م]



نظرة في معجم

(الطحانة والخبازة والفرانة)

أعــدّه المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي
بالتعاون مع مصلحة التعريب التابعة لمكتب التسويق والتصدير
بالدار البيضاء — المغرب

في علم الآليات والحركات (المكانيك) مبدأٌ يقول (الحركة الدائمة في الطبيعة شيء مستحيل) . . . على أن ما يبدو في (المكتب الدائم لتنسيق التعريب) في العالم العربي ، في الرباط ـ المغرب ، يكاد يجعلني أقول (إن الحركة الدائمة) ليست بشيء مستحيل . وها هو ذا المكتب يحقق هذه الحركة المباركة المستمرة بما يقوم به من جليل الأعمال بنشاط نادر المثال ، واتصال دائم مع سائر الأقطار العربية العلمية ليُخرج للناس أحسن ما عمل من ثمرات جهودٍ جبارة تذكر فتشكر . أليس كل هذا (حركة دائمة) دون انقطاع ؟ !

إن ما أخذه على عاتقه هذا المكتب الفذ من عمل ضخم وشاقّ وما بذله ويبذله في هذه السبيل من تضحيات مادةً ومعنى لجديرٌ بالإعجاب والإكبار .

لقد أخرج (المكتب) أخيراً (معجم الطحانة والخبازة والفرانة) وصلت إليّ منه نسخة مطبوعة على الطابعة ، إعداداً للطبعة النهائية بالمطبعة ، وهي حاوية من المصطلحات الجديدة الجديرة بكل تقدير لمن عمل على وضعها وانتقائها من بين ما وُضع لها ، ورتبها فأحسن ترتيبها ، ونسّقها فأجاد تنسيقها الملائم للغرض (وعددها ٤٨٩ كلمة) بعـــد المشاهدة رأيَ العين لأجزاء مختلف الآلات والأجهزة في أكبر مطحنة في المغرب وأرقاها وأكملها تجهيزاتٍ ، في زيارةٍ دراسية لمطاحنها ، تحقيقاً وتدقيقاً وتفهماً للغرض الذي ابتكرت له ، لتأتي مصطلحات هذه المهنة متوافقة مع مدلولها ، وهي المهنة التي تتوقف عليها أسباب الحياة وأعني الأغذية وعلى رأسها الحنطة فالدقيق ، من طحنٍ ونخل ونخب وعَجْن وخَبْز . وهذا حقاً عمل منطقي طريف منطبق على الواقع الشاهد عياناً ، تهنّأ عليه اللجنة .

هذا وقبلاً ، أخرج هذا المكتب (الديناميكي) معاجم في مختلف الشؤون والعلم والفن . فالشكر والتقدير لنشاط أركانه ولمن يتولون إدارته ويسهمون في أعماله بغيرةٍ وحماس عجيبين .

وإذْ قد رغبت لجنة المكتب إلى المطالع إبداء رأيه وملاحظته حول ما ورد في المعجم من المصطلحات رأيتُ ـ تلبيةً لهذه الرغبة ـ أن أذكر على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي مما وجدت فيه ما يلاحظ عليه من المصطلحات ، خدمةً للمعجم نفسه ، فعسى أن تنظر إليها اللجنة بعين الرضى . وفقنا الله جميعاً لما فيه مصلحة لغتنا الحبيبة إلى قلوبنا ، من ناحيتي العلم والفن ، وهدانا للصواب .

وإليكم الآن الملاحظات :

الصفحة	الرقم	
٢	٧	Granulation يقابله : التَّحثير ، بالحاء .
٢	٨	يحسن أن تذكر كلمة (طحن) أسوةً بأخواتها السابقات فيقال (الطحن بالمحاز) بدلاً من (النحز) فقط . وفي التعريف يقال : النحز الدق بالمنحاز أي بالهاون .
٣	١٣	وُضع لكلمة Rendement : مَرْدُود . واختلف على هذه الكلمة . قلتُ : الأصلح (المَرْجُوع) الفصحى من (جاءني رُجعى رسالتي أي مرجوعها وهو جوابها) كما في القاموس ، وكأن الفرنسية ترجمة العربية .
٤	١٧	الجشب ، كالجرش : Concassage .
٤	٢١	الكركرة ، بحسب شرحها يقابلها : Remoudre .
٤	٢٣	الهرس : Broiement .
٥	٢٥	يكتفى بكلمة (الهاون) لشهرتها .
٥	٢٦	〃 〃 (الدق) 〃
		وما عدا الهاون ، والدق ، يترك لما يجدّ من آلات السحن .
٦	٣٣	Meuleuse أليست هي (المِطْحنة ، بكسر الميم) ؟
٧	٣٩	الناعورة بالمَهْز ..... à impulsion ، باضافة (الهز) وهو الدفع .
٩	٥١	المنفة النبّاذة (على التفعيل) والفعل هو النَّبَذان .
٩	٥٢	〃 الجبّاذة (〃) 〃 〃 الجبذان .
		لما في الفعلين من معنى الحركة [فَعَلان : الاضطراب والحركة].
١٠	٥٤	Vanne . و (الحبس) بمعنى Ecluse .
١١	٥٥	لعلّها : Moulin à bras .

الصفحة	الرقم	
١٣	٧٥	الجمجمة : Bruit de Moulin كما وردت في معجم كليرفيل الفرنسي (انظر النسخة الفرنسية العربية) .
١٣	٧٦	المِدْوَكُ Pilon d'agate تخصيصاً .
١٥	٨٤	القَصّالة لما يقابل Séparateur أصلح .
١٩	١٠٥	المُفَرْجِنة Brosse à blé الآلة التي تعمل عمل الفرجون .
٢٣	١٢٢	الدَّمُوك ، صفةٌ . فالأصلح أن يقال (رحىً دموك) كما وردت في القاموس .
٢٤	١٣١	المِسْحَلَة أو المِسلخة ، بالخاء . فيجب تصحيح الخطأ المطبعي .
٢٥	١٣٢	المِخْلَطَة (اتباعاً لوزن مِفْعَلة) التي جرت عليها مصلحة التعريب .
٢٥	١٣٣	أليس الأصلح : (مَبْلَغ الاستخلاص) فقد ورد في الرقم ١٤٩ : استخلاص مقابل Extraction .
٢٥	١٣٣	مكرر و (الجاروشة Moulin à bras) .
٢٨	١٤٤	Bluterie : مَنْخَلَة وزان مَفْعَلة للمكان ، والمعاجم الفرنسية لم تذكر استعمال bluterie اسماً لما يُنخل به !
٢٩	١٥٢	مَبْلَغُ (السفسفة) مقابل taux مثلما ورد في الرقم ١٣٣ .
٣٢	١٦٢	Silo : هو الكُنْدُوج تخصيصاً . أما (الهُرْيُ) فهو (بيت يجمع فيه طعام السلطان) كما في القاموس .
٣٣	١٦٨	المِكْيَسَة (اتباعاً لوزن مِفْعَلة) ؛ أو (مُكَيِّسة ، على التفعيل ، كما ورد الفعل نفسه في الرقم ١٦٩ .
٣٤	١٧٤	Treuil هو المَنْجَنون ، والمَنْجَنين .

الصفحة	الرقم	
٣٥	١٧٨	Etiquette : يَفْتَجُ (عرَّبْتُها عن التركية يَافْتَه) كما (وردت في مصطلحاتي العلمية ـ طبعة ثامنة ١٩٥٩) والاشتقاق منها سهل . أليست هذه أصلح من (البطاقة) التي هي (الرُقعة الصغيرة المنوطة بالثوب التي فيها رقم ثمنه ، سميت كذلك لأنها تُشَدّ بِطاقةٍ من هُدْب الثوب ؟! ـ القاموس) .
٣٥	١٧٩	Etiquetage : يَفْتَجَة . [يَفْتَج étiqueter ؛ مِيَفْتَج étiqueté الخ] .
٣٥	١٨٠	المِقْط (وهو الخيط الذي يُصطاد به الطيور) أصلح من المِقاط ، بكسر الميم ، فهو الحبل يُشدّ به .
٣٦	١٨٦	الباضعة الرِّدْف أو الرَّديفة (بدلاً من : المدبورة) . وفي الشرح : باضعة تَرْدَفها ، كنصر ، أو تُردفها من أردفَ) . كل هذا من (الرِدْف كالرديف وهو الراكب خلف الراكب ، كما في القاموس) .
٣٧	١٨٧	الباضعة المردوفة أو المُرْدَفة تمييزاً لها من الرقم ١٨٦ .
٣٧	١٩٠	لعل الأصلح (المِدْرَعة ، وهي الثوب يُتمدرع أي يلبس) ، بدلاً من (الميدعة كالميدَع ، المكان الذي يُصان فيه الثياب وهو الصُّوان Garde - robe) .
٣٩	٢٠١	فوق اكسيد الآزوت (بدلاً من بيروكسيد الآزوت) .
٤١	٢٠٦	Issues : نُفايات (ومثلها Déchets) كذلك .
٤٢	٢١١	ومثلها (الخُشالة ، بالشين) كذلك .
٤٦	٢٥٥	Moisissures هو : (العَفَن ، العفنات) كما ورد في معجم كليرفيل (انظر النسخة الفرنسية العربية) .

الصفحة	الرقم	
٤٨	٢٣٦	Ergot هو (أرْغُوت ، تعريباً) [وميْهاز الجَوْدار : ergot de Seigle كما وضعته لجنة المصطلحات الطبيـة ، انظر النسخة الفرنسية العربية ـ معجم كايرفيل] .
٥٠	٢٥٠	وكذا (ناشطة) بمعنى .
٥٠	٢٥١	وكذا (نشوظ) بالمعنى نفسه وهو نبات الشيء من أرومته أول ما يبدو حين يصدع الأرض .
٦٨	٣٤٣	يكتفى بكلمة (المِرْقاق) . و (الشَّوْبق ، معرَّب مشهور) وتترك الباقيات لما يجدُّ من آلات الترقيق .
٧٥	٣٧٥	المَخْمر ، على اسم المكان ، من الثلاثي وهو ترك العجين حتى يجود .
٨١	٤١٢	الفَثْمة [بدلاً من (الملاط) الذي له معان شتى] من الفَثْم والتفاثم .
٨٢	٤١٤	(التحميم بحمام ماري) بإضافة حمام ماري ، تخصيصاً باسم مبتكرة الطريقة والجهاز المسمَّى باسمها .
٨٣	٤١٦	خُبْز فَطير هو بالفرنسية : Pain azyme .
٨٤	٤٢٨	المِرْتَنة تقابل Tartine .
٨٤	٤٢٩	الخبز المُقَمَّر (والكلمة مشهورة) وأحسبها من (القُمْرَة) وهي البياض فيه كُدْرة . فهي أصلح من (المشوي) . فالخبز لا يُشوى بل يجعل على النار لتعلوه كدرة ، وهو نوع من التحميص .
٨٥	٤٣٤	Biscottes هو البَقْسَماط أو الخُشْكَنان (من الفارسية على ما أذكر .

الصفحة	الرقم	
٩١	٤٧٢	الأصلــح (صَمَغَ ، بالميم) بدلاً من (صَبَغَ ، بالباء) إذ ليس هنا صَبْغ بصباغٍ ما . إنما هو (تلميع) والصمغ لمّاع مُلمِّع .
٩٢	٤٧٧	مُبلَّمَة Gelée ، من الهُلامة gel [وهذه من الهُلام . والاشتقاق منها وفير : gélification تَهلّم ، se gélifier تَهلَّمَ] بدلاً من (مُجَمَّدة) .
٩٢	٤٧٨	مُراثة ، بدلاً من (خبيصة : empoi) .

السكواكبي



مدينــــة دمشق

عند الجغرافيين والرحالين المسلمين

وضعه الدكتور صلاح الدين المنجد

استشهد المؤلف في تضاعيف كلامه بقول البحتري :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفى مُطرِيها بما وعـــدا
يمشي السَحاب على أجبالها فِرقاً ويصبح النبت في صحرائها بَدَدا
فلست تبصر إلا واديًا خضراً أو يانعاً خضِلاً أو طائراً غردا

نعم ! هذه دمشق الفناء ، وهذا كتاب ابنها البار الصلاح المنجد فيها ، نأى عنها غير مختار ، فما خفف البعاد شيئاً من تعلقه بها ، وصبوته إليها .

كان من بعض هذا الهيام بها ، والحنين إليها ، أن بلغ ما أخرجه من كتب تتعلق بها ، وتتصل بتاريخها وأحداثها ، ثلاثين كتاباً ، كان آخرهـا هذا الكتاب الذي نتحدث عنه : « مدينة دمشق » ضم بين دفتيه (طائفـة

كبيرة من النصوص التي وردت في تواريخ الجغرافيين الرحّالين والعلماء الذين وردوا إلى دمشق وكانوا غرباء عنها : من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر الهجري) جمعها من عشرات الكتب من مطبوع ومخطوط .

بلغ من نقل عنهم أربعين شيخاً : من عالم ومؤرخ وأديب . يبدأ بخلاصة عن حياة كل منهم : مولده ، ونشأته ، وسائر ما يعرف عنه مما وصل من خبره إليه . ثم يعقّب على ذلك بما كتبه هذا الشيخ عن دمشق من نثر وشعر .

ومن يبدأ بهذا الكتاب لا يملك نفسه أن يتركه قبل أن ينتهي إلى آخر صفحة منه .

تقرأ في هذا الكتاب الممتع المفيد من طرائف ولطائف تبدي لك عن محاسن هذه المدينة ، وعمّا فيها من عادات وأعراف ، وعمّا لاقته في حياتها الطويلة — وهي من أقدم مدن العالم إن لم نقل أقدمهن على الإطلاق — من رفعة وعزة ، وضعة وذلة ، واستقلال واستعباد ، وما فيها من معاهد ومدارس ، ومن جوامع وكنائس ، ومن ضياع ورباع ، ومن متاجر ومصانع ، ومن أسواق وحمّامات ومن وقوفات ورباطات ، وما هم عليه أهلها من لطف ولين .

وهذه المحاسن والمحامد على شهرتها وشهرة أهلها بها ، لا تمنعه أن ينشر إلى جانب هذا المدح والثناء الحق ، ما قاله بعضهم في ذمها وتفضيل غيرها عليها .

فمن العادات المستحبة التي يذكرها ، عن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة . فمن كان من الأمراء والقضاة والكبراء ، فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده . ومن كان من التجار وكبار السوقة فعل مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية

فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم وفي مسجد ، ويأتي كل واحد بما عنده فيفطرون جميعاً »(١)

أدركنا ذلك في عهدنا يوم كان الرئيس محمد علي العابد رئيس الجمهورية السورية يدعو إلى مائدته في رمضان الوزارات على التعاقب : وزارة وزارة : وزيرها ورؤساءها وأركانها ثم المتقاعدين والمحامين والوجوه والأعيان ثم أرباب المتاجر والمصانع بحيث لا تخلو مائدته في ليالي رمضان من عشرين إلى ثلاثين مدعواً .

جرى في هذا على سنة دمشق وعلى طريقة وزراء الدولة في الآستانة ، ـ وكان منهم ـ ثم هو يودع أضيافه على باب داره بكل ما أوتيه من لطف وتواضع .

وتتبين هذه الأخلاق الدمشقية في ناحية ثانية من نواحي الآداب الاجتماعية . فأنت قلّ أن تعرف صديقاً رفعته الأقدار إلى منصب لم يكن ليحلم به إلاّ شمخ بأنفه ، وتعالى عمّن كان يعرفهم ، ونجد الدمشقي وقد بلغ أسمى المراكز ـ رئاسة الجمهورية مثلاً ـ لا يزال على كثير من الوضع الذي كان عليه من قبل ، ويظل في كثير من مجالسه على ما كان عليه من ظرف ولطف ونكتة .

---

(١) وحافظت دمشق على عاداتها هذه فكان وجوهها وأعيانها يدعون في جملة من يدعونهم إلى إفطار رمضان كبار الحكومة . وما كنت أحب هذه الدعوة لرجال القضاء . وكان يزعجني أن أراهم جماعة جماعة في سوق الأروام ينتظر بعضهم بعضاً حتى إذا تكامل عددهم ذهبوا إلى حيث هم مدعوون . فطلبت إليهم أن يمتنعوا عن قبول هذه الدعوات فقد تجر إلى الخروج ، أو الاتهام بالخروج عما يتطلبه القضاء من تجرد وحياد . ففعلوا . فارتاحوا وأراحوا . . . . (ع)

هذه خطرات رأيت أن أشير اليها ونحن في الحديث عن مدينة كتب لي أن أعيش فيها قرابة أربعين سنة فلا عجب أن يولع بها أبناؤها والمقيمون فيها ، وأن يتلمس الأستاذ الصلاح في هذه الكتب المتعة .

واذا كان كتاب « مدينة دمشق » قد جمع ما قيل في دمشق من قبل ، فلا بد أن يضاف إلى ذلك ما كان في هذه المدينة الجبارة من وطنية صادقة ، حمل السلطات الأجنبية في كثير من الأحيان أن تحنو أمامها رأسها . بدأت الحركة العربية في بيروت : أدباً وسياسةً وحديثاً . والأدب فيها غالب على السياسة والعمل . فانتقلت إلى دمشق سياسة وأدباً وعملاً . والسياسة والعمل غالبان فيها على الأدب . كان يقع لهذه المدينة أن تضرب عن الأعمال إضراباً عاماً شاملاً ، يبلغ في بعض الحالات أربعين أو اثنين وأربعين يوماً ، لا يخيفها تهديد ولا وعيد . وقضت في جهادها ربع قرن حتى جلا المستعمر عنها كما جلا عنها غيرهم من المستعمرين من قبل .

وبعد ، فان لدمشق أن تفخر بصلاح الدين المنجد كما له أن يفخر بها ، مقيماً بها أو نازحاً عنها ، أحسن الله إليه قدر ما أحسن في كتابه هذا إلى وطنه وإلى العلم والأدب .

و (مدينة دمشق) طبع طبعاً متقناً على ورق صقيل ، مبوب أحسن تبويب ، وله فهارس قيّمة تعين على الرجوع إلى بحوثه وموضوعاته .

وقد وقع بعض أخطاء مطبعيــــة كان الحق أن يستدركها المؤلف كما استدرك غيرها ، من ذلك ما جاء في الصفحة ٢٩٧ في بيتين لابن نباته :

دمشق في أرجائهـا مواضـع يصبو إليهـا ناظر وسامـــع
ربوعهـا وقصرها والجامع فهي ثلاثـــة ما لهن رابع

والصواب : ثلاث ليستقيم الوزن .

وفي الصفحة ٣٠٨

باكر إلى قهوة مسكية فضحت ذكرى المدام وشنّف لي الفناجينا
تدعو إلى نحو ما فيه البقاء ولو دعت إلى نحو ما فيـــه الفنا جينا
ولو أن ألف امرئ طافوا بحاناتها قصد النجـــاة رأيت الألف ناجينا

وهـذه الواو في البيت الأخير من خطـــأ الطبع لا يستقيم الوزن إلاّ بحذفها .

السكري



الملكة زنوبيـا

مسرحية شعرية للأستاذ عدنان مردم بك

يُخرج الأستاذ عدنان ، مسرحيـات شعرية يُوَفق في موضوعها وفي أسلوبها .

وآخر هذه المسرحيات « الملكة زنوبيا » جعلها أربعة فصول ، وأهداها إلى موطن البطولات ، ومهد الحضارات ، المدينة الخالدة : « دمشق » .

وقدم لها بتوطئة موجزة في تاريخ « زنوبيا » وذكر أن السبب الذي حمله على وضع هذه المسرحية ، زيارة سبقت له إلى تدمر برفقـة والده العلامة الفقيد خليل مردم : رئيس المجمع العلمي الأسبق رحمه الله .

والمسرحيات الشعرية العربية قليلة . وقليل من وفق فيها ، حاشى شوقي . وقد يكون الشيخ خليل اليازجي أول من فتح هـذا الباب بروايته : « المروءة والوفاء » . ثم جرى على خطاه ابن اختـــه السيد نجيب الحداد في روايته : « صلاح الدين » .

والصعوبة في المسرحيات الشعرية : أن الشاعر في موضوعه وفي أسلوبه

مقيد غير طليق ، على حين أنّ الشاعر في غير المسرحية طليق غير مقيد ، يذهب في قوله كل مذهب .

وفي رواية زنوبيا من المواقف الشعرية الموفقة ما يسيل رقة وعذوبة : لفظ فصيح في معنى صحيح ، من ذلك قوله :

الغرب في كل عصر للشرق مصدر شر
شرق وغرب لعمري الضدان في كل أمر

ولعله لو قال « ضدان في كل أمر » لكان القول أكثر انسجاماً .

ومن مستجاد قوله :

الناس في كل العصور هم الضواري الكاسرة (١)
خضبوا الأكف بما أسالوا من دماء طاهرة
ومضوا يعيثون الفساد قياصراً وأكاسرة

ومن الأبيات السائغة :

إن بؤس النفس لو أنصفت من سوء السريرة
والعمى في الناس أصناف وألوان كثيرة
وأشد الداء خطباً حينما تعمى البصيرة
خطأ أن تصف النور إلى عين ضريرة

وأمثال هذه الأبيات الموفقة كثيرة .

وفي الرواية بعض مآخذ لا بد للمؤلف أن يتداركها في طبعة جديدة إن شاء الله .

والشكر للأستاذ عدنان على هذه الروائع التي يخرجها لقومه ، وهم بحاجة اليها وإلى أمثالها أسلوباً وموضوعاً .



ع . ه .

---

(١) ولسنا نرى رأي من يخطىء نعت الضواري بالكاسرة . ويحصر « الكواسر » بجوارح الطيور .

كتاب الهفوات النادرة

تأليف

غرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال الصابئ المتوفى سنة ٤٨٠

حققه وعلق عليه وقدّم له

الدكتور صالح الأشتر

هذا سفر نادر من أسفار الثقافة العربية ، ذو موضوع طريف في الأدب والتاريخ . اضطلع بتحقيقه أخي الدكتور صالح الأشتر ، وطبعه في سلسلة مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٧ . وقد قدّم له بمقدمة طويلة جيدة ، عرّف فيها بالمؤلف ، ودرس الكتاب في موضوعه وأسلوبه وقيمته ، ووصف أصوله المخطوطة ، وشرح طريقته التي اتبعها في التحقيق .

خرج الكتاب من بين يدي الدكتور صالح مصححاً منقحاً، يغري الناس بقراءته ، ويجتذب الباحثين إلى النظر فيه ، والإفادة منه في الأدب والتاريخ واللغة ، ولا سيما اللغة الحضارية واللغة الدارجة في بغداد إبان العصور العباسية إلى زمن المؤلف .

أضاف الدكتور صالح إلى الكتاب حواشي وتعليقات جيدة مفيدة في شرح الكتاب وضبطه ، وردّ نصوصه إلى أصولها ، والإشارة إلى وجودها في مصادر أخرى ، والتعريف بالأعلام والشعراء والرواة الذين وردت أسماؤهم في متن الكتاب . وكل هذا ينير الكتاب ، ويوضحه . على أن من هذه الحواشي ما لا فائدة كبيرة ترجى منه ، مثل الإشارة إلى بحور أبيات الشعر الواردة في الكتاب . وهي كثيرة نكاد نجدها في كل صفحة . وهذا مع أن المحقق الكريم قد ذكر بحور هذه الأبيات في فهرس القوافي . فكان له في ذلك معدي ومعدل عن ذكرها في حواشي الكتاب .

وألحق بالكتاب فهارس عديدة مفيدة أيضاً . والفهارس مفاتيح ذهبية يصوغها المحقق ، ويضعها في أيدي الباحثين والدارسين ، ليصلوا بهـا إلى المعلومات والأفكار المكنوزة في طيات الكتاب . على أن الدكتور صالح كلف نفسه فوق ما يلزم ، حين صنع (فهرس محتويات الكتاب) . فقـد أجاز لنفسه أن يضع لكل خبر في الكتاب عنواناً يدل عليه ، وحشر هـــذه العنوانات في فهرس طويل شغل ما يقرب من ثلاثين صفحة . وهذا لا يفيد أحداً من القراء ، بله الباحثين والدارسين . وفي الفهـارس الأخرى ، ولا سيما فهرس الأعلام ، غنى عنه .

* * *

جوّد الدكتور صالح تحقيق الكتاب وضَبْطه كما ذكرنا آنفاً . ولكن شاب عمله الجيد هنات معدودة ، و « لا تعدم الحسناء ذاماً » ، كما يقول المثل العربي القديم . وسوف نورد هاهنا أمثلة من هذه الهنات طمعاً بالزيادة في نقاء الكتاب وصحته .

قال الدكتور صالح في الصفحة ٥١ من مقدمته : « وقد ترجمنـا لعدد كبير من الأعلام الواردة في الأخبار ، وعدد ضخم من الرواة الذين وردت أسماؤهم في أسانيد الأخبار . وأتبعنا كل ترجمة بذكر المصادر التي تترجم لصاحبها » . ولكنـه في الواقع ترجم لبعض الأعلام ، وأهمل بعضهم . ولم نعرف خطته في ذلك ، ولم يذكر سبباً نعرفه .

ففي الصفحة ٩ من الكتاب ورد ذكر المدائني المؤرخ الراوية المشهور ، وعيسى بن موسى العباسي . فترجم المحقق للثاني منهما ، وأهمـل الأول ، فلم يترجم له مع أنه أحال على كتاب الأعلام للزركلي في ترجمته لعلي بن عيسى . والمدائني مترجم له في الأعلام أيضاً (١٤٠/٥) .

وفي الصفحة ١٠ من الكتاب ورد ذكر إبراهيم بن المهدي وطاهر بن الحسين . فترجم المحقق للثاني منهما ، وأحال على كتاب الأعلام . وترك الأول ولم يترجم له ، وهو مذكور في الأعلام كذلك (١/٥٥ — ٥٦) . ومثل هذا كثيراً جداً في الكتاب .

وقد أحال الدكتور صالح في معظم التراجم التي أوردها إلى كتاب الأعلام . وهو لعمري كتاب جيد في بابه . ولكنه ليس من المصادر الأولى ، لأنه كتاب حديث ، يأخذ عن المصادر القديمة في تراجم الأعلام القدامى . والأولى الرجوع إلى المصادر القديمة في الأول ، ثم الكتب الحديثة . فهذا أجدى وأقوم .

* * *

إن معظم الهفوات في الكتاب واضحة ، بينة المغنى والنكتة . إلا أن عدداً منها لا يستبين معناه ، ولا يدرك موضع الهفوة والنكتة فيه إلا بالشرح والبيان ، بسبب اختلاف البيئة ، وتغير الظروف الاجتماعية والتاريخية ، وتطور مدلول الكلمات وغير ذلك من الأمور . ومن الأجدى شرح مثل هذه الهفوات ، وبيان مواضع النكتة فيها .

مثال ذلك الهفوة ٤٣ في الصفحة ٤٧ من الكتاب . فقد سأل أبو إسحق أبا سعد : « هذا الصبيُّ ولدُه ؟ » أي ولد الخادم . فأجاب أبو سعد : « يا سيدنا ، خادم لا يكون له ولد ! » . وهذا السؤال هو موضع الهفوة ، والجواب موضع النكتة . وينقضي الخبر من غير إيضاح من المؤلف ، أو شرح وتعليق من المحقق . ويتساءل القارىء العادي ، وربما خاصّة القراء : ولماذا لا يكون للخادم ولد ؟ ولا يعرف السر في ذلك . والسر أن كلمة الخادم صارت تطلق في العصور العباسية ، ولا سيما في بغداد ، على

الخَصِيُّ من الخدم دون غيرهم . بل خُصَّت بهذا المعنى ، وصارت مرادفة لكلمة الخصي . ولا نجد هذا في معجمات اللغة ، وإنما نعرفه من كتب الأدب والتاريخ بالاستقراء .

ومثل هذا ما جاء في الهفوة ٣١٠ ، في الصفحة ٣١٢ من الكتاب :

« كان علي بن خلف النيرماني ينشد دائماً :

فعيناكِ عيناها ، وجيدك جيدها ولكن أخلاق الرجال تضيق » .

وقال المحقق الكريم في الحاشية (٢) تعليقاً على هذا : « شطران من الطويل » . وقوله هذا صحيح ، ولكنه لا يغني ، ولا يعني شيئاً .

والشطر الأول من هذين الشطرين صدر بيت معروف لمجنون بني عامر قيس بن معاذ العامري ، من شعر له ، وكان وقع في شراكه ظبية ، فأطلقها وقال :

أيا شِبْهَ ليلى ، لا تُراعي ، فإنني لكِ اليومَ من وحشيَّةٍ لصديقُ
ويا شِبْهَ ليلى ، لا تَزَلْي بروضة عليكِ سحابٌ دائمٌ وبروقُ
أقول ، وقد أطلقتها من وثاقها : لَأنتِ لليلى ، ما حَيِيت ، طليقُ
فعيناكِ عيناها وجيدُكِ جيدُها سوى أن عظم الساق منكِ دقيقُ

(انظر لسان العرب : روع) .

والشطر الثاني من الشطرين عجز بيت لعمرو بن الأهتم المنقري ، من قصيدة له مفضلية مشهورة (انظر المفضليات ١٢٥ — ١٢٧ ، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤) . وتمام البيت مع البيت الذي قبله :

وكل كريم يتقي الذم بالقرى وللخير بين الصالحين طريقُ
لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ولكن أخلاق الرجال تضيقُ

* * *

في الصفحة ٥٨ السطر ١١ — ١٢ :

« وتقلني من الرئاسة والمهالة . وهي المنزلة الزرية والرتبة الدنيـــة » .
ولا يستقيم معنى الكلام بهذه الصورة . لأن منزلة الرئاسة والمهالة ليست بزرية ، ولا رتبتها برتبة دنية . إنما المنزلة الزرية ذات الرتبة الدنية هي منزلة اللعب بالشطرنج . فبين الجملتين سقط لم يشر إليه المحقق ، كما ترى . وفي بقية الخبر دليل على ذلك .

في الحاشية (٤) في الصفحة ٦٥ :

قال المحقق تعليقاً على جملة « و يزهزه ألفاظه » : « ولم نجد في المعاجم (زهزه ألفاظه) بمعنى أن يقول . زِهْ زِهْ ، استحساناً عند سماع كل لفظة ، لكن ذلك هو ما يتطلبه المعنى هنا » . ونقول : جاء في كتاب (شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيـل) لشهاب الدين الخفاجي ص ١٠٠ : « زهزهة : بمعنى تحسين ، مولدة من قول الفرس : زهي زهي » .

في الصفحة ٧٤ السطر ٧ — ٨ :

« وقيل : خرج عبد الملك بن مروان يوماً قارأ ، وعليه جباب خز متظاهرة ، على عليّ بن عبد الله بن العباس » .

قوله « قارأ » ها هنا تصحيف . والصواب : « ماراً ... على علي بن عبد الله بن العباس » . وقد خيل إليّ في بادىء الأمر أن هذا من الغلط المطبعي . ثم نظرت فاذا المحقق الكريم يثبت « قارأ » عن اختيار . ويعتبر « فاراً » الواردة في نسختي (أ) و (ع) تصحيفاً ، كما في الحاشية (٤) .

في الصفحة ٩٤ السطر ٨ :

« واتفق لي ، وهي تحدثني بذاك ، أن موسى وراء الباب » . في هذا القول غلط لم يصححه المحقق . والصواب : واتفق لي وهو يحدثني بذاك ... » لأن الحديث كان بين جد القناني وبين داود بن الجراح في منزل موسى ابن عبد الملك . وفي أول الخبر وبقيته دليل على ذلك .

في الصفحة ١٣٢ السطر ١١ :

« وجعلت اليانية تعض على شفاههـــا ، تظن أن قد هربت » . وفي الحاشية (٣) في ذيل الصفحة : « ب : هويت » . وما في نسخة (ب) هو الصحيح . و (هربت) لا معنى لها هاهنـا . و (هويت) معناهـا : هلكت ، وهو المقصود هاهنا .

في الصفحة ١٧٧ السطر ١٣ :

« ويحقق الأمر عنده كون الرجل وحده ... » . وفي الحاشية (٥) في ذيل الصفحة ما يشعر أن (يحقق) زيادة من نسخة (ب) ، وأنه كان فيها : « وتحقق الأمرُ عنده لكون ... » . وما جاء في نسخة (ب) صحيح لا بأس به ، ولا نرى وجهاً لتغييره كما صنع المحقق .

في الصفحة ١٧٨ السطر ٨ — ٩ :

« قصم الله أجله وتبر عمره » . وفي الحاشية (٣) في ذيل الصفحة : « تبره : أهلكه . وفي ب : بتر » . و (بتر) الواردة في نسخة (ب) ، وهي بمعنى قطع ، أصح وأجود هاهنا من (تبر) التي اختارها المحقق ، وأكثر انسجاماً مع (قصم) .

في الصفحة ٢١٥ السطر ٥ :

« وحدث عن ابن الزنفيلفي ... » . وفي الحاشية (٥) : « ع : الزنقليفي » . وفيها تصحيف تصحيحه : الزنفليقي ، أو الزنفيلقي نسبة إلى الزَّنْفَلِيقَة أو الزنفيلقة ، وهي فارسية معربة أصلها "زنْبيله ، أي الزنبيل كما تقول العامة . (انظر نوادر أبي مسحل ٣٢٧ ، والمعرب ١٧٠) .

في الصفحة ٢٧٩ السطر ٢ :

« كان إسماعيل بن بلبل الوزير يفـاوض المتمد بالله في أمر ... » . الصواب : « المعتمد على الله » . وقد كانت في الأصل « المتضد بالله » .

فصوب المحقق كلمة (المتضد) كما ذكر في الحاشية (٢) في ذيل الصفحة ، ونسي تصويب كلمة (باقه) .

في الصفحة ٢٨٧ السطر ١٤ — ١٥ :

« وإنما يبقى لرب الضيعة صبابة كصبابة الإناء ، ومجة كمجة المرقوب » . وقال المحقق في الحاشية (٦) في ذيل الصفحة تعليقاً على كلمة (كمجة) : « في الأصول : مخة ، ولعلها مجة ، ويقال : لم يبق في الإناء إلا مجة » . وما جاء في الأصول هو الصحيح . وأصل هذا القول مثل من أمثال العرب معروف . جاء في لسان العرب (عرقب) : « وفي المثل : الشر ألجأه إلى مخ المرقوب . وقالوا : شرٌّ ما أجاءك إلى مخة عرقوب . يضرب هذا عند طلبك إلى اللئيم ، أعطاك أم منعك » . وانظر أيضاً مجمع الأمثال ١/٣٥٨ ، وفيه : « والمعنى : ما ألجأك إليها إلا شر ، أي فقر وفاقة . وذلك أن المرقوب لامخ له ، وإنما يُحْوَج إليه من لا يقدر على شيء » .

في الصفحة ٢٩١ السطر ١ — ٢ :

« ولا أزال على حالي حتى تأخذه بيعاً صحيحاً ، لا شرط فيه ولا خيار ولا مثنوية » . وقال المحقق في الحاشية (٢) في ذيل الصفحة تعليقاً على كلمة (مثنوية) : « كذا في الأصول » . وقوله هذا ينبئ بشكه في صحة هذه الكلمة . ولا داعي إلى هذا الشك ، لأن سياق الكلام صحيح ، والمعنى مستقيم . ومعنى قوله « ولا مثنوية » : أي لا رد في هذا البيع (لسان العرب : ثنى) . ومنه بيت النابغة الذبياني في قصيدته البائية في مدح عمرو بن الحارث الغساني المعروف بالأعرج :

حلفتُ يميناً غيرَ ذي مثنوية ... ولا علمَ إلا حسنُ ظنٍّ بصاحبِ

* * *

هذا وهناك أشياء أخر في الكتاب أقل شأناً مما ذكرنا آنفاً ، أعرضنا عن الإشارة إليها ، لأنها هنات صغيرة تدرك بأقل نظر .

الدكتور عزة حسن

آراء وأنباء

تأبين المرحوم الأمير مصطفى الشهابي [1]

كانت الساعة السادسة من مساء يوم الثلاثاء ٧ من شعبان سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٢٩ من اكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٩٦٨ م موعداً لجلسة مجلس المجمع العلنية التي دعا اليها الدكتور طه حسين رئيس المجمع لتأبين المغفور له الأستاذ الأمير مصطفى الشهابي رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ، وقد توفي في ١٤ من مايو (أيار) سنة ١٩٦٨ م .

وقبيل الموعد المحدد أقبل على دار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي والاحصاء والتشريع ، وهي المكان الذي تقرر عقد الجلسة فيه ، جملة من أساتذة الجامعات والعلماء والأدباء وأبناء الجمهورية السورية والبلاد العربية ، وعدد من فضليات السيدات وبعض أفراد أسرة الفقيد .

وكان في طليعة الحاضرين الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق والدكتور شكري فيصل عضو المجمع ، وقد حضرا من دمشق إلى القاهرة خاصة للمشاركة في حفل التأبين .

ورأس الجلسة الأستاذ زكي المهندس نائب رئيس المجمع نيابة عن الدكتور طه حسين رئيس المجمع المتخلف من التخلف لحالته الصحية ، وحضر الجلسة الدكتور ابراهيم مدكور الأمين العام ولفيف من الاعضاء .

(١) الكلمات التي ألقيت في الجلسة الخامسة للدورة الخامسة والثلاثين لمجمع اللغة العربية في القاهرة في تأبين المرحوم الأمير مصطفى الشهابي .

وفي الموعد المحدد أعلن الأستاذ زكي المهندس نائب رئيس المجمع افتتاح الجلسة وألقى كلمته في رثاء الفقيد ، ودعا بعدها الدكتور عبد الحليم منتصر عضو المجمع لالقاء كلمته ، ثم تلاه الدكتور حسني سبح رئيس مجمع دمشق فألقى كلمته ، ثم تلاه الأستاذ عزيز أباظة عضو المجمع فألقى قصيدة رثاء ، ثم أعقبته السيدة ثريا حافظ فالقت كلمة الأسرة .

ثم قرأ الأستاذ شوقي أمين رئيس التحرير بالمجمع البرقية المرسلة من كريمتي الفقيد بدمشق .

ثم أعلن الأستاذ زكي المهندس انتهاء الجلسة ، وكانت الساعة قد قاربت الثامنة مساء والكلمات والبرقية جميعها مرافقة لهذا المحضر .

★ ★ ★

كلمة الأستاذ زكي المهندس

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان السيد رئيس المجمع الدكتور طه حسين يود أن يشاركنا في تأبين الفقيد العظيم والعالم الجليل الأمير مصطفى الشهابي ، ولكن حالته الصحية اضطرته إلى الاعتكاف والاعتذار ، فباسمه وباسم المجمع أحييكم وأشكر لحضراتكم كريم مواساتكم لنا في تأبين هذا الرجل العظيم ، وأخص بالتحية والشكر السيد رئيس مجمع دمشق ومن معه من الزملاء والأصدقاء الذين وفدوا إلينا لكي يمزجوا أحزانهم بأحزاننا ودموعهم بدموعنا في تأبين الزميل الراحل ، على أن الفجيعة في الشهابي ليست فجيعة مجمع القاهرة وحده ولا مجمع دمشق وحده ولكنها فجيعة الأمة العربية بأسرها ، وفجيعة العلم والعلماء في كل قطر عربي .

نحن إذ نبكيه الليلة لا نبكي فيه رئيساً لمجمع أو زميلاً سابقاً في مجمع القاهرة وحسب ، وإنما نبكي فيه رجلاً عظيماً وعالماً جليلاً ، وعربياً أصيلاً من رجال الرعيل الأول الذين يفخر الوطن العربي ويعتز بأسمائهم وتاريخهم .

حقاً أيها السادة لقد فقد العالم العربي في الشهابي ثروة علمية ضخمة ليس من السهل أن تعوض ، أما خسارة المجمعين فيه فخسارة فادحة ، فقد كان رحمه الله قوة علمية يوثق بها ويعتمد عليها ، وكم من مسألة علمية أو لغوية عرض لها المجمع في مؤتمراته فكان للفقيد فيها جولة تنم عن غزارة علم وسعة اطلاع وإحاطة تامة بأصول اللغة ، حتى في الشهور التي يغيب عنا فيها كان دائماً حاضراً معنا بمذكراته التي كان يرسلها الى المجمع حافلة بالتعليقات والمقترحات والتوجيهات النافعة المفيدة .

ولعل الشهابي يعد من طليعة هؤلاء العلماء القلائل الذين استطاعوا أن يوائموا بين القديم والجديد ، وأن يطوعوا اللغة للتعبير عن المصطلح العلمي الحديث ، وعهدنا بكثير من العلماء الطبيعيين أن يضعوا المصطلحات من غير أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث في اللغة ، أو العناية بدراسة تراثنا العلمي العربي القديم للاستفادة منه ، ولكن الشهابي كان على خلاف ذلك ، كان كثير البحث في اللغة العربية قواعدها وأصولها وطرق الاشتقاق فيها ، كما كان معنياً كل العناية بدراسة ما وضعه العلماء القدامى من أسماء ومصطلحات ، يفيد من هذا كله في وضع المصطلحات العلمية حتى كتب عنه (أمين المعلوف) فقال : لم يكتب في الزراعة منذ صدر الإسلام بلغة أنقى وأصلح من لغة الشهابي .

وكان الفقيد إلى جانب علمه وكفايته مثلاً للأخلاق العالية ، كانت له شخصية جذابة ساحرة ، تؤثر فيمن حوله وتحملهم على إجلالها واحترامها . كان هادىء الطبع كريم النفس عف اللسان . عامراً قلبه بالمعاني الإنسانية الكريمة ، كان يدلي بآرائه في تواضع العلماء ويحترم آراء غيره وإن كانت مخالفة لآرائه .

لقد زاملناه في المجمع أكثر من خمسة عشر عاماً . ولم أذكر أني رأيته يوماً غاضباً من أحد ، أو ساخطاً على أحد ، بل كان محباً للجميع محبوباً من الجميع .

رحم الله الشهابي رحمة واسعة وجزاه عما قدم للعلم واللغة بخير ما يجزي به عباده المخلصين العاملين .

أما الآن أيتها السيدات والسادة فسيتولى تأبين الفقيد نيابة عن المجمع الزميل الدكتور عبد الحليم منتصر عضو المجمع ، ويليه السيد رئيس مجمع دمشق الأستاذ الدكتور حسني سبح ويليها الزميل الشاعر الأستاذ محمد عزيز أباظة عضو المجمع فيلقي قصيدة في رثاء الزميل الراحل وبعد هذا كله تلقي السيدة ثريا الحافظ كلمة الأسرة ثم تتلى برقية كريمتي الفقيد إلى المجمع من دمشق .



كلمة الدكتور عبد الحليم منتصر

أم اللغات قضيت العمر أخدمها فهي الشفيعة في غفران زلاتي

أيها السادة الكرام أيها الزملاء الخالدون :

كأني بفقيدنا العظيم الخالد ، قد لخص حياته وجهاده في خدمة اللغة العربية في هذا البيت الرقيق من الشعر ، الذي نظمه ، وأوصى أن يكتب على قبره ، وحقاً لقد كانت حياته متميزة بطابع الجهد المضني ، الذي يبذله راضياً ، في خدمة اللغة العربية وتطويعها للعلوم المصرية ، تقدم صفوف حماة الفصحى ، الذابين عن حياضها ، المنافحين عن حوزتها ، الداعين إلى جعلها لغة العلم الحديث في مختلف فروعه وفنونه .

عرفت الأمير مصطفى الشهابي ، في أروقة مجمعنا الموقر ، منذ نحو ربع قرن من الزمان ومنذ ذلك التاريخ ، وقد اتصلت بنا الأسباب ، وكانت آصرة الحماس للغة العربية ، والغيرة الشديدة عليها ، والحفاظ على سلامتها وبذل الجهد لجعلها لغة العلم ، بترجمة المصطلحات العلميـة . أمضى آصرة وأقواها . ومنذئذ وقد اتخذت منه في هذا المجال معلماً وإماماً . ولعل الكثيرين منكم يذكرون ، ما كان يدور بيننا من نقاش حول هذا المصطلح أو ذاك ، وأشهد أني كثيراً ما كنت أسلم بنصاعة حجته ، وقوة عارضته ، وسعة اطلاعه فأنقاد للحق الذي يدافع عنه ويقتنع به ، ويكون أغلب الأمر في جانبه ، فلم يكن يرضيه أن نلتزم باصطلاح استعمله أصحاب الصنعة خمسين عاماً ما دام غير مطابق أو غير سليم ، فنأخذ بالتصحيح الذي يرضي اللغة ويرضيه ، ونترك ما شاع على ألسنة الدارسين ، وندعو إلى التزامهم به ، وكان في حرصه على ذلك يدعو إلى استعمال السلطان في نشر ما يقره

المجمعيون من مصطلحات وكنت أرجوه أحياناً أن نترك إلى سلطان الذوق والاستعمال والقدوة الحسنة ، وأنه لامجال في موضوع المصطلحات العلمية ، إلى تطبيق القول بأن « ما يزع الله بالسلطان أشد مما يزع بالقرآن » .

وكان يقول ان توحيد هذه المصطلحات ، لايتم ، كما يفهم الكثيرون ، بعقد المؤتمرات والندوات أو صنع معجمات من لدن هيئة أو مؤتمر ، وإن أفاد ذلك جزئياً ، ولكن الرسالة أسمى من ذلك وأجل من أن يتطلع إليها فرد أو طائفة ، إذ يجب أن ينظر إلى هذا التوحيد على أنه عمل قومي كبير ، يهم البلاد العربية كلها ، ويستوعب الكثير من الجهد والوقت والمال وقد قدر لهذا العمل منذ ثلاث عشرة سنة ، مبلغ مائة ألف جنيه ، وحسب الزمن الذي يستغرقه بستين شهراً . غير أنه عاد أخيراً ، فضاعف المبلغ إلى مائتي ألف وأما الوقت فقد قال انه يستطيل بالحساب على الستين شهراً الذي سبق له تقديرها . ويرى في معنى توحيد المصطلحات أن يكون في كل الأقطار العربية « معجم فرنسي عربي » و « معجم انجليزي عربي على الأقل » لتلك المصطلحات ، تعرف فيه الألفاظ بالعربية تعريفاً علمياً مختصراً دقيقاً ، يناسب حجم المعجم ، على أن يشتمل المعجم على أصح الألفاظ العربية أو أرجحها ، على أن تأخذ الحكومات العربية نفسها باستعمال الفاظه دون غيرها في وزاراتها ، ودوائرها وجامعاتها ومدارسها . وأن تصنيف المعجم يحتاج قبل كل شيء إلى أداة تميز المصطلحات بعضها من بعض ، وترجح بعضها على بعض وتستقر على الأصح والأصلح ، وتمضي على طريق واحدة ، ومن رأيه أن مجمعنا الموقر ، هو الأولى والأقدر على وضع هذا المعجم ومع ذلك فإنه لا يستطيع أن ينهض بهذا العبء دون تآزر ومساندة من جامعة الدول العربية والعلماء والأدباء العرب ، الذين عرفوا بوضع المصطلحات العربية وتحقيقها ، كل في دائرة اختصاصه وحدود ثقافته ، ورسم منهاج العمل ،

بأن تؤلف في مجمع اللغة العربية بالقاهرة لجنة تسمى لجنة معجم المصطلحات العلمية ، يكون لها شخصيتها الاعتبارية واستقلالها المالي والإداري ، وأن يخصص مجلس جامعة الدول العربية المال الذي يقدر لتصنيف المعجم ، ويأذن للجنة المذكورة أن تتصرف في انفاقه بمراقبة أمين الجامعة ورئيس المجمع ، وتتصل اللجنة بالمختصين بالمصطلحات في الأقطار العربيـــة ، وتتطلب منهم ، وضع قوائم مصطلحات أعجمية عربية ، ضمن اختصاصهم لقاء مكافآت مجزية ، وتضع اللجنة من هذه المصطلحات والقوائم « معجم المصطلحات العلميـة » وتعرضه على مجلس مجمع اللغة العربية ، فيقر ألفاظه ويناقشهـا في حضرة واضعيها من متخصصي الأقطارالعربية ، لقاء مكافآت مجزية ، ثم يطبع مجمع القاهرة المعجم ، ويوزع نسخه على دول الأقطار العربية . وتبقى لجنة المعجم قائمة على عملها في مجمع القاهرة ، لإضافة ما يجد من المصطلحات ، وإعادة طبع المعجم وتوزيعه ... ثم يردد رحمات الله عليه قول الشاعر :

مُنىً إن تكن حقاً تكن أحسن المُنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رَغْدا

ثم يردد قول شاعر آخر :

إكذبِ النفسَ اذا حدّثتهـا إن صدق النفس يُزري بالأمل

وفي الواقع لقد كانت الخطوات العملية ، هي نفسها التي رسمها فقيدنا الراحل ، فيما عدا رصد المال اللازم ، عندما أخذت وزارة البحث العلمي على عاتقها وضع المعجم العلمي العربي الموحد مستفيدة من خبرات المختصين مما وضعتـه المجامع والهيئات والأفراد من قوائم ومعاجم إلا أنها لم تجد بنـداً تخفض فيه من نفقاتها إلا البند الخاص بهذا المعجم ، فأوقفت العمل فيه ، بعد سنتين من الجهد المتصل من الخبراء والمختصين لم تزد النفقات على بضعة آلاف ، ونيفت المصطلحات التي روجعت ونسقت ووضعت لها الجذاذات على الثلاثين ألفاً وقد كان رحمـه الله متفائلاً بهذه اللجان التي ضمت ثلاثة وثلاثين عالماً

نحو نصفهم من أعضاء المجمع وخبرائه المختصين . وكانت تعمل جاهدة لتنفيذ قرار المؤتمر العلمي العربي الخامس الذي عقد في بغداد سنة ست وستين وتسعمائة وألف .

ولم تكن حماسة فقيدنا للغة العربية ، واستعمالها لغة للتدريس في الجامعات ، والنهوض بها لتكون لغة العلم الحديث في مختلف فروعه ، لم يكن حماسه الفائق المتقد لينسيه أهمية التعمق في دراسة اللغات الأجنبية ، لمتابعة المسائل العلمية بلغاتها الأصلية ووضع لذلك أربع وسائل لا بد من اتباعها ، للنهوض باللغة العربية ، وجعلها مسايرة لكل تقدم علمي ، وهذه الوسائل الأربع هي :

أولاً — إتقان تدريس لغة أجنبية حيـــة كالفرنسية أو الانجليزية في المدارس الثانوية .

ثانياً — تدرس تلك اللغة في الكليات الجامعية .

ثالثاً — جلب أساتذة أجانب ، يلقون دروساً ومحاضرات باللغة الأجنبية .

رابعاً — ذكر الألفاظ العلمية في أثناء التدريس بالعربيـــة ، لأن هذه الألفاظ مشتركة بين اللغات الحية .

ويقول انه يعتقد أن بهذه الوسائل الأربع أو هذه التكافلات — على حد تعبيره — يستطيع الطالب الذي يدرس بالعربية في كليات الجـامعة ، أن يوسع بعدئذ معلوماته ويختص في معاهد الاختصاص في البلاد العربية ، ويتابع البحوث العلمية في المجالات الأجنبية المتخصصة .

ويقول اننا نحن العرب ، لانستطيع التخلي عن لغتنا ، ولا عن تراثنا العلمي والأدبي الكبير ، ونحن جادون اليوم لجعل لغتنا صـالحة لاستيعاب العلوم الحديثة ، فنتمكن بذلك من التوفيق بين ثقافتنا العربية والثقافة الغربية وهو موقن بأننا سنبلغ بإذن الله ما نريد .

لقد كان الأمير الشهابي محجة أولي العلم ، ينهلون من مورده العذب ، ويجدون لديه ماطاب من حديث في دقائق العلم ، ممزوجاً بالفكاهة الحلوة ، والسمر العذب ، وكان حفياً باللغة العربية حفيظاً عليها ، وكانت عصبيته للغة العربية ، عصبية كريمة قادرة ، لأنه ذو دراية واسعة بأسرار اللغة العربية ، ويقول أمين المعلوف عن لغة الشهابي في مؤلفاته الزراعية ، « ماكتبت الزراعة بأصلح منها منذ صدر الإسلام » .

ولا ينسى له المجمعيون عامة ، والمشتغلون بعلوم الحياة خاصة ، تلك القواعد التي وضعها الفقيد لترجمة أسماء الأجناس والأنواع للمواليد والأعيان والتي أقرها المجمع منذ سنين وشاعت وذاعت بين المشتغلين بالصناعة ، وغدوا يترسمونها في أعمالهم العلمية ومؤلفاتهم ودراساتهم المختلفة ، بالاضافة إلى ماوضعه من أسماء لحلقات التصنيف العليا والدنيا من نحو العالم والأمة والطائفة والرتبة والقبيلة والفصيلة والجنس والنوع والصنف أو الضرب والسلالة وما اتخذه من قاعدة للتصغير في الحلقات الوسطى ، بين كل حلقة وأخرى . ومن تعريب لاسم الجنس ، وترجمة لاسم النوع إن دل على صفة معينة ، أو تعريبه إن دل على اسم علم . ولا مراء في أن الأمير مصطفى الشهابي من أعاظم علماء الزراعة في العصر الحاضر ، ولا يختلف اثنان في أن الأمير هو علامة العربية الأوحد في المصطلحات الزراعية وأنه فيها نسيج وحده ، كان الباحث المدقق ، يتحرى أصلح الألفاظ في المعاجم العربية ، وفي كتب النبات والحيوان القديمة ، قام بهذا العمل المضني خير قيام ، وحقق فيه عدداً كبيراً من المصطلحات العربية وضعها أمام المصطلحات الأجنبية ووضع لأسماء النباتات الأجنبية أسماء عربية أو معربة بطريقته الخاصة . وهي الرجوع إلى أصول الأسماء العلمية الدالة على هذه النباتات . وترجمة تلك الأسماء بمعانيها الأصلية أو تعريبها إذا كانت تدل على أعلام . وغدا الشهابي معروفاً في البلاد العربية

كافة بأنه أحد العلماء الذين أغنوا العربية بالمصطلحات العلمية ، وأنه من أوسعهم اطلاعاً على طرائق وضع المصطلحات ، واعترف له كثير من أعضاء المجامع العلمية واللغوية وأساتذة الجامعات بأن كتابه المصطلحات العلمية في اللغة العربية ، هو أنصع دليل وأوفى مرجع يرشد العلماء العرب إلى أصلح السبل التي تتبع في وضع المصطلحات العلمية بلغتنا العربية .

نسبه ونشأته وما تولى من وظائف وتقلد من أعمال :

وهو الأمير مصطفى بن الأمير محمد سعيد ، بن الأمير جهجاه بن الأمير حسين الشهابي ، من أمراء بني شهاب القرشيين المخزوميين الذين دخلوا الشام في الفتح الإسلامي بقيادة أبي عبيدة ابن الجراح ، وحكموا في حوران سنة ٥٦٨ هـ ، أيام الملك العادل نور الدين محمود زنكي ، ثم حكموا وادي التيم بلبنان حتى سنة ١٨٧٠ م وقد ولد في أول نوفمبر سنة ١٨٩٣ في حاصبيا مقر بني شهاب في وادي التيم ، ودرس في المدارس السورية ثم في الآستانة ، ثم في فرنسا حيث تخرج سنة ١٩١٤ حاصلاً على درجة عالية في العلوم الزراعية ، وكان يتقن العربية والفرنسية والتركية ويلم بالانجليزية ويعده عارفوه من أكثر الناس جلداً على المطالعة والتأليف والمحاضرة .

وقد تقلد عدة مناصب عالية في الدولة ، كما تقلد الوزارة أربع مرات على النحو الآتي :

١ — مدير الزراعة والحراج سنة ١٩١٨ — سنة ١٩٢٣ .

٢ — مدير الأملاك ١٩٢٣ — ١٩٣٤ .

٣ — مدير الاقتصاد الوطني ١٩٣٥ .

٤ — وزير المعارف ١٩٣٦ .

٥ — محافظ حلب ١٩٣٧ — ١٩٣٩ .

٦ — وزير المالية ووزير دولة ١٩٤٢ .

٧ — محافظ اللاذقية ١٩٤٢ — ١٩٤٥ .

٨ — أمين رئاسة الوزراء ١٩٤٥ .

٩ — محافظ حلب مرة أخرى ١٩٤٦ — ١٩٤٧ .

١٠— محافظ اللاذقية ١٩٤٨ — ١٩٤٩ .

١١— وزير العدل ١٩٤٩ .

١٢— وزير مفوض ثم سفير سورية في مصر ١٩٥١ — ١٩٥٤ .

وله في مناصب الدولة أعمال عمرانية كثيرة ، منها توزيع أملاك الدولة على الفلاحين لا يجاد ملكيات صغيرة ، وتشييد دار الكتب الوطنية في حلب ، ودار الكتب الوطنية في اللاذقية، وهو من الرعيل الأول من العاملين في القضية العربية، وكان عضواً في جمعية العربية الفتاة وجمعية العهد ، وكان أحد أعضاء وفد المعاهدة بين سورية وفرنسا سنة ١٩٣٦ ، وكان عندئذ وزيراً للمعارف .

وقد انتخب سنة ١٩٢٦ عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي بدمشق ، وفي سنة ١٩٤٨ انتخب عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية في مصر ، ثم انتخب سنة ١٩٥٤ عضواً عاملاً فيه ، وفي سنة ١٩٦١ انتخبه المجمع العلمي العراقي عضواً مراسلاً ، وانتخب عدة مرات عضواً في مجلس المعارف الأعلى في سورية ، وفي مجلس إدارة المتاحف والآثار ، وفي جمعيات علمية وأدبية مختلفة ، وعين عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في القاهرة وفي دمشق ، ومثّل جامعة الدول العربية ثلاث مرات في حلقة الدراسات الاجتماعية .

وفي سنة ١٩٥٣ انتخبه مجلس جامعة الدول العربية رئيساً للجنة المواصلات الدائمة وفي سنة ١٩٥٦ انتخبه المجمع العلمي العربي بدمشق بالإجماع نائباً لرئيس المجمع لمدة أربع سنوات ، وفي سنة ١٩٥٩ انتخب

بالإجماع رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق خلفاً للمرحوم خليل مردم بك ، فكان الرئيس الثالث لذلك المجمع وجدد انتخابه لرئاسة مجمع دمشق سنة ١٩٦٣ ، ومنح جائزة الدولة التقديرية لعام ١٩٦٥ وهي أول جائزة تقديرية تمنحها الدولة السورية .

وفي سنة ١٩٦٤ انتخبته اللجنة التنفيذية لدائرة المعارف الإسلامية بلندن عضواً مشاركاً لمجلس هذه الدائرة .

وقد منحته الدولة السورية وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى ، كما منحته الحكومة المصرية الوشاح الأكبر من وسام النيل ، عندما كان سفير الحكومة السورية في مصر .

وقد عكف الأمير الشهابي على دراسة قواعد اللغة العربية ، وكتب اللغة وآدابها وأخذ يكتب في أهم الجرائد والمجلات العربية مقالات وبحوثاً ، يعدها العارفون من خالص الأدب الرفيع ، على أن الناحية العلمية واللغوية طغت فيه على الناحية الأدبية ، ولذلك فإنه يعد بحق في عداد العلماء وكبار المفكرين وقد أمضى سنين عديدة في دراسة نباتات سورية وحشراتها واقتصادياتها واستطاع أن يطبق العلوم الزراعية الحديثة في أعماله الحكومية أو في مؤلفاته الزراعية ، وقد اشتهر بتحريه لأصلح الألفاظ في المعاجم العربية ونشر كثيراً من إنتاجه في مجلة المجمع العلمي العربي ، ومجلة المجمع اللغوي بالقاهرة وفي مجلات المقتطف والهلال وغيرها .

مؤلفاته :

ليس من اليسير التعريف بما كتب الأمير الشهابي من مؤلفات ومقالات ورسائل ، فذلك في الواقع يحتاج إلى دراسة خاصة ، وكم أود بهذه المناسبة أن أعرض على المجمعيين أن يعملوا على دراسة أعمال الأعضاء والتعريف

بها . وإني لأشير هنا إلى أهم تآليف فقيدنا ، تاركاً الدراسة المتخصصة إلى فرصة أوسع ووقت أرحب .

كتاب الزراعة العلمية الحديثة ويبحث في الأتربة والأعمال الزراعية والري والصرف والأسمدة والدورة الزراعية وزراعة الحبوب والقطاني وبعض البقول ونباتات الكلأ والنباتات الليفية والدهنيه والصبغية .

وكتاب الأشجار والأنجم المثمرة ، يتناول دراسة ثلاثين نوعاً من أشجار الفواكه وجنباتها وأنجمها كالزيتون والكرم والبرتقال .

وكتاب البقول ، ويبحث زراعة أهم الخضروات وعددها خمسون .

وله كتاب في الدواجن وكتاب الدفاتر الزراعية .

ويعتبر معجم الألفاظ الزراعية ، وهو معجم فرنسي عربي لألفاظ العلوم الزراعية الحديثة كالزراعة العامة وزراعة البساتين وعلم الحراج وتربية الخيل والماشية والنحل والسمك والطير الأهلية وما له صلة بالزراعة من نبات وحيوان وحشرات وآلات وصناعات واقتصاديات . ويعتبر هذا المعجم من أعظم مؤلفاته يضم نحو عشرة آلاف مصطلح ، وضع المؤلف أمام المصطلح الأجنبي أصلح الكلم العربية وعرف كثيراً منها تعريفاً علمياً موجزاً ، ثم كتاب المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث ومعجم المصطلحات الحراجية بالانجليزية والفرنسية والعربية وكتاب أخطاء شائعة في ألفاظ العلوم الزراعية يشتمل على تصويب نحو مائتي خطأ من الأخطاء الشائعة ، في هذا المجال ، وكتاب الشذرات ويشتمل على جانب مختار من بحوثه ومحاضراته ومقالاته العلمية والأدبية والفلسفية والقومية .

كما شارك الأمير الشهابي في وضع وتحقيق ألفاظ المعجم العسكري الذي أصدره الجيش بدمشق وكان رئيس اللجنة التي نقلت ألفاظ المعجم إلى العربية

كما أشرف على ترجمة كتاب تطور الزراعة في الشرق الأوسط لمؤلفه الدكتور « كين » إلى اللغة العربية .

أما بحوثه ودراساته ومقالاته فهي أكثر من أن يشار إليها ؛ منها نظرة في كتاب البلاغة الأندلسية لابن العوام ، وأسماء نباتات مشجرة ومصطلحات جيولوجية وأسماء الفصائل النباتية ، وجملة المصطلحات النباتية ومدى التعريب في ألفاظ تصنيف المواليد ، وتأثير العرب والعربية في الفلاحة الأوربية . وقد نشر الكثير من هذه البحوث في مجلة المقتطف ، وأعمال المجمع العلمي العربي بدمشق ، والهلال والرسالة والثقافة وغيرها .

حياته وآراؤه العامة :

وقد عاش الأمير الشهابي حياته عيشة هادئة منتظمة ، وكانت أعماله الحكومية مرهقة أغلب الأمر ومع ذلك فقد كان يجد متسعاً من الوقت للمطالعة والتأليف وإلقاء المحاضرات ومتابعة الحركة القومية والاستقلالية في سورية والبلاد العربية ، وكان يقول إنه إذا عاش المرء عيشة منتظمة ، استطاع أن يطالع أو يؤلف بمعدل ساعة أو ساعتين في كل يوم على الأقل ، وذلك مهما تكن مهنته المعاشية شاقة : وكذلك استطاع الأمير الشهابي أن يشارك مشاركة فعالة في أعمال المجمع العلمي العربي بدمشق وأن ينشر في مجلته بحوثاً علمية وأدبية ، وأن يضيف إلى لغة الضاد مئات من المصطلحات العلمية ، وأن يؤلف كتباً زراعية فيها دراسات خاصة كثيرة ، ومعجماً فرنسياً عربياً هو نسيج وحده في مصطلحات العلوم الزراعية والاحيائية والمواليد الثلاثة واستطاع كذلك أن يشارك مشاركة فعالة خصبة في أعمال مجمع اللغة العربية في القاهرة . وقد جاء إلى القاهرة عدة مرات ، وفي كل سفرة تكون محاضراته في النوادي ومقالاته في المجلات والجرائد زينة لهذه

وتلك وكان في مقالاته العامة متابعاً الحركات العلمية والأدبية وداعيــة إلى القومية العربية وتضامن الدول العربية واتحادها وقــد نال بذلك شهرة في مصر تعدل شهرته في سورية . كذلك رحل إلى بغداد عدة مرات بدعوة من وزارة المعارف العراقية حيث ألقى عدداً من المحاضرات العامة فيما هو بسبيله من نشر للمعرفة في أرفع صورها ثم عرفته أبهاء القـــاهرة مرة أخرى منذ انتخب عضواً مراسلاً ثم عضواً عاملاً في مجمعنا . وإذا بصوته الجهوري يجلجل في ردهاته ومجالسه مدافعاً لا يلين عن قضية يرى فيهـــا الحق أو الصواب فلا يجانبه أبداً ويعتبر الأمير الشهـابي من أقدم الدعاة إلى إنشاء جامعة الدول العربية . وأن تسير الدول العربية تدريجياً نحو الاتحاد فالوحدة وقد كتب في ذلك قبل إنشاء الجامعة العربية ببضع عشرة سنة .

وكان يقول ان نهضتنا الحديثة يجب أن تؤسس على القومية العربيــة ، وان تشمل العرب والمستعربين ، وأن العربي في رأيه من تكلم العربيــة وأراد أن يكون عربياً .

وكان من رأيه أن الحكم البرلماني مظهر من مظاهر الاستقلال وعنوان لسيادة الأمة ومن الخير أن تقبل الحكم الديمقراطي والحياة النيابية ، بشرط أن نضمن انتخاب شيوخ ونواب مثقفين عارفين بواجباتهم يقدمون المصلحة العامة على المصلحة الفردية . وكان عدواً للاستعمار والمستعمرين ، ويرى أن معظم الحروب الحديثة من جناياتهم ، وألف كتـــاب الاستعمار ، لدحض نظرياتهم ، وبيان أضرارهم في المجتمع البشري .

وكذلك كان الأمير الشهابي من الداعين إلى القومية الوثيقة ، ووجوب حصر جهودنا في نطاقنا العربي خدمة للانسانية كلها ، وليس من رأيه تفكيك عرى القومية عندنا بفكرة الدعوة إلى الإنسانية الشاملة مادام الغربيون الأقوياء يربون أبناءهم ويسيرون في معاملتهم للشعوب الناميـــة على مبادىء

القومية المتطرفة ، بل والعنصرية أحياناً ، وعلى قواعد الاثرة والاستعمار وعلى ذلك فمن رأيه أن مثالية النظرة الإنسانيــة لا تناسب شعوبنا التي قصاراها الدفاع عن كيانها واستقلالها . وقد لخص رأيه في كتابة القوميـة العربية بقوله « ليست القومية العربيـة فلسفة قومية ضيقة ، ولا مذهبـاً محدوداً ، قوامه الأثرة والتعصب أو البغضاء ، بل هي فلسفة اجتماعية مثالية بناءة تقدمية ، تدعو كل عربي إلى محبة أمته العربية ووطنه العربي، وإلى الاعتزاز بماضي هذه الأمة ، وإلى العمل التقدمي لحاضرها ومستقبلها كما تدعو إلى محبة الإنسانية وخير البشرية ، وحق كل شعب في تقرير مصيره .

وقد دعا الأمير الشهابي وعمل جاهداً على نشر التعليم العام والتعليم الفني خاصة ، وتعليم المرأة ، ورفع الحجاب ، مع الاحتفاظ بعاداتنا العربيـة والتعصب للغتنا وعاداتنا وثقافتنا ، واقتباس العلوم والمخترعات الحديثة والسير في جميع أعمالنا على الأسلوب العلمي القويم ، وكان يسفه في مقالاته ومحـاضراته الذين لا يأخذون من المدنية الأوربية إلا قشورها دون لبابها .

ولا مراء في أن الأمير الشهابي من أعاظم المثقفين العرب في هذا العصر ، ومن أغزرهم اطلاعاً على العلوم قديمها وحديثها ومن أكثر رجالات العصر الحاضر تجارب في الحكم والوزارة والسياسة وتدل كتاباته على أنه مطبوع على الأدب ، قرأ أمهات الكتب الأدبية قراءة دراسة وتدبر ، كما قرأ في إمعان كتب أكبر الأدباء الفرنسيين ، ولذلك فانه يعد مثـــال المثقف بالثقافتين العربية والاوربية وقد اتسمت كتاباته بالأدب الرفيع ، وعد من الكتـاب البرزين كما اشتهر بأنه من أفصح الكتاب وأقدرهم على معالجة الموضوعات العلمية بالأسلوب العلمي السهل الواضح فهو بلا شك أحد علمائنا الأدباء أو أدبائنا العلماء فقد جمع بين العلم والأدب ، ولذلك سماه شاعر القطرين العالم الأديب ، وقالت عنـه الآنسة « مي » إنها ما استمعت مرة إلى بحوثـــه

ودراساته العلمية والأدبية والفلسفية إلا وتمثلت لها « وحـــدة الوجود » ولا شك أن الذي يطلع على كتابـــه الشذرات يعجب لبراعته في تناول موضوعات فلسفية علمية دقيقة وقال فيه خليل مطران بمناسبة إصدار الأمير معجمه :

يا أميراً أهدى إلى لغة الضـاد كنوزاً من علمه وبيـــانه
ذلك المعجم الزراعي قد كان رجاء حققته في أوانه
عمل لا يكاد يقضيه إلا مجمع بالكثير من أعوانه
دمت ذخراً له مآثره في نفع هذا الحمى وفي رفع شأنه

ويقول عنه شكيب ارسلان « انه لأمير العلماء حقـاً ، وعالم الأمراء فعلاً ، واني مع شيخوختي هذه لراض أن أنضوي تحت لوائه ، كما انضوى شيوخ الصحابة تحت لواء أسامة .

أما جلسات مجمعنا ومؤتمراته . فانها حافلة بعبارات التقدير والثناء والشكر للأمير الشهابي على ما يقدمه من بحوث ودراسات ، وفي ذلك يقول السيد رئيس المجمع في إحدى الجلسات « إني لأعترف بأن كل ما قدمــه الأمير للمجمع وشارك فيه كان خصباً دائماً ونافعاً دائماً ، واني لأكرر له الشكر مع أني أعلم ان السيد الأمير لا يحب الشكر والثناء .

وأجمل القول إن فقيدنا العظيم عالم زراعي ألف في العلوم الزراعية كتباً ثمينة قيمة تعد من أصلح الكتب من نوعها وباحث أضاف إلى لغة الضاد عدداً كبيراً من المصطلحات العلمية وكاتب مفكر له أثره العظيم في النهضة العلمية والأدبية ، ورجل دولة ، خدم سورية ، خـدمات عظيمة في الوزارات والمناصب الكبرى التي وليها ، ووطني عظيم في القضية العربيـــة ، ونشر فكرة القومية العربية ومن الرواد الذين عملوا للاستقلال والوحدة ، ومن

الذين أثروا اللغة العربية بالمصطلحات العلمية ، وعملوا على نموها والحفاظ على سلامتها وجعلها للغة العلم . ظل يعمل في هذا المجال زهاء نصف قرن من الزمان ، يزيد في إثرائها لتواكب ركب الحضارة ، حتى قضى وهو يحمل لواء العلم في الرابع عشر من مايو ١٩٦٨ بعد أيام من كتابة مقال لمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، وآخر لمجلة مجمعنا عن رأيه في النسبة للكيمياء ، ومن رياسة آخر جلسة للمجمع العلمي العربي بدمشق ، فقدنا فيه عالماً غزير المعرفة ، مترفعاً عن الدنايا ، وسفساف الأمور ، فيه تواضع العظماء ، وعظمة العلماء ومع وداعتـــه قوي الشكيمة لايعرف هوادة إزاء من يزيف الحق أو يجافي الاستقامة .

أيها السادة الكرام ــ أيها الزملاء الخالدون :

لست في حاجة إلى أن أحدثكم عن خلود العلماء في أعمالهم ، وفقيدنا العظيم مثال فريد في الخالدين ، الذين عبروا جسر الحياة في ثقة وإخلاص ، في جد وأدب ، وصبر ومصابرة ، مما يعد مثالاً يحتذى وكأنما أراد لشدة إيمانه ، بحقيقة الموت ، أن يضيء طريق الخلود لخلفائه حتى لايضلوا من بعده أبداً . فكانت هذه الحياة الجادة الخصبة النافعة ، وكذلك هم العلماء يشترون خلودهم ، بما يقدمون من أعمال ، وما يتركون من نتاج قرائحهم وثمرات أفكارهم ... وهم أشد الناس إيماناً بأن الموت غاية كل حي ، وان كل نفس ذائقـــة الموت ، وانه « فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

ولكأني بفقيدنا العظيم ، يعيد سيرة نفر كريم من العلماء العرب القدامى من أمثال ابن الهيثم والبيروني والبغدادي الذين كانوا يستملون بعلمهم ، ويزهدون

في الترف والسلطان ، ويعزفون عن الدنايا والصغائر ... فقال ابن الهيثم قولته المشهورة عندما رد لأحد الأمراء ما كان قد دفعه أجراً لتعليمه ، قائلاً : « خذ أموالك بأسرها فلا حاجة بي إليها ، ولعلك أحوج إليها مني عندما تعود إلى ملكك ومسقط رأسك ، يكفيني قوت يوم » ورد البيروني للسلطان ما أرسله من جمال تنوء بأحمالها من نقود الفضة قائلاً : إنه إنما يخدم العلم للعلم ، كذلك فعل البغدادي أيام صلاح الدين الأيوبي حين قال إن العالم الحق يُسعى إليه وإذا اشتهر المرء بعلمه وخلقه سُعي إليه ، وأتته الدنيا صاغرة وعرضه ودينه مصون .

ذلك هو فقيدنا العظيم واحد من هذه العصبة الكريمة الخالدة من العلماء أعترف بعجزي عن إيفائه حقه من التأبين الكريم ، وإن هذه الدراسة المجلى قاصرة عن الإحاطة بأعماله والتعريف بانتاجه الفكري والعلمي والأدبي وإني لأستشعر ضآلة ما قدمت بالنسبة لما كان مقرراً أن يقدمه أستاذنا الزميل الكبير المرحوم الأستاذ الزيات ، الذي كان قد اختاره المجمع لإلقاء كلمة التأبين ، ولكن يد القدر كانت أسرع إليه ففقد مجمعنا عالمين من أعلامه في أقل من شهر من الزمان . فواهاً للمجمعيين مما يرزأهم به القدر حيناً بعد آخر ، وإذا كانت قلوب الأصدقاء قبوراً حية لأصدقائهم الذين يختارهم الله فوالهفي على قلوب المجمعيين من احتمال فقد هذه العصبة الكريمة من أولي العزم من الأصدقاء العلماء الخالدين .

نسأل الله أن يلهمنا جميعاً الصبر ، وأن يعوض أمة العرب خيراً .
والسلام عليكم ورحمة الله

الدكتور عبد الحليم منتصر



فقيد المجمعين : الأمير مصطفى الشهابي

كلمة الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية

إني باسم مجمع اللغة العربية بدمشق أتقدم بالشكر الجزيل إلى مجمع اللغة العربية في القاهرة لإقامة هذا الحفل التأبيني ، إحياء لذكرى فقيد العروبة ولغة الضاد المرحوم الأمير مصطفى الشهابي تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته وأحسن عزاءنا به جميعاً .

وبعد ، فانه لما يحز في النفس ويدعو إلى بالغ الأسى ، أن يقف المرء هذا الموقف الحزين ليرثي صديقاً وفياً له وزميلاً كريماً عليه ، أبلى أحسن البلاء في إعلاء شأن أمته وتوطيد دعائم وحدتها . وبذل أقصى الجهد في خدمة لغة القرآن الكريم وإغنائها ، وأنفق العمر كله يعمل على إمدادها بالكثير من المصطلحات العلمية حتى تكون هذه اللغة مواكبة للعصر الحضاري الذي نعيش فيه ، غير مقصرة عنه ومتهيأة لتواكب العصور الحضارية التي يستقبلها العالم .

لقد ربطتني بهذا الصديق الوفي والزميل الكريم أوثق الروابط منذ عهد بعيد ، فكان لزاماً عليّ أن أقوم هذا المقام في أداء الواجب نحوه وإيفاء ذكراه حقها من التمجيد والتقدير فأتحدث إليكم عن أطراف من معرفتي به طيلة هذه السنين المتصلات التي زاملته فيها وآخيته بحكم ما كان من عملي في الجامعة والمجمع وما كان من عمله في الوزارات التي وليها والمجمع الذي آلت رياسته إليه .

ويعذرني الزملاء المجمعيون والاخوان المستمعون شهود هذا الحفل إذا أنا تجاوزت المآثر الكثيرة لفقيد المجمعين ، فقد كفاني هذه المؤونة زميلي

الدكتور عدنان الخطيب بالكتاب الذي أصدره باسم مجمع اللغة العربية في دمشق إحياء لذكرى رئيسه المرحوم . فقد ترجم له ترجمة حافلة معدداً ماقام به من جلائل الأعمال وما تركه من خالد الآثار ، وما دبجه من بارع المقالات والمؤلفات وما ألقاه من محاضرات وما أوسد إليه من مناصب رفيعة في الدولة ، فأوفى بذلك الرئيس الراحل حقه ولم يترك زيادة لمستزيد .

لقد كانت أولى معرفتي بفقيدنا الراحل عن طريق ما كان يكتبه من مقالات علمية ولغوية وأدبية في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وفي مجلة المقتطف في القاهرة ، وكانت كلها تشهد له بالمكان الرفيع الذي ارتقى إليه علماً ولغة وأدباً ، ولم يتح لي أن ألتقي به وجهاً لوجه إلا سنة ١٩٣٦ عندما كان وزيراً لمعارف الدولة السورية ، فقد استدعاني إلى مكتبه في قصر الحكومة مستفسراً عن بعض أمور الجامعة وكلية الطب خاصة ، فأكبرت فيه حسن اطلاعه مع حداثة عهده الكثير من الأمور الفنية الجامعية وسير التدريس فيها ، ثم كان لقائي الثاني سنة ١٩٤٣ عندما كان وزيراً للمالية وكنت رئيساً للجامعة السورية (جامعة دمشق الآن) وذلك للبحث في موازنة الجامعة ، فسرني أن رأيت فيه طرازاً جديداً من القيمين على بيت المال غير الذين وصفهم المرحوم فارس الخوري في كتابه (علم المالية) نقلاً عن أحد علماء الغرب بقوله : على رب المال أن يكون فظاً غليظ القلب صدّاعاً . إذ أبدى تفهماً عميقاً لحاجات الجامعة وما ينبغي أن تزود به من مال كي تؤدي رسالتها على أحسن وجه . وتعدد اللقاء بعدئذ وتوثقت الصلات إلى أن كان أحد المزكين لترشيحي وانتخابي عضواً في المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٤٦ وسرعان ما أتبع ذلك باقتراح انتخابي في مجمعكم الموقر عضواً مراسلاً سنة ١٩٦٥ .

ورافقته مرة في السفر من دمشق إلى بيروت لشهود أحد المهرجانات الأدبية فيها فلم أشعر بطول الطريق بما أمتعني به من عذب الحديث كان ينتقل فيه في فنون الأدب والشعر والعلم . . وحين أطل علينا جبـــل حرمون الذي يعرف بجبل الشيخ راودته ذكريات صباه لأن بلدة حاصبيا ، وهي مسقط رأسه ، تقع في السفح الغربي من الجبل المذكور فانطلق يردد كثيراً من الشعر الفصيح والعامي الذي يصف هذه المنطقة وما حباها الله من جمال وما جبل عليه أهلها من كرم ومزايا .

وعندما أحيل إلى المعاش استقر به المقام في دمشق بعد أن تكاثرت أسفاره في الأعمال المختلفة التي وكلت إليه محافظاً في اللاذقية وسفيراً في القاهرة ، وتسلم نيابة رئيس المجمع ثم رئاسة المجمع في دمشق ، كثر ترددي عليه في منزله فكانت زياراتي له أسبوعية تقريباً لأشرف على صحته الغالية وأواسيه فيما أصابه وأخفف عنه بعض مايعانيه . وما كان لطبيب عصرنا هذا أن يقتصر في طبه على تشخيص المرض ومضاعفاته بالاستناد إلى خبرته وإلى ما أتحفه به العلم من وسائل تتكامل وتتطور يوماً بعد يوم ، ولا في علاجه على العقّارات من قديمة وحديثة تكاد تتجدد شهراً بعد شهر ، بل عليه أن يستقصي نفس عليله ويسبر غورها وينفذ إلى أعماقها حتى يكون طبه ناجعاً ، إذ لابد من دعم الطب المادي بطب نفساني لا ندحة له من الركون اليه .

ولا أذيع سراً مهنياً إذا قلت ان ما أصاب رئيسنا الراحل من داء حلو مر ، حلو اسماً ومر قولاً وفعلاً ، قد تغلغل في صميم بدنه لم يوفر عضواً من أعضائه ولا نسيجاً من نسجه ، اللهم إلا تلك النفس الكبيرة والمنيعة التي لم يجد المرض إليها سبيلاً فنجت من ويلاته وظلت سليمة مصانة كأن البدن الذي يحويها ما يزال في ريعان الشباب . فلم يثنه وقد اشتدت وطأة الداء

عليـــه في الأشهر الأخيرة ، من ممارسة عمله اليومي في المطالعــة والمراجعة والكتابة والتأليف ، إلى جانب اهتمامه البالغ بواقع البلاد العربية وتألمه أشد الألم لما آلت إليه حالة الوطن الكبير من انفصام عرى الوحدة ، ثم من نكبة العدوان . وكان لا يفتأ يفكر ويتحدث عن السبيل إلى كشف الغمة ، والطريق إلى جمع كلمة الأمة ، هذا إلى سوانح لغوية كان يقيدها وشوارد يسجلها وملاحظات على حركة المصطلحات العلمية يناقش فيها .

ولم يكن ذلك كله يفت في عضده ، وإنما كنت أسمعه في زياراتي المتواصلة يردد القـــول الفرنسي : Il faut prendre la vie telle qu'elle est علينا أن نتقبل الحياة على علاتها ، وكأنه غير متزعزع ولا متذمر ولا متململ من كل ما ألم به .

وما زرته مرة إلا وألفيته منكباً على مكتبه وأكداس الكتب عن يمينه وشماله ، وإذا ما ألح عليه طارىء جديد وألزمه الفراش رأيت بعض كتبه ملازمة له فلا تفوته سانحة دون أن يركن فيها إلى المطالعة التي كانت سلواه المفضلة .

قلت ان نفسه العظيمة لم تطاوع بدنه في التنواء تحت وطأة الداء بل تمردت عليه وتمنعت فسلمت مما أصابـــه ونجت من ويلات الداء فلم يتطرق اليها الخور ولا الإعياء ، لذا لم يتوقف عن إنتاجه الفكري بل ظل مستمراً ، مستمداً من ذاك المعين الذي لا ينضب من المعرفة ، حتى التَّنَفس الأخير ، ووالى الإشراف على شؤون المجمع العلمية والادارية ، وكان اذا ما تعـذر عليه ترؤس الاجتماعات الأسبوعية للجنة الادارية في المجمع دعاها إلى الانعقاد في داره فلا يترك شاردة ولا واردة دون أن يناقشها .

ذلك هو الانسان الكامل وذلك هو العالم العامل ، وذاك ما عرفته فيه ورأيته منه . رحم الله فقيد المجمعين زميلنا الراحل وأسكنه فسيح جناته وعوض العربية من ينهض بها مثل نهوضه . وألهمنا وآله جميل الصبر والعزاء .



قصيدة للأستاذ عزيز أباظة

نبا عنـا العزاء أبا « لميسٍ » غداةَ نعتْك للشرق النواعي
ومثلُك ـ أين مثلُك ـ يوم يودي يُحسُّ الخلقُ بالكنز المُضاع
وبات الفاقدون كأن ليـلا تردَّوْا في دجاه بلا شعاع
وصحبُك ـ يالصحبك ـ روَّعتهم نواك . وكلُّ وصلٍ لانقطاع
هو الموتُ الذي لا تتَّقيه سرى فينا أذاه مع الرَّضاع
إذا ما كرَّ أعجز كلَّ فرٍ وخفَّ من البطاء إلى السِّراع
فليس تقيك شاخةُ الرواسي ولا تحميك باذخةُ القلاع
ومن لم تطوه اليومَ المنـايا فإنَّ اليه في غده سواع
وبين اثنين نحن فذو مُضيٍ إلى السفرِ البعيد وذو زماع
ولم يرجع فينبأنا مُنبٍّ أذو ضيقٍ تراه أم اتِّساع
وهل لقيت لذيذَ الروْحِ روحٌ دعاها من طوايا الغيب داع
وهل وقعتْ على ألم مضيضٍ بما نهلته من رنق المتـاع
وهل تلووهل وتسوق أخرى يقُدْنَ زمامَ أسئلةٍ تبـاع
سيعيا العلمُ عن علمٍ ويبقى على زحفِ الدهورِ قصيرَ باع
وحسبُ الخلقِ أن اللهَ لاقٍ ذنوبهم برحمات وساع

★ ★ ★

مضى شيخُ الثِّقاتِ وفي يديْه بقـايا للطروسِ وللـيراع
سعى للضادِ مُحْتَشِدَ المساعي فما أسماها . مسعىً وساع
وقارع كلَّ ذي ضغنٍ عليها بماضي المتنِ مرهوبَ القِراع

وزاد بمنطقِ العلماء عنها ... كنورِ الصبحِ مؤتلقِ الشعاع
وطوّعها لحاجات المعاني ... فأبدع ثمّ فى غير ابتداع
وقرّبها إلى العلماء روضاً ... سخيَّ النَّبْتِ منضورَ المراعي
وورْدأ دافقَ الدُّفَّاعِ ذلّت ... مصادرُه لهم بعد امتناع
معاجمُ صاغها فرداً فأغنى ... بهن غَناءَ جمْعٍ واجتماع
جلاها خيرَ ما تُجلى عروسٌ ... عميقُ دراسةٍ وطويلُ باع
ووصّلها بماضيها وكانت ... إلى أن راضها ذاتَ انقطاع
عجبتُ لحاقدين عدوْا عليها ... وملءُ نفوسهم أثَرُ الضِّباع
رموْها غير مدَّخرين وُسْعاً ... لقد نزلوا على أمرٍ مطاع
وكانوا أمسِ يُخفون الطوايا ... على وَغَرٍ بموْشِيِّ الخِداع
فصالوا اليومَ بالرأي المُشاعِ ... وبالخبر المُذاع بلا قِناع
إذا استقووْا فإن الحقَّ أقوى ... وأبقى والسرابُ إلى انقشاع
تعالى اللهُ كالئها وواقٍ ... محارمَها وراعٍ أيُّ راع

★ ★ ★

أيا ابنَ الـأكابرِ بنوا فأعلوْا ... صروحَ المجدِ باذخة اليَفاع
قُريشيِّين يقصُر عن مداهم ... وباعِهم المُرجَّبِ كلُّ باع
علت بكم من العِرْقِ المُصفَّى ... مساعٍ لا تُطاولها مساع
وأورثكم مفاخرَهُ عتيقٌ ... من الأبيات مقصودُ الرِّباع
فنشَّأكم على خلُقٍ ودينٍ ... وإسداءِ الجميلِ والاصطناع
ومن ورِثَ السموقَ وكان أهلاً ... له ضمَّ ارتفاعاً لارتفاع
وجرَّ لقومه رسَّ المعالي ... وزاد فنال غيرَ المستطاع
نهضتم بالعروبة مذ صباكم ... بدريِّ التدافعِ والدفاع
وبين السابقين الصِّيدِ كنتم ... رجالَ السيف منهم واليراع
ألم يُقتل أخوك شهيدَ رأي ... فأعلت روحُه روحَ الصراع

فهبت أمةٌ . وصحت ثغورٌ وطار لظى اليقاع إلى التلاع
وكنت لعارفٍ و(١)هارونَ تَنْشى مَخاطرَه شجاعاً عن شجاع
فأينَ اليومَ نحن ؟ لقد نزلنا على حكم اتّضاعٍ واتّداع
قطعنا العمرَ بين هوى ولهوٍ وتَشْمير النزاعِ من النزاع
نبيتُ إذا النوازلُ داهمتنا نُراعيها . ونُصبح لا نراعى
وتُلهينا الحيـاةُ عن الأفاعي أعادينـا . فتلدغُنا الأفاعي
يُداجي بعضُنا بعضاً كأن لم نكن غرَضاً لأنيابٍ جياع
ويَغشانا عــدوُّ اللهِ صفا وبين صفوفنا عُشٌّ الصراع
يواثبنـا بعلمٍ عن عيانٍ وندفعـه بجهلٍ عن سَماع
ويطرُقنا بأفئدةٍ جِـاعٍ فنلقاه بأفئدةٍ شعـاع
إذا الهونُ الذي ذقناه أفضى إلى بعثٍ فعزمٍ فاتفـاع
نسيناه وقلنـا ربَّ شرٍ لخيرٍ واتقاعٍ لاندفـاعٍ
متى نُجمعْ على صفوٍ ورُشدٍ متى ؟! والحقُّ يؤذن بالضياع

★ ★ ★

بني سوريةَ اعتصموا بصبرٍ فما رَدُّ القضاء بمُستطاع
مصابُكم بصـاحبكم مُليمٌ بكلّ مثقفٍ في العُربِ واع
لئن عاف الجفاوةَ وهو حيٌّ فقد صَمَدت إليه مع الوَداع

★ ★ ★

نَبا عنا العزاءُ أبا « لبيس » غداةَ نعتك للشَرْق النواعي
حباك الله من حلْو الدَّمام(٢) بجنّته ومن طيبِ المتَاع



(١) هو الأمير عارف الشهابي شقيق الفقيد الذي أعدم سنة ١٩١٦ في سبيل القضية العربية .
(٢) الدمام : «عصير الشجر» .

كلمة السيدة ثريا الحافظ

عن أسرة الفقيد الأمير مصطفى الشهابي

حضرات السادة الأكارم :

باسم كريمتي الفقيد لميس ونهلة الشهابي وباسم آل الشهابي عامة أحييكم وأتوجه بخالص آيات الشكر إلى رئيس مجمع اللغة العربية الدكتور طه حسين وإلى أعضاء المجمع الأفاضل وخاصة الدكتور عبد الحليم منتصر الذي أبَّن الفقيد فوفاه حقه ، وإلى الشاعر الكبير الأستاذ عزيز باشا أباظة الذي رثاه بسحر بيانه ورقيق أشعاره وإلى كل من شارك وأسهم في هذا الحفل الكريم بحضوره ومواساته : سائلة المولى ليمنحكم الصحة والعافية وطول العمر والبقاء وليسبغ على روح الفقيد الغالي الرحمة والخلود . . . . ولعمري فالخلود غدا ضوءاً لمآثره القومية ومآتيه العلمية ، فقد وهب حياته كلها للعلم والبحث والتأليف حتى استدارت من حوله خصائص العظمة والمفاخر وشملته فأكرمت مثواه وخلدت ذكراه .

ايه : ياروح عمي الحبيب يامن تركت في قلوبنا لوعة لن تجف ، وفي عيوننا دمعة لن تجف ، ان مصر التي أحببتها بكل جوارحك ، مصر التي ناجيتها بأعذب شعر وأصدق عاطفة وأسمى بيان ، لن أنسى صوتك الدافىء بنبراته القوية وكلماته البليغة الفصحى وأنت تلقي علي بعضاً من شعرك في مصر وشدة حبك ووفائك لها ، كنت تقرئني الأبيات وتستعيدها حتى حفظتها . نعم مازالت نبرات ذلك الصوت الجهوري تتجاوب في أصداء سمعي وأعماق نفسي وأنت تقول :

ياساكني مصر لاتنسوا مودتنا — إن الوفاء لكم أضحى لنا دينا
أنتم بنو عمنا فاجفوا بساحكم — حمراء بالشر تغريكم وتغرينا
يا ساكني حمى الأهرام ان لكم — في القلب ذكرى نناجيها فتحيينا
لله نيلكم المخضل شاطئه — حاكت سوائله أخلاقكم لينا
هلاّ أجبتم أخا ود يبثكم — من قاسيون تحيات المشوقينا

يا روح فقيدنا الغالي اطمئن في مثواك وانعم في جنان الخلد ، لأن مصر الوفية أكرمت اليوم ذكراك ، لا لأنك عضو من أعضاء مجمع اللغة العربية فحسب ، بل لأنك علم من أعلام الأمة العربية جمعاء ـ أمة العرب التي تفخر وتتيه بك وبأمثالك من علمائها وأدبائها العظام والسلام .



برقية كريمتي الفقيد الأمير مصطفى الشهابي

مجمع اللغة العربية

اللفتة الكريمة التي سجلها مجمع اللغة العربية الموقر باحياء ذكرى فقيدنا المرحوم الأمير مصطفى الشهابي وطدت في نفوسنا الاعتزاز والوفاء وتلك مأثرة من مآثر العلماء نتقدم بأوفر الشكر ونأسف لعدم تمكننا من حضور الاحتفال أدامكم الله وأبقاكم ذخراً لأبناء أمتنا .

كريمات الفقيد

لميس ونهلة الشهابي



كلمة الدكتور حسني سبح [1]

حضرات الزملاء الأفاضل والسادة الكرام

يطيب لي أن أقدم في حفل الاستقبال هذا وجهاً علمياً كريماً من وجوه سورية العربية ، وأستاذاً من أساتذة العلم الحديث الذين يسعدنا أن يكون أمثالهم من الأساتذة بين ظهرانينا . نحن الذين نعيش في عصر الذرة وغزو الفضاء .

إن لغتنا الضادية التي نذرنا النفس لخدمتها والارتقاء بها لتواكب حضارة هذا العصر ، ولتكون في مستوى حضارة العصر المقبل ، بأشد الحاجة إلى عالم مختص في هذا الفرع الجديد من علوم الطبيعة ليتحمل معنا عبء هذا الواجب الكبير ، ولنفيد من معرفته الواسعة في اختصاصه ومشاركته الطيبة في الاختصاصات الأخرى ، وليسهم معنا إسهاماً فعالاً في إغناء لغة القرآن الكريم بما استجد ويستجد من مصطلحات ، وما أكثرها ؟

افلا يكون حرياً بنا أن نحتفل إذن هذا المساء باستقبال هذا العامل العالم ؟

ولد السيد وجيه السمان في دمشق سنة ١٩١٣ وتابع دراسته الثانوية فيها ، وكان واحداً من أظهر شبابنا ، لم يتميز باتجاهه العلمي فحسب ، وإنما امتاز كذلك بمشاركته في فروع المعرفة الأخرى الأدبية والاجتماعية .

وقد أتم دراسته العالية في فرنسا ، وكان أول سوري استطاع الالتحاق بالمدرسة المركزية Ecole Centrale وتخرج منها سنة ١٩٣٧ مختصاً بالميكانيكا

---

(١) الكلمة التي ألقاها الدكتور حسني سبح رئيس المجمع في الجلسة التي عقدت مساء الخميس في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٩ لاستقبال العضو العامل الجديد الأستاذ وجيه السمان .

والكهرباء ، وحينما عاد إلى وطنه لم تجد له سلطات الانتـداب عملاً يتكافأ واختصاصه ويلتقي مع مؤهلاته فكلف بالتعليم في المـــدارس الثانوية ، وقبل ذلك مضطراً ودرّس مادة الفيزياء في حلب ثم في دمشق تسعة أعوام ، ألف خلالها ثلاثة كتب في هذه المادة ظل أحدها معتمداً لطلاب الشهـادة الثانوية (البكالوريا) مـدة اثني عشر عاماً حتى كانت البرامج الجديدة سنة ١٩٥٨

ولما تأسست كلية الهندسة في حلب سنة ١٩٤٦ عين أستاذاً مساعـداً فيها ، ثم أصبح عميداً لها حتى سنة ١٩٥٩ ، ولا أزال أذكر زيارتي له مرة في حلب ، عندما كنت رئيساً للجامعة السورية وكلية الهندسة في حلب جزء منها ، الأثر الطيب الذي خلفه في نفسي كعـامل عالم وإداري منظم وإنسان يحرص على مثاليته أشد الحرص ، وتتبدى لك غيرته على القيام بعمله بأحسن قيام ، فقد أبلى بلاء طيباً في تأسيس الكلية مع الصعاب الشديدة التي لقيها سواء في إيجاد المدرسين أو في تكوين المخابر واستيفاء تجهيزاتهـا بالأدوات اللازمة .

ولم يقتصر عمله في تلك السنوات على الاضطلاع بأعباء التدريس والإدارة وانما أسهم في الأعمال الفنية لمشروعين كبيرين : مشروع مرفأ اللاذقية ومشروع جر مياه الفرات إلى حلب .

ودعي إلى الإشراف على شركة الجر والتنوير في دمشق والتي أممت سنة ١٩٥١ وآلت مؤسسة مستقلة فعيّن مديراً لها ، ونهض بأعبائها وأحالها من مؤسسة ابتدائية لحماً ودماً إلى مؤسسة عربية الوجه واليد واللسان .

وعين في أواخر عام ١٩٥٧ عضواً في مؤسسة الانمـاء ، ثم نائباً لرئيسها (وهي مؤسسة تعنى بتصميم مشاريع التنمية وتنفيذها) ثم أسندت

إليه وزارة الصناعة المحدثة عام ١٩٥٨ فقام بتأسيس هذه الوزارة أحسن قيام، واستمر وزيراً لها ثلاث سنوات حتى أواخر ١٩٦١

وأحيل بعد ذلك إلى التقاعد، وحرصت كلية الهندسة في جامعة دمشق على الاستفادة من عمله فعهدت اليه بالتدريس بصفة أستاذ محاضر وهو اليوم يتابع جهوده العلمية العربية في المؤسسات المختلفة التي يشرف عليها أو يشارك فيها: فهو عضو في المجلس الأعلى للعلوم منذ تأسيسه عام ١٩٥٩، ومقرر لجنة النشر العلمي فيه، وسبق له أن كلف بالإشراف على إدارتـه خلال السنوات ٦٢، ٦٣، ٦٤، ورأس جمعية الفيزيائيين السورية والاتحاد العلمي السوري ويدير مجلة العلوم التي تصدر في دمشق.

وإذا تجاوزنا إلى مؤلفاته التي أشرت اليها للمدارس الثانوية، فإننا نجد السلسلة من الكتب العلمية القيمة التي انطوت على لغة طيمة سليمة، وأداء عربي صحيح، ومصطلحات علمية جديدة في مثل:

كتاب الصواريخ والأقمار الصناعية وقد طبع عام ١٩٦٢.

وقصة الذرة وقد طبع ١٩٦٤.

وكتاب الطاقة الذي ترجمه عن الانكليزية.

وكتاب في مجلدين كبيرين في الكهرباء ترجمه بالاشتراك مع زملائه من جامعة دمشق عام ١٩٦٣.

هذا عدا عن عديد من البحوث والمقالات العلمية التي نشرت في مجلة المعرفة والعلوم، وأماليه التي تضم محاضراته في كلية الهندسة والتي لمّا تطبع بعد.

هذا هو تعريف موجز بالمهندس الأستاذ وجيه السمان الذي نستقبله في هذا الحفل ، وندرك أن انضمامه إلى حلقتنا يسد ثغرة اشتد شعورنا بها ، تتمثل في العناية باللغة العلمية بعلوم هذا العصر ، آملين أن يشتد به أزرنا ، ومقتنعين أنه سيخصص لهذا المجمع الذي يحتضنه بفخر بعضاً من وقته ليسهم معنا في تحقيق غاياته في اقتراح المصطلح العلمي .

إنني باسم مجمع اللغة العربية بدمشق أرحب بك أيها الأستاذ الكبير عضواً جديداً وزميلاً كريماً في مجمعنا تتويجاً لجهودك في التعريب واستكمالاً لهذه الجهود ومتابعة لها .

وفقنا الله إلى ما فيه خير العرب والعربية في ثقافتها ولغتها وعلومها .

الدكتور حسني سبح



كلمة المهندس الأستاذ وجيه السمان

عن سلفه المرحوم فارس الخوري(١)

سيدي الرئيس ، سادتي

سلام الله عليكم ورحمته ، وتحية عاطرة إلى مجمعكم الكريم معقل اللغة العربية وملاذها ، وقد شارف الخمسين من عمره الحافل بخدمة هذه اللغة ، لغة القرآن الكريم ، لغة المدنية العربية ذات التاريخ المجيد الطويل والحكمة الواسعة والمجد التليد ، ذات الأدب الرفيع في نثره وشعره ، لغة حضارة لمعت دهراً بأسطع بريق ، وسادت وسيطرت وانفردت بمكانتها السامية أمداً مديداً .

لقد وكل إليكم ياسادتي أمر الذود عن تراث هذه اللغة وتقاليدها وقواعدها وإحياء علومها وجمع ماتفرق منها في بطون المكتبات في مختلف أنحاء العالم ونشر كنوزها الدفينة واستيلادها بكل جديد تحتاجه على مر الأيام وتجدد العصور ، وإعادة نضارتها وبهائها كلما اغبر ثوبها أو ضاق عن استيعاب مولدات الحضارة الحديثة . فيا لها من مهمة كبرى ورسالة عظيمة تقومون بها على قلة في العَدد والعُدد .

إن أبناء الأمة ينظرون إليكم بنظر الإكبار والإجلال والتقدير . فخليق بمن أوليتموه مثلي شرف الضم إلى ناديكم والانتساب إلى مجمعكم أن يكبر لكم هذه اليد وأن يعمل جاهداً بقسطه من الواجب لتحقيق ماوُضع في هذا المجمع من أمان وآمال . فاسمحوا لي أن أثبت لكم هنا شكري الخالص الذي لا أجد برهاناً عليه سوى صدق العزيمة في خدمة هذا المجمع ، والعمل على تحقيق أهدافه السامية بما أستطيع من قوة وعزم .

(١) الكلمة التي ألقاها المهندس الأستاذ وجيه السمان مساء الخميس في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦٩ في حفلة استقباله في مجمع اللغة العربية بدمشق .

ويقضي واجب الإخلاص أن أرسل من موقفي هذا تحية الخلف المعترف بالفضل إلى أعضاء المجمع الراحلين الذين سبقوا باداء الرسالة ، وكان لهم شرف وضع أسس هذه المؤسسة والنهوض بها ، وأخص منهم الرئيس الراحل الأمير مصطفى الشهابي صاحب الأيدي البيضاء ، تغمده الله وإخوانه برحمته وأحسن لهم الجزاء على ما أسدوه من خير وحسن صنيع ، وجعل لنا في خلفهم الرئيس الحالي وإخوانه الأعضاء أفضل العوض .

مهمتي اليوم أيها السادة جد شاقة . يدعوني الواجب إلى الكلام عن العلامة المرحوم فارس الخوري ، العضو الراحل الذي تفضلتم بدعوتي لشغل المقعد الذي خلا بوفاته . وفارسنا من النوابغ الذين لا يجود الدهر بأمثالهم على أمة من الأمم إلا في الندر . وان من يتأمل في حياته الحافلة الطويلة العريضة وفي أعماله ومآثره العديدة الكبيرة ، يدهش من غناها وازدخارها .

كان رحمه الله متعدد الشخصيات ، كأنما تجمعت في شخصه عدة رجال نابهين عبقريين . متنوع النشاط رفيعه ، زاخر المرفقة جيدها ، كأنما يغرف من بحر ، موهوباً موفقاً . فهو الطالب النجيب العصامي الذي لايعول إلا على نفسه في كسب القوت وتدبير وسائله ، ثم هو الأستاذ المجيد والخطيب الفصيح البليغ والكاتب والشاعر المطبوع والسياسي الحاذق ورجل المجالس النيابية ورجل الدولة ، ثم هو فارس منتديات السياسة ، المدافع عن حقوق أمته وبلاده أمام جهابذة القانون الدولي ونوابغ الساسة . وهو أستاذ القانون القدير المعجب والمستشار الحقوقي الماهر والاقتصادي الناجح والمفاوض البارع ورجل الأزمات يلجأ إليه عند كل ملمة وخطب ، ثم السياسي العالمي تفتحت أمامه ميادين الامم المتحدة ومجلس الأمن واللجنة القانونية

فبرز وجلى ، وكان في كل ذلك موضع الإعجاب والإكبار والتقدير من كل من عرفوه أو سمعوه .

إن حياة كحياته مديدة في الزمن ، حافلة بالأعمال المجيدة ، ودعت في ثلثها الأول القرن الماضي وعاصرت بل عايشت في ثلثيها الأخيرين هذا القرن ، وشهدت كثيراً من الأحداث الجسام ، فلم تقف منها موقف المتفرج ، بل كان لها دورها الجلل في خدمة بلادها وخدمة العروبة ، وكان لها القدح المعلّى في مَيدان السياسة العالمية . . . إن هذه الحياة الطافحة بجسيم الأعمال لأعظم من أن توفى حقها في مثل هذا الموقف وفي أمد محدود حدود هذه الأمسيَّة . لقد ألفت في سيرة فارسنا الكتب وحبرت المقالات ، وأعتقد أنه لايزال ثمة مايكتب عنه .

كان رحمه الله موهوباً في اللغات ، يتعلم اللغات الأجنبية بلا معلم فيتقنها ويصبح فيها خطيباً . تعلم اللغة التركية في شبابه ليتسلح بها في نضاله السياسي أيام الحكم العثماني . فانتسب إلى جمعية الاتحاد والترقي ، ثم رشح نفسه للنيابة في مجلس المبعوثان ولما فاز بالنيابة وأقام في القسطنطينية انكب على تحسين لغته التركية حتى صار يخطب بها بذلاقة لسان وفصاحة بيان وثبت جنان . وكانت له مواقف جرأة مشرفة مع زعماء الأتراك دافع فيها عن القضايا العربية خير دفاع ، ولا سيا عن جماعة الأحرار الذين سجنوا أيام الحرب العالمية الأولى بتهمة الثورة على الحكم التركي والعمل على التخلص منه ثم سيقوا إلى المشانق .

وفي إبان تعلمه التركية أخذ يهتم بالفرنسية لتكون له لغة المجتمعات الراقية ، ثم استفاد من إتقانه لها في عهد الانتداب الفرنسي فصار يخاطب الحكام الفرنسيين ويناقشهم ويخطبهم بالفرنسية في المناسبات السياسية ، في سورية أو في فرنسا مدافعاً عن حقوق بلاده .

وتعلم الإنكليزية في صباه وفي شبابه في مدارس الإرساليات وفي الجامعة الأميريكية ، وظل طول حياته يزيد ما تعلمه منها عمقاً وإتقاناً . فمكنه هذا الإتقان ، مع ما فيه من صفات الخطيب الكبير ، من البروز في محافل السياسة العالمية . وأعانته طلاقة لسانه بالإنكليزية ، مع حضور بديهته وتوقد ذهنه وعلمه الغزير وحفظه الكثير ، فارتقى إلى مراتب كبار الساسة والخطباء العالميين . فكان له في قاعات الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن والمؤتمرات السياسية مواقف بيان مشهورة أكسبته تقدير أكبر الساسة في العالم ولفتت إليه الأنظار فأدّى أجل الخدمات لسورية ولبنان ومصر وفلسطين . وقد كان بيانه القوي قميناً بأن يجعله يفوز في ترجيح جانب الحق في جميع القضايا التي دافع عنها ، لو أن حسن البيان وقوة الحجة واللباقة ، كانت تكفي وحدها لإحقاق الحق دون أن تدعمها قوة السلاح الغاشمة . ولكن قوى الشر كانت أحياناً أكبر من أن يغلبها جلاء الحق وسحر البيان .

إزاء إتقانه لهذه اللغات الثلاث ، كان نصيب اللغة العربية ، لغة آبائه وأجداده ، لغة قومه وإخوانه ، من العناية والتهذيب والمطالعة والمراجعة والحفظ النصيب الأسمى وحظها الحظ الأوفر . فأتقنها أيما إتقان ، وظل طول حياته يتعهدها بالمراجعة والحفظ . فبدأ بالقرآن الكريم ودرسه بتفاسيره حتى صار حجة في التفسير ، ودرس الحديث النبوي الشريف في أمهات كتب الحديث ، وحفظ منها الشيء الكثير ، فكان يستشهد به في أحاديثه ودروسه وخطبه ، ودرس التاريخ العربي والأدب العربي والشعر العربي ونوادر العرب ودواوينهم ومآثرهم ، حتى قال عنه الأستاذ محمد علي الطاهر أنه « الأصمعي وابن الأثير وابن خلدون في آن واحد ... وأنه سحبان زمانه ولقمان دهره . فاذا دار البحث حول اللغة العربية فهو إمامها والذائد عن حرمها وحياضها . وإذا كان الكلام على الشعر فهو الشاعر والحافظ والراوية ... »

راض فارسنا الشعر كما راض الخطابة والكتابة والتأليف ، وكما راض في حياته كثيراً من الأمور بمقدرته الفائقة على معالجة الأشياء بإتقان وروية وعلم وحسن بصيرة . فسلست له قيادته وانقاد له طوعاً . وأسعفته في النظم قريحة فياضة غزيرة الدر ، فجاء بقصائد مطولة من أحسن ما يمكن أن يصدر عن شاعر موهوب تجيش نفسه بالشعر ولا يتعاطى شيئاً سوى قرضه . ولو أنه أراد لأصبح من كبار الشعراء فما كانت تعوزه صفة ولا وسيلة ليكون كذلك ولكن عبقريته المتحفزة الطامحة لا تقنع بلون واحد من ألوان النشاط والفعالية مهما علت مكانته فيها ، ولا تكتفي بقطف ثمرة أو ثمرتين من نتاج حقلها الخصب المزدحم بمختلف أنواع الثمار . فلم يشأ أن يكون الشعر وسيلته الوحيدة في التعبير عما يعتلج في صدره ويزدحم في خاطره ، بل تركه للإفصاح عن مشاعره وأحاسيسه الوجدانية أمام المناسبات الكبيرة والحوادث الجسام كما يليق بالشعر أن يكون وبقدره ليكرم . فنظم في مناسبات الأحداث القومية والدولية والاحتفالات السياسية والأدبية قصائد مطولات ... في حرب الروس واليابان وإعدام شهداء أيار ١٩١٦ وللسلام على الجموع التي خرجت لاستقباله وإخوانه عند عودتهم من المنفى عام ١٩٢٨ . وألقى قصائد بديعة في مناسبات التكريم والتأبين ، وأذكر له في قصيدته التي قالها في مهرجان تكريم شاعر النيل المرحوم حافظ ابراهيم عام ١٩٢٩ ، وأقيم في هذه الدار العامرة وصفه لنفسه :

وإني إذا قارعت خصماً قرعته ... وخصمي من أسد البيان هصورها
فلي من جناني جرأة لا تخونني ... ولي من بياني حجة لا أعيرها
أطاعن حسادي بسن يراعة ... يئز صليل المرهفات صريرها

ومن محاسنه الشعرية مرثيته لشهداء أيار . قال فيها :

كان التجلد في البلوى يؤاتيني فما له حين أدعو لا يلبيني
ضاق الفؤاد بآلام تبرحني وفاجعات بنار الوجد تكويني
وطارد الهمُّ عن عيني الرقاد وهل تنام مقلة موتور ومغبون

. . . .

أبكي على أمة لج الشقاء بها تجري إلى طالع بالبؤس مقرون
ولى الزمان عليها كل معتسف من طينة البغي والطغيان معجون
من معشر جعلوا جلّى مفاخرهم منهاج جنكيز أو أغناط نيرون
لاحت لهم فرصة في الحرب سانحة فنكلوا واستباحوا كل قانون
دسوا لنا كل مفتر يعيث بنا نهباً ويرجع في أموال قارون

ومما أضاف إليها في حفلة ذكرى الشهداء عام ١٩٢٥ ، وذكر حاله في السجن إبّان محاكمة الشهداء وإعدامهم :

بكيتهم وجدار السجن يحدق بي وعين حافظه بالشزر ترميني
وصاحب الحكم يمليه لكاتبه وناصب الحبل في الميدان يدعوني
الحظ قدمهم عني وأخرني حتى أرى دول التاميز والسين
تسدى الوعود بتحقيق العهود لنا عن كل حق بالاستقلال مضمون

حفظ فارسنا كثيراً من شعر العرب ، ولا سيما شعر المتنبي . وكان لا يرضيه من الشعر إلا ما هو عالي الطبقة رفيعها . والشعر ابن المرانة والمثابرة . وقد حالت الحياة بينه وبين أن يثابر على ما أحب منه .

كان ميدان الخطابة من أهم الميادين التي برز فيها فارسنا وجلى . بل يكاد يكون أهمها جميعاً . لم تقتصر عبقريته على الخطابة باللغة العربية وحدها ،

بل أجاد في كل لغة خطب بها من تركية أو فرنسية أو انكليزية ... وقد أدرك ذروة الإجادة في خطبه باللغة الانكليزية حينما انفسحت أمامه منصات الخطابة في قاعات الأمم المتحدة ومجلس الأمن . إن النجاح الذي لقيته كلماته البليغة التي ألقاها هنالك في المناسبات الكبرى كالدفاع عن مطالب سورية ولبنان في جلاء الجيشين الانكليزي والفرنسي عنها ، والدفاع عن مطالب مصر في جلاء الانكليز عن وادي النيل ، ثم دفاعه الطويل عن عروبة فلسطين ، كان منقطع النظير وأثار في حينه عطف العالم أجمع ما خلا الأعداء ، وكان له أطيب الأثر في نفوس السامعين من ممثلي مختلف الدول . وأعجب المصريون أيما إعجاب ببيانه الساحر وحججه الدامغة التي أوردها في دفاعه عن قضيتهم ، فقدموا له شكرهم بمختلف الوسائل من تصريحات رسمية وكتب شكر وإهداء أوسمة تقديرية . وامتلأت الصحف العربية بذكر فارسنا وفارسهم وامتداح عبقريته البيانية ، فقال عنه الكاتب العربي الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد :

« إنه من أصحاب عبقرية البيان في أرفع طراز عرف به خطيب من خطباء هذا الزمان . فاقتياد أعنة الكلام ، ولو في لسان غير لسانه العربي ، سليقة فيه منذ صباه إلى أيام كهولته وشيخوخته . »

لعبقرية البيان هذه عند فارسنا عناصر عديدة يجدر بنا أن نقف عندها قليلاً : لم يكن يعد خطباً مكتوبة ليتلوها تلاوة كما يفعل الكثير ، بل كان يهيء موضوعه ويتمثله ويكتب له خلاصة بسيطة يضعها بين يديه . وكان عند الإلقاء يوسع هذه الخلاصة بما حفظ وهيأ من الموضوع ، ويطورها ويكسوها الكساء المناسب الذي يتفق مع ظرف الساعة وجو السامعين والروح المرفرف على القاعة . وربما بدل ما كان ينوي أن يقول واستبدل به قولاً آخر . لذلك فإن عبقريته البيانية تستمد كثيراً من روحها من نفوس

سامعيها في عالم البيان . فهو يستنبط ما يريد أن يقول حين تتلاقى الحياة بالحياة ولا يولد بيانه للاتصال به في عالم الفكر المجرد أو من وراء حجاب .

أعانه على قوته الخطابية ذاكرة قوية وبديهة حاضرة وهـــدوء وحلم يمكنانه من رباطة الجأش عند حاجتـــه إلى التفكير ، فلا يطيش سهمه ولا ينال العيي منه عند الأزمات . ولا ريب في أن خبرته الطويلة في تدريس الحقوق وفي إدارة جلسات المجلس النيابي قد ساعدت على تقوية هذه الصفات في نفسه .

وإذا ذكرنا محاضراته في معهد الحقوق ، ذكرنا ذلك العدد الكبير من الحقوقيين الذين كانوا تلامذته فنبغ منهم كبار القضاة ورجال السياسة والإدارة والأعمال . وكلهم مجمع على أنه الأستاذ القوي المثالي في إتقان الموضوع الذي يدرسه وفي جودة إلقائه له وحسن أدائه . وقد رافق معهد الحقوق منذ نشأته حتى أقصته السلطة المنتدبة عنه عام ١٩٣٦ عقاباً له على نزعته الوطنية .

شغلت السياسة حياة فارسنا من شبابه إلى كهولته وشيخوخته ، فدام نشاطه السياسي قرابة أربعين عاماً : انتخب للنيابة خمس مرات خلال المدة التي عرفت فيها سورية الحياة النيابية ، ولولا التضييق عليه وإغلاق السلطة المنتدبة الباب في وجه نيابته لظل فيها ما دامت هنالك نيابة . وشغل كرسي رئاسة المجلس النيابي أربع مرات . وصار وزيراً ثلاث مرات ورأس الوزارة ثلاث مرات وكان نضاله عنيفاً مع السلطات التركية أولاً ثم مع السلطات الفرنسية ثانياً . وقاسى في نضاله هذا أشد أنواع العسف والاضطهاد وهددت حياته بالخطر . نفاه الأتراك من سورية إبان الحرب ثم نفاه الفرنسيون مع إخوانه في الجهاد إلى سجن أرواد وبعثوا به إلى الجيرزة ثم إلى لبنان وفرضوا عليه الاقامة الاجبارية فلم يثن ذلك من عزمه ولا من جهاده .

كان عضواً مبرزاً في أهم الوفود السياسية التي بعثت بها سورية إلى فرنسا عام ١٩٣٦ للمفاوضة على معاهدة الاستقلال ، وإلى المؤتمر البرلماني بالقاهرة عام ١٩٣٨ وإلى مفاوضات تأسيس الجامعة العربية . ثم رأس الوفود السورية التي ذهبت إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٥٢ .

كان له الدور الفعال المثمر في النضال المرير الذي خاضته بلادنا في عهد الانتداب الفرنسي ، كما وفي نضال الدول العربية الأخرى . وكان لأخلاقه الشخصية من هدوء واتزان ورصانة وفطنة ولمواهبه من ذكاء وبديهة وتوقد ذهن ، ومن علمه وأدبه وحفظه الكثير وذاكرته العجيبة أثرها البالغ في نجاحه في مجال السياسة . كان ينتخب للنيابة بالتزكية ويكلف رئاسة الوزارة عندما تشتد الأزمات ، فلا يجد السياسيون سواه كهفاً وملاذاً ، فلا يكاد يتسلم الزمام حتى تنفرج بشخصه الأزمة وتزول المشكلات .

لمعت شخصيته لمعانها الباهر لما ظهر في المحافل الدولية فبز كثيراً من أقرانه الذين جاءوا من مختلف الأمم ، وكان إذ ذاك بين السبعين والسابعة والسبعين من عمره ، أي في السن التي يضئول فيها عادة نشاط الإنسان وتتهالك قواه العقلية وتضعف ذاكرته ويفقد حيويته [1] . أما هو ، فانه ما كادت تفتح له أبواب الأمم المتحدة ولجانها حتى وجد نفسه في الجو الذي خلق له حقاً ، ليقوم بالمهمة التي هدفت حياته كلها إليها . فما كان منه إلا أن شمر عن ساعد الجد وأعمل الدرس والمطالعة والتفكير وسهر الليالي في إعداد كلماته وخطبه ودفاعه وهجومه . فأبلى أحسن بلاء وظهر للملأ تفوقه وعبقريته واعتز العرب به أيما اعتزاز .

---

(١) وكيف يضعف فارسنا في السبعين وهو القائل عن نفسه :

يشد إلى السبعين وهو مزيزها

كانت أول خطبة ألقاها في المحافل الدولية تلك التي خطبها في الثاني من أيار ١٩٤٥ في مؤتمر سان فرنسيسكو بحضور ممثلي ٥١ دولة. تكلم في آخرها عن خطورة المهمة الموكلة إلى المؤتمر ثم أبدى تفاؤله في إمكان تحقيق الفكرة السامية التي تهدف إليها المنظمة العالمية بالاعتماد على العقل الذي يخلق النظام ويمدّ الطمع، وبمعالجة القضايا والمشاكل بروح العقل، ولولا ذلك لبقيت شوكة في جانب الجسم الدولي.

ثم اقترح أن تقوم محكمة العدل الدولية بمهمة حل المشكلات الناجمة والتي ستنجم، وأن تعمل بالتعاون مع المنظمة العالمية وهيئاتها. وأعلن في نهاية خطبته نبأ تشكيل جامعة الدول العربية التي اتفقت ولادتها مع ولادة هذه المنظمة العالمية، والتي ستساعد في إقرار العدل والسلم. وختم خطبته ببعض حكم عربية حول الحق والعدل، واستشهد بقول أبي بكر رضي الله عنه فرجى أن تعتبر المنظمة القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه الحق والضعيف قوياً حتى يرد حقه إليه.

كان لخطابه هذا أحسن الأثر في نفوس السامعين من مختلف الدول، وبرهن على ذلك ما انهال عليه من المديح والثناء من قبل رؤساء الوفود. وذاع صيته في المحافل السياسية. ودعته جامعة جنوب كاليفورنيا بعد انتهاء المؤتمر فمنحته دكتوراه الشرف في الشؤون الخارجية في ٢٩ حزيران ١٩٤٥ وذلك « بالاستناد إلى توصية لجنة مشتركة من أمناء الجامعة وأساتذتها اعترافاً بأعماله الممتازة في حقل العلاقات الدولية ».

وتراه يقوم في مجلس الأمن في يومي الخامس عشر والسادس عشر من شباط ١٩٤٦ مرات عديدة ليدافع دفاعاً مطولاً عن حرية بلاده ويطالب بانسحاب الجيشين الانكليزي والفرنسي من سورية ولبنان. يستمد دفاعه

من عدالة القضية ومن علمه الغزير بالحقوق ومن ذكائه ولباقته وبديهته ، ولا يحجم عن إيراد الشواهد والأمثلة التي تصور وضع بلاده في أذهان الحاضرين بصور بسيطة بليغة . حتى فاز هو وزميله اللبناني باكساب القضية عطف مندوبي الدول ، واستجابت فرنسا وانكلترة إلى الرغبة العامة في الجلاء .

في أواخر عام ١٩٤٦ انتخبت سورية عضواً في مجلس الأمن . فكلفت الحكومة فارسنا بأن يمثلها في هذا المجلس . وكان إذ ذاك في الرابعة والسبعين من عمره ، فظل يقوم بأعباء هذه المهمة الخطيرة طوال عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ورأس مجلس الأمن مرتين أولاهما في آب ١٩٤٧ وثانيتها في حزيران ١٩٤٨ . كانت تلك الفترة من الزمن من الفترات الحاسمة في تاريخ الشرق العربي ، إذ عرضت على المجلس ، في جملة قضايا الأمن الدولي ومشكلات الدول ومنازعاتها ، قضية جلاء الانكليز عن مصر وقضية تقسيم فلسطين . هذا بالإضافة إلى انعقاد جلسات منظمة الأمم المتحدة ولجانها . وكان فارسنا يتكلم فيها جميعاً . فدافع عن قضية مصر وجلاء الجيوش الأجنبية عنها في صيف عام ١٩٤٧ حتى في أثناء رئاسته لمجلس الأمن . ولم يقتصر دفاعه على البلاد العربية وحدها بل تناول جميع القضايا التي لها علاقة بالسلم . وشمل دفاعه جميع الشعوب التي كانت على حق في مطالبها .

استمر النقاش في مجلس الأمن حول قضية مصر أياماً طوالاً تضافرت فيها جهود فارسنا مع جهود مندوب مصر . وألقى في ٢٦ آب ١٩٤٧ خطاباً باسم الوفد السوري ، لابصفته رئيساً لمجلس الأمن ، ناقش فيه حجج الخصم الانكليزي وفند مزاعمه تفنيداً قانونياً . وانتهت رئاسته للمجلس بانتهاء آب ولكن الجدل في قضية مصر ظل قائماً يشغل جلسات عديدة

استمرت حتى العاشر من أيلول فتكلم فارسنا مرة ثانية في هذا اليوم مفنداً ماجاء به المندوب الانكليزي من حجج جديدة . ولكن النقاش في المسألة المصرية أجل بدون أن يبت فيه .

أعقب دفاع فارس الخوري آثاراً بليغة في مصر وسورية . وأوردت الصحف ووكالات الأنباء عنه كثيراً من التفاصيل ، وكلها ثناء وشكر واعتراف بالجميل . مثال ذلك ماقالته جريدة الزمان المصرية :

« لن ينسى المصريون أبداً ذلك الصوت الرصين العميق الذي امتزج ذكره إلى الأبد بتاريخ جهادنا في سبيل السيادة والاستقلال . كان صوت كادوجان المندوب البريطاني الجاف يرتفع في مجلس الأمن الدولي وتتبعه أصوات أخرى توجه ضرباتها مباشرة أو مداورة إلى حقوق مصر المقدسة ، ويشعر المصريون وهم يسمعون تلك الأصوات النكراء بانقباض في الصدر يستدوم لحظات طويلة أو قصيرة . ثم يختلج الأمل في الصدر ويحل محل الانقباض عندما يدوي في ذلك المكان الصوت الذي نقشت نبراته على صفحات الأذهان : وهو صوت فارس الخوري مندوب سورية ورئيس مجلس الأمن الدولي في ليك سكسيس في هذه الدورة التاريخية . فكان يلقي في ذلك الجو الرهيب بضع كلمات نيرة واضحة تعبر عن آراء واضحة نيرة مثلها ، فيهدم حجة الخصم من الأساس . ولكن القضاة في ذلك المجلس كانت تنقصهم النزاهة . ولذلك لم يكتب الفوز للمحامي فارس الخوري في مرافعته المتينة الرائعة . »

وتعاقبت الأحداث سراعاً فظهرت على بساط البحث قضية فلسطين ، تلك المأساة التي يندى لها جبين التاريخ ، ليمثل منها فصل محزن جديد هو من أشد فصولها أسى ألا وهو التقسيم . شهد فارس الخوري المؤتمر التي عقد في لندن في مطلع عام ١٩٤٧ لدراسة هذه القضية ولقي هنالك ردالوفود

على بيان وزير الخارجية الانكليزي وحذر من التقسيم وعواقبه ، ثم عاد إلى نيويورك ليمضي قدماً في تمثيل بلاده في الأمم المتحدة وفي مجلس الأمن فعرضت قضية فلسطين على الجمعية العامة لهيئة الأمم وطال بحثها في اللجنة السياسية وما تفرع عنها ، ثم في الجمعية العامة من أيار إلى تشرين الثاني من عام ١٩٤٧ ، حتى انتهى بقرار التقسيم المشؤوم ، بالرغم من جميع الجهود التي بذلها مندوبو الدول العربية ومن بينهم فارسنا خاصة . إذ ألقى عدة خطب من أبلغ خطبه مملوءة بالحجج والبراهين الساطعة التي كانت تكفي لإحقاق الحق لو كانت الدول الكبرى تريد إحقاق الحق . وبعد نجاح التصويت على قرار التقسيم ، أبان فارسنا أن ثلثي سكان العالم أبوا الموافقة عليه إما برفضه صراحة أو بالاستنكاف عنه ، وأن الذين وافقوا عليه لا يمثلون إلا الثلث فقط من سكان العالم ، وينتمي معظمهم إلى دول نائية ليس لها صلة بفلسطين أو بالشرق الأدنى ولا بشؤون القارة الأسيوية .

لم يثن الفشل من عزيمته ولم يدخل اليأس على قلبه ، بل ظل يناضل ويكافح فجهد في منع تنفيذ قرار التقسيم أو في عرقلته . ولكن إرادات تفوقه قوة أضعاف أضعاف ، أبت أن تستمع للحجج والأدلة بل كانت تريد أن تخلق دولة اسرائيل مهما كلف الأمر .

سادتي : لفقيدنا الخالد مزايا جمة نمت كلها وازدهرت ولم يغمط بعضها حق بعض . فكأنما هو من نفسه في نفوس ومن عقله في عقول ومن فهمه في أفهام . تتسع ذاكرته للأمور المتباينة وللثقافات المتضاربة ولا يعسر على إدراكه شيء . ومن المدهش أن تكون شخصيته وثقافته عصاميتين . فهو لم ينل في الجامعة الأمريكية سوى شهادة البكالوريوس في الثقافة العامة . ولكنه درس الحقوق بلا أستاذ ولا مدرسة ، فنبغ فيها حتى غدا في

معهد الحقوق أستاذاً ممتازاً له مؤلفات قيمة وطلاب كثيرون معجبون به أيما إعجاب . درس العلوم المالية وأصول المحاكمات وصار نقيب المحامين وأصبح مرجعاً من مراجع القانون والتشريع . ولم تقتصر معرفته بالقوانين على نطاق بلاده بل تعدتها إلى الصعيد الدولي . فبرهن في الميادين الدولية على معرفته الواسعة المتينة إذ ابتلتها الأيام وامتحنتها الظروف القاسية التي مرت بها البلاد العربية ، فكانت قوية صامدة راسخة الأسس . تمكن من أن يقارع هنالك ألد الخصوم وأقواهم وهم من زهرة رجال الدول الكبيرة في السياسة والقانون . إن انتخابه عام ١٩٤٧ لرئاسة اللجنة القانونية ، وهي إحدى اللجان الست في الأمم المتحدة ، دليل ساطع على التقدير الذي كان له في نفوس كبار رجالات الأمم ، ونظير ذلك انتخابه عضواً في لجنة القانون الدولي ، وقد غدا في محيط الأمم المتحدة شخصية خيالية ولقب ببطل العالم الثالث .

لخص الأستاذ محمد علي الطاهر شخصيته ، وكان جيد المعرفة به فقال :

« مناقش مداور مناور مجادل من طراز عال رفيع ، لا يقاطعك إن حدثته ولا يصادمك ولا يصول عليك في جوابه ، لأنه لقوته وتواضعه وسمو أدبه وثقته بنفسه يعتمد في مجادلتك على الحجة والنص والشاهد بدون أن يحاول إفهامك أنه أقوى منك أو أعلم أو أحكم أو أوسع إحاطة . ذلك أنه قد دفع ثمن ما وصل إليه من مقام جليل غالياً ونفيساً : دفعه سهراً ودرساً ومتاعب مدة سبعين عاماً من الأعوام التي عاشها وطواها بعزيمة ... وكم نام لداته وأنداده وهو ساهر لاينام . »

هذا هو فارس الخوري ، الذي فقد به المجمع عضواً ممتازاً ، وخسرت سورية والبلاد العربية ، بل خسرت بموته الإنسانية جمعاء شخصية فذة قلما يخلفها الدهر .

سادتي : أستئذنكم الآن في الانتقال إلى موضوع آخر ذي صلة هامة بأهداف المجمع ، تهتم به جميع البلاد العربية وهو من موضوعات الساعة ألا وهو موضوع المصطلحات العلمية ، وجعل اللغة العربية من جديد لغة علمية قادرة على التعبير عن جميع فروع العلم وتطبيقاته بمثل السهولة واليسر اللذين تعبر بهما اللغة الانكليزية أو الفرنسية مثلاً .

تتطور المدنية في أيامنا هذه تطوراً سريعاً ، ويزداد هذا التطور سرعة في كل يوم . ذلك لأن العلم والصناعة اللذين هما عماد هذه المدنية يتقدمان بخطى حثيثة يسوقان فيها ركب الحضارة في سير مغذ ، هو في كل يوم أعجل منه بالأمس . تتسع العلوم ويبعد غورها بفضل البحث والاستكشاف اللذين تنفق عليهما ألوف الملايين ، وتضخم ويكثر شمولها وتتعدد فروعها ، فينقسم الواحد منها إلى عدد من العلوم الجديدة يصبح كل منها علماً قائماً بذاته له أتباعه ومريدوه ، فيأخذ بدوره بالاتساع والتعمق ثم بالانقسام من جديد وتظهر له فروع تطبيقية . وعندما يعمد الإنسان إلى الاستفادة من هذه العلوم في حاجاته اليومية تولد ألوان جديدة من التكنولوجيا والهندسة . وليس لهذا التكاثر من حد .

نسوق على هذا أمثلة ثلاثة : لقد ولدت حاجات الحرب العالمية الثانية ، في جملة ما ولدت : **الطاقة الذرية والصواريخ والالكترونيات** . وأخذت هذه المواليد تنمو وتضخم ويعظم شمولها . إذا نحن حققنا قليلاً في أصل هذه المواليد رأينا أن اكتشاف تفكك الذرة ، الذي هو سبب انتشار الطاقة الذرية قد وقع قبل ختام القرن الماضي بأربعة أعوام فقط ، وظلت بحوث الذرة في دور الاستكشاف حبيسة المختبرات حتى اندلعت نار الحرب الأخيرة فأريد لهذا المارد أن يخرج من قمقمه الذي هو نواة الذرة . جندوا لذلك جيوشاً من العلماء والمهندسين ورجال الصناعة وبذلوا لهم الأموال بسخاء ، فما كاد عام ١٩٤٥ ينتصف حتى كان كل شيء قد تم . فالنظائر المشعة صارت تستعمل في الطب ، واستخدمت الطاقة الذرية للأغراض الحربية والسلمية .

وما كادت الحرب تضع أوزارهـا حتى عمت التطبيقات وتنوعت واتسعت. فانتشرت اليوم المحطات الكهربائية الذرية في سائر أنحاء العالم واستخدمت الطاقة الذرية في تحريك السفن والتواصات وفي تحويل ماء البحر الملح إلى ماء عذب ، واستخدمت النظائر المشعة في الطب للكشف والمعالجة وفي الزراعة لتعين على دراسة التربة والنبات وتحسين نموه وعلى إبادة الحشرات الضارة وفي الجيولوجيا والآثار لأغراض شتى ، وفي الصناعة لكثير من التطبيقات كما استخدمت القنابل الذرية والحرارية النووية للحرب والسلم ، فتستعمل الآن لحفر الكهوف والأنفاق والترع . ويطلع علينا كل يوم شيء جديد في هذا الباب .

أما الصواريخ ، فهي وإن عرفت قدماً في الصين وعند العرب وفي الغرب ، فإن إنتاجها الضخم بشكلها الحديث قد حصل في السنوات الأخيرة للحرب العالمية الثانية على يد الألمان . وسرعان ما تسلمت الدول الكبيرة المنتصرة تركة ألمانيا النازية فوضعت اليد على العلماء والمهندسين وعلى ما استطاعت أن تظفر به من مصانع وصواريخ وقطع في الأرض المفتوحة . وفي خريف ١٩٥٧ قذف الروس بأول قمر صنعي إلى الفضاء ليدور حول الأرض. وما زالت الأموال الضخمة تنفق في هذا الباب بالمليارات العديدة كل عام ، وأصبح عدد العاملين في مملكة الفضاء يقدر بمئات الألوف . حتى دار الإنسان حول القمر وأرسل رسله الآلية لتجوس أرجاء الزُّهَرَة والمريخ وأصبح دوران مركبات الفضاء حول الأرض وسباحة الإنسان في الفضاء من الأمور العادية التي نسمع بها كل يوم فلا نجد فيها غرابة . واستعملت الأقمار الصنعية لدراسة الأرض والفضاء والكواكب ولدراسة الأحوال الجوية والأنواء وتسهيل سبل المواصلات اللاسلكية والملاحة البحرية والهوائية ونقل برامج التلفزة ، كما صارت تستعمل للمراقبة والتجسس .

وأما الألكترونيات فوُلدت مع الحرب العالمية الأولى وانتشرت تطبيقاتها فيما بين الحربين في مصابيح الراديو والخلية الكهربائية الضوئية وبدء تجارب التلفزة . ثم جاءت الحرب الثانية فدفعتها إلى الأمام دفعاً قوياً أظهر أجهزة الرادار والتوجيه اللاسلكي . وظهرت لها بعد الحرب تطبيقات واسعة عديدة منها الانتشار المدهش للتلفزة والترانزستور واستعمال الأمواج الهرتزية المتناهية القصر في الاتصالات اللاسلكية . وأهم تطبيق للالكترونيات هو بحق في **الآلات الحاسبة الالكترونية .**

ظهرت هذه الآلات في نشأتها الأولى قبيل الحرب الثانية وتحسنت في أثنائها ، ثم أخذت بعد الحرب تتطور وتتحسن حتى غدت اليوم على درجة عالية من الكمال لا يفوقها إلا ما يرتقب لها في الغد من تحسين وتطوير جديدين كانت تستعمل في الأصل في المختبرات العلمية الكبيرة لتقوم بالعمليات الحسابية المعقدة الطويلة التي يحتاج إنجازها إلى جهود عدد كبير من العلماء والحاسبين وإلى زمن طويل جداً يقضونه في حسابات مضنية . صارت الحاسبات الألكترونية تنجز هذه الأعمال في دقائق . ثم أخذ نطاق استعمالها يتسع وأدخل عليها التعديل والتحسين لكي تتمكن من القيام بأعباء مهمات متنوعة وظهرت منها زمر وأصناف كل زمرة لها وظيفة وتخصص ، واستمر التحسين والتطوير إلى اليوم . وكلما تقدم علم الالكترونيات استفيد من مكتشفاته الجديدة في استيلاد جيل جديد من الآلات الحاسبة .

تستعمل هذه الآلات الآن في شتى الميادين ، وذلك حسب أنواعها . لقد أصبحت ، بالاضافة إلى قدرتها الفائقة على الحساب آلات مفكرةً ذات ذاكرة واسعة جداً يرجع إليها عند كل عقبة . تلقى عليها الأسئلة العويصة فتجيب عنها بمنتهى الضبط والإحاطة .

تستعمل في تسيير المعامل الكبيرة التي طبق فيها نظام العمل الآلي ، وتستعمل في إدارة المؤسسات وتوجيهها في الطريق الصحيح من حيث العمل وحسن التصرف بالأموال ، وفي تنظيم سير القطارات على شبكات السكك الحديدية الكبرى ، وفي تنظيم السير في المدن المزدحمة . وتقوم في دور البيع الكبيرة بتدوين الحسابات وفرزها وإعداد الفواتير وبيانات الأرباح والخسائر ، وتستعمل في أعمال التصميم الهندسي للمشروعات الكبيرة والصعبة وتعتمد عليها مراكز إطلاق الصواريخ وتسيير مراكب الفضاء ومحطات توليد الطاقة . وتعتمد عليها الدوائر العسكرية في إعداد خطط الدفاع والهجوم وتحريك أسراب الطائرات وإعداد عمليات السوق . ويتسع نطاق تطبيقها في كل يوم . وقد بلغ من اتساع ذاكرتها الصنعية أنها غدت قادرة على استيعاب وحفظ علم كامل كالفيزياء أو الكيمياء ، فلا يلقى عليها سؤال في أحدهما إلا أجابت عنه بدقة ، بقدر ماتتسع له المعلومات التي أودعت ذاكرتها . وأصبحت تقوم مقام مكتبة كاملة بكتبها ومجلاتها وجزازاتها . وبهذه المناسبة أذكر أنه قد ولد بفضلها علم جديد يسمى Informatique وهو في الواقع فن معالجة المعلومات والمعرفة بواسطة العقول الالكترونية . كما ولد علم آخر يسمى Cybernétique ويعالج وسائط الاتصال والإفصاح والسيطرة والتحكم لدى الانسان وفي الآلات ، كما يبحث في أوجه الشبه بين العقل البشري والعقل الالكتروني .

من أمثلة الاستعمالات القريبة للدماغ الالكتروني ، ما يراه الأطباء من الفائدة في إقامة مركز الكتروني تودع لديه الاستمارات الصحية والطبية لجميع المواطنين في القطر ، ويكون لكل مواطن رقم خاص به ، فاذا قصد هذا المواطن طبيباً لمرض ألم به ، يتصل معاون الطبيب فوراً بهذا المركز بواسطة جهاز اتصال خاص كالهاتف ، فيحصل في مدة دقيقة على

صورة كاملة للاستمارة الصحية لهذا المريض ، فيقدمها المريض إلى الطبيب عندما يستقبله .

تجري تجارب كثيرة للاستعانة بالعقول الالكترونية في التعليم . ونذكر أن بعض أنواع هذه الآلات قد صنع لترجمة النصوص من لغة إلى أخرى ، ويشترط أن يكون النص الذي يترجم قد كتب بأسلوب لا تعقيد فيه ، واختيرت كلماته ومصطلحاته بدون أن يكون لها تعداد في المعاني .

يقدر الآن أن العقول الألكترونية ستحل في المستقبل القريب محل العديد من الجماعات المفكرة . وتتبارى الشركات التي تصنعها ، وهي من كبار الشركات في العالم ، في تحسينها . واستنباط أصناف جديدة منها تكون فتحاً جديداً في عالم التطبيق . مثال ذلك أن شركة I. B. M. قد وظفت مؤخراً مبلغ خمسة مليارات دولار لإنتاج صنف جديد من الآلات الحاسبة تعد صنعه الآن ليكون النموذج التقدمي لهذه الآلات في المستقبل القريب .

اقتصرت أيها السادة على التنويه بهذه الأصناف الثلاثة من المكتشفات الحديثة لأعطي فكرة تقريبية عن مدى التقدم العلمي والصناعي . وإن وسائل الإعلام تنبينا كل يوم عن مكتشفات ومخترعات جديدة .

سادتي : إن لغتنا العربية التي حوت أوسع كنوز الأدب واتسعت للفلسفة والعلوم فقامت بأدائها خير قيام أصبحت بحق لغة المدنية والحضارة خلال قرون طويلة . ثم اعتراها ركود ، واتفق لسوء الحظ أن وقع هذا الركود في إبان النهضة الأوربية وما تبعها من رقي إلى الآن . فبعثت الآداب والفنون ونشأت العلوم الحديثة وارتقت الصناعة وازدهرت المدنية . ونشأت اللغات الأوربية الحية فسايرت هذا الرقي واستطاعت أن تضع الكلمات والمصطلحات لجميع ما أبدعه الرقي من محدثات جديدة . فبلغ عدد المصطلحات العلمية عشرات الألوف . وهنالك معجمات مستقلة لكل علم أو فن بمفرده .

لا تستقيم لأمة حضارة ولا قوة إلا إذا كانت لغتها على المستوى الرفيع الذي يمكنها من البحث والتدريس والتعبير والتأليف في جميع مقومات هذه الحضارة .

ونحن نشعر جميعاً باستحكام أزمة المصطلحات العلمية وتزايد خطورتها كل يوم . وأن أخطر ما فيها هو هذه الفوضى النازلة بها . فلكل قطر عربي مصطلحاته الخاصة ، وتتبع في القطر الواحد مصطلحات تختلف من مؤسسة إلى مؤسسة ومن جامعة إلى جامعة ، بل من كلية إلى كلية وأستاذ إلى استاذ . وقد بذلت جهود حميدة تقصد إدخال شيء من النظام على هذه الفوضى القائمة . فقامت المجامع اللغوية بقسط من هذا العمل وظهرت بعض المعجمات في مصطلحات الطب والعلوم الحيوية والطبيعية ، وألفت الجامعة العربية مكتب التعريب في الرباط ليقوم بجمع المصطلحات من مختلف الأقطار العربية ودفعها إلى مؤتمرات تعقد بين الفينة والفينة لتنظر فيها وتقرها ، ولا نزال نرتقب انعقاد هذه المؤتمرات لنستفيد من ثمراتها .

إن الواجب المفروض علينا في هذا النطاق جد كبير ، ولا مندوحة لنا عن النهوض ولو بقسم من أعبائه . فلنشمر عن ساعد الجد مستعينين بالله وهو ولي العون والتوفيق .

والسلام عليكم ورحمة الله .

وجيه السمان



الغلطات المطبعية

الواردة في مقالة «فوات الوفيات في طبعته الجديدة»

في القسم الأول من نقد الجزء الثاني

«مجلة المجمع: المجلد ٤٣ ج ٤ ص ٧٤٩ رجب سنة ١٣٨٨»

الصفحة	السطر	الوارد	الصواب
٧٥٠	٦	الطبقة الأولى	الطبعة الأولى
٧٥٢	١	بجّاية	بجاية
٧٥٣	٢	حواشية	حواشيه
٧٦٤	٧	هو أنها	هو أنه



تصحيح بعض الأخطاء

الواردة في الجزء الأول والثاني من المجلد الرابع والأربعين

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١١٤	٧	قسيم	قيم
١١٤	٨	الفانية	الثانية
١١٤	١٣	أي الفكر	الى الفكر
١١٦	٤	ضبطت	خبطت
١١٩	١٩	النائبة	الثانية
١٢٠	١٠	المتعلم	المتكلم
١٢٠	١١	فالمتعلم	فالمتكلم
١٢٠	١٥	التفهم	التفهيم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٢٠	١٦	وصرفت	وصدقت
١٢١	٢٣	فلما يدل	فكما يدل
١٢٤	٢٣	المتدل	القول
١٢٧	٨	وبهذا	ولهذا
١٢٨	٥	في الأصل مبنية	لأن المادة في الأصل مبنية
١٢٨	١٢	بالجمال	للجمال
١٣١	١٨	ليقاس	يقاس
١٣٣	٣	للفظ	اللفظ
١٣٣	٨	الغرض	العرض
١٣٣	٩	الجمع بينها	الجمع بينهما
١٣٤	١	جاؤا	جاؤوا
١٣٤	٩	أدّى توجيه	أدّى إلى توجيه
١٣٥	١٣	التقديس	النقد ليس

الدكتور جميل صليبا



غلط وصوابه

ورد في الصفحة ٢٤٥ من الجزء الأول والثاني من المجلد الرابع والأربعين

وجدتُ في ما ذكر الأستاذ الكبير السيّد عدنان الخطيب من ترجمة المرحوم عيسى اسكندر المعلوف، وذلك في العدد الأخير من مجلة المجمع قطعة من قصيدة لي في رثاء المعلوف. وقد جاء في القطعة من غلط الطّبع.

ظفرَ العلم بمعلوفيّةٍ من يراعٍ (كالرياض) وضّاءْ

وصوابه: من يراعٍ كالرّياحين.

وجاء في القطعة أيضاً :

يا (أبي) التاريخ بلّغت ذرىً لم تتحْ علياؤها للنظراءْ

وصوابه : يا أبا التاريخ .

وجاء أيضاً :

أم تولّته (يد) طاغية سخّر العلم لشرٍّ وشقاء

وصوابه : أم تولّته يداً طاغيةٍ .

ثمّ انّني وجدت الألف الممدودة ، في كلِّ مواضعها من القطعة ، لم يجعل عليها مرتّب الحروف المدّة . في حين أنّ المدّة تُرسم على الألف الممدودة لأنّها تُمدّ باللّفظ أيضاً . بمعنى أن ألف « السمآء » تكون أطول من ألف « السّماع » ، مثلاً . وقد اختلفوا في تقديرها بين ألفين إلى ستِّ ألفات (انظر [البيان] للإمام اليازجي ، و [الإتقان] للإمام السّيوطي) .

ذلك ، وإن قيل في الرّدّ على ما هنا ، إن علامة المدّ من فوق الألف في مثل كلمة السّماء ، تحذف في الرّسم ، لأنّ المدّ على الألف تعويض عن همزة مفتوحة قد حُذفت ، وأصل كتابتها هكذا « أا » مثل مآرب ، فلا يجوز وضعها على مثل « الرّجاء » و « السّماء » ، لأنّها لا تلفظان « الرّجأا » و « السّمأا » .

ولقد أخذ الإمام اليازجي في هذه الكتابة بالرّأي الأوّل ، وجرى عليه في « الجنان » و « الطبيب » و « البيان » و « الضيآء » ، وفي كلّ كتاب وضعه ، أو وقف على طبعه . وأنا من الّذين يحبّون أن يأخذوا إخذه في كلّ نكتة لغويّة .

(بيروت) أمين نخلة



الجزء الرابع　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　المجلد الرابع والأربعون

مجلة

مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

تشرين الأول « اكتوبر » سنة ١٩٦٩ م　　　　　　　　رجب سنة ١٣٨٩ هـ

تطور اللغة في العصر العباسي [١]

أرى قبل الشروع في الكلام على تطوّر اللغة في عصر بني العبّاس أن نتّفق على معنى التطور وهذه اللفظة من الألفاظ التي أحدثها عصرنا ، ومعناها على ما أعتقد تتابع الصيغ أو الأشكال التي انتقلت الألفاظ بموجبها من وجهٍ إلى وجه ، فإذا كان هذا هو معنى تطور اللغة فاللغة قد انتقلت على ترادف السنين من شكل إلى شكل ، ولا يزال هذا الانتقال يستمرّ في عصرنا ، وإذا كنّا نعجب من الوقوف على مظاهر تطورها فقد يكون عجبنا أشدّ من دلالة هذه المظاهر على نموّ اللغة ، على استمدادها للحياة

---

(١) ألقى الأستاذ شفيق جبري عضو مجمع اللغة العربية بدمشق خمس محاضرات في جامعة الكويت في شهر آذار الماضي ، وهذا هو القسم الأول من المحاضرة الأولى : تطوّر اللغة في العصر العباسي .

مهما يباغتها من الأمور ، لقد جاءت ببراهين قاطعة على أنها أهل للحياة ، فلم تمنعها الموانع من تتبع مجرى هذه الحياة في كل عصرٍ من عصورها ، في الجاهلية والإسلام ، في زمن بني أميَّة وبني العبّاس ، حتى في عصرنا هذا الذي نعيش فيه ، وهذا موطن من مواطن افتخارنا بلغة العرب .

وإني لأرجو أن لا تكون دراستنا لتطوّر اللغة في زمن بني العبّاس أو في أيّ زمنٍ مجرَّد دراسة لانتقال الألفاظ من وجهٍ إلى وجــه ، أو لإحياء ألفاظ وموت ألفاظ ، أو لغير ذلك من الأساليب التي تدلّ على تطور اللغة ، فما الذي يمنعنا من أن نرى ورآء هذا التطور تطوّر أمةٍ بأجمعها ، إني لا أستطيع أن أقرأ مثلاً فصول الموسيقى في كتاب مفاتيح العلوم الذي سأشير إليه ، ولا أن أطلع على ما احتوته هذه الفصول من آلات الموسيقى عند العرب كالصَّنْج والطنبور والرَّباب والمِعْزفة والعود وغير ذلك من الآلات ، ولا أستطيع أن أقف على ما عرّفه العرب من ألفاظ النغمات والألحان والإيقاعات والنقرات ، إني لا أستطيع أن أقف على هذا كله وعلى أمثاله من الأمور الداخلة في الموسيقى إلاّ تصورت الأمة التي مالت إلى هذا الفن وتصوَّرت بعدها قصور الخلفاء الذين شغفوا بهذا الفن شغفاً لا تحضرني عبارة لوصفه أو لوصف ما أدّى إليه هذا الشغف من الإفراط في إكرام المغنين والقيان مما جاء ذكره في كتاب الأغاني ، إني لا أستطيع أن أقف على هذا كلّه إلاّ تصوّرت حضارة العصر الذي استفاضت فيه الموسيقى وغيرها من الفنون والعلوم ، فلست أدرس تطوّر اللغة للاطلاع على تغيّرات صيغها وأشكالها وأكتفي بهذا الاطلاع ، وإنما أدرس هذا التطوّر لأن ورآءه حضارة أفصحت عنها اللغة وتطوّرها .

فلنشرع بعد هذه المقدمة في موضوعنا .

في رأي «دوزي» صاحب المعجم المشهور أن لغة العرب ، وهو يعني بذلك لغة الشعر القديم والقرآن والسنّة لم يطل عهدها أكثر من قرنين على التقريب ، ثم ماذا حدث بعد ذلك ، لقد طرأ على اللغة من آخر القرن الأول الهجري تغير عظيم ، إلى أي شيء أدّى هذا التغيير ، لقد أدّى إلى غناها ونموّها ، وهذه نتيجة لا مندوحة عنها ، إنها نتيجة الانتصارات السريعة الخارقة التي انتصرها العرب بعد الرسول ﷺ ، لقد خالط العرب بعد تلك الانتصارات شعوباً شتّى غلبوا عليها ، فتفوهت تلك الشعوب بلسان الفاتحين وإن كانت تلحَن في كلامها ، لقد كان لتلك المخالطة أثر في العرب أنفسهم فاختلّ النحو على ألسنتهم واستعملوا ألفاظاً قلبوا وجوه معانيها واقتبسوا كثيراً من التعابير من لغات الأمم المغلوبة ، أهل الشام والفرس والقبط والبربر والإسبان والترك .

على أن مخالطة الأعاجم لم تكن السبب الأوحد ولا كانت السبب الأعظم في فساد اللغة ، فقد وجد الفاتحون أنفسَهم في حالةٍ حديثةٍ لا عهد لهم بمثلها ، فسواء أكانوا أهل بدوٍ أم كانوا أهل حضر يقيمون بمدن صغيرة ويعيشون عيشة بسيطة ، إنهم نُقلوا فجأة من عالم إلى عالم ، نقلوا إلى عالمٍ كل شيء فيه كان جديداً بالنسبة إليهم ، نقلوا إلى مدن كبيرة يشيع فيها البَذَخ والترف وتستفيض فيها حضارات قديمة ، حضارات الرومان والفرس ، وممّا زاد في شرفهم أنهم نشطوا لدراسة الفنون والعلوم التي لم يكن لهم عهد بها ، فحدث بعد هذا أن انقلبت أفكارهم وأخلاقهم كلّ منقلب ، فأصاب اللغة ما أصابهم ، فقد انتقلت من بيئة البداوة إلى بيئة الحضارة المصقولة ، فافتقرت من جهة وغنيت من جهة ثانيةٍ ، كيف افتقرت ، لقد سقط كثير من فيض الألفاظ التي كانت تضايق لغة الأدب ، سقط ما يقرب من ثلث اللغة ، سقطت الألفاظ التي كانت تعبّر عن حالات بدوية ، ولم يكن كثير

منها يستعمل استعمالاً عاماً في أي عصرٍ من العصور ، ولئن سقطت تلك الألفاظ لقد اعتاضت عنها اللغة ألفاظاً جديدة تعبّر عن أشياء وعن أفكار كانت مجهولة ، فقلب العرب بفضل عبقرية لغتهم معاني ألفاظٍ من وجه إلى وجه .

لقد حدث هذا الانقلاب في كل الأقاليم التي غلب عليها العرب ، ولكن الانقلاب كان على درجات متفاوتة ، وممّا أعان على التعجيل في خلق اللغات المختلفة ترامي أطراف الدولة ، فكل ناحية من هذه الأطراف كان لها لغة خاصة .

ولم يسع المحافظين من رجال اللغة أن يشهدوا مثل هذا الأمر دون الاعتراض ، لم يسع المحافظين على صفاء اللغة من رجال النحو والشرع والفقه أن ينْهضوا على مثل هذا الأمر ، فكأنهم لم يحيطوا بطبيعة الأشياء ، ولا أدركوا أن كل شيء في هذا العالم عرضة للتغيير ، ولا سيَّما اللغات التي تتغيَّر بتغيّر الأفكار ، إنها مرتبطة بالجماعات التي تنطق بها وبالكتّاب الذين يستخدمونها ، وفي رأي « دوزي » ان أولئك الرجال ، رجال اللغة كانوا يريدون أن يجعلوا لغتهم جامدة لا تتحرك ، فهم أعداء كل توليد ، على أن « دوزي » قد اعترف بأن مجهودات علماء اللغة لم تكن باطلة ، فبفضلهم وبفضل دراسة القرآن لم تتشعب العربية ، فلم تتولد عنها لغات ثانية كما تولّد عن اللغة اللاتينية ، إلاّ أنهم مع هذا كله لم يستطيعوا أن يسدّوا طبيعة مجرى الأمور ، فقد كان من الكتّاب من يستعمل اللغة العامّة ، وقد ضرب « دوزي » مثلاً لذلك الرحّالة المقدسي الذي عاش في القرن العاشر الميلادي ، فقد اضطر من أجل المحافظة على ما يسمّونه : اللون المحلّي إلى أن يستخدم في وصف كل إقليم من الأقاليم التي زارها -لغة ذلك الإقليم .

فالذي يهمنا من كل ما جاء في هذه القدمة الصادقة في أكثر محتوياتها إنما هو قول صاحبها : كل شيء في هذا العالم عرضة للتغيير ، ولا سيَّما اللغات التي تتغير بتغير الأفكار .

فلننظر في هذه التغيرات ، مظاهر تطوّر لغتنا مختلفة ، فإمّا أن تتغير معاني ألفاظها القديمة ، فتنقل هذه المعاني من أفق إلى أفق وإمّا أن تحدث ألفاظ جديدة بأسلوب من الأساليب ، بالتعريب والتوليد مثلاً ، وإمّا أن تموت ألفاظ لم تبق حاجة إليها .

نبدأ بالمظهر الأول ، بالتغير الخطير ، وأعني به مجيء الإسلام وما أفضى إليه هذا المجيء من تطور اللغة ، فلنستعن بإمام من أئمة اللغة ، فلنسمع ما قاله ابن فارس في فقه اللغة :

« كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله تعالى بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات وأُبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ عن مواضع إلى مواضع أُخر بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت ، فعفّى الآخر الأوّل ، فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن والمسلم والكافر والمنافق ، وإن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان والإيمان وهو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط وأوصافاً بها سمّي المؤمن بالإطلاق مؤمناً ، وكذلك الإسلام والمسلم إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء الشرع من أوصافه ما جاء ، وكذلك كانت لا تعرف من الكفر إلاَّ الغطاء والستر ، فأمّا المنافق فاسم جاء به الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروا ، وكان الأصل من نافقاء اليَرْبوع ، ولم يعرفوا في الفسق إلاَّ قولهم : فسقت الرُطَبة إذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرع بأنّ الفسق الإفحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى ،

ومما جاء في الشرع الصلاة وأصله في لغتهم الدعاء ، وكذلك الصيام وأصله عندهم الإمساك ، ثم زادت الشريعة النيَّة وحظرت الأكل والمباشرة وغيرهما من شرائع الصوم ، وكذلك الحج لم يكن فيه عندهم غير القصد ، ثم زادت الشريعة ما زادت من شرائط الحج وشعائره ، وكذلك الزكاة لم تكن العرب تعرفها إلاَّ من ناحية النَّماء ، وزاد الشرع فيها ما زاد ، وعلى هذا سائر أبواب الفقه ، فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول فيه اسمان : لغوي وشرعي ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ثم ما جاء به الإسلام وكذلك سائر العلوم كالنحو والعروض والشعر ، كل ذلك له اسمان : لغوي وصناعي . »

ما الذي نستنتجه من كلام ابن فارس ، إننا نستنتج من هذا الكلام أن الإسلام لمَّا جاء جاء بأفكار جديدة لا عهد للعرب بها ، ولا بدَّ لهذه الأفكار من ألفاظ تعرب عنها ، فإذا لم تكن الألفاظ بقيت الأفكار مطويَّة في ذهن صاحبها ، إلاَّ أن هذه الأفكار لم تكن مطوية في الذهن ، فقد وجدت لها ألفاظاً تفصح عنها وتثبتها في الأذهان ، كيف وجدت هذه الألفاظ ، إنها لم تخترع اختراعاً ، فلم تعرَّب ولم تولَّد ، وإنما نقلت معاني ألفاظ قديمة من وجه قديم إلى وجه حديث ، فعبَّرت عن الدين الجديد هذه الألفاظ المنقولة ، عبَّرت عن كل ما يشتمل عليه هذا الدين من صلاةٍ وصوم وزكاة وحجّ وغير ذلك من الأفكار الإسلامية .

ولم تتغير معاني الألفاظ الإسلامية وحدها وإنما تغيَّرت أيضاً معاني أسماء الأيام ، فالسبت في الجاهلية : شيار ، والأحد : أول ، والاثنين : أهون وأوهد ، والثلاثاء : جُبار ، والأربعاء : دُبار ، والخميس : مؤنس ، والجمعة : عَروبة .

وكما تغيَّرت معاني أسماء الأيَّام فقد تغيَّرت معاني أسماء الشهور ، فالمحرَّم في الجاهلية : المؤتمر ، وصفر : ناجر ، وربيع الأول : خَوَّان ، وربيع

الآخر : وَبْصان ، وجُمادى الأولى : الحَنين ، وجُمادى الآخرة : رُبَّى ، ورجب : الأصم ، وشعبان : العاذل ، ورمضان : ناتق ، وشوّال : وعْل ، وذو القعدة : وَرْنَة ، وذو الحِجة : بُرَك .

وهذا باب طويل لم ندخل منه إلاّ للدلالة على تطوّر اللغة ، فالمهمّ أن نعرف أن اللغة لا تثبت على حال من الأحوال ، فاذا عرضت أفكار جديدة تستلزم أسماءً جديدة وجب على اللغة أن تضع لما يستحدث من المسمّيات أسماء مستحدثة ، على نحو ما هو معروف في الألفاظ الإسلامية ، وإذا عجزت اللغة عن إحداث أسماء لمسمَّيات بقيت المسمَّيات في أذهان أصحابها ميّتة لا يجدون سبيلاً إلى التعبير عنها ، وتعرف مرونة اللغة بهذا التصرف الذي يتصرفه علماؤها في الاهتداء إلى التعبير عن الأفكار الحديثة .

وإذا كنّا نشير إلى تطور اللغة بنقل معاني ألفاظ عن مواضع إلى مواضع ، فلا بأس بأن نذكر في هذا المقام أن من الألفاظ ما وضع في الأصل خاصاً ثم استعمل عاماً ، أي من الألفاظ ما ينقل من معناه الخاص إلى معنى عام من ذلك مثلاً : الوِرْد إتيان الماء ثم صار إتيان كل شيء وِرْداً ، والقَرَب : طلب الماء ثم صار يقال قَرَب لكل طلب والنُّجْعة أصلها : طلب الغيث ثم صار كل طلب انتجاعاً ، والأمثلة كثيرة .

وعلى خلاف الأمر فقد يوضع اللفظ عاماً ويستعمل خاصاً ، فالبغض عام والفِرْك فيما بين الزوجين خاص والتشهي عام والوَحَم للحُبْلى خاص .

غير أن هذا الباب يدخل في أبواب اللغـــة وقد مررنا به مروراً ، فلنستمر في موضوعنا .

ولم يكن تطور اللغة في الألفاظ الإسلامية وحدها ، وإنما كان هذا شأنها في العلوم التي حدثت بعد الإسلام كالنحو والعروض والشعر ، فاذا رجعنا إلى النحو مثلاً وجدنا فيه ألفاظاً نقلت معانيها من مواضع إلى مواضع ، لنرجع مرة ثانية إلى ابن فارس ، قال : وزعم قوم أن العرب العاربة لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً ، والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب ، قيل له : أتهمز إسرائيل ، فقال : إني إذن لرجل سَوْء : وإنما قال ذلك لأنه لم يعرف من الهمز إلا الضغط والعصر ، وقيل لآخر : أتجرّ فلسطين ، فقال : إني إذن لقوي !

على أي شيء يدلنا كلام ابن فارس ، انه يدلنا على أن بعض الألفاظ كانت لها معانٍ محددة فلما استحدث العرب علم النحو اضطروا إلى استحداث ألفاظ لكل باب من أبوابه كالهمز والجر والرفع والنصب وغيرها ، فنقلوا معاني ألفاظٍ من مواضع إلى مواضع ، واصطلحوا على المعاني المنقولة ، والخلاصة ان كثيراً من الألفاظ نقلت من أصلها اللغوي إلى أصل جديد طبقاً لتطور ، مثل الألفاظ الإسلامية أو ألفاظ النحو والعروض كالمديد والطويل وغيرها .

وقد نجد مثل هذا التصرف في فنون الحضارة وعلومها التي حدثت بعد الإسلام ، وما أظن أننا نستطيع أن ندرك ما عملته اللغة بعد ظهور الإسلام ولا سيما في عصر بني العباس إلا إذا أطلعنا على الألفاظ التي وضعها العلماء لعلومهم ، فإذا تعدينا صدر الإسلام ووصلنا إلى عصر بني العباس وقفنا على ألفاظ في الفنون والعلوم لايحصيها الإحصاء ، وإذا دلتنا هذه

الألفاظ على شيء فإنها تدلّنـا قبل كل شيء على مرونة اللغـة كما قلت فضلاً عن استمدادها للإفصاح عمّا يفاجئها من الأفكار والمذاهب ، إلاّ أن الكلام المجرّد لا يوضح الفكرة التي نعنيها، فلا بدّ من الاستشهاد حتى نرى بأعيننا قوة لغتنا ، وإني أعتقد أنّ كتاب : مفاتيح العلوم للخوارزمي يوضّح لنا أكمل توضيح ما نريد ، وأرى أن الإشارة إلى فقرة مما ورد في مقدمة الكتاب تملنا بمحتويات هذا الكتاب الجامع لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات ، المتضمن ما بين كل طبقة من العلماء من المواضعات والاصطلاحات التي خلت منها أو من جلّها الكتب الحاصرة لعلم اللغة .

فهذه الإشارة تبيّن لنا الأفق الجديد الذي اشتمل عليه كتاب مفاتيح العلوم ، وأريد بهذا الأفق الألفاظ التي اصطلح عليها العلماء في علومهم .

وقد أحب المؤلف أن يستشهد في مقدمته بثلاثة ألفاظ من باب ضرب المثل فقال :

ومثال هذه المواضعات لفظة الرّجْعة فانها عند أصحاب اللغة المرّة الواحدة من الرجوع لا يكادون يعرفون غيرها ، وهي عند الفقهاء الرجوع في الطلاق الذي ليس ببائن ، وعند المتكلمين ما يزعمه بعض الشيعة من رجوع الإمام بعد موته أو غيبته ، إلى غير معاني هذه اللفظة عند الكتاب والمنجّمين .

ولفظة الفك فإنها عند أصحاب اللغة والفقهاء مصدر فك الأسير أو الرهن أو الرّقبة ، وأحد الفكين وهما اللّحْيان ، وعند أصحاب العروض إخراج جنس من الشعر من جنس آخر تجمعها دائرة ، وعند الكتّاب تصحيح اسم المرتزق في الجريدة بعد أن كان وضع عنها .

ولفظة الوتد عند اللغويين والمفسّرين أحد أوتاد البيت أو الجبل من قوله تعالى : « والجبالَ أوتادا » ، وعند أصحاب العَروض ثلاثة أحرف اثنان متحركان وثالث ساكن ، وعند المنجّمين أحد الأوتاد الأربعة التي هي الطالع والغارب ووسط السماء ووتد الأرض .

إلاّ أن هذا الاستشهاد المختصر لايشفي الغليل ، فهو لا شيء إذا قيس بالألفاظ المستحدثه التي تضمّنها كتاب مفاتيح العلوم ، على أنه لا سبيل إلى الإتيان على ذكر كل هذه الألفاظ ، وحسبنا أن نعرف أن المؤلف جعل كتابه مقالتين : إحداهما لعلوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية ، والثانية لعلوم العجم من اليونانيين وغيرهم من الأمم .

وإذا رجعنا إلى فهرست أبواب الكتاب وفصوله وجدناه طويلاً ، ولذلك فإننا نكتفي بذكر بعض العلوم التي أشار إليها المؤلف وذكر ألفاظها المستحدثة التي لكل واحدٍ منها معنيان : معنى لغوي في الأصل ، ومعنى اصطلح عليه علماء كل علم .

لقد أشار الخوارزمي في كتابه إلى أبواب كثيرة ، إلى الفقه ، وعلم الأصول ، وعلم الكلام ، كما أشار إلى النحو والعروض والفلسفة والمنطق والايضاح والخطابة والشعر والطب والتشريح والحساب والهندسة والجبر والمقابلة والفلك والموسيقى وجرّ الأثقال والكيمياء ، وإلى أبواب كثيرة غير التي ذكرتها .

فكيف تكون حالة العلوم في زمن بني العبّاس لولا اجتهاد العلماء في التصرف في اللغة ومفرداتها ، كيف تكون حالة هذه العلوم لو عجزت اللغة عن

وضع ألفاظ لها تدرك بها أسرارها ، كيف تستفيض هذه العلوم في عصر ظهورها وكيف نصل إلينا بعد ظهورها لولا هذه الألفاظ المستحدثة التي وضّحتها وفصّلتها ، ولماذا لا أقول صوّرتها للعقول تصويراً .

إني لا أرى سبيلاً إلى ذكر ألفاظ كل علم على حدة ، فهذا أمر لا يستوعبه إلاّ معجم ، لقد ألفنا ألفاظ النحو والعَروض والشرع والفقه فلا حاجة بنا إلى تكرارها ، ولكن ما عسانا أن نقول في ألفاظ الجبر والهندسة مثلاً ، فالهندسة كلمة فارسية وأصلها : اندازه ، أي المقادير ، قال الخليل : المهندس الذي يقدّر مجاري القنيّ ومواضعها حيث تحتفر ، وهو مشتق من الهندزة وهي فارسية ، فصُيّرت الزاي سيناً في الإعراب ، لأنه ليس بعد الدال زاي في كلام العرب ، فلما دخلت الهندسة في علوم العرب وأصلها باليونانية : جومطريا ، لم تألف أذواق العرب هذه اللفظة فوضعوا لها اسماً وسمّوها : هندسة ، فلم يقفوا عند عقبة تعترضهم ، ثم دخلوا في تفاصيل هذا العلم فوضعوا ألفاظ الخطوط والبسائط والمجسّمات ، وقسموا كل خط أقساماً فقالوا : مستقيم ومقوّس ومنحنٍ وقالوا : خطوط متوازية وخطوط متلاقية ثم قالوا : زوايا مسطّحة ومجسّمة ، ثم قالوا : زاوية قائمة ومنفرجة وحادّة ، ثم قالوا : المحيط والقوس والأضلاع ثم قالوا : القاعدة والقطر والعمود والقوس والسهم .

وهذا باب لا نهاية له إذا تبسّطنا فيه ، ولكنّا لم نجد لنا مندوحة عن ذكر بعض الألفاظ المستحدثة حتى نعرف تطور اللغة في زمن بني العبّاس ، وإذا قابلنا بين هذا العصر الذي ظهرت فيه العلوم ووضعت لهذه العلوم الألفاظ التي تحتاجَ إليها وبين عصر الجاهلية أو عصر صدر الإسلام استطعنا

أن ندرك تطور اللغة الإدراك كلّه ، واستطعنا أن نحيط بعظمة هذه اللغة ، فاللغة الغنيّة ، اللغة العظيمة هي التي لا تعجز عن استيعاب ما يدخلها من العلوم والمذاهب والأفكار ، هي التي تستطيع أن تضع لهذه العلوم ولهذه المذاهب ولهذه الأفكار ما يلزمها من الألفاظ وهذا ما فعلته اللغة في زمن بني العباس ، وهذا الدليل الواضح على تطوّرها .

واذا كنّا نُعنى بتطور اللغة على أيّام بني العبّاس فاننا لا نستغني عن الرجوع إلى كتاب الأغاني الذي وردت فيه ألفاظ كثيرة تدلّ على المراكب والملابس والمآكل وغير ذلك مما أحدثته حضارة العصر ، فقد استفادوا من ألفاظ موضوعة وتصرفوا فيها بعض التصرف فأطلقوها على مسمّيات مما اقتضته الحاجة ، وإني لا أتوسّع في الاستشهاد ، وإنما أقتصر على أمثلة بسيطة ، من هذا القبيل مثلاً لفظة الرطلية ، ولا شك في أن معناها الإناء الذي يسع رطلاً من النبيذ ونحوه ، وهكذا نجد أنهم اشتقوا من لفظة الرطل لفظة الرطلية التى تسع هذا الرطل وهي أدق من الإناء أو الوعاء ، فالإناء عام والرطلية خاصة ، والتخصيص من شروط الدقة في مفردات اللغة .

ومن هذا الشكل لفظة العرسيات ، وهم يريدون بذلك الطعام الذي يصنع في الأعراس ، فكلما استفحلت عندهم مذاهب الحضارة واتسعت الحياة الاجتماعية استطاعوا أن يخلقوا لهذه الحياة ما يناسبها من الألفاظ الدالة عليها .

وقد استشهد المرحوم الأستاذ أحمد أمين بلفظة : ندّر الرجل وتندّر إذا جاء بالنادرة وندّر بفلان وتنادر عليه إذا جعله موضع نادرته . وهذه المادّة من مستحدثات اللغة في العصر العبّاسي ، وردت في كتاب الأغاني .

وقد ذهبوا مذاهب أبعـد فاشتقوا من الأسماء صيغاً تدلّ على التشبه بأصحاب هذه الأسماء ، سواء أكانت أعلاماً أم كانت أسماء مدنٍ أو حيوان ، من قبائل العرب قبيلة اسمها اللهازم وردت في شعر الفرزدق ، فقالوا : تلهزم فلان إذا دخل في هذه القبيلة أو تشبّه بأهلها وكذلك اشتقوا من اسم معبد المغني فعلاً فقالوا : هذا صوت تمعبد فيه ابن سريج ، أي تشبه بمعبد في الغناء ، ووضعوا لفظة البرمكة المشتقة من بَرْمك جدّ يحيي بن خالد البرمكي .

أمّا البلدان فقالوا : تبغدد فلان إذا انتسب إلى بغداد أو تشبه بأهلها . وأمّا الحيوان فقد نجد في الأغاني فعل : تقنفذ ، إذا تشبه بالقنفذ في مشيته .

(للبحث تتمة) شفيق جبري



الاصطلاحات الفلسفية

-٣٣-

العرف

في الفرنسية Coutume

في الانكليزية Custom

العرف العادة ، وهو قسمان : العرف العام ، والعرف الخاص .

أما العرف العام فهو مجموع العوائد والتقاليد العامة المنتشرة في المجتمع ، وأما العرف الخاص فهو مجموع ما يتعوده الفرد من أنماط السلوك .

والفرق بين العرف والعادة عند القدماء أن استعمال العادة في الأفعال ، والعرف في الأقوال . الا أن المحدثين يفرقون بينهما بطريق آخر فيقولون : العرف خارجي والعادة داخلية وخارجية معاً . لذلك قال بعضهم : العرف لا يثبت الا بالتكرار ، على حين أن العادة قد تثبت بمرة .

العرفان

في الفرنسية Gnose

في الانكليزية Gnosis

في اللاتينية Gnosis

العرفان هو العلم بأسرار الحقائق الدينية ، وهو أرقى من العلم الذي يحصل لعامة المؤمنين ، أو لأهل الظاهر من رجال الدين .

والعارف (Gnostique) هو الذي لا يقنع بظاهر الحقيقة الدينية بل يغوص على معناها لمعرفة سرها . كالعارفين من اليهود والأفلوطينيين والمسيحيين وغيرهم وهم خمس فرق : (١) الفلسطينيون (٢) والسريانيون (٣) والمصريون (٤) والاسيويون (٥) وأنصار الأفلاطونيه الحديثة الذين أخذوا بنظرية التوفيق بين العقائد المختلفة .

ويطلق اسم العرفانية او الغنوصية (Gnosticisme) على المذهب الذي انتشر في القرنين الثاني والثالث للميلاد وامتد بطريق الافلاطونية الحديثة إلى فلاسفة الإسلام ، وخلاصته أن العقل البشري قادر على معرفة الحقائق الإلهية وان الحقيقة واحدة وإن اختلف تعليمها ، وإن الموجودات فاضت عن الواحد ولها مراتب مختلفة أعلاها مرتبة العقول المفارقة ، وأدناها مرتبة المادة ، وهي مقر الشر و العدم . أما النفس التي هبطت إلى هـذا العالم فانه لا خلاص لها إلا بالمعرفة ، بل الخلاص بالمعرفة أفضل من الخلاص بالإيمان والأعمال الصالحة . ومع أن بعض العرفانيين يقولون بالاثنينية ويمزجون تعليمهم بشيء من الوهم والخيال ، فان العرفانية المسيحية تقول إن الخلاص لا يتم إلا بطريق الحكمة . وللناس في نظرها ثلاث مراتب : أولاها مرتبة العارفين وخلاصهم بالحكمة ، وثانيتها مرتبة المؤمنين وخلاصهم بالإيمان ، وثالثتها مرتبة الجهال وهم هالكون لا محالة . وكل مذهب يزعم أنه يمكن تفسير حقائق الوجود تفسيراً عقلانياً ، فهو مذهب عرفاني وضده المذهب اللاعرفاني (Agnosticisme) وهو القول بأن العقل البشري عاجز عن إدراك الحقائق الإلهية .

ويطلق اصطلاح علم العرفان (Gnoséologie) على نظرية المعرفة (Théorie de la connaissance) ويرادفه لفظ الابستمولوجيا (Epistémologie) ومعناه فلسفة العلوم . والفرق بين اللفظين أن الأول يبحث في منشأ المعرفة

وطبيعتها وقيمتها وحدودها بحثاً نظرياً محضاً ، على حين أن الثاني يبحث في موضوعات العلوم وطرقها وقوانينها ومبادئها بحثاً انتقادياً وتحليلياً مبنياً على الواقع والتجربة .

العشق

(راجع لفظ الحب)

العشق إفراط المحبة ، وله في اصطلاح الحكماء معنيان .

الأول هو العشق الغريزي أو الجذب الطبيعي المحرك لجميع الموجودات ، فان في كل واحد منها عشقاً غريزياً لكماله كعشق الأجسام الكيماوية بعضها لبعض ، أو عشق الحيوان للغذاء ، أو عشق الفتيان للوجوه الحسان . قال ابن سينا : « من أدرك خيراً فانه بطباعه يعشقه ، وكل واحد من الموجودات يعشق الخير المطلق عشقاً غريزياً » (رساله العشق) .

والثاني هو العشق الإلهي أو المحبة الخالصة التي يدعو اليها الصوفية ويصفونها بقولهم : ان الجوهر الإلهي في الإنسان إذا صفا من كدورة المادة اشتاق إلى شبيهه ، ورأى بعين عقله الخير الأول المحض فأسرع إليه ، وحينئذ يفيض عليه نور ذلك الخير فيتحد به ويشعر بلذة لاتشبهها لذة ، وهذه المرتبة أعلى مراتب الوصول وهي لاتقبل الزيادة والنقصان ، فيها ينكر العارف معروفه والعاشق معشوقه ، فلا يبقى هنالك عارف ولا معروف ولا عاشق ولا معشوق ، بل عشق واحد مطلق هو الذات الحق الذي لايدخل تحت رسم ولا اسم ولا نعت ولا وصف .

وعشق الذات هو الإفراط في حب الذات ويسمى في اصطلاحنا بالنرجسية (Narcissisme) . راجع هذا اللفظ .

العصاب

في الفرنسية Névrose
في الانكليزية Neurosis

يطلق لفظ العصاب على الخلل العقلي الناشيء عن اضطراب الوظائف النفسية كالفكرة المتسلطة (Idée fixe) ، ومرض الشك ، وفقدان الذاكرة والخوف ، والتحذير ، واضطراب الكلام ، أو اضطراب الغريزة . وليس لهذا العصاب سبب عضوي معروف وان كان متصلاً بحياة المريض النفسية والاجتماعية ، وهو مصحوب بألم شديد وبخلل في التوازن العقلي ، إلا أنه لايغير شخصية صاحبه ولا يفقده هويته ووحدته .

وقد بين بعض العلماء أن هذا العصاب ينشأ عن صراع داخلي بين القوى النفسية ، وبين بعضهم الآخر أنه ينشأ عن اضطراب أو توقف في تطور الوظائف (راجع كتاب بيير جانه Les névroses : Pierre Janet) ويطلق اصطلاح عصاب القلق (Névrose d'angoisse) عند (فرويد) على شعور المرء بالضيق النفساني المحض الذي ليس له سبب واضح . وقد سمي هذا العصاب بالحصر النفساني أو الجزع أو الكرب ، وهو وإن كان مصحوباً بالخوف من الوقوع في المكاره إلا أنه ليس نتيجة هذا الخوف .

العضلي (الحس)

في الفرنسية Sens musculaire
في الانكليزية Muscle sens, Muscular sens

الحس العضلي هو الحاسة التي تدرك الاحساسات الناشئة عن تقلص

العضلات أو ارتخائها . وهو مختلف عن الحس المفصلي (Sens articulaire) الذي ينشأ عن أطراف الأعصاب المتصلة بحركات المفاصل .

(واجع الحس الحركي Sens Kinésthèsique) .

العضو

في الفرنسية	Organe
في الانكليزية	Organ
في اللاتينية	Organun

العضو جزء من الجسم الحي كالقلب والدماغ والمعدة والكبد .. الخ . ولكل عضو من أعضاء الجسم وظيفة معينة يقوم بها ، تقول : أعضاء الحس وأعضاء الحركة ، ويرادفه لفظ الجهاز ، وهو قسم من جسم الإنسان يعمل لغاية معلومة كجهاز التنفس ، وجهاز الهضم ، وكل جهاز يؤدي عملاً يسمى آلة .

ويطلق لفظ العضو أيضاً على الرجل المشترك في هيئة أو شركة أو جماعة ونحو ذلك ، تقول : عضو المجمع العلمي ، وعضو المجلس البلدي الخ ..

العضوي

في الفرنسية	Organique
في الانكليزية	Organic

العضوي هو المنسوب إلى العضو ، ويطلق على كل جسم مركب من أجزاء ذات وظائف متميزة ومتناسقة تقول : الكل العضوي ، أي الكل المفتي وتقول أيضاً : الوظائف العضوية والكيمياء العضوية .

والعضوي ضد الميكانيكي أو الآلي ويطلق على كل نمو ناشيء عن تأثير قوة مركزية داخلية تعمل لغاية معينة فإذا كان نمو الجسم ناشئاً عن اجتماع الأسباب الداخلية والخارجية الفاعلة ولم تكن هذه الأسباب خاضعة لقوة مركزية توجهها إلى غاية معينة لم يكن ذلك النمو عضوياً .

والكائن العضوي (Organisme) هو الكائن الحي .

والمذهب العضوي (Organicisme) ضد المذهب الحيوي (Vitalisme) وهو القول أن الحياة تنشأ عن التنظيم والتعضية ، أي عن تكون الأعضاء واتصافها ببعض الصفات الحيوية الخاصة . ذلك هو المعنى الذي أخذ به (سيسه - Saisset) في قوله إن لبعض الأجسام خواص زائدة على الخواص الفيزيائية والكيماوية وهي اتصافها بالتقلص والتهيج والإحساس ، وإن الحياة تنشأ عن تكون الأعضاء المتصفة بهذه الصفات ، والمذهب العضوي في علم الاجتماع هو القول إن المجتمع كائن حي وإن علم الاجتماع قسم من علم الحياة .

العِظَم والعَظَمَة

في الفرنسية	Grandeur
في الانكليزية	Greatness
وهو مشتق من اللفظ اللاتيني	Grandis

العظمة صفة العظيم وهي مادية أو معنوية . أما المادية فهي من الجسم ما ضخم منه ويرادفها العظم ، تقول : عظم الجبل ، وعظم البحر ، وأما المعنوية فهي الكبرياء والجبروت والنخوة والزهو ، تقول : عظمة الملك ، وعظمة الفكر وحب العظمة .

والعظم في الرياضيات يسمى مقداراً وهو كل مايزيد وينقص ، ويرادفه الكم وهو متصل أو منفصل .

والفرق بين العظمة والجلال أن العظمة تستعمل في الأجسام وغيرها على حين أن الجلال لا يستعمل إلا في غير الأجسام .

وعظمة الله وجوبه الذاتي أي استقلاله واستغناؤه عن غيره ، أما كبرياؤه فهي ألوهيته أي استغناؤه عما سواه واحتياج ما سواه إليه .

والعظيم نقيض الحقير كما أن الكبير نقيض الصغير . فقد يكون الشيء كبيراً ولا يكون عظيماً ، أو يكون صغيراً ولا يكون حقيراً ، لأن العظيم هو العظيم بصفاته المعنوية لا بصفاته المادية .

والفرق بين العظيم والكثير أن العظيم يستعمل في الأجزاء المتصلة والأجزاء المنفصلة ، على حين الكثير لايستعمل إلا في الأجزاء المنفصلة . والدليل على ذلك أن الجبل وهو متصل الأجزاء ينعت بالعظيم ولا ينعت بالكثير ، وان المال وهو منفصل الأجزاء ينعت بالعظيم والكثير معاً .

وقد يستعمل العظيم في الخير والشر تقول إن الله ذو فضل عظيم وإن الشرك لظلم عظيم .

والأعظام عند الرياضيين أقسام الكم المتصل كالخط والسطح والجسم والمكان والزمان ، وإذا نسبت بعضها إلى بعض يقال لها مقادير .

وجنون العظمة (Folie des grandeurs , Mégalomanie) حالة نفسية شاذة مصحوبة بفقدان الجهد المادي والمعنوي تدفع صاحبها إلى المبالغة في طموحه ومطامعه ، حتى يتوهم أنه ملك أو نبي أو إله ، أو أنه أعظم الناس ثروة أو قوة أو مرتبة .

(راجع لفظ المقدار) .

العفّـــة

في الفرنسية	Tempérance
في الانكليزية	Temperance
في اللاتينية	Temperantia

العفة هيئة للقوة الشهوانية متوسطة بين الشره الذي هو إفراط هــذه القوة والخمود الذي هو تفريطها . قال مسكويه : « وأعني بالشره الانهماك في اللذات والخروج فيها عما ينبغي ، وأعني بخمــود الشهوة السكون عن الحركة نحو اللذة الجميلة التي يحتاج إليها البدن في ضروراته ، وهي ما ترخص فيه الشريعة والعقل » (تهذيب الأخلاق ، ص : ٢٧ من طبعة بـيروت ١٩٦٦ ، تحقيق قسطنطين زريق) والعفة إحدى الفضائل الأربع الرئيسية التي ذكرها أفلاطون ، وهي الحكمة والعفة والشجاعة والعدالة .

والفضائل التي تحت العفة كثيرة ، منها الحياء ، والدعة والصـــبر ، والسخاء ، والحرية ، والقناعة ، والدماثة ، والانتظام ، والمسالمة ، والوقار ، والورع . وكل فضيلة من هذه الفضائل فهي وسط بين رزيلتين ، فالحيـــاء وسط بين الوقاحة والخرق ، والسخاء وسط بين التبذير والبخل والقناعة هي الاعتدال في الأكل والشرب والزينة الخ . . وكل من جاوز حـد الاعتدال في مأكله ومشربه أو في فعله وسلوكه ، أو في إرضاء رغبـاته وشهواته لم يكن عفيفاً .

العقـاب

في الفرنسية	Peine , chatiment
في الانكليزية	Pain
في اللاتينية	Pœna

العقاب مايلحق الإنسان بعد الذنب من المحنة في الآخرة ، فاذا خرج المؤمن من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب ، وإذا خرج من غير توبة عن ذنب ارتكبه استحق العقاب .

والعقوبة مايلحق الإنسان من المحنة بعد الذنب في الدنيا ، ولها في قانون العقوبات درجات متفاوتة أشدها عقوبة الإعدام وأخفها عقوبة الحبس أو الغرامة .

والفرق بين العقاب والعذاب أن العقاب جزاء الشر ، على حين أن العذاب هو الألم الشديد جزاءً كان أو لا . تقول : السفر قطعة من العذاب وكل ما شق على النفس فهو عذاب أي شعور بالألم . وهو مادي أو معنوي .

(راجع لفظ الألم) .

العقـد

في الفرنسية	Contrat
في الانكليزية	Contract
في اللاتينية	Contractus

العقد العهد ، إلا أن العهد إلزام مطلق والعقد إلزام على سبيل الاحكام . وهو اتفاق بين طرفين أو أكثر يلتزم كل منهم بمقتضاه تنفيذ ما اتفقوا عليه .

وعقد العمل (Contrat du travail) عقد يلتزم شخص بموجبه أن يعمل في خدمة شخص آخر لقاء أجر .

والعقد الاجتماعي (Contrat social) اتفاق افتراضي بين أفراد المجتمع يوجب على كل منهم وهو في الحالة الطبيعية أن يعهد إلى حكم « الإدارة العامة » في جميع ما لديه من قدرات خاصة تنتظم بها حياة الكل . قال روسو : « إن الإنسان يربح بالعقد الاجتماعي حريته المدنية،وإن خسر به حريته الطبيعية» . (J. J. Rousseau, Contrat social, I. VIII) .

العقـدة

في الفرنسية	Complexe
في الانكليزية	Complex
في اللاتينية	Complexus

العقدة مشكلة تعترض حياة الشخص فينشأ عنها اضطراب في النفس . وهي جملة من التصورات المشحونة بالانفعال الشديد تنمو على هامش الشعور الواضح حتى تبلغ درجة السيطرة عليه .

والعقد في علم التحليل النفسي كثيرة منها عقدة النقص أو الصفة ، وتسمّى مركب النقص (Conplexe d'enfériorité) وعقـدة أوديب (Conplexe d'Oedipe) وعقدة الكترا (Conplexe d'Electre) . وغيرها .

أما عقدة النقص فهي موقف عاطفي يسيطر على المرء من جراء شعوره بضعفه العضري أو الجنسي ، فيحمله ذلك في كثير من الأحيان على كبت عواطفه ، ويولد فيه حالة عصبية تختلف شدتها باختلاف الظروف المحيطة به والوسائل المتوافرة لديه .

وأما عقدة (اوديب) فهي ميل جنسي مظهره عشق الولد لأمه ، وقد أطلق عليها هـذا الاسم نسبة إلى (اوديب) الملك الذي قتل أباه وتزوج أمه . وتتألف هذه العقدة من جملة من التصورات والعواطف المتضاربة شعورية كانت أو غـــير شعورية تتجلى في ميل الولد إلى أمه وغيرته عليها من والده .

وأما عقدة (الكترا) فهي ضد عقدة (اوديب) وتتميز بميل جنسي مظهره عشق الفتاة لأبيها . وقد أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى (الكترا) التي أرادت أن تنتقم من أمها لتهيئتها أسباب قتل أبيها (آغا ممنون) ومن صفات هـذه العقدة انها مصحوبة بتعلق الفتاة عن وعي أو غير وعي بوالدها ، وبكرهها لأمها ، وباضطراب تصوراتها وعواطفها من جراء شعورها بالإثم .

وعقدة (الكترا) عند البنات نظير عقدة (اوديب) عـــند البنين (راجع فرويد S. Freud , über Psychoanalye , 7 - 30) ويونغ Yung . L'homme à la découverte .

العقل

في الفرنسية Raison , intelligence , intellect

في الانكليزية Reason, understanding intelligence intellectual powers

في اللاتينية Ratio, intelligentia intellectus

العقل في اللغة هو الحجر والنهي ، وقد سمي بذلك تشبيهاً بعقل الناقة ، لأنه يمنع صاحبه من العدول عن سواء السبيل كما يمنع العقال الناقة من الشرود . والجمهور يطلق العقل على ثلاثة أوجه (راجع معيار العلم للغزالي ص ١٦٢ .)

الأول يرجع إلى وقار الإنسان وهيئته ويكون حده أنه هيئة محمودة للانسان في كلامه واختياره وحركاته وسكناته .

والثاني يراد به ما يكتسبه الإنسان بالتجارب من الأحكام الكلية فيكون حده أنه معان مجتمعة في الذهن تكون مقدمات تستنبط بها الأغراض من المصالح .

والثالث يراد به صحة الفطرة الأولى في الإنسان فيكون حده أنه قوة تدرك صفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها .

أما الكندي (رسالة في ماهية العقل والإبانة عنه ، ورسالة في حدود الأشياء ورسومها) والفارابي (مقالة في معاني العقل) وابن سينا (رسالة الحدود) وغيرهم من الفلاسفة فانهم يطلقون العقل على المعاني التالية ، وهي :

١ — أول هذه المعاني هو القول إن العقل « جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها » (الكندي ، رسالة في حدود الأشياء ورسومها) وهذا الجوهر « ليس مركباً من قوة قابلة للفساد » (ابن سينا ، الإشارات ص ١٧٨) وإنما هو « مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله » (تعريفات الجرجاني) وهذا القول بجوهرية العقل مع نفي المرضية عنه موجود في أكثر كتب الفلاسفة ، فالفارابي عندما يتحدث عن القوة التي تدرك المعقولات يقول إنها « جوهر بسيط مقارن للمادة ، يبقى بعد موت البدن ، وهو جوهر أحدي ، وهو الإنسان على الحقيقة » (عيون المسائل ، ص ٦٤) . وابن سينا لا يتحدث عن القوة العاقلة إلا ليطلق عليها اسم الجوهر ، وهو يسمي الجوهر المتبرئ من المواد من كل جهة عقلاً ، وهو النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله : أنا .

٢ — والمعنى الثاني للعقل هو القول إنه قوة النفس التي بها يحصل تصور المعاني وتأليف القضايا والأقيسة . والفرق بينه وبين الحس أن

الحس لايستطيع أن يجرد الصورة من المادة على حين أن العقل يستطيع أن يأخذ الصورة مجردة عن المادة ولواحقها من كل وجه . وله عند فلاسفة الإسلام عدة مراتب : أولاها مرتبة العقل الهيولاني (Intelligence matérielle) وهو الاستعداد المحض لإدراك المعقولات ، وثانيتها العقل بالملكة (Intelligence · Habitude) وهو العلم بالضروريات واستعداد النفس بذلك لاكتساب النظريات ، وثالثتها العقل بالفعل (Intelligence en acte) وهو القدرة على استنباط النظريات من الضروريات ورابعتها العقل المستفاد (Intelligence acquise) ، وهو أن تكون النظريات حاضرة عند العقل لاتغيب عنه ، وفوق العقل الإنساني عقل مفارق وهو العقل الفعال (Intelligence active) الذي تفيض منه الصور على عالم الكون والفساد ، فتكون موجودة فيه من حيث هي فاعلة ، أما في عالم الكون والفساد فهي لاتوجد إلا من جهة الانفعال . وهذا الفرق بين الفعل والانفعال يذكرنا بقول (أرسطو) ان العقل الفاعل (Intellect agent) هو العقل الذي يجرد المعاني أو الصور الكلية من لواحقها الحسية الجزئية على حين العقل المنفعل (Intellect passif) هو الذي ترتسم فيه هذه الصور المجردة .

٣ — والمعنى الثالث للعقل هو القول إنه « قوة الإصابة في الحكم » أي تمييز الحق من الباطل والخير من الشر والحسن من القبيح (ديكارت ، مقالة الطريقة القسم الأول ص ١ من ترجمتنا) وهذا التمييز لايحصل عن قياس وفكر بل يحصل مباشرة بالفطرة والطبع . فكأن العقل كما قال (الرازي) غريزة يلزمها العلم بالأمور الكلية والبديهية . وقد أشار (ديكارت) إلى هذا المعنى بقوله : ان القاعدة الأولى لطريقته هي أن لايتلقى على الإطلاق شيئاً على أنه حق ما لم يتبين بداهة العقل أنه كذلك .

فالعقل بهذا المعنى مضاد للحمق ، لأن الحمق قلة العقل وفساده ووضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه وهو مضاد أيضاً للهوى لأن الهوى يمنع المرء من الإصابة في الحكم على حين أن العقل يمنع النفس من العدول عن سواء السبيل وينهاها عن اتباع هواها .

٤ — والمعنى الرابع للعقل هو القول إنه قوة طبيعية للنفس متهيئة لتحصيل المعرفة العلمية ، وهذه المعرفة مختلفة عن المعرفة الدينية المستندة إلى الوحي والإيمان.

قال ابن خلدون : « ان العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين : صنف طبيعي للانسان يهتدي اليه بفكره ، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه . والأول هو العلوم الحكمية والفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر ، والثاني هو العلوم النقلية الوضعية ، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ، ولا مجال فيها للعقل إلا في الحاق الفروع من مسائلها بالأصول » (المقدمة ، ص ٤٣٥) ومعنى ذلك أن موضوع الدين معرفة الحقائق التي أوحى بها الله ، أما موضوع العلم فهو معرفة الحقائق التي يستطيع الإنسان أن يحصلها بعقله الطبيعي دون معونة خارجية . ولهذا العقل الطبيعي في نظر ابن خلدون ثلاث درجات أولاها درجة العقل التمييزي وثانيتها درجة العقل التجريبي ، وثالثتها درجة العقل النظري .

٥ — والمعنى الخامس للعقل هو القول إنه مجموع المبادي القبلية (A priori) المنظمة للمعرفة كمبدأ عدم التناقض ، ومبدأ السببية ومبدأ الغائية . وتتميز هذه المبادىء بضرورتها وكليتها وبعدم تعلقها بالتجربة . قال ليبنز : « يتميز الإنسان عن الحيوان بادراكه للحقائق الضرورية والأبدية ،

فهي التي تولد فيه العقل والعلم وتسمو به إلى معرفة ذاته ومعرفة الله » (Monodologie - 29) . وقد انتشر هذا المعنى في الفلسفة الحديثة بتأثير (كانت) حتى أصبح الفلاسفة يقولون إن إدراك العقل للعالم لايتم بما يحصل له من مدركات تجريبية فحسب ، بل يتم بما لديه من معاني فطرية . فاذا قال الفلاسفة التجريبيون : لايوجد في العقل شيء لم يوجد قبل في الحس والتجربة صحح الفلاسفة العقليون هذا القول باضافة قيد واحد عليه وهو قولهم : إلا العقل نفسه . ومعنى ذلك أن جملة المبادىء والمعاني الأولية التي يكشف عنها الفكر موجودة في العقل قبل الحس ، وأن العقل الغريزي ليس صفحة بيضاء لم تنتقش بنقش ، وإنما هو ذو رسوم فطرية تنظم معطيات التجربة . وبعض المعاني الكلية كمعنى الكامل والمطلق واللانهائي ملازمة للعقل لاتفارقه ، وبعضها الآخر كمعنى الزمان والمكان والعلة والغاية والوحدة حاصلة للعقل بواسطة الفكر . والفرق بين العقل والفكر أن العقل هو مجموع المبادىء الضرورية والمعاني الكلية التي تنظم المعرفة على حين أن الفكر هو حركة النفس في المعقولات من المطالب إلى المبادىء تارة ، ومن المبادىء إلى المطالب أخرى . أما الفرق بين العقل والاستدلال فهو أن العقل نور يدرك المبادىء الضرورية بذاته إدراكاً حدسياً مباشراً على حين أن الاستدلال هو النظر في شروط انطباق هذه المبادىء على موضوعات الفكر لاستخراج النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة .

٦ — والمعنى السادس للعقل هو القول انه الملكة التي يحصل بها للنفس علم مباشر بالحقائق المطلقة . وإذا قلنا بوحدة العقل وموضوعه دل العقل حينئذ على المطلق نفسه . فكأن هذا العقل شيء مستقل عنا ، ونحن تتلقاه من الخارج كما نستنشق الهواء المحيط بنا ، وكل واحد منا كما يقول

(بوسويه) يشعر بأن في داخله عقلاً محدوداً ، لا يصحح أحكامه إلا باستلهام عقل كلي ثابت لايتغير ، فأين يوجد هذا العقل الكلي ، انه الله الذي أتطلّع إليه ، إنه الموجود ، اللانهائي الكامل الذي يتجلّى لنفسي مباشرة . فكأن هذا العقل الذي أشار إليه (بوسويه) شبيه بالعقل الفعال الذي تكلم عليه الفارابي وابن سينا ، فالله عقل ، وليس عقل الإنسان سوى عقل مستفاد تفيض عليه المعقولات من العقل الإلهي . ومع أن (كانت) قد أعلن أن معرفة هذا العقل المطلق ممتنعة فأن خلفاءه ولا سيا (شيلينغ) يقولون بامكان معرفته ، وهكذا يتدرجون إلى القول بعقل مستقل عن الفكر أي بحدس شبيه بالهام الشاعر ، يكافح الشك أو الباطل أو الضلال الذي يظهر على مسرح الفكر كأن هنالك فوق الفكر منطقة نورانية أو منطقة سلام دائم يقبض فيها العقل على الحقائق المطلقة دون الاستعانة بالفكر . وقد خلق الله هذا العقل لإدراك هذه الحقائق ، كما خلق العين لإدراك الألوان والأشكال والأذن لإدراك الأصوات . (راجع كتاب فكتور كوزان
(Victor Cousin Du vrai, du beau, et du bien, 3e leçon, 161.

٧ — ويطلق لفظ العقل أيضاً على مجموع الوظائف النفسية المتعلقة بتحصيل المعرفة كالإدراك الحسي ، والتداعي ، والذاكرة والتخيل ، والحكم والشعور والاستدراك ويقابله في اللغة الفرنسية لفظ (Intelligence) وهو ملكة الفهم وضده الحدس والغريزة . أما ملكة الفهم السريع فتسمى ذكاء .

٨ — العقل المحض والعقل العملي (Raison pure et raison pratique) يطلق (كانت) هذين الاصطلاحين على كل ماهو قبلي في الفكر أي على اللغة المتعالية التي تتضمّن مبادىء المعرفة القبلية المستقلة عن التجربة . فاذا نظرت إلى العقل من جهة اشتماله على المبادىء القبلية للمدركات العلمية كان

نظرياً أو تأملياً ، واذا نظرت اليه من جهة اشتماله على المبادىء القبلية لقواعد الأخلاق كان عملياً . وإذا كان العقل النظري محضاً تارة ومبنياً على التجربة أخرى فان العقل العلمي لايمكن أن يكون إلا محضاً . وللعقل عند (كانت) معنى أخص وهو إطلاقه على ملكة الفكر المتعالية التي بها تدرك المعاني المثالية كمعاني النفس والله والعالم ، وهو بهذا المعنى ليس مضاداً للتجربة وإنما هو مضاد لملكة الفهم ، وله ناحية عملية خاصة وهي أن موضوعات الأخلاق (Postulats de la morale) . كالقول بالحرية وخلود النفس ووجود الله متعلقه به .

٩ — العقل المؤلِّف والعقل المؤلَّف (Raison constituante et raison constituée)

العقل المؤلِّف عند (لالاند) هو الملكة التي يستطيع بها كل إنسان أن يؤلف من إدراك العلاقات مبادىء كلية وضرورية ، وهي واحدة عند جميع الناس . أما العقل المؤلَّف عنده فهو مجموع المبادىء والقواعد التي يُعتمد عليها في الاستدلال ، وهي تتغير بتغير الزمان والأفراد ، إلاّ انها تتجه مع ذلك إلى الوحدة ، فكأن العقل المؤلِّف هو العاقل ، وكأن العقل المؤلَّف هو المعقول .

١٠ — والعقلي (Rationnel) هو المنسوب إلى العقل ، تقول : المبادىء العقلية والعلوم العقلية . قال (هيجل) كل عقلي فهو موجود بالفعل ، وكل موجود بالفعل فهو عقلي .

والعقلي أيضاً هو المنطقي ، تقول : يجب أن يصبح العلم الرياضي نقطة الابتداء في كل تربية عقلية (أي منطقية) ، وتقول علم الميكانيك العقلي أي

النظري ، وهو العلم الذي يستنبط جميع مسائله من معاني القوة والكتلة والقصور الذاتي وغيرها .

والحياة العقلية (Vie intellectuelle) في علم النفس مقابلة للحياة الانفعالية (Vie affective) والحياة الفاعلة (Vie active) والقيم العقلية مقابلة للقيم الأخلاقية أو الفنية .

١١ — والعاقل (Raisonnable) هو الناطق أي المتصف بالعقل وكل من قال في الانسان انه عاقل عنى بذلك أن عقله يميزه من الحيوان .

والعاقل أيضاً هو الذي يفكر تفكيراً صحيحاً ويحكم على الأشيـــاء حكماً صادقاً ويعمل عملاً صالحـاً ، فلا يسمَّى عاقلاً حتى يكون خيراً ، بخلاف الجاهل الذي يستعمل فكره في فعل الشر ، فلا يسمى عاقلاً وإنمـا يسمى داهياً أو ماكراً .

والعاقل أيضاً هو الذي يعرف كيف يكبح جماح نفسه ويعرض عن كل ما يجاوز نطاق قدرته ويوقعه في المهالك ، ولذلك قيل : دولة الجاهل من الممكنات ، ودولة العاقل من الواجبات .

والعاقل أخيراً هو الذي يتقيد بالذوق والعرف العــــام ، أو بأحكام القيم المقبولة في زمانه ، ويرادفه المعتدل والمتزن .

١٢ — والمعقول (Intelligible) ضد المحسوس ، وهو المعنى الكلي ، والمعقولية (Rationalité ou intelligibilité) صفة المعقول كمعقولية بعض المبادئ التي نستخرجها من الارتباط الضروري بين التطورات . ولما كانت المحسوسات منبع الكثير من الخطأ والضلال وكان حاكم العقل يكذب حاكم الحس كانت المعرفة اليقينية مؤلفة من المعقولات لامن المحسوسات ، والمعقول في بعض المذاهب الفلسفية مرادف للموجود الحقيقي ، تقول : عالم المعقولات وعالم المثل ، وتقول أيضاً : معقول الحيوانية ، ومعقول الانسانية ومعقول الحرية ، وهي معان

كلية لها في نظر بعض الفلاسفة ثلاثة أنماط من الوجود : وجودها متكثرة في المحسوسات ، ووجودها في العقل البشري بعد الكثرة ، ووجودها في عالم المعقولات قبل الكثرة .

١٣—ومبدأ المعقولية الكلية (Principe de l'universelle intelligibilité) اصطلاح أطلقه (فويه) في كتابه « فلسفه افلاطون » على الايمان بمعقولية الأشياء وهو القول إن كل موجود فهو مؤلف من قوانين العقل الأساسية . فاذا شك المرء في شيء لم يشك فيه لذاته بل شك في قدرته هو على معرفة ذلك الشيء . وإذا قلت إن كل شيء معقول أردت بهذه المعقولية ان لكل شيء صورة عقلية تفسره .

١٤ — العقلانية أو المذهب العقلي (Rationalisme) .

المذهب العقلي هو القول بأولية العقل ويطلق على عدة معان :

آ — الأول هو القول إن كل موجود فله علة في وجوده بحيث لايحدث في العالم شيء إلا وله مرجح معقول .

ب — والثاني هو القول إن المعرفة تنشأ عن المبادىء العقلية القبلية والضرورية لا عن التجارب الحسية ، لأن هذه التجارب لاتفيد علماً كلياً والمذهب العقلي بهذا المعنى ضد المذهب التجريبي (Empirisme) الذي يزعم أن كل ما في العقل فهو متولد من الإحساس والتجربة .

ج — والثالث هو القول إن وجود العقل شرط في إمكان التجربة فلا تكون التجربة ممكنة إلاّ إذا كان هنالك مبادىء عقلية تنظم معطيات الحس . مثال ذلك ان المثل عند (افلاطون) والمعاني النظرية عند (ديكارت) والصور القبلية (Formes a priori) عند (كانت) متقدمة على التجربة . فاذا عددت هذه المثل وتلك المعاني والصور شرطاً ضرورياً وكافياً لحصول

المعرفة كانت العقلانية مطلقة ، واذا عدتها شرطـــاً ضرورياً فقط كانت العقلانية نسبية .

د ــ والرابع هو الإيمان بالعقل وبقدرتـه على إدراك الحقيقة وسبب ذلك في نظر العقليين أن قوانين العقل مطابقة لقوانين الأشياء الخارجية وأن كل موجود معقول ، وكل معقول موجود . فاذا صح عنـدهم أن العقل قادر على الاحاطة بكل شيء دون عون خارجي يأتيه من القلب أو الغريزة أو الدين كان مذهبهم مضاداً لمذهب الايمانيين (Fidéistes) ومذهب المتصوفين .

هـ ــ والعقلانيـة عند بعض علماء الدين هي القول ان العقائد الايمانية مطابقة لأحكام العقل . ولهذه العقلانية ثلاثة أوجه : الأول هو القول ان العقل شرط ضروري كاف لمعرفة الحقائق الدينية ، والثـاني هـو الإعراض عن جميع العقائد التي لا يمكن إثباتها بالمبادىء العقلية ، والثالث هو الدفاع « عن العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية » (مقدمة ابن خلدون ص : ٤٦٦)

العقيدة

في الفرنسية	Dogme
في الانكليزية	Dogma
في اللاتينية	Dogma

العقيدة هي الحكم الذي لا يُقبل الشك فيه لدى معتقده ، ويرادفهـــا الاعتقاد والمعتقد . وتطلق في الفلسفـــة على الرأي المعترف به بين أفراد مذهب واحد كالعقيدة الرواقية والعقيـدة الركسية . وتطلق في الدين على

ما يؤمن به الانسان ويعتقده كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل والعقاب والثواب وغيرها .

والاعتقادية أو الوثوقية أو التوكيدية (Dogmatisme) مذهب الذين يؤمنون بقدرة العقل على الوصول إلى اليقين وهي ضد الريبية (Scepticisme) وضد الانتقادية (Criticisme) .

وقد يطلق لفظ الوثوقي أو التوكيدي تهكماً على من يتعصب لرأي يسلم به دون تمحيص ، ويحاول فرضه على غيره دون برهان .

العكس

في الفرنسية	Conversion
في الانكليزية	Conversion
في اللاتينية	Conversio

العكس استدلال مباشر يقوم على تصيير الموضوع محمولاً والمحمول موضوعاً مع بقاء السلب والإيجاب بحاله ، والصدق والكذب بحاله ، وله قسمان :

الأول هو العكس المستوي أو التام كما في الكلية السالبة والجزئية الموجبة فإن كل واحدة منها تنعكس مثل نفسها . فإذا قلت : لا شيء من (آ) (ب) صدق : لا شيء من (ب) (آ) ، وكذلك إذا قلت بعض (آ) (ب) صدق بعض (ب) (آ) .

والثاني هو العكس الجزئي أو العكس بالعرض كما في الكلية الموجبة التي تنعكس جزئية موجبة . فاذا قلت كل (آ) (ب) صدق بعض (ب) (آ) .

أما الجزئية السالبة فلا تنعكس ، فليس إذا صدق قولنا ليس كل إنسان كاتباً يجب أن يصدق ليس بعض الكاتب بانسان .

وللفظ (Conversion) في الفرنسية والانكليزية معنيان آخران الأول هو الرجعه وهي الحركة المضادة لحركة الصدور في الفلسفة الافلاطونية الحديثة ، لأن الصدور هو فيض العقل والنفس والعالم تتالياً ، ثم فيض الموجودات الفردية عن الواحد أو الخير أما الرجعة فهي عودة هذه الأشياء إلى مبدئها الأصلي . والثاني هو تحول الانسان من مبدأ سياسي أو خلقي إلى آخر أو اعتناقه ديانة غير ديانته .

العلاقة

في الفرنسية	Rapport , relation
في الانكليزية	Relation
في اللاتينية	Relatio

العلاقة بالفتح الارتباط ، وبالكسر ما يعلق به السيف ونحوه . فالمفتوح يستعمل في الأمور الذهنية ، والمكسور في الأمور الخارجية المحسوسة .

وتطلق العلاقة في اصطلاح المنطقيين على ما بسببه يستصحب شيء شيئاً آخر . كعلاقة المقدم بالتالي في القضايا الشرطية المتصلة ، مثل قولنا في اللزوميات إذا كانت الشمس طالعة فالنهار موجود .

وللعلاقة في الفلسفة الحديثة معنيان ، أحدهما عام ، والآخر خاص . فالعلاقة بالمعنى العام تطلق على كل ارتباط بين موضوعين أو أكثر من موضوعات الفكر بحيث يدرك العقـــل علاقة أحدهما بالآخر بفعل واحد

لا ينقسم ، كعلاقة التشابه أو التباين أو المعية أو التعاقب أو العلية أو الثنائية أو التضايف .

والعلاقة بالمعنى الخاص هي التناسب بين كميتين أو أكثر . مثال ذلك أن علاقة (ب : ج) أو $\frac{ب}{ج}$ هي قياس كمية (ب) بنسبتها إلى كمية (ج) أو هي خارج قسمة (ب) على (ج) ، ولذلك قيل إن العلاقة هي التناسب بين الأشياء أو القياس المشترك بينها .

والعلاقة في علم البيان المناسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد في المجاز والكناية

والعلائق ما يتعلق به الإنسان من أسباب الدنيا وشواغلها . قال الغزالي : « وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وان رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وإن ذلك لا يتم إلا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق . ثم لاحظت نفسي فاذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ، ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس فاذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة » (المنقذ من الضلال ص ١٠٣ من طبعتنا ، الطبعة السابعة بيروت ١٩٦٧) .

وقد تكون علاقة الإنسان بالإنسان علاقة صداقة أو عداوة أو علاقة اشتراك في مسكن أو مهنة أو طائفة أو ديانة أو وطن الخ .. وأعلى هذه العلائق كلها العلائق الانسانية المجردة .

(راجع : النسبة ، والإضافة)

العلّة

في الفرنسية	Cause
في الانكليزية	Cause
في اللاتينية	Causa

العلة في اللغة معنى يحل بالمحل فيتغير به حال ذلك المحل بلا اختيار . ومنه سمي المرض علة لأنه بحلوله يتغير حال الشخص من القوة إلى الضعف . وكل وصف حل بمحل وتغير به حاله معاً فهو علة ، وصار المحل معلولاً له كالجرح مع المجروح وغير ذلك ، وبعبارة أخرى كل أمر يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال أو بانضمام الغير إليه فهو علة لذلك الأمر ، والأمر معلول له ، فيتعقل كل واحد منهما بالقياس إلى تعقل الآخر » (كليات أبي البقاء) .

والعلة عند الأصوليين ما يجب به الحكم .

والعلة عند الحكماء ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً مؤثراً فيه (تعريفات الجرجاني) فعلة الشيء ما يتوقف عليه ذلك الشيء إما في ماهيته كالمادة والصورة أو في وجوده كالغاية والفاعل .

والعلة ترادف السبب إلا أنها قد تغايره فيراد بالعلة المؤثر وبالسبب ما يفضي إلى الشيء في الجملة أو ما يكون باعثاً عليه . وقد قال بعضهم : السبب ما يتوصل به إلى الحكم من غير أن يثبت به ، أما العلة فهي ما يثبت به الحكم . ومعظم الفلاسفة الإسلاميين كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد يفضلون استعمال لفظ العلة على لفظ السبب إلا الغزالي وعلماء الكلام فانهم يستعملون لفظ السبب للدلالة على العلة .

والعلل عند (أرسطو) أربعة أقسام : (١) العلة المادية (Cause materielle) وهي ما لا يلزم عن وجودها بالفعل حصول الشيء بالفعل ، بل ربما كان بالقوة كالخشب والحديد بالنسبة إلى السرير ، (٢) والعلة الصورية (Cause formelle) وهي ما يجب عن وجودها بالفعل وجود الشيء بالفعل كالشكل والتأليف للسرير . (٣) والعلة الفاعلة (Cause efficiente) وهي ما تكون مؤثرة في المعلول موجدة له كالنجار الذي يصنع السرير . (٤) والعلة الغائية (Cause finale) وهي ما يكون الشيء لأجلها كالجلوس على السرير ، فهو الغاية التي من أجلها وجد .

وقد أخذ فلاسفة الاسلام وفلاسفة القرون الوسطى في أوربة بهذه النظرية الأرسطية وقدموا العلة الغائية على سائر العلل . مثال ذلك قول ابن سينا : «والغاية تتأخر في حصول الوجود عن المعلول إلاّ أنها تتقدم سائر العلل في الشيئية ، ومن البين أن الشيئية غير الوجود في الأعيان، فان المعنى له وجود في الأعيان ووجود في النفس وأمر مشترك ، فذلك المشترك هو الشيئية ، والغاية بما هي شيء ، فانها تتقدم سائر العلل ، وهي علة العلل في أنها علل .. وبما هي موجودة في الأعيان قد تتأخر .. وذلك لأن العلل إنما تصير عللاً بالفعل لأجل الغاية ، وليست هي لأجل شيء آخر ، وهي توجد أولاً نوعاً من الوجود فتصير العلل عللاً بالفعل ، ويشبه أن يكون الحاصل عن الخير هو أن الفاعل الأول والمحرك الأول في كل شيء هو الغاية» (النجاة ص ٣٤٥) .

والعلة الأولى (Prima causa) هي العلة التي لا علة لها ، او علة العلل ، أو العلة النهائية ، وتطلق عند الحكماء على الله وحده .

والعلة الثانية (Cause seconde) هي العلة التي لا فعل لها إلاّ بتأثير العلة الأولى وهي قريبة (Prochaine) أو بعيدة (Eloignée) .

وفرقوا بين العلة الأساسية (Cause principale) والعلة الاداتيــة (Cause instrumentale) والعلة المباشــرة (Cause directe) والعلة غير المباشرة (Cause indirecte) ، والعلة التامة والعلة الناقصة والعلة المعدة . أما العلة الأساسية فهي العلة التي تنفرد بالتأثير في الشيء ، وأما العلــة الأداتية فهي الآلة التي سيتم بها وجود الشيء ، وأما العلة المباشرة فهي التي تحدث الشيء بلا وسط ، وأما العلة غير المباشرة فهي التي تحدث الشيء بوسط ، وأما العلة التامة وتسمى بالمستقلة فهي تمام ما يتوقف عليه الشيء في ماهيته ووجوده أو في وجوده فقط ، وأما العلة الناقصة فهي بخلاف ذلك . وأما العلة المعدّة فهي التي يتوقف عليها وجود المعلول من غـير أن يجب وجودها مع وجوده .

وقد وسع (ديــكارت) معنى العلة الآرسطى فأطلقه على العلاقات الطبيعية والعلاقات المنطقية معاً . وهـذا متفق مع روح مذهبه الذي يعد العلاقات المنطقية أساساً للعلاقات الطبيعية . فاذا قلت إن (آ) علة (ب) أردت بذلك أن وجود (آ) يستلزم وجود (ب) اضطراراً . ومعنى ذلك أن العلاقات السببية شبيهه بالقياسات الاقترانية التي يكون فيها وجود المقدم شرطاً لوجود التالي .

أما مالبرانش فانه يطلق معنى العلة التامة على الشيء الذي يؤثر في غيره من دون أن يفقد شيئاً من طبيعته أو من قدرته على التأثير ، وهذه العلة التامة مختلفة عن العلة الظرفية (Cause occasionnelle) التي لا تفرض بين الأشياء أي ارتباط ضروري بل تقول بالحصول عنده لا بالحصول به ، على النحو الذي ذهب إليه (الغزالي) .

وأما (كانت) فان العلة عنده تدل على تركيب خاص قوامه أن شيئاً مثل (آ) يوجب أن يصدر عنه وفقاً لقاعدة معينة شيء آخر، مثل (ب) مختلف عنه تماماً، ومعنى ذلك أن علاقة العلة بالمعلول ليست تركيباً تجريبياً، وإنما هي تركيب عقلي، وهي لا تكتفي بملاحظة حدوث المعلول بعد العلة، بل تتضمن وجوب هذا الحدوث وضرورته.

وأما (استوارت ميل) فانه يطلق لفظ العلة على الظاهرة أو الظواهر المتقدمة التي تكون الظاهرة المساة بالمعلول تالية لها دائماً. وهذا المعنى وإن كان حالة خاصة من مفهوم العلة عند (كانت) إلاّ أنه يختلف عنه بإهمال ما في تعاقب الظواهر من ارتباط منطقي أو ضروري. وهو بهذا المعنى قريب بعض الشيء من مفهوم العلة الظرفية المتضمن معنى الحدوث عنده.

والعلة مطلقاً متقدمة على المعلول تقدماً ذاتياً. إلا أنها من جهة ما هي موجودة بالفعل مقارنة للمعلول في الزمان.

العلم

في الفرنسية	Science
في الانكليزية	Science
في اللاتينية	Scientia

العلم هو الإدراك مطلقاً تصوراً كان أو تصديقاً، يقينياً كان أو غير يقيني وقد يطلق على التعقل، أو على المعرفة إطلاقاً، أو على إدراك الكلي مفهوماً كان أو حكماً، أو على الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، أو على إدراك الشيء على ما هو به، أو على إدراك حقائق الأشياء وعللها، أو على إدراك المسائل عن دليل، أو على الملكة الحاصلة من إدراك تلك المسائل.

والفرق بين العلم والمعرفة أن العلم يقال على إدراك الكلي والمركب على حين أن المعرفة تقال على إدراك الجزئي أو البسيط . وقد يقال إن مفهوم العلم أخص من مفهوم المعرفة لأن المعرفة قسمان معرفة عامية (Connaissance vulgaire) مشتملة على آراء وأحكام عفوية تكسبنا إياها التجربة ، ومعرفة علميـــة (Connaissance scientifique) تبحث عن علل الأشيـاء وتكشف عن قوانينها الطبيعية الثابتة وإذا علمنا أنه لا علم إلا بالكليات أدركنا أن غاية العلم هي الكشف عن العلاقات الضرورية بين ظواهر الأشياء ، وهي غاية نظرية ، بخلاف المعرفة العامية التي تتقيد بالنتائج العملية ولا يبلغ العلم نهايته إلا بتأليف المعاني وتنسيقها ونظمها وتنضيدها في قوانين جامعة .

ومعنى ذلك كله أن من شرط العلم أن يتضمن درجة كافية من الوحدة والتعميم ، وأن يكون بحيث يستطيع الناس أن يتفقوا في الحكم على مسائله لا بالاستناد إلى أذواقهم ومصالحهم الضرورية ، بل بالاستناد إلى ما بين هذه المسائل من علاقات موضوعية يكشفون عنها بالتدريج ويحققونها ويثبتونهـا بطرق محدودة .

ولكل علم موضوع ومنهج يميزانه من غيره ، إلا أن الفلاسفة يصنفون العلوم المختلفة ويرتبونها صنفاً صنفاً ، ليبينوا ما بين موضوعاتها ومناهجها من تشابه ووحدة .

ولنذكر الآن بعض هذه التصنيفات على سبيل المثال .

١ — من تصنيفات العلوم في الفلسفة القديمة تصنيف آرسطو الذي زعم أن عقولنا تطلب العلم الاطلاع أو الإبداع أو الانتفاع ، وأن العلوم تنقسم بحسب هذه الغايات الثلاث إلى علوم نظرية (كالرياضيات والطبيعيـات) وعلوم شعرية (كالبلاغة والشعر والجدل) وعلوم عملية [كالأخـلاق والاقتصاد والسياسة] . ومنهـا تصنيف ابن سينا الذي زعم أن العلوم

نظرية وعملية ، وكل قسم من هذين القسمين ينقسم عنده إلى ثلاثة أقسام ، فأقسام العلوم النظرية هي العلم الطبيعي والعلم الرياضي والعلم الإلهي ، وأقسام العلوم العملية هي علم الأخلاق ، وتدبير المنزل ، وتدبير المدينة . ومنها تصنيف ابن خلدون الذي زعم أن العلوم صنفان الأول هو العلوم العقلية وهي طبيعية للانسان من حيث هو ذو فكر ، وتسمى بالعلوم الحكمية وتشتمل على أربعة علوم المنطق ، والعلم الرياضي ، والعلم الطبيعي ، والعلم الإلهي ، والثاني هو العلوم النقلية المستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ، وتشمل التفسير والقراآت والحديث وعلم الفقه وعلم الفرائض وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وغيرها .

٢ — ومن تصنيفات العلوم في الفلسفة الحديثة تصنيف (بيكون) وتصنيف (آمبر) وتصنيف (أوغوست كومت) .

الأول مبني على الملكات العقلية الضرورية لتحصيل العلم ، وهي ثلاث ملكات : العقل وهو أساس العلوم الفلسفية ، والخيال وهو أساس العلوم الشعرية ، والذاكرة وهي أساس العلوم التاريخية .

والثاني تصنيف العلوم بحسب موضوعاتها وهي قسمان ، العلوم الكونية وموضوعها المادة ، والعلوم المعنوية وموضوعها الفكر ، ولكل من هذين القسمين الكبيرين فروع مختلفة .

والثالث تصنيف العلوم بحسب موضوعاتها ، وهي ستة علوم أساسية : علم الرياضيات ، وعلم الفلك ، وعلم الفيزياء ، وعلم الكيمياء ، وعلم الحياة ، وعلم الاجتماع ، وقد رتبت العلوم على هذا النحو عملاً بالمباديء التالية : وهي مبدأ ازدياد التعقيد وتناقص التعميم ، ومبدأ التعلق والاستقلال النسبيين ، ومبدأ النشوء التاريخي ، ومبدأ التعليم . (راجع كتابنا في المنطق ص ١٣٦ — ١٤٠) .

العلوم التطبيقية (Sciences appliquées) — هي العلوم التي تطبق قوانين العلم النظري لبلوغ غايات معينـة كعلم الطب وعلم الكهرباء الصناعية وعلم الاقتصاد الزراعي فهي علوم تطبيقية تستمد مبادئها من العلوم النظرية المقابلة لها ، فعلم الطب فرع من علم الحياة ، وعلم الكهرباء الصناعية فرع من علم الفيزياء .

العلوم الإنسانية (Sciences humaines) اصطلاح حديث يطلق على العلوم المسماة بالعلوم المعنوية أو الأخلاقية ، وهي تبحث في أحوال النـاس وسلوكهم أفراداً وجماعات . وليس كل علم يمت إلى حياة الإنسان بسبب ، علماً إنسانياً ، لأن علم تشريح بدن الإنسـان مثلاً ليس قسماً من العلوم الإنسانية وإنما هو قسم من العلوم الحيوية أو الطبيعية .

العلم الأوسط (Science moyenne) — للعلم الإلهي في نظر مولينـا (Molina) ثلاثة أقسام وهي العلم بالممكنات ، والعلم بالحوادث الحاضرة ، والعلم بالحوادث الشرطية . أما العلم بالممكنات فهو علم المعقولات ، وأما العلم بالحوادث الحاضرة فهو العلم بالمحسوسات ، وبين هذين العلمين علم شرطي يبحث فيما يمكن أن يحدث من الأشياء عند تحقق بعض الشروط ، ويسمى هذا العلم الشرطي بالعلم الأوسط .

والعلوم القاعدية (Sciences normatives) هي العلوم المؤلفـة من أحكام انشائية أي أحكام قيم خاضعة للنقد كعلم الجمال ، وعلم الأخلاق ، وعلم المنطق وغيرها .

والعلوم الخفية (Sciences occultes) هي علم السحر ، والطلسمات ، والنجوم والكيمياء والسيمياء ، وعلم أسرار الحروف ، وعلم استحضـار الأرواح وغيرها .

والعلمي (Scientific) هو المنسوب إلى العلم تقول المعرفة العلمية والروح العلمية (Esprit scientifique) ويطلق هذا الاصطلاح الأخير على العقل المنظم الواضح الذي لا يقبل بصدق حكم إلا بعد تحقيقه ، والتدقيق فيه ، وإقامة البرهان عليه .

وفي وسعك إطلاق اسم العلم على علم بعينه أو على مجموع العلوم ، فاذا قلت إن تقدم المجتمع الإنساني رهن بتقدم العلم عنيت بذلك مجموع العلوم ، وإذا قلت إن العلم قد برهن على أن كل نجم ثابت فهو شمس دل لفظ العلم هنا على علم معين وهو علم الفلك .

والعلم في الاصطلاح الحديث ضد الأدب ويطلق على العلوم الصحيحة (Sciences exactes) كالرياضيات والفلك وعلى العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا ، وهذا الاصطلاح الذي ثبتته أنظمة الجامعات بانقسامها إلى كليات علمية وكليات أدبية لا يخلو من الاضطراب ، لأن بعض الدراسات الإنسانية التي تتم في كليات الآداب كعلم النفس وعلم الاجتماع تريد أن تتصف بصفات العلم الصحيح . وإذا كانت لم تبلغ هذه الغاية حتى الآن ، فمرد ذلك إلى حداثة نشأتها . . وقد فرق حكماؤنا في الماضي بين العلم الحصولي والعلم الحضوري . فالحصولي هو حصول صورة الشيء عند المدرك ويسمى انطباعياً والحضوري هو حضور الأشياء أنفسها عند العالم كعلمنا بذواتنا وبالأمور القائمة بها . ومن هذا القبيل علمه تعالى بذاته وبسائر الموجودات .

وفرقوا أيضاً بين العلم الفعلي الذي لا يؤخذ عن الغير ، والعلم الانفعالي الذي يؤخذ عن الغير .

وفرقوا أخيراً بين العلم الضروري وهو ما يحصل من غير فكر وكسب ، والعلم الاكتسابي وهو عقلي وعملي ، فالعقلي هو مايحصل بالتأمل والنظر ويسمى بالعلم النظري ، والعملي هو ما يحصل بالعمل والتجربة .

العمل

في الفرنسية	Action
في الانكليزية	Action
في اللاتينية	Actio

العمل هو الفعل والمهنة والصنعة تقول عمل عملاً فعل فعلاً عن قصد. والفرق بين العمل والفعل (Acte) أن العمل أخص والفعل أعم، لأن الفعل قد ينسب إلى الجمادات كما في قولنا فعل الطبيعة أو فعل الحرارة، أما العمل فلا يطلق إلاّ على الفعل الذي يكون من العاقل بفكر وروية وقصد. وهو يحتاج إلى امتداد الزمان أما الفعل فقد يتم دفعة من غير بطء. ولهذا قرن العمل بالعلم حتى قال بعضهم إنه مقلوب عنه تنبيهاً إلى أنه من مقتضاه.

وقد يطلق العمل على كل فعل حادث على الفاعل نفسه دون تأثير خارجي فيعم بهذا المعنى أفعال القلوب والجوارح، أو يطلق على التأثير الذي يحدثه الفاعل في غيره، فاذا نسب العمل إلى الفاعل كان فعلاً، وإذا نسب إلى القابل كان انفعالاً. ومعنى ذلك أن الفعل والانفعال اسمان لعلاقة واحدة وان اختلف معناها باختلاف نسبتها.

وقد يراد بالعمل الفعل المهني أو الصناعي كقول ابن خلدون: «الأعمال أصل المكاسب» (المقدمة ص ١٥٠) وقوله: «والعمران ووفوره ونفاق أسواقه إنما هو بالأعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب» (المقدمة ص ٢٨٧)، وقوله: «المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فاذا كثرت الأعمال كثرت قيمها» (المقدمة ص ٣٦٠) وقوله: «فلا بد في الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه» (المقدمة ص ٣٨١).

وإذا أطلق العمل على النشاط الإنساني دل على الجهد المنوي أو الأدبي الذي يبذله الفاعل للتغلب على أنانيته .

والفرق بين العمل والفكر أن العمل يدل على النشاط العفوي من جهة ما هو مجموعة من الملكات ، أو على كل ما يحيط بالفكر من عناصر فاعلة تتقدمه أو تهيئه أو تصحبه أو تجاوزه ، إلاّ أن العمل متصل بالفكر وان اختلف عنه . قال ابن خلدون : « أول العمل آخر الفكرة ، وأول الفكرة آخر العمل ، فلا يتم فعل للانسان في الخارج إلا بالفكر في هذه المرتبات لتوقف بعضها على بعض ثم يشرع في فعلها ، وأول هذا الفكر هو المسبب الآخر ، وهو آخرها في العمل ، وأولها في العمل هو السبب الأول ، وهو آخرها في الفكر ، ولأجل العثور على هذا الترتيب يحصل الانتظام في الأفعال البشرية » (المقدمة ، ص ٨٣٩ من طبعة بيروت) ويطلق العمل في علم الميكانيك على حاصل ضرب الطاقة في الزمان ، وفي علم النفس على كل نشاط تلقائي أو مكتسب ذهني أو جسمي ، وفي علم الأخلاق على كل فعل يهدف إلى غاية ويصدر عن إرادة ، وفي علم الاقتصاد على كل مجهود يبذله الانسان لتحصيل منفعة ، وفي الفن المسرحي على الحادثة التي تدور عليها القصة . والأعمال الأربعة في علم الحساب هي الجمع والطرح والضرب والقسمة .

ومن المبادىء المتعارفة بين العلماء مبدأ الاقتصاد في العمل وهو أن الطبيعة لاتتبع في أفعالها إلاّ أقصر الطرق وأقربها ، وهي لاتفعل شيئاً عبثاً بل تريد أن تحصل على أكبر النتائج بأقل جهد . قال ابن خلدون : « ان الطبيعة لاتترك أقرب الطرق في أفعالها وترتكب الأعوص والأبعد » (المقدمة ص ٥٢٩) .

والعملي هو المنسوب إلى العمل وهو ضد النظري . مثال ذلك قول ابن سينا : إن العلم قسمان نظري وعملي ، وقد سمي النظري نظرياً لأن غايته القصوى هي النظر وسمي العملي عملياً لأن غايته هي العمل (ابن سينا) .

وجملة القول إن معنى العمل قريب من معنى الفعل والتأثير والشغل والجهد ، وله ناحيتان إحداهما نسبته إلى الفاعل من جهة شعوره الداخلي بالجهد ، والثانية نسبته إلى الحركات الخارجية من جهة ما هي مظاهر لذلك الجهد . وإذا نسبته مجازاً إلى أفعال الطبيعة كعمل الماء في النار أو عمل الحرارة في الأجسام ، تخيلت أنه أشبه شيء بجهد يبذله الشيء للتأثير في غيره . ذلك معنى قولهم : إن لكل شيء في الطبيعة عملاً ، وإن ما لا يعمل لا بقاء له . وذلك أيضاً معنى قول (فاوست) في البدء كان العمل . وفي هذا القول الأخير إشارة إلى أزلية الصيرورة من جهة ما هي حالة للأشياء ناشئة عن أسباب كامنة فيها ، كما أن فيه تنبيهاً إلى تقدم اللاعقلي على العقلي وإلى اتصاف جميع الكائنات بأحوال تتضمن بذل جهد شبيه بالجهد الذي نشعر به في داخلنا .

وفلسفة العمل (Philosophie de l'action) مقابلة لفلسفة النظر . والمقصود بالعمل في هذه الفلسفة ، كل نشاط انساني مشتمل على الفكر والإرادة والتحقيق الفعلي وكل فلسفة تقدم العمل على النظر ، أو تربط أحدهما بالآخر كالبرغماتية والادادية أو الذرائعية فهي فلسفة عملية .

وتطلق فلسفة العمل أيضاً على فلسفة (موريس بلوندل) المشتملة على توضيح علاقتين إحداهما علاقة النظر بالعمل ، والأخرى علاقة العلم بالإيمان والفلسفة بالدين .

(راجع كتاب موريس بلوندل « Maurice Blondel » : L'action 1893) .

العموم

في الفرنسية Généralité

في الانكليزية Generality

العموم ضد الخصوص ، وهو صفة المعنى العام من حيث شموله لجميع الأفراد . قال ابن سينا : « لو كانت الحيوانيه توجب أن لا يقال عليها عموم أو خصوص لم يكن حيوان خاص أو حيوان عام » (الشفاء ، ص ٤٨٧ — ٤٨٨) .

وللعموم عندنا معنيان أحدهما مجرد والآخر مشخص .

فالعموم بالمعنى المجرد صفة العام من حيث شموله لجميع الأفراد المستغرقة فيه ، وهو مساوق لمعنى الضرورة ، لأن ضرورة المفهوم ملازمة لعمومه ، كما أن عمومه ملازم لضرورته . ولا يختلفان إلا في أن معنى الضرورة يتضمن معنى العموم على حين أن معنى العموم يقتضي وجود الضرورة ولا يتضمنها .

والعموم بالمعنى المشخص أو العيني يشمل جميع الأفراد في صف معين أو أكبر عدد منهم كقولنا عموم التلاميذ أو عموم السكان .

العمى

في الفرنسية Cécité

في الانكليزية Blindness

العمى في اللغة عدم البصر عما من شأنه أن يكون بصيراً ، فالحجر مثلاً لا يتصف بالعمى لأنه ليس من شأنه أن يبصر . وقد يطلق العمى على غير المبصرات فيقال عمى العقل وعمى القلب .

فالمصاب بعمى العقل (Cécité mentale) لا يفقد بصره بل يفقد معرفة الأشياء المدركة بالحس ، وإن كانت مألوفة لديه .

والمصاب بالعمى اللفظي (Cécité verbale) يرى الكلمات المكتوبة ويقرؤها ولكنه لا يفهم معانيها .

والمصاب بالعمى الخلقي (Cécité morale) لا يفرق بين الخير والشر .

وعمى الألوان (Achromatopsie) قسمان كلي وجزئي . فالكلـــي (Cécité chromatique) هو العجز عن إدراك لون بعينه أو عن تمييز ذلك اللون من غيره .

ويطلق على العجز عن إدراك الفرق بين الأحمر والأخضر اسم الدلتونية (Daltonisme) نسبة إلى ج . دلتون (J. Dalton) الذي كان أول من أشار إلى هذه الظاهرة .

العناية

في الفرنسية	Providence
في الانكليزية	Providence
في اللاتينية	Providentia

العناية هي علم الله بما ينبغي أن يكون عليه الوجود حتى يكون على أحسن النظام وأكمله . وهي عند الحكماء مبدأ لفيضـــان الموجودات من حيث جملتها على أحسن الوجوه وأكملها . قال ابن سينا : « العنـاية هي كون الأول عالماً لذاته بما عليه الوجود من نظام الخير . وعلة لذاته للخير والكمال بحسب الإمكان وراضياً به على النحو المذكور فيعقل نظام الخير على

الوجه الأبلغ في الامكان فيفيض ما يعقله نظاماً ما وخيراً على الوجه الأبلغ الذي يعقله فيضاناً على أتم تأدية إلى النظام بحسب الامكان ، (النجاة ، ص ٤٦٦) .

والفرق بين العناية والقضاء والقدر أن القضاء هو وجود جميع الوجودات في العالم العقلي مجتمعة ومجملة على سبيل الإبداع ، على حين أن القدر هو وجودها الخارجي في الأعيان مفصلة واحداً بعد واحد ، أما العناية فهي علم الله بالموجودات على أحسن النظام والترتيب ، وعلى كل ما يجب أن يكون لكل موجود من الآلات بحيث تترتب عليها جميع الكمالات المطلوبة منه . ومعنى ذلك أن في مفهوم العناية تفصيلاً ، إذ هي تعلق العلم بالوجه الأصح والنظام الأكمل بخلاف القضاء فانه العلم بالموجودات جملة .

والخلاصة أن العناية هي إحاطة علم الله بالكل ، وبالواجب أن يكون عليه الكل حتى يكون كل شيء على أحسن نظام يحقق به غايته . فاذا كان العالم خاضعاً لنظام ثابت ، وكان لهذا النظام قوانين أرادها الله لخيرية نتائجها كانت العناية عامة . وإذا كان الله يتدخل في شؤون العالم تدخلاً شبيهاً بتدخل الإنسان في مجرى الحوادث كانت العناية خاصة . قال مالبرانش : إن عناية الله قسمان ، أحدهما ان الله لما خلق العالم وبدأ بتحريك المادة أجرى إرادته بأن لا يكون في الطبيعة وفي تعلقها بنعمته أقل خلل ممكن . والآخر أنه كلما شاهد في نظام الطبيعة خللاً أصلحه بمعجزاته شريطة أن يؤدي ذلك إلى تحقيق النظام المطلوب . لأن النظام عند الله قانون كلي لا يتخلى عنه أبداً .

العنصر

في الفرنسية	Elément
في الانكليزية	Element
في اللاتينية	Elementum

العنصر في اللغة الأصل والجنس، يقال فلان كريم العنصر، وفلان من الآري والسامي. وجمعه عناصر، وتسمى أيضاً بالأمهات والمواد والأركان والاسطقسات. قال ابن سينا: «العنصر اسم للأصل الأول في الموضوعات فيقال عنصر للحمل الأول الذي باستحالته يقبل صوراً تتنوع به الكائنات» (رسالة الحدود)، وعنصرا الجسم عنده هما المادة والصورة. وقال الخوارزمي: «الأسطقس هو الشيء البسيط الذي منه يتركب المركب كالحجارة والقراميد والجذوع التي يتركب منها القصر، وكالحروف التي يتركب منها الكلام، وكالواحد الذي يتركب منه العدد» (مفاتيح العلوم ص ٨٢).

ومعنى ذلك كله أن عناصر الأشياء أجزاؤها البسيطة، وعناصر اللغة ألفاظها، وعناصر المعرفة مبادئها، وعناصر المثلث خطوطه وزواياه، وعناصر المجتمع أفراده.

ويطلق العنصر في الكيمياء على المادة الأولية التي لا يمكن تحليلها إلى ما هو أبسط منها، إما نسبياً وإما مطلقاً. فالذرة في الكيمياء عنصر بسيط ولكنها في الفيزياء الذرية شيء مركب، وكل ما يدخل في تركيب الشيء فهو عنصر له كالهيدروجين والأوكسيجين في تكوين الماء، والأفكار في إنشاء المقال، والأجزاء في تركيب الآلة، والكتائب في تأليف الجيش.

والعناصر عند القدماء أربعة وهي النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

وعنصر القضية عند المنطقيين هو الكيفية الثابتة للنسبة بين طرفيها وتسمى مادة القضية .

العين والعيني

في الفرنسية	Concret
في الانكليزية	Concrete
في اللاتينية	Concretus

العين ما يدرك بإحدى الحواس الظاهرة أو بالخيال ويسمى بالصورة أيضاً ، ويطلق على ماقام بنفسه جوهراً كان أو جسماً ، ويقابله المعنى وهو ما قام بالغير كالأعراض والوجود العيني هو الوجود الخارجي المقابل للوجود الذهني ، والأعيان الثابتة هي صور العالم .

واسم العين هو الاسم الدال على معنى يقوم بنفسه كزيد ، واسم المعنى هو الاسم الدال على معنى لا يقوم بنفسه وجودياً كان كالعلم أو عدمياً كالجهل . وقد يراد باسم المعنى مادلّ على شيء باعتبار معنى صفته سواء كان قائماً بنفسه أو بغيره كالمكتوب والمضمر . والعيني هو المشخص الذي يدل على الظواهر الجزئية مرئية كانت أو مسموعة ، والعيني أيضاً هو الذي يصور المعاني العامة بأمثلة محسوسة . فاذا صورت الفضائل بالأمثلة الحسية كان تعليمك للأخلاق عينياً مشخصاً ، وإذا استخرجت الفضائل من المبادىء العامة كان تعليمك مجرداً .

والعيني مادل على الشاخص ، أي على الموجود بالفعل لا على كيفية من كيفياته فقط ، وهو ضد المجرد ، وفيما يلي أمثلة من أسماء العين والأسماء المجردة .

أسماء العين	الأسماء المجردة
الموجود	الوجود
الإنسان	الإنسانية
الحكيم	الحكمة
الأبيض	البياض

والوجود في الأعيان مقابل للوجود في الأذهان .

(يتبع) جميل صليبا



الثقافة الإسلاميه بالمغرب

بين المرابطين والموحدين

كان الشرق الإسلامي في عنفوان ازدهاره ، وريعان إشراقه ، بالحكمة الدينية الطلية الثرى ، الراسخة الأعراق ، الملتفة الأغصان ، التي أثمر في روضتها اليانعة : المنطق ، والـكلام ، وأصول الفقه ، والجــــدل ، والفقه ، والتصوف .

وكان العقل الإسلامي قد اقتدى بالإمام الغزالي وسار على محجة التطور البعيدة المراحل ، وراء تلك الشعلة الوضاءة من المعرفة والرشاد .

لما كانت بلاد المغرب العربي ، من أقصى الأندلس إلى افريقية ، قد وقعت في أزمة خانقة من أزمات العقل والمعرفة ، بظهور قوة ناشئة خرجت من وسط افريقية ، مندفعة بحرارة إيمانها ، تقطع رمال الصحراء الكبرى إلى ضفة وادي درعة ، وواحات سجلماسة ، فاذا وهاد المغرب ونجاده تقبل بأعناق المهاري الصهب ، قد تمكنت من غواربها أجسام بشرية ملتحفة الأثواب الزرق ، ومتلثمة بها ، يلين الحديد ولا تلين ، وتخبو النار ولا تنطفىء حرارة تلك النظرات المتقدة بين أطباق اللثام .

أولئك هم المرابطون الذين انبعثوا ينشئون عاصمة المغرب الجديدة : مدينة مراكش ، ويمدون رواق سلطانها على طول العدوة الافريقية ببلاد المغرب ، ثم يرمون بحبل النجاة إلى العدوة الأندلسية ، في يوم الزلاقة العظيم ، لتقوم الشوكة وتحيي الدولة تحت ظل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

كانت هذه الحركة رشيدة في الحكم ، سديدة في السياسة ، منقذة للاسلام من الخطر الذي داهمه في بلاد الأندلس ، ولكنها كانت سلطة قوية ، وإيماناً نقياً ، يشد السواعد ، ويقوي النفوس ، من قوم بعداء عن الحضارة والعلم ، متجافين عن النظر الحكمي العميق ، متمسكين بالفطر الأولى ، مقتنعين بنتائج الأنظار الساذجة .

فكان من أثر ذلك انهم لما وجدوا في أقطار المغرب العربي التي انتظمت في سلطانهم ، وجدوا تبايناً في الأنظار ، وتخالفاً في المذاهب بين الجانحين إلى شواهق الحكمة النظرية ، والمخلدين إلى بسائط الظاهر المأثور ، ووجدوا آثار ذلك الاختلاف بادية في طرائق الدرس والتأليف ، ومناهج التربية والتعلم .

فكان من الضروري أن ميلهم يتجه إلى مساندة أبسط المناهج وأقربها من متناول إدراكهم ، وانهم إذا وجدوا الاختلاف راجعاً إلى الدين وطرائق فهمه ، بادروا ببساطتهم إلى الإسراع بالحكم بأن الذي انشرحت إليه صدورهم من ذلك هو الدين فقط ، وبادروا - بما هم عليه من حرارة الإيمان - بأن ما خالف ذلك جدير بالدحض والمقاومة ، وان ينزل بمن يقول به ما هو أهله من مقت وعذاب .

وعلى ذلك وجد المرابطون في مدينة قرطبة نزعة تقليدية التزامية ضيقة ، طالما ناءت بكلكلها على أهل البحث والنظر ، وأحرقت مواهب العلم الحق ، والفقه الصحيح ، إذ سارت على طريقة التقليد ، بحيث أصبح عمل المقلدين حجة لا يلتفت بعدها إلى كلام أيمتهم الأولين ، وهذه هي النزعة التي شكا منها القاضي أبو بكر ابن العربي في كتاب العواصم بثه وحزنه مما لقي نبغاء العلم بالأندلس من عنت أهل قرطبة ، قال : « صار التقليد ديدنهم والاقتداء بنيتهم فكلما جاء أحدهم بعلم حقروا أمره ودفعوا في صدره الا أن يستتر عنهم بالمالكية ، ويجعل ما عنده من علوم على وسم التبعية ، فان

جاءهم بفائدة في الدين وطريقة من سلف الصالحين وسرد لهم البراهين عرفوا جوانبه وتجنُّوا عجائبه ، وعيبوا حقه استكباراً وعتواً ، وجحدوا عليه وقد استيقنته أنفسهم ظلماً وعلواً ، وقد زاد في تأصيل هذه الحالة وإحكامها العملية الكبرى التي كان قام بها ، منذ القرن السابع ، الحاجب المنصور ابن أبي عامر بقرطبة عند موت الخليفة المستنصر الحكم بن عبد الرحمان الأموي وولاية ابنه هشام المؤيَّد ، فانه عمد إلى خزائن المستنصر وأخرج منها كل ما كان استجلبه من المشرق من عيون التآليف في العلوم الحكمية ، قديمة وحديثة ، فأمر بإحراقها وإهلاكها ، وقد وصف صورة ذلك القاضي صاعد في كتاب طبقات الأمم وقال : إن المنصور إنما فعل ذلك تحبباً إلى عوام الأندلس وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم .

وقد استمرت هذه النزعة النربية المستولية على مدينة قرطبة تزداد ضيقاً وحدة وعنفاً ، وتعصف فتنها على التوالي بأعلام بارزين في غزارة العلم ومتانة الدين ، حتى دخل يوسف بن تاشفين إلى قرطبة ، فتجانست نزعته الشخصية مع تلك النزعة ، واشتد تأثره بها ، وعظمت نقمته على الذين لا يتولونها ، ولا يسلكون سبيلها ، فأصبح سلطانه ناراً مسعرة على أهل البحث والاجتهاد في الفقه ، وسيفاً قاطعاً للمشتغلين بالكلام والحكمة ، فهجر بذلك النظر في الأصول ، وتمسّك الناس بظواهر العقيدة السلفية ، والتزموا في الفقه النصوص الفرعية ، وتجافوا عن طرق التخريج في الفقه والتأويل في العقيدة .

وتفاقم أمر هذا التضييق بعد وفاة يوسف بن تاشفين في عهد ابنه علي الذي ولي عرش مراكش في نهاية القرن الخامس فكان في عهده الضغط الذي تعدّى إلى درجة النفي ، والاعتقال ، ونهب المنازل ، وإثارة المظاهرات الصاخبة ، ومصادرة الكتب ، وإحراقها ، وتمزيقها .

ولقد أحس علي بن يوسف والذين تظاهروا معه على ما كان يضطلع به من قتل للنبوغ العلمي : ان تلك الحركة التي ظهرت بالشرق فألفت بين الحكمة والدين حتى أخرجت شطأها في كتب حجة الإسلام الغزالي هي التي تمد روح التحرر الفكري بالأندلس بمادة انتعاشه ، وترش من ماء العلم على تلك القلوب الميتة ، كما قال ابن العربي ، فعرفوا أن في كتب الغزالي حجة لا تدحض على ما كانوا يغالبون في سبيل دحضه من الجمع بين الحكمة والشريعة والحقيقة لمن أخذ بمعاقد العلوم من أعلاها ، فتآمروا على أن يحولوا بين كتب الغزالي وبين الناس ، إذ لا يمكن أن يدفع تأثيرها غير ذلك كما قال البحتري :

شجو حساده وغيظ عداه أن يرى مبصر ويسمع واع

حتى بلغ الأمر إلى أن أقيم مجمع بقرطبة لإحراق كتاب الإحياء للغزالي ، وصدرت الأوامر إلى أطراف السلطنة المرابطية بإحراقه ، واعتقل في مراكش من كان يتوسّم فيه إنكار تلك الفعلة من أنصار العقيدة الأشعرية ، وأتباع الطريقة الغزالية القشيرية : مثل ابن العريف الذي مات أسيراً في مراكش ، كان هذا الضغط البالغ القاسي يجد في وجهه إنكاراً أبلغ ، وتحدياً أقسى ، إذ كانت المدارك العلمية الواسعة والأفكار النيّرة قد تشربت عقيدة الأشعريّ ودرجت على نهجها ، واتّخذت كتب الغزالي دليلها على ذلك المنهج ، وطار صيت الغزالي إلى المغرب ، فارتفع وعشش ووجد نابغة البلاد التونسية ومجتهد المذهب المالكي ومجدّده الإمام أبا عبد الله محمداً المازري يحميه مقامه تحت الحكم الصنهاجي بتونس ، من طائلة المرابطين وغائلتهم فوجدوا فيه أخاً معاوناً على خدمة الأشعرية ، ومشاركاً في الارتواء من منهل إمام الحرمين ، فقد أقبل المازري على كتب إمام الحرمين والغزالي في أصول الفقه ، يقرّرها ويعلّق عليها بما هي أهله ، وكتب على كتاب البرهان لإمام الحرمين شرحين

أحدهما بتتبع النصّ والآخر بمسايرة المعنى ، يذكر فيها الغزالي ذكراً مردداً مع ذكر القاضي أبي بكر الباقلاني والأستاذ أبي اسحاق الاسفرايني ، ويكثر من قرن الغزالي بإمام الحرمين معبراً عنه بكنيته « أبو حامد » ومخصصاً إمام الحرمين بلقب « الإمام » ومنتصباً لتعزيز كلام الغزالي وتوجيهه ، كانتصابه لتقرير كلام إمام الحرمين في ما يختلف فيه إمام الحرمين عن الغزالي من تفاريق المسالك ، وبهذه الدراسة الأصولية تمكّن المازري من تحرر واسع في تقرير الأحكام الفقهية على منهج اجتهادي هو منهج الاختيار والترجيح الذي جعل أعلام طريقته فيه شيخيه : أبا الحسن اللخمي ، وعبد الحميد الصائغ ، فكان هذا التجاوب بين الغزالي والمازري من أقوى العوامل في الخروج بمقام الغزالي عن الدائرة المذهبية الضيقة ، إلى دائرة الحكمة الإسلامية المشاعة ، وكان هذا الصيت الذي طار له بالمغرب على لسان الإمام المازري ، قد طار نحو الغزالي بقلوب الشبان النابغين من أبناء المغرب الكبير المتطلعين إلى أرواح الحكمة السامية المنبعثة من بين أردانه فهجروا أوطانهم وشدوا الرحلة للقيا حجّة الإسلام .

وكان في مقدمة هؤلاء النوابغ الإمام الشهير الحافظ القاضي أبو بكر ابن العربي الذي كانت رحلته مبدأ فتح فكري ، والإمام المهدي محمد بن تومرت التي كانت رحلته مبدأ فتح سياسي .

كان أبو بكر ابن العربي برماً بالوضع الذي عليه العلوم الدينية في الأندلس ، متطلعاً إلى منبع الحكمة الأشعرية ، مشوقاً إلى لقيا الغزالي ، فسافر مع والده سنة ٤٨٥ هـ . في مقتبل شبابه وقصد المدرسة النظامية ببغـــداد ، إلاّ أنه وجد الغزالي قد انقطع عن الدرس والعلم وأقبل على طريقة الرياضة الصوفية والخلوة والسياحة ، وخرج من بغداد إلى الحجّ ، ثمّ إلى الشام ومصر ، فأقام ابن العربي في بغداد خمس سنين متحرّقاً على أنه لم يظفر

بمطلبه في لقاء الغزالي ، مستوحشاً من ذلك الفراغ الذي خلفه وراءه في بغداد ، والحسرة التي سادت بسبب ذلك ساحات المدرسة النظامية وعامة أوساط العلم في بغداد حتى كان من عجائب الأقدار أن الغزالي دخل إلى بغداد في سنة ٤٩٠ هـ . في طريق عودته من الشام إلى إيران ، فأقبل عليه ابن العربي إقبال المشوق اللهفان ، وتلقاه الغزالي بقبول طيّب ، وتفرغ له بصفة خاصة ، فقرأ عليه محاورة ومناقشة ، وتمكّنت منزلته العلمية من نفسه ، واطمأن إلى طريقته الحكمية الدينية ، وكان يلقّبه تودّداً وتحياً بلقب تعظيم فارسي هو لقب « دانشمند » .

وعاد ابن العربي إلى الأندلس يهاجم ويناظر ويفيض غيوث الأنظار العالية محاضرة ، وتدريسا ، وتحريراً ، وينقح الفقه المالكي بتحقيقه لمناط الأحكام ، ونظره في أدلتها ، ونقضه على الفقهاء ما كان يفتون به تقليداً أو عن ضعف دليل ، فملأ كتبه النفيسة المعجبة بذكر الغزالي ، والتعلق بمتين محبّته ، وجليل إعظامه ، والتلذذ باعادة محاوراته ، وتجديد مطارحاته ، ومقابساته ، مع أن ما تشربه من حرية البحث وكرامة المعرفة ، كان يدفع به إلى مناقشة أستاذه وحبيبه دانشمند في كثير من أقواله وآرائه ، مثل بحوثه المستفيضة معه في كتاب « العواصم من القواصم » حول مسألة إدراك النفوس بذاتها للحقائق بطريق الانكشاف وتأثيرها في الغير عند التجرّد ، ولم يسلم ابن العربي ممّا أصاب أسلافه من فحول العلماء من المحن ، فقد استهدف فتناً كثيرة ، وثورات عليه هوْجاء ، نهب فيها منزله ، وأحرقت كتبه ، حتى انتهى أمر المرابطين بظهور الدعوة الموحدية التي أسسها المهدي ابن تومرت ثاني الاثنين اللذين جعلناهما على رأس الراحلين من المغرب للقاء الغزالي ، وكأن الأقدار أرجعت المهدي إلى المغرب ليثأر للغزالي من الذين أرادوا إنكار فضله ، وغمط حقّه ، بإحراق كتاب الإحياء ، وهم المرابطون ،

فكانت دعوة المهدي بن تومرت عاملاً في إقامة دولة الوحدين التي أسقطت دولة المرابطين وورثت عاصمتها ، فأقامت على مبادئ الأشعري وطرائق الغزالي ، أقوى دولة عرفها تاريخ الإسلام في المغرب على يد عبد المؤمن بن علي ، ولم تنته حياة ابن العربي حتى اشترك في إقامة تلك الدعوة ، وقصد من إشبيلية إلى مراكش ليقف بين يدي عبد المؤمن خطيباً بلسان أهل إشبيلية ، وكأنه قنع من الدنيا ببلوغ ذلك الموقف فكانت وفاته في طريق عودته من مراكش قرب مدينة فاس التي دفن أمام سورها .

كان المجتمع الإسلامي بالمغرب العربي قد أحس بوطأة الضغط الشديد الذي ضيّق عليه الأنفاس في ما أحاطت به من هيكل جسمه قبضة حكم المرابطين .

وكانت الأعضاء التي خرجت عن تلك القبضة الحديدية الخانقة وهي البلاد الشرقية في الشمال الإفريقي تتداعى ألماً وغماً من ألم الضغط النازل على سائر الأعضاء التي كانت يد المرابطين تعصبها عصب السلمة وكان هذا الألم يقوى ويشتدّ عندما تشعر المناطق الغربية من هذا الشمال الإفريقي بأن حكم أهل اللثام قد أقام بينهم وبين بقية بلاد المغرب العربي سدوداً حاجزة ، فكّكت الأوصال ، وقطعت الأرحام ، وجعلت الفرقة سارية في روح الوحدة القومية الكبرى ، لما تجاوزت بها حدود الفواصل السياسية وأوضاع الدول ، إلى مفاوز الفروق الاعتقادية والمنازعات الدينية .

على أن ما كان للمرابطين من عمل سياسي مجيد في إنقاذ الأندلس وتوحيدها وضمها إلى مملكة الإسلام في المغرب الإفريقي ، وإن أكسب تلك الدولة قوّة نفوذ وحسن قبول ، فقد زاد في الحسرة التي امتلكت القلوب من جراء الفتنة الاعتقادية التي أبعدت المجتمع عن تحقيق مثله العليا على نسبة ما قربت آماله في تحقيق تلك المثل بانضمام الأندلس .

فالحركة الفكرية الناشطة في البلاد التونسية ، بتواصلها مع مراكز الثقافة الإسلامية في الشرق ، وبعد صيت محورها الإمام المازري وخصب نتاجه العلمي المنافي لاتجاهات الحكم الرابطي ، كانت بذلك كلّه مدداً مغذياً لروح الصلابة في التجافي عن طرائق العقائد الرابطيـــة وجمْراً مذكياً لروح التمرّد عليهم والثورة في وجوههم ، فكانت حلق العلم منابع فياضة بالتوجيه إلى العمل الإيجابي في سبيل حماية الحرية الدينية والحفاظ على شعلة الحكمة الكلامية العالية التي كادت حركة الرابطين أن تطفيء نورهـا ، عمّ ذلك جميع البلاد التي انتظمت في حكم الرابطين بالأندلس والمغرب الأقصى والبلاد الجزائرية ، فكان الناس يشدّون الرحلة من تلك الأقطار مترامين على مجالس دروس الإمام المازري بالمهدية ، مثل ما جاء أبو بكر ابن العربي ، وعبد المنعم ابن الفرس ، وأعلام من نبغاء الفكر والأدب ، علاوة على الذين لم يتمكنوا من الرحلة فقنعوا بالاتصال بالامام المازري . بطريق المراسلة ، يستجيزونه ، ويطلبون كتبه ، ويستمطرون من فوائده ، ويطارحونه المسائل ، كما فعل ذلك القاضي عياض وابن رشد الحفيد ، وبمثل ذلك علا نجم المازري في أفق المغرب كله بين عدوتيه الافريقية والأوربية حتى عرف « الإمام » لقباً غالباً عليه فكان اسمــــه واسم الغزالي اسمين مقترنين تتعلق بهما أنظار المستهدين على طريق الحكمة الإسلامية ، كما يهتدى بالفرقدين .

وكان من عجيب القرانات إن إشراق هذين الكوكبين في سماء الفكر يقابله أفول طامس اعترى نجم الحكم الرابطي بدخول الدولة في دور الوجود الأجدب ، لما فارقت نشأتها الساذجة ، وطلعتها الحادة ، وأخلدت إلى النعمة والترف ، والبذخ واللذة ، فأضاعت شبابها لما أضاعت عصبيتها الدينية الصلبة الطاهرة ، وأقبلت على الهرم المضني ، والشيخوخة الفانية ، وتجرّدت عن محاسنها ، وتمحضت لمساويها ، وتشرب منها المجتمع روح الانحلال فانتشرت فيه المفاسد وسادت الشهوات وسيطرت الأنانية .

وكان هذا القران العجيب ، بين نجم صاعد ونجم آفل ، قرانا لا يدرك بالتنجيم والحزاء ، بل يدرك بالذكاء والدهاء ، والفطرة السليمة ، والسياسة القويمة ، وذلك هو ما أعطيه شاب من قبائل المصامدة ، سكان الأطلس الكبير ، كان يشرف من صياصي الجبال الشم على مدينة مراكش فيتوسم فيها ما حدثته به النفس التواقة من أن يوما قريبا سيأتي على المدينة الحمراء تبكي فيه من بناها ذلك هو محمد بن تومرت ، نشأ في بيت بربري من بيوت الرباط والنسك ، فشب قارئا ، محبا للعلم ، متشربا بروح الثقافة العربية الإسلامية ، وكان هذا العنصر البربري الجبلي الذي ينتسب إليه ابن تومرت يشعر بمكانته المظليمة من الأرض التي استقرت فيها دولة المرابطين ، ويدرك شأنه العظيم في إسناد تلك الدولة بمسالمتها وتأمينها ، ويعلم ، إلى جنب ذلك ، أن دولة الملثمين لا تؤتى إلا من جهة ذلك التيار الديني القوي الذي تريد أن تدافع سيوله ، تيار العقيدة السنيّة التي عليها الخلف من أجيال المسلمين الصالحين ، وحياك في نفسه هذا التوقع لقرب مصرع الدولة اللمتونية ، فأصبح مرتبطا بذاتيته حتى اقترن بها وتقمّصها ، وأصبح محمد ابن تومرت في نظر نفسه هو روح الفناء المنبعثة على دولة المرابطين ، وأحس بأن كل عمل في سبيل تكوين شخصيته وإنمائها ، وتربية كيانها الأدبي ، هو سلوك لطريق القضاء على الملثمين ، واستشرف بنظره إلى الجهة التي كان يتنسم منها أنفاس المقاومة المستمدة من توجيه الحكمة الإسلامية الجديدة ، فخرج من وطنه وليس أمام عينيه إلا المازري والغزالي ، ودخل البلاد التونسية ، ثم قصد مصر ، والحرمين الشريفين ، والعراق ، وكانت العراق يومئذ مركز الحركة الحكمية التي اتجه بها الإسلام وجهته الجديدة ويذكر الكثيرون ممن ترجموا ابن تومرت : أنه لقي الإمام المازري بالمهدية ، ولقي الإمام الغزالي في بغداد ، وقد ذهب الزاعمون في اجتماعه بالغزالي إلى أبعد

من ذلك ، إغراقاً في الوهم ، فجعلوا الغـــزالي يخبره من مستقبل أمره بعلم خفي ، ويخبره بالدولة التي سيقيمها ، وكلّ هذه أخبـار واهية لا دليل عليها ، بل الذي يقتضيه ما ذكره المؤرخون ، من تاريخ دخول ابن تومرت إلى العراق : أنه لم يلق الغزالي أبداً ، لأن الغزالي لم يكن يومئذ بالعراق بل انّ أكثر مدّة إقامة ابن تومرت بالمشرق كانت بعد وفاة الغزالي .

ولكن الأمر الثابت : أن هذا العبقري البربري قد تشرب في رحلته المشرقية الحكمة الأشعرية ، وتعلّق بها ، لما كان لها من الانسجام مع تطلعه إلى قوّة تؤثر في تقويض ملك المرابطين ، فجعل التعلق بالأشعرية والانتصار لها درعاً استلأم فيها لمهاجمة قرنه وجعل المهدوية السيف الذي يحمل به ، وسواء أصحّ لقاء ابن تومرت للغزالي أم لم يصحّ فما من شكّ في أن ابن تومرت كان على منهج الغزالي وأنه قد وجه دعوته وعمله على ذلك المنهج .

إلاّ أن الذي يرجّح في نظرنا أن الأشعرية والغزالية لم يكونا عنده غاية مقصودة بالخدمة والنصرة وإنّما كانتا وسيلة لتحقيق مقصد سياسي ، إنه قد انتحل ، إلى جنب أشعريته ، عقيدة ينكرها الأشاعرة ويدحضونها ، كما ينكرها أهل السنّة قاطبة وهي عقيدة الإمام المعصوم ، التي يقول بها الشيعة الإمامية ، وتلك هي التي قال فيها ابن خلدون : إنه لم تحفظ عنه فلتة في البدعة غيرها .

ومن هنا نستطيع أن نتتبع مراحل الحرب الفكرية الاعتقادية التي شنّها محمد بن تومرت على دولة المرابطين ، حتى انتهت إلى حرب دامية ، قضت على المرابطين ، وعفت آثارهم في ميداني الحكم والعلم .

فقد ابتدأ ابن تومرت ظهوره في البلاد المغربية من ليبيا، وكان ظهوره ذلك في صورة عالم سنّي أشعري ينتصر للعقائد السلفية بالحجج العقلية، ويأخذ بطريقة تأويل المتشابه، ويعتني بإبراز هذه الطريقة وإظهار النكير على الذين عدلوا عنها، ويجنح مع ذلك إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقدم على تغيير المنكرات التي كانت متفشية يومئذ في المجتمع المغربي، فكان بهذا العمل يثير الثائرات ويتعرّض للأذى. وتنقل على هذا المسلك من طرابلس إلى المهدية، إلى بجاية إلى جبال الونشريس، إلى تلمسان، إلى فاس، إلى مكناس، إلى مراكش، عاصمة الدولة، وكان ملكها يومئذ علي بن يوسف، وفي هذه الرحلة لقي ببجاية أول أتباعه عبد المؤمن بن علي الكومي، فلازمه في بقيتها إلى مراكش، وفي مراكش ابتدأت مقارعات ابن تومرت ومناظراته، وفيها تهجّم لأول مرّة على الأمير علي بن يوسف ابن تاشفين بوعظ في جامع المرابطين، يوم الجمعة، أغلظ له فيه القول، ثم خرج إلى أغمات وجرت له فيها مناظرات خرج بعدها مختفياً في خفارة القبائل البربرية في جبال الأطلس، ثمّ قصد بلاد السوس فنزل في قبيلته هرغة سنة ٥١٥ وبنى هنالك رباطاً للعبادة والتعليم، وألف مختصراً في العقيدة سماه «المرشدة» جعله باللسانين العربي والبربري، وأخذ يعلّمه الناس عامة وخاصة: من طلبة رباطه، وعامة القبائل في أرض السوس، ولقّب أتباعه الموحّدين، وتلقّب بينهم بـ «الإمام» وسار في تأليف تلك الجماعة وتوجيهها على التدرج في الدعوة والتعليم للوصول إلى الغاية المقصودة، على نحو ما هو مسلوك عند دعاة الشيعة الباطنية من ترتيب الدعوة ومنازلها.

ولمّا لاحظ ابن تومرت أن الدعوة المرابطية السلفية قد أقنعت الناس بوجوب اتباع السنة وتحصيل الأحكام الفقهية منها، فقد بنى ترتيب دعوته على بيان طريق تحصيل الفقه في السنة فبسط في ذلك كلاماً أوله «أعزّ

ما يطلب وأفضل ما يكتسب وأنفس ما يدّخر وأحسن ما يعمل العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كلّ خير » ، وقد اشتهر هذا الكتاب باسم مفتتحه وهو قوله « أعزّ ما يطلب » فصار لقباً عليه ، وقد بني هذا الكتاب على مباحث : ترجع إلى الأخبار ، وطرق النقل ، والفرق بين التواتر وأخبار الآحاد ، بصورة عليها سمة من طرائق الأصوليين من الأشاعرة ، في الفكرة والعرض والمصطلح ، ثم عقد كتاباً خاصاً للصلاة والطهارة جعل مداره على استخراج الفقه من الأحاديث وتنزيل نصوص القرآن ، ثم كتاباً في الدليل على أنّ الشريعة لا تثبت بالعقل بيّن فيه معنى القياس باعتباره راجعاً إلى دلالة اللفظ ، ثم يأتي كتاب آخر للكلام على مباحث الألفاظ ، من العموم والخصوص ، والمطلق والمقيد ، والناسخ والمنسوخ ، والحقيقة والمجاز ، وغيرها ، على طريقة علماء الأصول ، فعندما يطمئن أنه قد ربط التلقين بتوجيهات علم أصول الفقه ، يبتدئ كتاباً للكلام على العلم وطرق تحصيله ، ثم آخر للكلام على المعلومات وأقسامها ، وآخر للكلام على الوجود وتقسيمه ، لإثبات واجب الوجود على طريقة علماء الكلام حيث يتدرج من السنة الأثرية إلى الكلام المنطقي بصورة غير مشعور بها ، ثمّ يختم ببيان معنى العبادة وشروطها وكيفية ربط التكاليف العملية بالأصول الاعتقادية ، وتعليم من هم مظنّة السؤال عن ذلك طرق الإرشاد واختلاف أحوال المسترشدين ، ومن هذا كلّه ينتظم كتاب الدعوة الموحّدية المشهور باسم « أعزّ ما يطلب » ، وإن كان مفصّلاً على كتب مفتتح ومختوم كلّ كتاب منها بما يوهم أنه تأليف مستقلّ ، على طريقة المتقدمين في تقسيم التأليف الواحد إلى كتب يستقلّ بعضها عن بعض ، ويعتبر هذا التأليف وهو « أعزّ ما يطلب » ثاني تآليف ابن تومرت بعد « المرشدة » .

وله كتاب ثالث هو كتاب العقيدة وهو سالك مسلك كتب العقائد الأشعرية المتأثرة نهج كتاب التمهيد لأبي بكر الباقلاني ، مع اختصار وجنوح إلى الرواية ، ويتبع كتاب العقيدة تسابيح للتذكير بقواعد التوحيد والتنزيه ، وبعد ذلك يأتي كتاب رابع هو بيت القصيد ، وهو كتاب الإمامة ، فيبتدئه بتقرير عقيدة لزوم الإمام المعصوم وسوق علاماته ، التي يشير بها إلى نفسه ، ثمّ ينتقل إلى بيان ما عليه طوائف أهل الباطل الذين يسمّيهم بالمثمّين ويطبق عليهم أخباراً نبوية عن سوء مصيرهم في الآخرة ، ويصف ما أحدثوه من المناكر حتّى ينتهي إلى وجوب مخالفتهم وتحريم معونتهم ، ثمّ إلى وجوب جهادهم وفضل الصبر على ذلك الجهـــاد ، وتبشير الذين يجاهدونهم بأنهم الموعودون بما وعد به القائمون على الحقّ ، وبيان أركان الإيمان التي يجب أن يتمسّك بها أتباع تلك الطائفة الموعودة بالنصر ، حتى ينتهي إلى تقرير أحكام الجهاد ، شاملاً الجهاد بالنفس والجهاد بالمال .

وقد جمع هذه المقالات وأملاها تلميذه الأول ومؤسس دولته عبد المؤمن ابن علي فأملاها ونسجت من إملاءاته وأسند سماعها إلى مجالس سنة ٥١٥ في رباط هرغة ، فكانت دستور دولة الموحدين والدول التي قامت على أسسها في شمالي افريقيا والأندلس ، وكانت إلى جنب ذلك مكونة لحاصل عظيم الأهمية في تاريخ الفكر هو إعداد الجوّ الفكري في المغرب العربي لحياة الحكمة الأشعرية وبعث حركتها ناشطة من عقالها ، لإبراز النتائج المبنية على المؤاخاة بين فروع الثقافة الإسلامية : مؤاخاة تغذي الدين بالحكمة ، فلقد كانت الصدمة المنيفة التي اصطدم بها تيار النظر الحرّ ، الجامع بين الدين والحكمة ، من طرف المنصور بن أبي عامر ، ثمّ من طرف المرابطين ، صدمة ذات أثر بعيد في وقف حركة التقدّم الفكري ، وقطع ما بين الدين والحكمة من عوامل التلاقح ، التي ازدهرت بها الحكمة الدينية في المشرق .

وكما حكى ابن العربي أن أصحاب الحكمة الدينية العليا كانوا يستترون بالتقليد المذهبي في الفقه ، ويجعلون نظرتهم في علم الكلام تابعاً خفياً ، فكذلك كان الحكماء المتفلسفون يتظاهرون بالاقتصار على علم الطب والعلوم الحسابية ، ويكتمون ما عندهم من الحكمة ، مستترين بما يظهرونه مما تجوز لهم فيه مثل الحساب والفرائض والطب ، كما حكى ذلك القاضي صاعد في كتاب طبقات الأمم .

ولقد كادت الحكمة أن تعاود عهد ازدهارها بالأندلس ، عند سقوط قرطبة وقيام ملوك الطوائف ، لولا أن الخطر الاسباني ، ثمّ الحكم المرابطي ، قد قطعا دونها ذلك الأمل ، فانكفأ الحكماء إلى بيوتهم عاكفين على كتبهم منطوين على أنفسهم وما منهم إلاّ متمثّل بالبيتين القديمين لابن عبد ربه الحفيد :

لما عدمت مؤانساً وجليسا نادمت بقراطـاً وجالينوسا
وجعلت كتبهما شفاء تفرّدي وهما الشفاء لكل جرح يوسى

فلمّا انتصرت الحكمة الدينية متمثلة في المهدي ابن تومرت على المرابطين ، وأدالت دولتهم ، كان ذلك الانتصار رافعاً لحاجز كان قائماً في طريق تقدّم الحكمتين ، وحائلاً دون تواصلهما ، فاندفعت بارتفاع الحاجز القوّة المكبوتة واستأنفت سيرها من حيث وقفت ، بما بقي مكنوناً فيها من فاعلية تيار السير المقطوع .

هنالك أبرز العلماء ما كانوا يضنون بابرازه : من كتب الحكمة والكلام وأصول الفقه والجدل والتصوف ، وأظهروا نظرهم فيها ، وتدارسهم لها ، وصدعوا بالتنويه بها وتمجيدها ، وصرحوا بما بين ما كانوا يظهـرون ، وما كانوا يخفون ، من وحدة لا ترضى بتفكّك أوصالها .

وبهذا الاندفاع الجديد أصبحت طائفة العلماء ، من أهل الحكمة الدينية ، وأهل الحكمة الفلسفية ، ظهيراً للدولة القائمة دولة الموحّدين ، لا في سلبية

التوارد على كراهية الحكم الرابطي فحسب ، بل في إيجابية المثل الأعلى من توجيه الدين بالحكمة ، وتحليله بالمنطق ، وهو المثل الذي بدا في مذهب الإمام المهدي ، وما يقوم عليه ذلك المذهب من قواعد الحكمة الإسلامية ، التي أسسها الأشعري ، وأسندها الغزالي .

وبذلك أصبحت لابن تومرت منزلة مشاعة بين عصبيتين متظاهرتين : عصبية سياسية تمثلها دولة عبد المؤمن بن علي وأشياعها ، وعصبية مذهبية يمثلها المتطلعون إلى نصرة الحكمة الدينية المحجوزون طويلاً في ما مضى من دولة الرابطين على مواصلة سبيلهم نحو ما تحرّقوا عليه من إعلاء شأن الحكمة ، وارتبطت ثانية العصبيتين بأولاهما حين بادر المتمسكون بالأشعرية والمازرية ، في الكلام المدلل والفقه المعلل ، إلى الاتصال بسمد الدولة الموحدية ، كما سافر القاضي أبو بكر ابن العربي إلى لقيا عبد المؤمن بمراكش .

ومن جهة أخرى بادر المتمسكون بالتعاليم الفلسفية والأنظار الحكمية إلى هذه الدولة يؤازرون المتكلمين والفقهاء في تأييدها ونصرها ، والدخول تحت طاعتها ، كما فعل ذلك الفيلسوف الكبير أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجّة ، والحكيم الاشراقي الأعظم القاضي أبو بكر بن الطفيل صاحب القصة الفلسفية الخالدة « حيّ بن يقظان » .

وكان هذان الحكيمان الجليلان : ابن باجّه ، وابن الطفيل ، متباينين في القطر والعصر ، متقاربين في المذاهب والأنظار ، على ما بينهما من فروق دقيقة في آراء ترجع إلى كليات أصول الحكمة ، وجزئيات من مسائلها ، زيادة على أن واحداً منهما لم يلق الآخر ، وكان أهم ما يتلاقيان فيه شعورهما بأن الحكمة التي أقامت نهضة العلوم الدينية وألفت فيما بينها ، وهي حكمة الغزالي ، قد كان يبدو عليها شيء من التضارب ، باختلاف المباني ، وتفاوت المقامات ، وتباعد الغايات ، إذ يجنح تارة إلى الوقف بمراحل الحكمة عند

حدّ البرهان ، ويسمو تارة أخرى إلى التجاوز بها إلى غاية الاشراق ، وذلك عين ما كان أخذه أبو بكر ابن العربي على الغزالي من الناحية الكلامية ، وشجبه عليه ، في كتاب العواصم من القواصم .

وكان ابن باجّه متصلّباً في نقـــد الغزالي متمسكاً بطريقة التعاليم الأرسطوطاليسية ، واثقاً بأن إدراك أهل النظر لما بعد الطبيعة إنّما يكون بالبحث الفكري ، فجاء ابن الطفيل ، على إعجابه بابن باجّه وطريقتـه ، يكشف أن مذاهب الحكمة ، على ما بينها من اختلاف الأساليب والطرائق ، هي متلاقية متـكاملة وليست متباينة ، ولا متنافرة ، وإن الحكمة النظرية تنتهي بمتّبعها إلى موقف تبتدئ من ورائه مراحل الحكمة الإشراقية ، وبذلك يأخذ على الغزالي أنه قرّر المذاهب متخالفة ، ولم يسلم من الوقوع في أحدها بعد الآخر ، على طول البحث ويمثل لذلك بكتاب « تهافت الفلاسفة » ، مع اعترافه بأن الغزالي قد سعد السعادة القصوى ، وأنه رجل أدبته المعارف ، وحذّقته العلوم ، ثمّ ينتقد فلسفة ابن باجّة بأنها قصرت عن غاية الحكمة ، ولم يفض إلى حقيقة الـكمال ، ثمّ يصعد إلى الفارابي وابن سينا ، فيأخذ على الفارابي تنطّعه في الاغترار بالفلسفة ، اغتراراً نبا به عن حكمة الدين ، ويأخذ على ابن سينا أنه جرى على مذهب أرسطوطاليس فلم يستطع أن يصل به إلى الـكمال ، فعدل إلى الحكمة المشرقية .

وكذلك كانت الحكمة في نظر ابن الطفيل ملتئمة من المبادئ المشائية والغايات الإشراقية ، وليست كاملة ، لا بالفلسفة التعليمية ولا الافلاطونية الحديثة ، وإنّما هي متـكاملة لاجتماعها كلّها على صورة يحقق بها كلّ مذهب ناحية من نواحي الـكمال هي النواحي التي لا تتلاقى جهاتها إلا باجتماع الدين والحكمة ومعرفة ما بينها من ارتباط .

وذلك هو الذي كانت الحكمة الأندلسية في تيه عنه ، وكانت الحكمة الإسلامية الرائجة بالشرق ، بعد ابن سينا ، قد أدركته أو قربت فيه ، بما ظهر من خلاصة الأسرار الحكمية التي صرّح بها الشيخ الرئيس في كتاب الإشارات ، وكنّى عنها بضرب المثل في قصة حي بن يقظان ، وما ظهر في كتب ابن مسكويه « الفوز الأصغر ، والفوز الأكبر » من استناد يساعد العقيدة بالعلل الفلسفية . وعلى هذا الاطمئنان العجيب إلى اتصال حقيقة الحكمة العقلية بحقيقة الحكمة الدينية أقبل ابن طفيل على الدولة التى جعلت شعارها إمامة المهدي في الجمع بين الحقيقتين ، فانتقل من العدوة الأندلسية إلى العدوة المغربية ، حتى اتصل بالسلطان يوسف بن عبد المؤمن ، فطارحه حكمته وحبّب إليه مبادئه وربط سلطة الموحّدين بخطّ مذهبه الفلسفي ، ولم يزل نصب عين ابن الطفيل ، منذ استقرّ بمرّاكش في قصر الموحّدين ، ذلك الشاب الناشئ تحت دوحتي الحكمة ، المتضلع من درّي الشريعة والفلسفة : أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي المعروف بابن رشد الحفيد .

نشأ هذا الشاب في بيت الفقه والقضاء ، وتطلع إلى أسمى مراقي النظر العلمي ، فاتصل في حداثة أمره بالإمام أبي عبد الله المازري : شدّ الرحلة إليه في افريقية ، وتخرّج به في تحقيق النظر الفقهي على مدارك الشريعة وأصولها ، وتلقّن منه أصول الطريقة الكلامية الأشعرية التي كان المازري يخوض لججها مع إمام الحرمين الغزالي .

وفتح ابن رشد عينيه على روض العلوم الحكمية بالأندلس ، وقد زكا نبته ، وأينع زهره ، بتقلّص سلطان المرابطين ، فأقبل على فلسفة القدماء وأتقن اللغة اليونانية واللغة اللاتينية ، واستخرج كنوز الحكمة المجهولة ،

فتعاطف على رأسه غصنان من علوم الإسلام وعلوم الأوائل ، فلم يجد خريتاً يهديه سبيل الحكمة المأمون ، غير القاضي ابن الطفيل ، فكان هو الذي أوقفه على ما يزكي الحكمة من الدين ، ويزكي الدين من الحكمة ، على النحو الذي عرضه في قصة حي بن يقظان .

وكان ابن رشد في الوسط السني الفقهي ، الذي نشأ فيه بقرطبة ، متصلاً اتصالاً محكماً بآثار أبي بكر ابن العربي وأخباره ، فقد أخذ عن تلاميذه : مثل الحافظ ابن بشكوال ، ووقف بذلك على ما كان للغزالي من أثر في ابن العربي وفقهه ، ووقف على آثار الخلافات الفقهية والاعتقادية التي ثارت بين مالكية الأندلس وابن حزم ، وما تركت من دوي متجاوب الأصداء في قرطبة ، ووقف على كتب ابن حزم ، واعتمد عليها في تأليفه ، فحقق ما يشهد به المنصفون لابن حزم ، وإن خالفوه ، من سعة العلم ، وحدة الذهن ، وقوة العارضة ، حتى انه على ظاهريته اعتنى بالحكمة العقلية وألف كتاب التقريب لحدود المنطق الذي قال القاضي صاعد « انه بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف ، واستعمل فيه أمثلة فقهية ، وجوامع شرعية ، وخالف أرسطوطاليس في بعض أصوله » . فكانت هذه المثل من استعمال الحكمة العقلية لتقريب الفقه موجهة لابن رشد إلى مجاراة أربابها ، باستعمال الحكمة المثلى التي كان يشعر ، تبعاً لأستاذه ابن الطفيل ، بأن الناس من قبل لم يتوصلوا إلى صحيحها .

على هذا التأثير الذي ضطرت به روح الحكمة المجددة على نفس الحفيد ، ترك ابن الطفيل صاحبه ابن رشد بقرطبة لما استقر هو في مراكش .

فلم تزل بوارق الآمال في تلك العبقرية تلمع بين عينيه حتى لحق ابن رشد بمراكش سنة ٥٤٨ وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، ولقي الخليفة الوحدي يوسف بن عبد المؤمن بواسطة أستاذه ابن الطفيل ، وحاوره

حواراً فلسفياً راقياً ، أثبت له رسوخ قدم الخليفة الموحدي في الحكمة بصورة يندر وجودها عند أمثاله ، وبسبب ذلك رغب ابن الطفيل من ابن رشد ، بما له من التمكن في اللغة اليونانية ، أن يتولى دراسة كتب أرسطوطاليس وشرحها وتلخيصها حتى يخرج بها عن دائرة الغموض التي كانت محيطة بها .

انتدب إلى ذلك ابن رشد وبذل نفيس عمره في خدمة الفلسفة وتحقيقها وبسطها واعتمد على مذهب أرسطو فجعله قطب النظر ، وقارنه وناظره بالمذاهب ، وعلق عليه بالنقد والتصويب ، وبين منزلة بعض المواضيع من بعض ، ونسبة بعض المذاهب من بعض ، واحتفل خاصة بقسم مابعد الطبيعة وهو مجال معترك الأنظار ، فحقق نواحي التفارق والتلاقي بين سقراط وأفلاطون وأرسطو والرواقيين ، مناقشاً ابن سينا آراءه الخاصة أو تخاريجه لكلام أرسطو ، كما يناقش تخاريج المتقدمين من شراح أرسطو اليونانيين ، ومن المشهور أن ابن رشد بهذا العمل قد كان مؤسساً للفلسفة تأسيساً جديداً ، ومشيعاً لها إشاعة أضاءت ظلمات القرون الوسطى ، في أروبا ، بفجر عصر النهضة ، ولكن الأهم وراء ذلك هو ما كان لابن رشد من أثر مباشر في العلوم الدينية ، فقد تأثر ابن رشد خطى الغزالي في الحكمة وأصول الفقه والفقه ، فتناول كتاب تهافت الفلاسفة ، وكتاب المستصفى ، وكتاب الوجيز ، فجعل تتبعه لكتاب التهافت تتبعاً تحليلياً حرفياً يتناول تحقيق مذاهب الفلاسفة بطريقته العميقة في شرح الحكمة ، ونقد ردود الغزالي بأنها ليست واردة مورد البرهان الناقض على محل النزاع ، حتى انتهى بذلك إلى المقدمة التي جعلها ابن طفيل أقوى مأخذ على فلسفة الغزالي ، فجعلها مقطع الحق ومنقطع المناقشة وطوى بذلك كتاب تهافت التهافت ،

ثم لخّص تلك المناقشة في صورة منهجية في كتاب « فصل المقال في ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » .

أما كتاب المستصفى فقد لخّصه تلخيصاً ، ذكره في ترجمته الشيخ أحمد بابا في ذيل الديباج ، وتعرّض إلى الإمام بآراء الغزالي الأصولية في كتاب مناهج الأدلة بما دلّ على أنه لا خلاف يذكر بينهما في مسائل أصول الفقه .

وأما كتاب الوجيز فهو الكتاب الذي اختصر فيه الإمام الغزالي مذهب الشافعي ، ملخّصاً فيه كتابيه الوسيط والبسيط ، وقد جمل اختصار الفقه مبنياً على الاقتصـــار على قول الشافعي والإشارة إلى خلاف المذهبين المالكي والحنفي إشارة ردّ واستبعاد ، وكذلك فعل بالأقوال التي تخالف قول الشافعي داخل المذهب ، وخاصة أقوال المزني ، فجاء هذا الصنيع متأثراً بالأصول الجدلية التي تنظر في مدارك الأحكام لقصد الانتصار إلى مذهب معيّن ، لا لقصد استيلاء الحقيقة لذاتها ، وكان ذلك تضييقاً لدائرة التقليد ، فجاء القاضي ابن رشد يساير صنيع الغزالي في الاختصار وإيراد الأقوال المخالفة ، ولكنه يجنح إلى الاقتداء بابن العربي في التخفيف من التزام التقليد ، فيتوسع في الخلاف ، ويشير إلى الأدلة التي كانت منشأه ولا يلتزم الانتصار لتقليد مذهب معيّن ، ولكنه يفتح باب النظر في الأدلة حتى لا يغلق باب الاجتهاد أصلاً ، ويبقى ولو في حدود النظر المذهبي ، فكان إيراد المذاهب عنده لتربية ملكة الاجتهاد عليها ، لا لدحضها ، ونصر مذهب معيّن وبذلك استطاع ابن رشد أن يفتح في المذهب المالكي طريقاً سدّه الغزالي في المذهب الشافعي ، هو الطريق الوسط بين الاجتهـاد والتقليد ، الذي يشير إليه اسم الكتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » وقد ذكر فيه أنه عازم على وضع كتاب آخر في المذهب المالكي ، يتجنّب فيه إحصاء الروايات لأن ذلك شيء ينقطع العمر دونه ، ولكنه رتّبه ترتيباً

صناعياً حتى يكون القارىء مجتهداً في مذهب مالك ، ويظهر أنه لم يتمكن من إنجاز عزمه هذا فلم يكن له ، في ما عدّ من جريدة كتبه الكثيرة ، كتاب في الفروع المذهبية ، وقد وهم صاحب معجم المطبوعات ، فنسب إلى الحفيد ابن رشد كتاب المقدمات الممهدات ، والصواب أنه لجده الحافظ ابن رشد الجد صاحب البيان والتحصيل ، وحافظ المذهب .

وكفى حفيده يداً على الفقه المالكي أنه بوضعه كتاب بداية المجتهد قد لقّح حياة الاجتهاد ، بما بث في المذهب المالكي حركة التفقه التي ظهر بها الإمام ابن عرفة في القرن الثامن ، ثمّ التصرف الاجتهادي في جريان العمل الذي شاع من عهد تلاميذ ابن عرفة : البرزلي ، وابن ناجي ، فأصبح أصلاً للتطور الفقهي في ما بعد القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ، فكان كتاب بداية المجتهد لمحة من لمحات الحكمة العقلية التي امتاز بها ابن رشد الحفيد تركت أثراً في تطور الفقه المالكي بالتفقه والعمل ، وأثراً في الإبقاء على رمق من روح الاجتهاد مردد بين المذاهب .

كان هذا العمل الذي قام به ابن رشد الحفيد في القرن السادس بكتاب بداية المجتهد ، عملاً تصرفياً في الفقه . ناقض به العمل الالتزامي الذي قام به الغزالي في كتاب الوجيز ، فبقدر ما كان الغزالي يضيق الدائرة ويحصر الأقوال كان ابن رشد يوسع دائرة النظر ويكثر من إيراد المذاهب والأقوال ومقابلتها وإيراد حججها وأدلتها بحيث يجنح الغزالي إلى إبراز المذهب الفقهي الذي يتقلده في صورة الأمر الضروري ، كما هو عند المقلد ، في حال أن ابن رشد يجنح إلى إبرازه في صورته النظرية التي هي محلّ بحث ومجال اجتهاد ، كما هو عند الفقيه ، وإنه لمن المنتظر أن طريقة ابن رشد يكون لها أثر في المذهب المالكي ، وان طريقة الغزالي يكون لها أثر في للمذهب الشافعي ، حتى يبدو كلّ من المذهبين مبايناً لمظهر الآخر ، ولكن ما بين المذهبين من

تواصل في المجال الأصولي ، وما بينها من تفاعل في البلاد الشرقية بصفة خاصة ، حيث يعيشان متجاورين في الحجاز والعراق والشام ومصر ، كان قاضياً بأن كلّ أثر يبدو في أحد المذهبين تحدث له صورة في المذهب الآخر ، فلمّا برز كتاب الوجيز للغزالي ولقي ما لقي عند الشافعية من احتفال وإقبال ، واحتلّ منزلة الإعجاب بحسن تنسيقه ، وجميل تبويبه ، ومحكم ربطه بين المسائل ، وإتقان تفريعها ، أحسّ الفقهاء من أتباع المذهب المالكي في الشرق بأن هذا المظهر الذي بدا به المذهب الشافعي قد أناله امتيازاً في حسن الضبط وسهولة المراجعة يجعله أيسر إلى تناول المقلدين ، فاغتبطوا بذلك واستشعروا خلو التآليف الفقهية في المذهب المالكي من تلك الميزة ، فحرصوا على تكميله باقتباس تلك الطريقة التي سهلت تناول المذهب من طالبيه ، وهم حين نظروا إلى الميزة الصناعية في التآليف لم يلتفتوا إلى ناحية التضييق والاقتصار ، التي انحاز إليها مذهب الشافعي بتأليف الغزالي ، لأن تشابه الأوضاع واستقرارها لم يكن من شأنه أن يبرز الاحتياج إلى ما اعتبر مهجوراً من الأقوال الفقهية ، حيث إن جريان الفتوى على الأقوال المشهورة المدوّنة ، وما لتلك الأقوال التي جرت عليها الفتوى من تطابق مع مقتضيات الأحوال كان مزيلاً لاعتبار الأهمية من تلك الأقوال ، قاضياً عليها بالجدارة للهجر والإهمال . بمثل هذه العوامل تأثر المالكية بمصر أثناء القرن السادس لما طار كتاب الغزالي إلى إخوانهم وأجوارهم الشافعية ، فأقبلوا عليه بما تقدّم وصفه من إعجاب ، وأحسّ المالكية بأن مذهبهم في حاجة إلى مثل ذلك التهذيب والترتيب ، ولم يلاحظوا ما لاحظ أحد أئمتهم العظام وهو قاضي قرطبة أبو الوليد ابن رشد من أنه يشتمل على تضييق دائرة النظر الاجتهادي ويلزّ المذهب في حيز التقليد ، وإن امتاز بما زانه من حسن الترتيب ، فكان تطلع هؤلاء الفقهاء إلى أن يسلكوا بالمذهب المالكي المسلك الذي انتهجه الغزالي بالمذهب الشافعي موافقاً للوقت الذي كان فيه

فقيه قرطبة وحكيمها يحاول أن يبرز أثراً مرتباً مهذباً يصدّ به تيار المذهب المالكي عن الاندفاع في ذلك السبيل . ففي العصر الذي كان فيه ابن رشد منكبّاً على تصنيف بداية المجتهد ، كان الفقيه المصري أبو محمد بن شاش منكباً على تصنيف مختصر جامع لفروع المذهب المالكي ، على ترتيب يساير صنيع الإمام الغزالي في الوجيز ، وهو مختصره البديع الذي سمّاه « الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة » وقد قال في خطبته : لمّا رأيت كتاب الوجيز لأبي حامد الغزالي رحمه الله من أحسن ما حرّر فيما حرّره غيره من متقدّمي الأئمة ومتأخريهم ، فكان غاية منتهى التحرير ، نحصت المذهب في هذا الموضوع على القرب من محاذاته .

وسرعان ما ظهر هذا الكتاب حتى عكف عليه المالكية بمصر واستحسنوه وأعجبوا به ، كما ذكر ذلك ابن خلّكان في وفيات الأعيان ، وسارت طريقة دراسة الفقه على منهج كتاب ابن شاش : في الحرص على التفريع والجمع والإيجاز ، والإعراض عن الخلاف والمدارك ، وبقي كتاب ابن رشد خامل الذكر محدود الانتشار إذ لم يشاركه في نظره الحكمي البعيد إلا القلائل : لم ينتبه الأكثرون إلى أن ما خيّل لهم الاستغناء عنه من الأقوال سيحتاجون إليه في تقليب الأنظار عند اختلاف الأحوال .

ومضى القرن السابع على هذه الطريقة الالتزامية التي التحق فيها المذهب المالكي بالمذهب الشافعي ، متنكباً محاولة ابن رشد في الحفاظ على اتساع النظر الاجتهادي ، وازدان ذلك القرن السابع بظهور علم من أعلام الثقافة الإسلامية ، الجامعين بين مختلف فنونها في معرض الصناعة التعليمية ، التي تفرّعت من مناهج أصول الفقه ، فجمعت بين أسلوب تعليمي واحد علوم اللغة العربية والدين والحكمة من علم القراءات إلى علم العروض ، ذلك العلم الذي ظهرت عظمته في القرن السابع ، هو الإمام جمال الدين ابن الحاجب ،

صاحب المختصرات المتبرة في النحو والصرف والعروض والمنطق والأصول والفقه والقراءات ، فانصرف إلى تأليف مختصره العظيم في الفقه المالكي الذي سمّاه « جامع الأمهات » ، وأفرط فيه في اتباع طريقة الجمع مع الاختصار ، حتى كان وهو جزء صغير جامعاً لمضمون ستين ديواناً من دواوين الفقه المالكي ، ومشتملاً على صغر حجمه على ستّ وستين ألف مسألة ، فعظم الإعجاب به ، وعمّ الإقبال عليه ، وملأت سمعته وسط القرن السابع ، وحلّقت في آفاق المشرق والمغرب مع أن ابن خلدون يعرض بنقده بقوله : إنّه جاء كالبرنامج للمذهب .

وبانتشار مختصر ابن الحاجب وعكوف الناس عليه هجر دارسو الفقه طريقة المدوّنة وتهاذيبها وشروحها ، بما عليها من مسحة النظر والاستدلال ، وتوجّهوا إلى دراسة ابن الحاجب بالاستكثار على طريقته من المسائل والفروع .

وكان طريق اتّصال مختصر ابن الحاجب الفرعي ببلاد المغرب العربي أن الشيخ ناصر الدين الزواوي ، من فقهاء بجاية ، ارتحل إلى المشرق في أواخر القرن السابع ، فلقي تلاميذ ابن الحاجب بمصر ، وتخرّج عليهم ، فجاء معه بمختصر ابن الحاجب ونشره في تلاميذه ببجاية ، ومن هنالك انتقل إلى عامّة أقطار المغرب العربي ، فعكف الفقهاء على دراسته وشرحه واعتنى به كبار فقهاء تونس : مثل ابن عبد السلام ، وابن هارون ، وابن راشد ، وفقهاء تلمسان : مثل ابني الإمام .

ولكنّ نزعة ابن رشد إلى الطريقة المخالفة للمنهج الالتزامي الاقتصادي ، الذي درج عليه ابن الحاجب ، لم تزل تغذّي حركة ردّ فعل تعديلي تجنح باتباعها إلى طريقة اتساع النظر الاجتهادي بين المذاهب الفقهية ، وقد تجلّت تلك النزعة واضحة في كتاب القوانين الفقهية للإمام أبي القاسم ابن جزي الغرناطي ، شهيد واقعة طريف سنة ٧٤١ ، فانّ ذلك الكتاب النفيس ،

على إحكامه ودقة ترتيبه ، لم يقتصر على المذهب المالكي ، بل أورد المذاهب الأربعة ومذاهب كثير من أهل الاجتهاد المنقطعي الأتباع ، فجمع ، كما قال هو عن نفسه ، بين تمهيد المذهب وذكر الخلاف العالي .

على أن منهجاً جديداً في الدراسة العلمية قد ظهر بالبلاد التونسية في رحاب الجامعة الزيتونية أثناء القرن السابع كان قاضياً أيضاً بتعديل الغلو في الطريقة الفقهية الالتزامية ، وذلك هو منهج القاضي أبي القاسم ابن زيتون ، الذي تخرج في الشرق على تلامذة الإمام فخر الدين الرازي ، ودرج على طريقته في الجمع بين العقليات والنقليات على الأسلوب التعليمي الراقي ، وقد تأيدت هذه الطريقة واستحكمت أساسها في القرن الثامن ، بنبوغ الحكيم الكبير إمام التعاليم والرياضيات أبي عبد الله الابلي ، المتكون في حكمته التجريبية على طريقة ابن رشد ، فتواصلت طرق التخرج على منهج النظر الحكمي في التكاليف الدينية بين أقطار المغرب في شمالي إفريقيا والأندلس ، فظهر من أعلام تلك الطريقة أعلام درسوا الفقه بالتعقيد والمقارنة وربط الفروع بالأصول مثل الإمام أبي عبد الله المقري التلمساني ثم الفاسي ، والإمام أبي اسحاق الشاطبي الغرناطي ، والإمام العلامة أبي عبد الله العلويني الشهير بالشريف التلمساني ، الذي عد من أهل الاجتهاد ، وقد أنجبت الجامعة الزيتونية بتونس في هذا القرن الثامن فذاً من الأفذاذ الجامعين بين الحكمة والفقه تخرج بطريقة الابلي وبرز في العلوم الحكمية أولاً ، ثم اشتغل بالفقه فأتى فيه بالعجب العجاب ، ذلك هو شيخ الإسلام محمد بن عرفة .

ابتدأ ابن عرفة تخرجه العلمي بالاختصاص في الكلام والحكمة والمنطق وأصول الفقه ، ثم انصرف إلى الفقه متأثراً بتكوينه الحكمي ، فاتجه إلى الضبط والجمع والتنظير ، واهتم بصفة خاصة بالتحديد ، وشرح مواهي الأبواب الفقهية ، بتمييز بعضها عن بعض ، وأكثر من البحث والنظر والاستشكال ،

فنقد كثيراً من الأقوال واستبعدها ، مبيناً وجه ذلك بتصور الوقائع ، وملاحظة ما يتحقّق فيها من المصالح المقصورة للشرع ، وما لا يتحقّق ، ففتح بذلك في الفقه المالكي طريقة البحث النظري المعبر عنه « بالتفقه » الذي هو منهج الدراسات القانونية الجامعية اليوم .

وبهذه الدراسات النظرية المحصة للأقوال الفقهية : نقداً ، وتحريراً ، ومشاركة في المباني والمدارك ، اقترنت أحداث خارجية في حياة البلاد المغربية عامة والقطر التونسي خاصة ، ختم بها القرن الثامن : من دخول سلطنة الإسلام بالأندلس في الدور الأخير ، وإيواء اللاجئين من المناطق المفتكة إلى الرقعة الباقية والعدوة الافريقية ، وتضارب الدول المرينية والزيانية والحفصية في سبيل توحيد المغرب ، ودخول قبائل الأعراب في دور الاستقرار والتحضر ، واستفحال الأزمة الاقتصادية بسبب سقوط منزلة البلاد في التجارة العالمية بفتح طريق الهند البحري ، زيادة على ما مرّ ببلاد المغرب من الأحداث الإسلامية التي توالت بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد : من تجدد هجمة المغول بقيادة تيمورلنك ، وإشراق نجم العثمانيين ، فكان من أثر هذا المجموع من الأحداث أن ما كان يسود الدراسات الفقهية من الاطمئنان إلى الاختيارات والترجيحات التي استقرّ عليها الفقه المذهبي ، قد بدأ يتزعزع بما أسفرت عنه الأحداث الهائلة من انقلاب الأوضاع الاجتماعية انقلاباً فتح مبدأ الشعور بمشكلة قصور كثير من الأقوال الفقهية عن تحقيق المصلحة التي نظر بها إليها من قبل بسبب اختلاف الوضع عن الوضع ، فكان هذا الشعور أقوى سند للأنظار التفقهية التي ابتدأ الإمام ابن عرفة أثناء القرن الثامن يعلق بها تعاليق النقد والبحث على بعض الأقوال الفقهية ، واتخذ تلاميذه عن ذلك معياراً للاختبار التجريبي لنفاذ الرأي الاجتهادي الذي يحلل به ابن عرفة الأحكام .

وبذلك كان القرن التاسع قرناً وضع فيه الفقه المالكي من جديد على بساط النقد والتمحيص حيث دخل في مقاييس الاختيار والترجيح مقياس جديد : هو مقياس الفتوى والعمل ، قانَّ طبقة من تلامذة ابن عرفة أخذت على عاتقها تطبيق الأحكام الشرعية على الوقائع بمراعاة ما فرضت فيه تلك الأحكام من الظروف الزمانية والمكانية ، فاذا رأوا أن بعض تلك الظروف تبدل ، مالوا إلى العدول عن القول المشهور إلى قول غيره اجتهاداً منهم ، واستحساناً ، واعتباراً للمصالح الشرعية ، بحسب الوقائع والنوازل والأشخاص ، بمراعاة الأعراف والعوائد ، فأصبحت الفتاوى في كثير من الوقائع مختلفة عمّا اشتهر في أمثالها بسبب اختلاف جزئي في صور الوقائع ناشئ من اختلاف الأوضاع ، وكان البروز في هذا المجال الفقهي التجديدي لثلة من تلاميذ ابن عرفة ، فيهم من التونسيين : البرزلي ، وابن ناجي ، ومن الجزائريين : الحفيد ابن مرزوق ، وأبو الفضل المقباني ، حتى تقرّر بصنيعهم هذا منهج العمل الذي أصبح تعديلاً ضرورياً لما سبق من الرجحان واشتهر ، وكان الذين تولّوا القضاء من هؤلاء أتمّ تمكّناً من ملاحظة تلك الدواعي فساروا على منهج التصرّف الاجتهادي في التأويل ، وأسسوا لجريان العمل مادة جديدة للفقه ، فأظهر القاضي ابن ناجي في كتبه من حسن التحقيق لمناط الفتاوى والأحكام ، والبراعة في تنزيل القواعد والمقاصد على الصور الحادثة ، ما جعل صورة الفقه المالكي من بعده مصطبغة بآرائه صبغة خاصة . كما أبدى البرزلي في مجموع فتاويه المسمى « جامع مسائل الأحكام لما ينزل بالمفتين والحكّام » نظراً بعيداً سديداً ، في التصور والتطبيق والتنزيل ، تناول أكثر مسائل الفقه بصورة كشفت في تطبيق الأحكام ، عن أوجه لم يكشف عنها من قبله لثام . ومثل ذلك المسلك سلك المقباني في أجوبته التي ضمن الكثير منها تلميذه الشيخ يحيى المغيلي المازوني في كتابه « الدرر

المكنونة في نوازل مازونة ، أما العلامة ابن مرزوق الحفيد فقد سما في فقهه إلى أفق تحرير الأفكار وابتكار الأنظار ، حتى شهد له ببلوغ درجة الاجتهاد المطلق ، ولقد كان حريصاً على تعرف المذاهب وحسن دراستها لتوسيع نظره الاجتهادي ، فدرس الفقه الشافعي في تلمسان بكتاب التنبيه لأبي اسحاق الشيرازي والوجيز للغزالي ، مع أنه لم يكن هو ولا واحد من طلبته ولا من أهل مدينته شافعياً .

وبهذه النزعة التفقهية التطبيقية انتهج الفقه نحو التطور منهجاً جديداً سلك من القيروان إلى الأندلس ثمّ رجع واستقرّ بفاس فأبرز اختلافاً واضحاً بين ما تقرّر من الأحكام في الدواوين والمختصرات ، وما طبق في مجاميع الفتاوى والنوازل ، على نحو ما نجده في لامية الزقاق من القواعد والمثل ، وما نجده في ما ضمنه الشيخ أبو العباس الوانشريسي في مجموعه العجيب « المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب » وهو كتاب في أسفار ضخمة يتبيّن لمتصفّحه عندما يقابله بجواهر ابن شاش أو بمختصر ابن الحاجب كم استطاع النظر الفقهي في هذا المغرب أن ينتج من تطور ويظهر من حيوية ، لما عدل عن المنهج الالتزامي وسار على المنهج التصرفي الذي فتحه ابن رشد ، ومهّده ابن عرفة وتلاميذه ، وأقام أعلامه الوانشريسي في المعيار .

محمد الفاضل ابن عاشور



نظرة عيان وتبيان
في مقالة
(أسماء أعضاء الإنسان)

أضاف إليها ما يقابل الأسماء بالفرنسية والانكليزية مع شرح موجز

الدكتور صلاح الدين الكواكبي

-٨-

٢١٥) البَطْن

ف Abdomen, ventre (m.)

ز Abdomen ; belly

في الأصل · — ليس له تعريف .

في (ق) · — البطن خلاف الظهر مذكر . ج أبطن ، وبطون ، وبُطنان ... ودون القبيلة ... وجوف كل شيء .

في (ل) ولاروس ذي المجلدين · — هو الناحية السفلى والأمامية من الجذع (يرادف Ventre) . البطن منفصل عن الزور بالحاجز وتحده من الأسفل الحوضة . يحتوي البطن على الأنبوب الهضمي وملاحقه ، والجهاز البولي ، وغدد شتى وعلى جزء هام من الجهاز الوُدي .

أهم ما أضفته :

١ً — بطن ذو بَرْزَتَين

ف Ventre à double saillie

ز Abdomen presenting tow inguinal prominences

٢ً — بطن بشكل الخُرْج

ف Ventre en besace

ز Pot belly

٣ً — بطن مدلّى

ف Ventre pendant

ز Pendulous belly

٤ً — بطن كالمَرْكَب

ف Ventre en bateau

ز Scaphoid abdomen; boat scaphed, carinate, navicular abdomen

٥ً — بطن مستدقّ

ف Ventre en pointe

ز Pointed belly

٦ً — بطني

ف ، ز Abdominal, ventral

قلت :

و (البُطَين) على التصغير وبالإضافة إلى القلب يُطلق خصوصاً على الجُوَيف الذي يدفع الدم إلى الشرايين . وبالإضافة إلى الدماغ يُطلق على كلٍ من الجويفات الأربعة المحتوية على المائع الدماغي الشوكي .

وأضفت :

١ً — بُطين القلب

ف Ventricule du cœur

ز Ventricle of the heart

٢ً — بطين الدماغ

ف Ventricule cérébral

ز Cerebral ventricle

٣ً — بطين الحنجرة

ف Ventricule du larynx

ز Ventricle of the larynx

٤ً — بطين الدماغ الجانبي

ف Ventricule latéral (du cerveau)

ز Lateral ventricle of the brain

٥ً — بطين الدماغ المتوسط

ف Ventricule moyen (du cerveau)

ز Third ventricle of the brain

٦ً — بطين رابع

ف Quatrième ventricule

ز Fourth ventricle

٧ً — بطين انتهائي

ف Ventricule terminal

ز Terminal ventricle

٨ً — بُطيني

ف Ventriculaire

ز Ventricular

٩ً — رسم البُطين

ف Ventriculographie

ز Ventriculography

★ ★ ★

٢١٥ مكرر) الشاكِلتان

ف Flanc, côté (m.)

ز Flank; side

في الأصل . — هما الطفطفتانْ .

في (ق) . — الطفطفة الخاصرة ، أو أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع .

والشاكلة ، في (ق) : ما بين الحرقفة والقُصَيْرى وهي الخاصرة .

في (ل) . — القسم من جسم الإنسان والحيوان من الأضلاع حتى الورك . وعلى التوسع الجنبُ من الجسم .

(انظر أيضاً الرقم — ٢٠٧) .

★ ★ ★

٢١٦) الثُّنَّة

ف Hypogastre; bas - ventre

ز Hypogastrium

في الأصل . — الثُّفنة : ما بين السرة إلى العانة .

قلت : قوله (ما بين السرة إلى العانة) ينطبق على الخَثْلَة ، والمُرَيْطاء لا الثفنة ، بالفاء ، وهما ما يقابل الكلمتين الافرنجيتين ، كالثُّنَّة تماماً — بدون فاء — كما سيأتيك في ملاحظتي .

في (ق) . — الثفنة من البعير ، الركبة . ومنك الركبة ومجتمع الساق والفخذ .

في معجم المتن . — من البعير الركبة .. الخ ومن الخيل موصل الفخذين في الساقين من باطنها . ومن الناس الجماعة منهم ، ومن الجُلَّة حافتا أسفلها من التمر (مجازاً) . ومن النوق ، التي تضرب بثفناتها عند الحلب . ومن الإنسان : الركبة ، ومجتمع الساق والفخذ ,

في (ل) . — القسم الأسفل من البطن .

ملاحظتي . — في المعاجم التي بين يديّ لم أجد للثفنة من المعاني ما يصح إطلاقه ـ ولو مجازاً ـ على الشرح المذكور في الأصل المطبوع : (ما بين السرة إلى العانة) . فالثفنة إذن خطأ عن النسخ من المخطوط . فما الصحيح ؟ رحتُ أقلّب وجوه التصحيف أو أخطاء الخط وبمواصلة البحث وجدتُ ـ بعد جُهد ـ الصحيح وهو (الثُّنَّة) فوضعتها مصححةً في الرقم (٢١٦) . فالثُّنَّة ، بالضم وبدون الفاء ، مشدَّدة النون : (العانة ، أو مربطاء ما بينها وبين السُّرة) وهو شرح ينطبق تمام الانطباق على ما جاء في شرح الأصل . ولم يتنبه إليه المحقق .

★ ★ ★

٢١٧) السُّرَّة

ف Ombilic (m.)

ز Navel

في الأصل . — ليس لها تعريف (إذ لم تأت مستقلة) .

قلت : جاء ذكرها في معرض شرح الثُّنَّة مما أفادني لتحديدها ووضع الكلمتين الافرنجيتين مقابلاً لها .

في (ق) . — ما تقطعه القابلة من الصبيّ .

في معجم متن اللغة . — السُّرّ سِرّ الكَفّ والوجه . وما تقطعه القابلة من سُرّة الصبي ج أَسِرَّة (نادر) . والسُّرَر (*) : ما تقطعه القابلة من السُّرّة (ويكسر) . السُّرّة موضع السُّرّ الذي تقطعهُ القابلة وهو الوقبة في وسط البطن ج سُرَر ، وسُرّات .

(*) قلت : هو ما يسمى بالحبل السُّرّي :

ف Cordon ombilical ; tige funiculaire

ز Umbilical cord or funicle

قلت : لاحظت في شرح (ق) والمتن قولها (من الصبيّ) ولا شك عندي أن هذا عن ذهول فالصحيح أن يقال (من الولد) ليشمل الأنثى (الصبية) والصبي دون حصر في (الصبيّ) فالقابلة تقطع سرر الصبي والصبية (الولد ذكراً أو أنثى) [لأن الصبي : الطفل من لدن أن يولد إلى أن يفطم ، والذي لم يفطم بعد ، والمؤنث صبيّة ، انظر ما جاء في المتن مادة (ص ب ي) ج ٣ صفحة ٤٢٠] .

في (ل) · — ثقبة البطن في الجنين يمر منها الحبل السّرّي .

قلت : من مرادفات الافرنجيتين :

تقير ، سُرّة

ف Hile (m.)

ز Hilus ; hilum

(وهي ناحية منبطة ، بوساطتها تنفذ العروق الدموية والمجاري الأخرى في أحد الأحشاء) .

ما أضفته :

١ — سرة داخلية

ف Chalaze

ز Chalaza

٢ — سرة الرئة (نقير لرئة)

ف Hile du poumon

ز Hilus of the lung

٣ — سرة الطحال (نقير الطحال)

ف Hile de la rate

ز Hilus of the spleen

٤ً — سرة الكبد (نقير الكبد)

ف Hile du foie

ز Hilus , s. porta hepatis

٥ً — سرة الكلية (نقير الكلية)

ف Hile du rein

ز Hilus of the kidney

٦ً — استسرار

ف Ombilication

ز Umbilication ; navel - like depression

٧ً — استسرار الأسحم (حلمة الثدي)

ف Ombilication du mamelon

ز Retracted , inverted nipple

٨ً — استسرار الجلد (في السرطان)

ف Ombilication de la peau (dans le cancer)

ز Umbilication of skin (in cancer)

٩ً — أسَرّ

ف Ombiliqué

ز Umbilicate(d.) ; navel - shaped

١٠ً — سُرّي

ف ، ز Ombilical

١١ً — حَبْل سُرّي

ف Cordon ombilical

ز Umbilical cord

يرادفها : ساق سَرَّرية

ف Tige funiculaire

ز Umbilical funicle

١٢ً — نقيري

ف Hilaire

ز Pertaining to the hilus

★ ★ ★

٢١٨) العانة

ف Pubis (m.) ; penil ; mont de Venus

ز Pubic eminence ; mons veneris

في الأصل · — ليس لها تعريف (إذ لم تأت مستقله) .

قلت : جاء ذكرها في معرض شرح الثنّة فرأيت ذكرها في رقم خاص معها يقابلها في اللغتين والشرح اللازم ، لعلاقتها بالموضوع .

في (ق) · — العانة ، الأتان والقطيع من حُمُر الوحش . ج عون بالضم . وشعَر الرَّكَب (والركب محركة العانة أو منبتها أو الفرج أو ظاهره . أو الركبان أصلا الفخذين عليهما لحم الفرج أو خاص بهن ج أركاب وأراكيب) .

في معجم المتن · — ... ومنبت الشعر في قُبُل المرأة والرجل . ويقال للشعر هذا إسْب ، وشِعْرة [انظر الرقم — ٢ الشَّعر ومنه (١٧ً)] .

في لاروس ذي المجلدين · — برزة مثلثة الشكل في النهاية السفلى من البطن ؛ والقسم الأمامي من عظمَي الحرقفة .

ما أضفته :

آ) — الطِّبْق (*)

ف Pénil

ز Pubic eminence

(*) في (ق) : الطبق ، عظم رقيق يفصل بين كل فقارين ؛ وظهر فرج المرأة .

ب) — قُنَّة الزُّهَرَة (*) (جبل الزهرة)

ف Mont de Venus
ز Mons veneris

١ — عانيّ

ف Pubien
ز Pubic

٢ — عظم العانة

ف Os du pubis
ز Pubic bone

٣ — خزع العانة

ف Pubiotomie ; hébotomie ; hébostéotomie
ز Pubiotomy ; hebotomy ; hebosteotomy

٤ — قَمْل العانة (قُمَّل)

ف Morpion ; pou du pubis
ز Pubic crab louse

★ ★ ★

٢١٩) الأعفاج (= المصارين)

ف Intestins (m.)
ز Intestine ; gut

في الأصل · — الأعفاج والمصارين ، الأمعاء .

في (ق) · — العفج محرّكةً ، ما ينتقل الطعام إليه بعد المعدة . ج أعفاج ... والمصير كأمير ، المعاء ج أمْصِرة ومُصْران جج مصارين .

في متن اللغة · — العفج ج أعفاج وعِفَجَة ، المعى أو ما سفل منه . أو مكان الكَرِش لما لا كرش له ، وما ينتقل إليه الطعام بعد المعدة وهو من الإنسان كالمصارين لذوات الخُفّ والظِلف التي تؤدي إليها الكرش ما دفنته .

(*) في (ق) : القُنَّة الجبل الصغير ، وقُلَّة الجبل .

قلت : لقد أطلق المؤلف الأعفاج (وهي جمع عفج) توسعاً على الأمعاء عامةً مع أن شرح (ق) و (المتن) فيه تخصيص ولذا فقد أطلقت لجنة المصطلحات الطبية كلمة العفج على ما كان يسمى قبلاً (اثنا عشر) لطوله قدر اثنتي عشرة اصبعاً ترجمة للكلمة اللاتينية (Duodenum) ومعناها (قدر اثنتي عشرة اصبعاً) المستعملة بالفرنسية لذلك القسم من الأمعاء الذي يلي المعدة وينصب فيه ما تجيء به قناة المشكلة والقناة الصفراوية من المفرزات الخاصة بكل من المشكلة والصفراء .

أما الأمعاء وواحدها مِعىً كإلى فهي (الرُّبَض = الأمعاء أو ما في البطن سوى القلب والرئة) .

في (ل) · — الأمعاء ، أحشاء بطنية تبدأ من لدن المعدة حتى الشرج . وبحسب قطرها جعلت قسمين : الأول) معى دقيق ، بطول ٦ — ٨ أمتار في الإنسان وهي على أجزاء : عفج ، وصائم ، ولفائفي . الثاني) معى غليظ ، بطول ١٫٤٠ — ١٫٧٠ متراً يلي المعى الدقيق وهو أيضاً على أجزاء : مرغة أو أعور ، وقولون ، ومستقيم .

وفيا يلي ما يقابل كل هذه المصطلحات العربية ، باللغتين الفرنسية والانكليزية معها أضفته ، زيادةً .

ما أضفته ، على وجه خاص ، في الضغة :

١ً — معى ابتدائي = مُعَيْدة

ف Intestin primitif ; gastrula

ز Primitive gut ; gastrula

أقسام المعيدة :

آ) جوف فوهي

ف Cavité gastruléenne ; archenteron

ز Archenteron ; cœlenteron

ب) سدادة مُحّينيَّة

ف Bouchon vitellin

ز Ecker's plug

ج) مَنْتِج الجرثومة ، فم ابتدائي

ف Blastopore ; bouche primitive

ز Blastopore ; protostoma

د — عُقْدة هَنْسِن

ف Nœud de Hensen

ز Hensen's knot

٢ً — معى أمام الفم

ف Intestin préoral

ز Fore - gut ; head - gut

٣ً — معى خَلْفي

ف Intestin postérieur

ز Hind - gut

٤ً — معى متوسط

ف Intestin moyen

ز Midgut

وعلى وجه عام ، أضفت :

١ً) معى دقيق

ف Intestin grêle

ز Small intestine

٢ً) معى غليظ

ف Intestin (gros)

ز Large intestine

٣ً) عفَج (= اثنا عشر)

ف Duodénum
ز Duodenum ; dodecadactylon

٤ً) صائم

ف ، ز Jejunum

٥ً) لفائفي

ف Iléon
ز Ileum

٦ً) مِعْرَغة = أعْوَر

ف Cœcum
ز Cœcum ; blind - gut ; cecum

٧ً) قُولُون

ف Côlon
ز (Intestinum) colon

٨ً) مستقيم

ف ، ز Rectum

وأقسام القولون :

آ — قولون صاعد

ف Côlon ascendant
ز Ascending colon

ب — قولون نازل

ف Côlon descendant
ز Descending colon

ج — قولون حرقفي حوضي

ف Côlon ilio - pelvien

ز Sigmoid colon

د — قولون معترض

ف Côlon transverse

ز Transverse colon

٩ً) مِعَوي

ف Intestinal ; entérique

ز Intestinal ; enteric

★ ★ ★

٢٢٠) المَعِدة

ف Estomac (m.)

ز Stomach

في الأصل . — موضع الطعام للإنسان .

في (ق) . — المعدة ككلمة ، وبالكسر ، موضع الطعام قبل انحداره إلى الأمعاء، وهو لنا ، بمنزلة الكرش للأظلاف . ج مِعَدَة ومِعَد كعنب .

في (ل) ولاروس ذي الجلدين . — المعدة ، قسم من الأنبوب الهضمي وهي جيب واسع متبر (منتفخ) تحت الحاجز بين المريء والعفج . تجتمع فيه الأطعمة وتتكتل بعد الانهضام . شكلها يحاكي الزمار ذي القربة (*) . يوصف لها وجهان : أمامي ، وخلفي (أي حافتين) . أحد الوجهين في الأيمن والأعلى ويسمى (انحناء صغير) ، والآخر في الأيسر والأسفل ويسمى (انحناء كبير) . الفتحة العليا التي تصل المعدة بالمريء ، هي (سُدفة المعدة) ؛ والفتحة السفلى التي تتصل بالعفج هي (بواب المعدة) . تتألف المعدة من

(*) Cornemuse

أربع طبقات (مصلية ، عضلية ، خلوية ، مخاطية) . الطبقة المخاطية منهن مؤلّفة من انثنا آت عديدة جداً تحتوي على غُدد تفرز الخميرة (هضمين(*)) ، والمخاطية (**) ، والعصارة المعدية .

فني المعدة تمتزج الأطعمة وتتعرك عدة ساعات حتى تصبح كحَريرةٍ مَثْول (***) فتُدفع إلى الأمعـــاء . [العصارة المعدية تخثر الحليب ، وتحَلْمِه (****) (= تحلل) الميوليات] .

أهم ما أضفت :

١ً — انحناء صغير

ف	Petite courbure
ز	Lesser curvature

٢ً — انحناء كبير

ف	Grande courbure
ز	Greater curvature

٣ً — بَوّاب (المعدة)

ف	Pylore
ز	Pylorus

٤ً — جسم (المعدة)

ف	Corps
ز	Body

(*) Pepsine

(**) Mucus

(***) Assimilabale

(****) حَلْمَهَة Hydrolyse

٥ً — حَدَبة كبيرة (قَعْر)

ف Grosse tubérosité ; fond ; fundus
ز Fundus

٦ً — حُدَيْبة (غار البواب)

ف Petite tubérosité ; antre du pylore
ز Pyloric antrum

٧ً — سُدفة

ف Cardia
ز Cardia ; œsophageal orifice

وعن نسج المعدة ، أضفت :

٨ً — خلايا محيطة ، ظاهرة الشكل

ف Cellules bordantes , délomorphes
ز Border , delomorphous cells

٩ً — خلايا رئيسة ، مركزية ، غير ظاهرة الشكل

ف Cellules principales , adélomorphes
ز Principal , adelomorphous cells

وعلى وجه عام ، أضفت :

١) معدة حَجْناء (أشعة)

ف Estomac crochet (rad.)
ز Fish - hook , hook shaped

٢) معدة كالساعة الرملية (أشعة)

ف Estomac biloculaire , en sablier
ز Bilocular , hour - glass stomach

٣) معدة متمدِّدة

ف Estomac dilaté

ز Dilated stomach

٤) معدة هابطة

ف Estomac ptosique

ز Ptotic stomach ; dropped stomach

٥) مَعِدي

ف Stomacal ; gastrique

ز Stomacal ; gastric ; gastro -

٦) مَعِدي ثَرْبي

ف Gastro - épiploïque

ز Gastro - epiploic

٧) معدي عفجي

ف ، ز Gastro - duodénal

٨) مَعِدي مِعَوي

ف ، ز Gastro - intestinal

٩) مَعِديّات ، مَهْضَمات ، هاضومات

ف Stomachiques ; stomacaux

ز Stomachics

١٠) تشنج المعدة

ف Gastrospasme

ز Gastropasme ; cramp ; spasm in the stomach

١١) تنظير المعدة

ف Gastroscopie

ز Gastroscopy

١٢) منظار المعدة

ف ، ز Gastroscope

١٣) هُبُوط المعدة

ف Gastroptose

ز Castroptosis

★ ★ ★

٢٢١) المثانة

ف Vessie (f.)

ز Urinary bladder

في الأصل . — مجتمع البول .

في (ق) . — موضع الولد ، أو موضع البول . (قلت : ما أعجب هذا ، من تناقض) !

في (ل) ولاروس ذي المجلدين . — المثانة كيس غشائي يجتمع فيه البول آتياً عن طريق الحالبين . توجد في القسم الأمامي السفلي من جوف الحوضة وأمام المستقيم في الرجل ، وأمام الرحم في المرأة . شكلها فارغةً ، شكل مثلث . من الخلف يتصل بها (الحالبان) [١] ومن الأمام والأسفل تنفتح إلى (الإحليل) [٢] بقسم دقيق هو (العنق) [٣] الذي تحيط به المُوثة [٤] (بروستات) في الرجل .

١) Urétère ٢) Urètre

٣) Col ٤) Prostate

ما أضفته :

١ ً — مثانة مُخَرومة كالعُمُد

ف Vessie en colonnes ou columnaire

ز Fasciculated , trabeculated bladder

٢ً — مثانة مستثارة

ف Vessie irritable
ز Irritable bladder

٣ً — مثاني

ف Cystique , vésical
ز Cystic , vesical

٤ً — التهاب المثانة

ف Cystite
ز Cystitis

٥ً — خَزْع المثانة ؛ نَحْت

ف Cystotomie ; taille ; lithotomie
ز Cystotomy ; lithotomy

٦ً — منظار المثانة

ف ، ز Cystoscope

وعلى وجه عام :

آ) إحليل

ف Urètre
ز Urethra

ب) مَوْثة

ف Prostate
ز Prostate , prostata

ج) مَوْثي

ف Prostatique
ز Prostatic

د) التهاب المَوْثة

ف Prostatite
ز Prostatitis

هـ) خَرْت المَوْثة

ف Forage
ز « Forage » of prostata

★ ★ ★

٢٢٢) المَطا

ف Dos (m.)
ز Back ; dorsum

في الأصل . — المطا ، الظهر .

في (ق) . — مطا : جدَّ في السير وأسرع وأكَلَ الرُّطَب من الكِباسة . وتمطى النهار وغيره امتد وطال . والمطَى : التَّمَطّي والظهر ج أمطاء .... والظَّهر خلاف البطن .

في معجم متن اللغة . — مطا مَطْواً .... وأكل الرُّطب من المَطْو وهي الكِباسة (*) . والمطا ، الظهر أو حبل المتن من عصب أو عقب أو لحم ج أمطاء .

في (ل) . — الظهر ، في الفقريات : الجزء الخلفي في الجسم من لدن الكتفين حتى الحوضة .

(*) قلت : الكِباسة بالكسر هي العِذْق .

ما أضفته :

١ً — ظهر السَّرج التُّركي

ف Dos de la selle turcique
ز Dorsum sellæ

٢ً — ظهر مدوَّر

ف Dos rond
ز Round back

٣ً — ظَهْري

ف Dorsal
ز Dorsal ; posterium

٤ً — سُهام ظهري تشنجي

ف Tabès dorsal spasmodique
ز Spasmodic tabes

★ ★ ★

٢٢٣) الصُّلْب

ف Colonne vertébrale
ز Vertebral column

في الأصل . — الصلب ، هو عَظْمٌ في وسط الظهر وهي ٢٤ فقرة .

في (ق) . — الصلب بالضم وبالتحريك عظمٌ من لدن الكاهل إلى العجب كالصالب . ج أَصْلُب وأصلاب وصِلَبَة .

قلت : هذا التعريف ينطبق على (العمود الفِقَري) فوضعت ما يقابله بالافرنجيتين (في الرقم ٢٢٣ هذا) .

في (ل) ٠ — العمود الفقاري ، ساق عظمية تمتد من لدن قاعدة الجمجمة حتى مبدأ الفخذين في الحيوانات الفقرية . أما في الإنسان فيتألف العمود الفقري من تراكب ٣٣ فقرة وهو ذو أربع انحناآت (٧ فقرات عنقية (١) — ١٢ فقرة ظهرية (٢) — ٥ فقرات قَطَنية (٣) — فالعَجُز (٤) — فالعُصْعُص (٥) .

١) Vert . cervricales ٢) Vert . dorsales

٣) Vert . lombaires ٤) Sacrum

٥) Coccyx

هـذا وبالفرنسية يرادف العمود الفقاري كلمة Rachis أي السيساء . وكلمة Échine الشوك الظهري . و Épine dorsale السّنسنة . وفيما يلي (في الرقم ٢٢٤ — الفقرة) ذكر بعض أقسام الفقرة وما يقابلها .

★ ★ ★

(يتبع) الدكتور صلاح الدين الكواكبي



صفحات من تاريخ الاستشراق

- ٦ -

(ويليام موير) :

كان السير (ويليام موير William Muir) [١٨١٩ — ١٩٠٥] من كبار الموظفين الإنكليز في الهند . وقد نشر اعتباراً من سنة ١٨٥٣ سلسلة من المقالات في (مجلة كلكوتا Calcutta Review) ، جمعها آخر الأمر في كتاب ضخم من أربع مجلدات بعنوان (حياة محمد)[١] .

والكتاب في فصوله المتعلقة بالحوادث التاريخية لايتضمن شيئاً جديداً ، ولذلك كان من الأفضل اختصاره . وأكثرُ المعلومات في المجلد الأول الذي يبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام مقتبس من كتاب (دو برسفال) .

إلا أن هناك بعض الفصول على جانب كبير من الأهمية مثل : الفصل الأول من المقدمة الذي يبحث في مصادر السيرة ودرجاتها المختلفة من الصحة ثم الفصل الثالث من السيرة الذي يتكلم فيه على « إيمان محمد بإلهامه » ثم الفصل السابع عن علاقة الإسلام بالمسيحية ، والفصل السابع والثلاثين عن « شخصية الرسول وأخلاقه » . .

---

(١) William Muir. Life of Mahomet . London 1858 — 1861.

إن طريقة العرض واضحة ، رزينة ، ولكنها تنم عن تعصب ديني متطرف ، يبعد المؤلف عن الروح العلمية والنظرة الموضوعيـة في كثير من أحكامه ...

(شبرنجر) :

كذلك نلاحظ سمة الإطلاع وقوة النقد مع التحيز والتهجم في كتاب المستشرق النمساوي (الويس شبرنجر Alois Sprenger) [١٨١٣ - ١٨٩٣] عن « حياة محمد وتعاليمه » (١) .

كان (شبرنجر) طبيباً ، رحل إلى لندن ودخل في خدمة الإنكليز الذين أرسلوه إلى الهند وعهدوا إليه بادارة مدرسة (دلهي) ومطبعة (كلكوتا) .

ثم انتقل إلى ألمانيا ، وتولى تدريس العربية في برلين ، وانقطع بعد ذلك إلى التأليف .

يبدأ (شبرنجر) دراسته باستعراض النظريات المختلفة التي أبداها قبله المستشرقون في شخصية الرسول (ﷺ) . وهو يقول : « إن الباحثين في ألمانيا قد جردوا كلمة (نبي) من كل معنى ودلالة ، ثم ادعوا أن محمداً كان نبياً . » وقد اعتقد (موير) أن الرسول كان آلة في يد الشيطان بينما رأى فيه (قارلايل) شخصية خارقة للعادة وبطلاً فذاً . أما نتائج دراسات (شبرنجر) فقد أدت به إلى اليقين بأن الإسلام لم ينبثق عن إرادة رجل بل عن حاجات العصر . وإذا كان (قارلايل) قد تطوع ليقول كل شيء حسن عن الرسول فإن (شبرنجر) يريد اتباع الطريق المعاكس . إنه تطوع

(١) Alois Sprenger, Das Leben und die Lehre des Mohammed, Berlin 1861.

للقيام بدور (محامي الشيطان) الذي يستنبط من مدائح أنصار الرسول الجوانب التي يراها مظلمة في شخصية الرسول ؛ كما أنه يلفت الأنظار في كل مناسبة إلى النقاط التي يعتقد أنها دليل على الضعف البشري .

ويجب الاعتراف بأن (شبرنجر) أتقن التمثيل في دور (محامي الشيطان) . وليس المسلمون وحدهم ، بل إن أكثر المستشرقين أيضاً لم يقبلوا حكم (شبرنجر) الذي أراد أن ينسب إلى الرسول (ﷺ) مرض الهستريا . وقد لاحظ المستشرق الهولاندي الشهور (سنوك هورغرونيه) أنه ليس هناك أي دليل أو شاهد يؤيد هذا التشخيص . وعدا ذلك فإن (شبرنجر) لايقدم لنا سوى كلمة مجردة ولا يفسر لنا شيئاً من شخصية الرسول وسر عظمته .

ولكن على الرغم من رفض الفكرة الأساسية في كتاب (شبرنجر) ورغم الإسهاب في مناقشة الموضوعات وكثرة الاستطرادات ، فإن المستشرقين عامة يعتبرونه من أهم الدراسات عن حياة الرسول لأنه اتخذ القرآن مصدراً أساسياً لهذه الدراسة ، واستشهد بما يقارب الثلثين من سور القرآن التي تولى (شبرنجر) ترجمتها بنفسه . يقول (ولهاوزن) « إن كتاب (شبرنجر) كنز ثمين من المعلومات والأفكار .. فإن المؤلف لم ينظر إلى الآداب العربية على أنها مجموعة من الشواهد لتوضيح قواعد النحو بل اهتم بمحتواها ، وما تضمنته من أفكار وتيارات ....» . ولا شك في أن (شبرنجر) قد تقدم خطوات هامة في دراسة المصادر عن حياة الرسول ، واستطاع أن يبرهن على أن الكتب العربية التي ألفت بعد القرن الخامس الهجري لا يمكن الاعتماد عليها لأنها منسوخة بصورة غير انتقادية عن المؤلفين السابقين الذين يجب الرجوع إليهم والأخذ عنهم مباشرة ...

(نولدكة) :

أما المستشرق الألماني (تيودور نولدكه Theodor Nœldeke) [١٨٣٦ — ١٩٣٠] فالآراء متفقة على أنه من أكبر المستشرقين وأوسعهم علماً ، وأكثرهم تحقيقاً ، وأقربهم إلى الإنصاف والعدل والحقيقة . وهو على الرغم من ميله الطبيعي إلى الآداب اليونانية قد دفعته الأقدار إلى الاستشراق ، كما أن جهوده في الدراسات الشرقية قد تمركزت حول المسائل اللغوية ، رغم أن اهتمامه كان متجهاً في الأصل إلى الناحية التاريخية .

وعلى كل حال فإن كتابه « تاريخ القرآن » قد أصبح دعامة لا يستغني عنها كل من يريد دراسة الإسلام وشخصية الرسول . وهو قد استند إلى هذه الدراسة في تأليف كتاب مختصر عن « حياة محمد » موجه إلى جمهور كبير . ونراه يشير في المقدمة إلى أن الدراسات التاريخية — الانتقادية التي بدأها أمثال (وايل) و (موير) و (شبرنجر) لم تبلغ مداها بعد . إلا أنه كانت هناك ، كما يقول ، حاجة إلى نظرة إجمالية تلخص نتائج البحوث العلمية الحديثة . ويصرح (نولدكه) بأنه قد استفاد من دراسات المستشرقين المتأخرين الذين مر ذكرهم ، ولكنه اعتمد أيضاً على بحوثه الذاتية . وهو يخالف (شبرنجر) في أحكامه وينتقد اندفاعه وطريقته الشخصية ؛ وفي الحقيقة يمتاز كتاب (نولدكه) بالنظرة الموضوعية . وقد اعتقد المؤلف أنه ، لأجل إصدار حكم عادل على محمد (ﷺ) ، لا يكفي أن نستعرض حياته كنبي وواعظ وحاكم ، بل ينبغي أن ننظر أيضاً إلى سلوكه مع أتباعه وأصدقائه وفي شؤونه اليومية . فإن صفاته التي نعرفها بالتأكيد تكشف عن سمو الخلق وكرم النفس . أما أخطاؤه فإنها ترجع ، في رأي (نولدكه) ،

إلى عادات عصره وطبائع شعبه . وينتهي (نولدكه) إلى القول « بأن ليس هناك أدنى شك في أن محمداً كان مؤمناً برسالته التي تتلخص في هداية قومه إلى العقيدة الصحيحة ، وإنقاذهم من العقاب الأبدي ...

نظرية (جريمي) في رسالة محمد ﷺ :

مضت فترة طويلة بعد مؤلفات (وايل) و (موير) و (شبرنجر) و (نولدكه) قبل أن يظهر كتاب جديد عن الرسول ، له قيمة خاصة ، يتصف بالاستقلال في الرأي ويكشف عن نواح غير معروفة ، ونقصد بذلك كتاب « محمد »[1] للمستشرق الألماني (هوبرت جريمي Hubert Grimme) الذي يتضمن المجلد الأول منه حياة الرسول ، والمجلد الثاني المدخل إلى القرآن .

إن المصادر التي يستند إليها (جريمي) قد سبق نشرها جميعاً ، ولكنه يتبع طريقة جديدة في استخدامها تختلف عن المؤلفين الذين سبقوه . فهو ، قبل كل شيء ، يلتزم الحذر الشديد تجاه روايات رجال الحديث والسيرة ، ويقول : « رغم الاعتراف بأن مجموعات الحديث القديمة تشتمل على كثير من الأخبار الصحيحة إلا أنه من المؤكد أيضاً أن التزوير المقصود قد شاع في هذا الموضوع أكثر من غيره ، ولم يتوصل الباحثون بعد إلى وسيلة مضمونة للتمييز بين الصحيح والمزيف . ثم إن مجموعات الحديث تعبر ، في نظر (جريمي) ، عن الروح التي كانت سائدة في المدينة ، ولكنها لا تعطينا صورة دقيقة عن الحالة في مكة . إنما لدينا ، لحسن الحظ ، مصدر غني تتدفق منه الحقائق التاريخية هو القرآن . وقد سعى (جريمي) إلى الاستفادة من هذا النبع إلى أقصى حد ممكن . والصعوبة الكبيرة هنا إنما ترجع

(١) Hubert Grimme : Mohammed . Muenster 1892 — 1895.

إلى الاختلاف في تحديد الوقت الذي نزلت فيه بعض الآيات . لذلك حاول (جريمي) أن يعالج هذا الموضوع في الجزء الثاني من كتابه .

على أن الطرافة في كتاب (جريمي) هي دعواه بأن محمداً (ﷺ) لم يكن ، في بادئ الأمر ، يبشر بدين جديد ، بل إنما كان يدعو إلى نوع من الاشتراكية . يقول (جريمي) : « إن الإسلام ، في صورته الأولى الأصلية ، لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه . ذلك لأننا ، إذا نظرنا إليه عن كثب ، نراه لم يظهر إلى الوجود كعقيدة دينية ، بل إنما كمحاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة ، وعلى الأخص إلى إزالة الفروق الصارخة بين الأغنياء الجشعين والفقراء المضطهدين .... لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين . وهو إنما يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المنوي وتأييد دعوته ... »

ويعترف (جريمي) بأن فكرة الإصلاح الاجتماعي — الاشتراكي قد اصطدمت بعقبات لا يمكن اجتيازها ، وتحطمت على صخرة العصبية القبلية والمصالح الطبقية ، وتطورت الدعوة الإسلامية فانقلبت إلى ديانة ذات أهداف ما وراء الطبيعة .

وقد رد المستشرق الهولاندي (سنوك هورجرونيه) على هذه النظرية في بحث طويل نشره في « مجلة تاريخ الأديان » (المجلد ٣٠ لسنة ١٨٩٤) ، وبيَّن أن الفكرة الأساسية في الدعوة المحمدية هي فكرة يوم الحساب . أمَّا الحض على الإحسان ومساعدة المحتاجين فتلك فضيلة شائعة في الشرق ، ويتفق فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية ، ولا يجوز أن نبني عليها فرضية كالتي وضعها (جريمي) والتي تجعل من الرسول داعية اشتراكياً ...

موقف الاستشراق من سيرة الرسول في العصر الحاضر :

تابع المستشرقون في أوائل القرن العشرين نشر المصادر العربية عن تاريخ العرب والإسلام ، وتوسعوا في دراسة هذه المصادر ونقدها . فقد تم في سنة ١٨٩٨ طبع تاريخ الطبري في (١٣) مجلداً ، وهو يجمع معظم الروايات القديمة عن حياة الرسول . وكان من أهم المصادر القديمة التي نشرت أيضاً كتاب « الطبقات الكبير » لابن سعد . وقد عهد المجمع العلمي في (بروسيا) بتحقيق الكتاب إلى لجنة من كبار المستشرقين تحت إشراف الأستاذ (أدوار ساخاو Eduard Sachau) فصدر في (١٥) مجلداً في (ليدن) بين سنة ١٩٠٤ و ١٩٢٨ . والمجلد الأول يروي سيرة الرسول في مكة ، والمجلد الثاني أخباره في المدينة ، والمجلد الثالث يصف غزواته ، بينما تشتمل المجلدات الأخرى تراجم أحوال الصحابة والتابعين .

وقد نشر المستشرق الطلياني الأمير (ليون قايتاني Leone Caetani) بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩٢٦ عشر مجلدات من مؤلفه الضخم (حوليات الإسلام Annali dell' Islam) الذي جمع فيه كل الأخبار والروايات عن الحوادث التاريخية منذ الهجرة مرتبة حسب الزمن سنة بعد أخرى ، وقد اشتملت المجلدات العشر على حوادث الفترة من السنة الأولى إلى السنة الأربعين للهجرة . وتولى (قايتاني) مناقشة كل الروايات ونقدها والتعليق عليها ...

ولكن على الرغم من كثرة المصادر وتراكم الوثائق لا يمكن القول بأنه قد ظهرت مؤلفات جديدة للمستشرقين ترسم شخصية الرسول (ﷺ) بصورة واضحة ، وتكشف عن سر عظمته وحقيقة تعاليمه وأهميتها في تاريخ البشرية . وقد ازداد الموضوع تشعباً واتسع نطاقه بعد أن صار المستشرقون لا يكتفون بالبحث في سيرة الرسول كما كانت في الواقع ، بل يحاولون أيضاً

معرفة الصورة التي تكونت عنه لدى المسلمين ، وكيف تطورت هذه الصورة مع تعاقب العصور . ولعل وفرة المواد هي التي أدت إلى تشتت الدراسات ، وتوقف الباحثين عند بعض المسائل الجزئية . أضف إلى ذلك أن بعض الباحثين في هذا العصر لم يستطيعوا التجرد عن التعصب الديني ، فأخذوا يثيرون الشكوك ويشوهون الحقائق .

يتجلى لنا ذلك في كتاب المستشرق الانكليزي (مارجليوث D. S. Margoliouth) عن « محمد وقيام الإسلام » (١) . وقد استفاد المؤلف من عدة مصادر جديدة لم يستخدمها الذين سبقوه ، وأظهر مهارة في الوصف ، ولكنه اندفع مع أهوائه ! ونسب إلى الرسول (ﷺ) الخداع والتضليل . كذلك نلاحظ تأثير التعصب الديني عند الأمير (قايتاني) الذي يبالغ في نقد الروايات الإسلامية ، ويتحامل في حكمه على الرسول في كتابه « دراسات عن التاريخ الشرقي Studi di storia orientale » الذي خصص المجلد الثالث منه لترجمة « حياة محمد الرسول ورجل الدولة » .

وليس غريباً أن يلجأ مبشر يسوعي مثل الأب (هنري لامنس) إلى تحريف النصوص وتشويهها والتلاعب بالعبارات للطعن في العرب والمسلمين ، فهو لم يقصد الكشف عن الحقيقة بل الدس والتضليل والتشنيع في جميع مؤلفاته التي يحوم بعضها حول سيرة الرسول ، مثل مقاله عن (عمر محمد) في المجلة الآسيوية سنة ١٩١١ حيث يرجع تاريخ ولادة الرسول إلى سنة ٥٨٠ خلافاً لجميع الآراء التي تتفق على أن ذلك كان حوالي سنة (٥٧٠) ؛ ومثل كتابه « فاطمة وبنات الرسول » (٢) الذي حاول فيه أن يرسم صورة مشوهة عن فاطمة الزهراء دون أي مستند تاريخي موثوق ؛ ثم كتبه الأخرى عن (مكة) و (الطائف) و (مهد الإسلام) وغيرها .

---

(١) D. S. Margoliouth, Mohammed and the Rise of Islam . London 1905.

(٢) Henri Lammens : Fatima et les Filles de Mahomet. Rome 1912

وأكثر المستشرقين ، رغم إعجابهم بكثرة معلومات (لامنس) وسعة اطلاعه وطلاوة أسلوبه لم يستطيعوا إلا انتقاده وفضح مغالطاته ، والتحذير من الاعتماد عليه .

يمدح جمهور المستشرقين كتاب « حياة محمد »(١) للمستشرق الدانياركي (فرانتس بول Frants Buhl) الذي صدر في (قوبنهاجن) سنة ١٩٠٣ ثم ترجم إلى الألمانية في سنة ١٩٣٠ بعد تنقيحه وتوسيعه بالاتفاق بين المؤلف والمترجم المستشرق المعروف (شيدر H. H. Schaeder) والكتاب يتحاشى الفرضيات البراقة ، ويمتاز بالدقة في دراسة كل التفصيلات ، ويقتصر على الأخبار الموثوقة ، ويعترف بوجود ثغرات في معلوماتنا . وقد رجع المؤلف إلى جميع المصادر المعروفة ، فدرسها دراسة انتقادية ، مستقلة ، وأضاف إليها قصائد الشعراء المعاصرين للرسول التي أهملها الكتّاب الذين سبقوه .

ومع الاعتراف بأن المؤلف قد حاول التزام الحياد والتمسك بالنظرة الموضوعية المجردة ، فإنه لم يتحرر من الأحكام السابقة المعادية بالنسبة إلى شخصية الرسول وصفاته الأخلاقية .

ولعل المؤلف الوحيد بين الباحثين الحديثين الذي بذل جهوداً صادقة لفهم شخصية محمد (ﷺ) وإدراك حقيقة رسالته هو المستشرق السويدي (تور آندريه Tor Andrae) .

نشر (تور آندريه) في سنة ١٩١٨ كتابه عن « شخصية محمد في تعاليم جماعته وعقيدتهم »(٢) الذي استطاع أن يصف لنا فيه شخصية الرسول

(١) Frants Buhl, Das Leben Muhammeds. Leipzig 1930

(٢) Tor Andrae, Die Person Muhammeds in Lehre und Glauben seiner Gemeinde. Stockholm 1918

كما تصورها المسلمون في مختلف العصور ، وأن يستعرض ما نشأ لديهم من أساطير حوله ، وأن يشرح آراء المتكلمين والمتصوفين في معجزات الرسول وعصمته وتمجيده .

ثم أصدر (تور آندريه) في سنة ١٩٣٠ كتاباً ثانياً عن « محمد : حياته وعقيدته » تُرجم إلى الألمانية والانكليزية والطليانية والفرنسية . وهذا الكتاب صغير الحجم لا يتجاوز (١٥٠) صفحة ولكنه يمتاز بالطرافة والاستقلال في الرأي والرزانة في الأسلوب ، والمؤلف لا يريد التوسع في ذكر الحوادث المعروفة ، ومناقشة الروايات المختلفة ، كما اعتاد غيره من المستشرقين ، ولكنه يسعى إلى إيضاح مفهوم الوحي عند الرسول وشرح مضمون الرسالة التي كان يبشر بها ، والبرهان على صدق عقيدته ، ووصف ما كان يتحلى به من مكارم الأخلاق كالإخلاص والتواضع والبساطة والوداعة والتقى .

ومثال (تور آندريه) يثبت لنا أن إخلاص المسيحي لعقيدته الدينية ، لا يمنعه من أن يحاول النفوذ إلى روح ديانة أخرى ، وأن يقوم بالمقارنة بين مختلف العقائد في سبيل إدراك جوهر الفكرة الدينية .

وأخيراً نستطيع القول بأن أكثرية المستشرقين لم يتوصلوا إلى تكوين فكرة صحيحة عن محمد (ﷺ) بسبب تعصبهم الديني . أما القلائل الذين تحرروا من هذه النزعة فيرجع فشلهم في فهم شخصية الرسول إلى مبالغتهم في النظرة التاريخية . فقد انصرفت جهود الباحثين منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى هذه الأيام إلى الكشف عن المنابع والأصول التي اقتبست منها الديانة الإسلامية . ألم يبلغ الأمر ببعض المستشرقين إلى محاولة إرجاع كل شيء في القرآن ـ سواء أكان فكرة دينية أو حكمة أخلاقية أو نصاً قانونياً ،

أو قصة أدبية ـ إلى نموذج قديم في كتب اليهود أو المسيحيين أو الفرس أو في تقاليد العرب الجاهليين ؟ وقد عارض (تور آندريه) هذه الطريقة في البحث ، وأشار إلى أن جوهر النبوة لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية . ومهمة الباحث ، في رأيه ، هي أن يدرك كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة ، أصيلة تنبض بالحياة . فالإسلام لا ينكر صلاته بالديانة اليهودية والمسيحية وعقائد الحنيفية ، وتقاليد العرب القدماء ، ولكن ذلك لا يعني أنه مجرد مجموعة من هذه العناصر ...

الدكتور محمد كامل عياد



فوات الوفيات في طبعته الجديدة

(الجزء الثاني)

- ٥ -

٣٨ — وجاء في الصفحة ٣٩٣ « محمد بن الحسن بن عبد الله بن الشبلي أبو علي الشاعر الحكيم البغدادي » . صوابه « ابن الشبل » لا ابن الشبلي » ، بذلك اشتهر وفي الكتب ذُكر ، فمن الكتب التي ذكرته المتداولة المطبوعة، معجم الأدباء لياقوت وقد سماه الحسين قال : « الحسين بن عبد الله بن يوسف ابن أحمد بن شبل أبو علي البغدادي ، ولد في بغداد وبها نشأ وبها توفي سنة ٤٧٤ كان متميزاً بالحكمة والفلسفة ....(١) » . وتاريخ أبي الفرج ابن الجوزي الكبير قال في وفيات سنة ٤٧٣ : « محمد بن الحسين بن عبد الله ابن أحمد بن يوسف ابن الشبل أبو علي ، من أهل شارع دار الرقيق ، سمع الحديث(٢) ... » . وعز الدين بن الأثير في تاريخه الكامل في وفيات سنة ٤٧٣ قال : « وفيها توفي أبو علي بن شبل الشاعر المشهور ومن شعره في الزهد . . . » وذكر له أبياتاً . وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ، قال مؤلفه : « ابن الشبل البغدادي هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن يوسف ، مولده ومنشؤه ببغداد وكان حكيماً فيلسوفاً ومتكلماً فاضلاً . .(٣) » . ودمية

---

(١) معجم الأدباء « ٤ : ٣٨ » طبعة مرغوليوث .

(٢) المنتظم « ٨ : ٣٢٨ » .

(٣) ج ١ ص ٢٤٧ طبعة مصر « امرىء القيس بن الطحان » .

القصر وعصرة أهل العصر قال الباخرزي مؤلفها : « أبو علي بن شبل البغدادي ، رأيته ببغداد فوجدته وقد شدّ على الأدب الجزل أزرار ثيابه وجمع أقسام الفضل ملء إهابه ... (١) » . والنجوم الزاهرة ، قال ابن تغري بردي في وفيات سنة ٤٧٣ ، « وفيها توفي محمد بن الحسين بن عبد الله بن أحمد بن يوسف ابن الشبلي (كذا) أبو علي الشاعر البغدادي ، كان شاعراً مجيداً (٢) ... » . وقد وقع فيه الوهم الذي وقع في فوات الوفيات ، وذكره قبله الصفدي في تاريخه للرجال قال : « محمد بن الحسين ابن عبد الله بن أحمد بن يوسف ابن الشبل أبو علي الشاعر الحكيم البغدادي ، توفي في المحرم سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة (٣) ... » .

٣٩ — وجاء في الصفحة ٤٠٠ في ترجمة أبي اليمن محمد بن الخضر بن أبي المهزول التنوخي المعروف بالسابق « دخل بغداد وجالس ابن باقيا والأبيوردي والخطيب التبريزي » ، وصوابه « ابن ناقيا » بالنون ، وقد مرّ الشيخ بضبطه إلا أنه لم يضبطه بالحفظ ، قال ابن خلكان في ترجمته : « وناقيا بفتح النون وبعد الألف قاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها مفتوحة وبعدها ألف (٤) » .

٤٠ — وورد في الصفحة ٤٠٢ « محمد بن خليفة بن حسين أبو عبد الله النميري العراقي الشاعر المعروف بالسنبستي ، أصله من هيت ، أقام بالحلة عند سيف الدولة صدقة بن مزيد ... » . قلت : الذي علمناه وحفظناه « السِّنْبِسِيّ » على وزن « الزِّبْرِجيّ » . قال الصفدي : « محمد بن خليفة ابن حسين أبو عبد الله النُّميريّ العراقي الشاعر المعروف بالسِّنْبِسيّ (اسم

(١) دمية القصر « ص ٨٣ طبعة المطبعة العلمية بحلب » .
(٢) النجوم الزاهرة « ٥ : ١١١ » .
(٣) الوافي بالوفيات « ٣ : ١١ » .
(٤) وفيات الأعيان « ١ : ٢٨٨ طبعة إيران » قلت ذلك لأنه أعاد طبع الوفيات قبل فوات الوفيات وأحال عليه في الحواشي مرّات .

أمه سنبسة) أصله من هيت أقام بالحلة (١) عند سيف الدولة ... » . وهو شاعر مشهور ، ترجم له العماد الاصفهاني الكاتب في الخريدة وابن الفوطي في تلخيص معجم الألقاب في الملقبين بالقائد (٢) ، واستطرد إلى ذكره ابن الأثير في تاريخه الكامل وياقوت في معجم البلدان غير مرة . وترجم له القفطي في كتابه « المحمدون » من الشعراء .

كانت دموعي حُمراً قبل بينهم فمذ نأوا قصرتها لوعة الحرق

و « حمراً » جمع أحمر هنا وهي منصوبة بكونها خبر كانت ، ولكن الشيخ الفاضل ضبطها « حَمرا » بالفتح والقصر ، والصواب ما ذكرنا لأنه القاعدة العربيّة المطردة ، قال تعالى في سورة طه : « يوم يُنفخ في الصُّور ونحشر المجرمين يومئذ زُرقاً » . فهذا للعاقل ، وقال تعالى في سورة الكهف : « ويلبسون ثياباً خُضراً من سُندس واستبرق » . وهذا لغير العاقل كالدموع .

٤٢ — وجاء في الصفحة ٤٤٤ « محمد بن عبد الرحمن بن عمر الباجريقي الجزري » وجاء في الحاشية من تعليق الشيخ « الباجريقي » نقلاً من الشذرات « ٦ : ٦٤ » كما قال الشيخ الفاضل في تعليقة (٣) ، وفي الصفحة ٤٤٥ « فطلب الباجريقي » . والذي علمناه وحفظناه « الباجُربَقي » بالباء بعد الراء نسبة إلى « باجُربَق » (٤) ، قال الصفدي : « محمد بن عبد الرحيم بن عُمر الباجُربَقي الجزري الشيخ الزاهد محمد ابن المفتي الكبير جمال الدين الشافعي (٥) ... » .

---

(١) كذا ورد في الوافي بالوفيات « ٣ : ٤٨ » طبعة س . ديدرينغ المستعرق والصواب « الحلة » كما في فوات الوفيات .

(٢) تلخيص مجمع الآداب « ج ٤ القسم ٢ ص ٥٦٥ نشر وزارة الثقافة والإرشاد السورية بتحقيقي » .

(٣) الذي في الشذرات « الباجريقي » لا الباجريقي .

(٤) قال ياقوت : « با جُربق بضم الجيم وسكون الراء وفتح الباء الموحدة وقاف : قرية من قرى بين النهرين : كورة بين البقعاء ونصيبين » .

(٥) الوافي بالوفيات « ٣ : ٢٤٩ » .

وقال ابن حجر العسقلاني : « محمد بن عبد الرحيم بن عمير الجزري جمال الدين (١) الباجُربقي ... » (٢) .

٤٣ — وجاء في الصفحة ٤٤٦ « محمد بن عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني العدل شمس الدين المحدث » . والذي علمناه وحفظناه « ابن عبد الرازق » بتقديم الألف على الراء ، قال الذهبي في وفيات سنة (٦٩٠) من العبر : « وابن المحدث ، العدل شمس الدين محمد بن عبد الرازق بن رزق الله الرسعني الحنبلي نزيل دمشق ... (٣) » . وقد وهم الصفدي قبل ابن شاكر الكتبي وذكره باسم « عبد الرزاق » قال : « محمد بن عبد الرزاق بن رزق الله بن أبي بكر العدل العالم شمس الدين الرسعني (٤) » . وليس ذلك من الغلط المطبعي لأنه ذكره بين « محمد بن عبد الرزاق الساوي » و « محمد بن عبد الرشيد الاصبهاني » . فابن شاكر الكتبي نقل ترجمة الرجل من الوافي واحتمل عهدة الغلط ، ووقع في الغلط نفسه ابن العماد في وفيات سنة ٦٨٩ قال : « وفيها شمس الدين أبو الفضائل محمد بن عبد الرزاق الرسعني — نسبة إلى رأس عين بلد — الحنبلي (٥) ... » . وكذلك ورد في ذيل طبقات الحنابلة المطبوع باعتناء الشيخ محمد حامد الفقي فقد جاء فيه « محمد بن عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني وقد سبق ذكر أبيه (٦) ... » . ووقع الغلط في اسم أبيه هناك أيضاً (٧) .

---

(١) في نسخة « كمال الدين » .
(٢) الدرر الكامنة « ٣ : ١٢ » .
(٣) العبر في خبر من غَبَر « ٥ : ٣٦٤ » .
(٤) الوافي بالوفيات « ٣ : ٢٥١ » .
(٥) الشذرات « ٥ : ٤١٠ » .
(٦) ذيل طبقات الحنابلة « ٢ : ٣٢٤ طبعة مطبعة السنة المحمدية » .
(٧) المرجع المذكور « ص ٢٧٤ » .

٤٤ — وورد في الصفحة ٤٥٧ في ترجمة تاج الدين ابن شقير الدمشقي « وكان تاج الدين يلقب بالمُدهد ، فأعطاه الملك الناصر ضيعة على نهر نورا ، فحسده جماعة . . . » . ولم يُسائل الشيخ نفسه أين نهر نورا هـــذا ؟ فالصواب « نهر ثورا » قال ياقوت بالفتح والقصر اسم نهر عظيم بدمشق وقد وُصفَ في بَرَدى وقد جاء في شعر بعضهم (ثورة) بالهاء وهو ضرورة » .

٤٥ – وورد في الصفحة ٤٥٨ « محمد بن عبد المنعم بن محمد بن شهاب الدين الخيمي الأنصاري اليمني الأصل المصري الدار » . فعلّق الشيخ محقق الكتاب في الحاشية باسمه ما نصه « له ترجمة في شذرات الذهب لابن العماد وقال : « ابن الخيمي شهاب الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد ، فلعل كلمة بن الواقعة بين محمد وشهاب الدين زائدة في أصول الكتاب » . قلت : إنه لم يرجع إلى المرجع الأصلي لابن شاكر الكتبي وهو الوافي بالوفيات فقد جاء فيه « محمد بن عبد المنعم بن محمد شهاب الدين ابن الخيمي الأنصاري الأصل المصري الدار[1] . . . » . فابن المذكورة زائدة بالتحقيق .

٤٦ — وجاء في ترجمة أبي سعد محمد بن علي ابن المطلب الكرماني الكاتب الشاعر « وكان كاتباً سديداً مليح الشعر إلا أنه كان قليله كثير الهجاء دقيق الفكر فيه . . . » . والجملة مطردة التركيب واضحة المعنى إلا أن مقابلتها بالأصول التاريخية الأدبية تظهر تصحيفاً فيها ، ففي الوافي بالوفيات ٤ : ١٥٠ « وكان كاتباً سديداً مليح الشعر إلا أنه كان ثُلَبَةً كثير الهجاء دقيق الفكر فيه » . ومن المعلوم أن القول المقبول للصفدي لأن كتابه مرجع ابن شاكر الكتبي ولولا وجود الوافي بالوفيات ما استطاع ابن شاكر أن يؤلف فوات الوفيات . ويؤيّد كلمة « ثلبة » ما ورد في معناها ومن

(١) الوافي بالوفيات « ٤ : ٥٠ » .

أصلها في كتب أخرى ، قال العماد الأصفهاني الكاتب : « وكان هجّاماً على الهجاء وثلب الكبراء »(١) .

٤٧ — وورد في الصفحة ٤٧٧ قول أبي سعد ابن المطلب المذكور :

فهــذا يدل على أنّ مَن تولّى ويزل لا يعقــل

وفي الخريدة المذكورة « يُولّي ويعزل » وهو الصواب .

٤٨ — وجاء في الصفحة ٤٨٢ قول الشيخ محي الدين ابن عربيّ :

حتى إذا صاح الغراب بينهم فضح الفراق صبابة المحزونِ (؟)

وقد وضع الشيخ علامة الاستفهام في آخر البيت ، ولو علّق عليه أن فيه إقواءً لكان ذلك أحسن فالقافية مضمومة .

٤٩ — وجاء في الصفحة ٥٠٢ في ترجمة صدر الدين محمد بن عمر ابن المرحل ، ابن الوكيل « وعمل مجلدة في السؤال الذي حضر من عند استدمر نائب طرابلس » . هكذا ورد « استدمر » بالتاء والذي علمناه وحفظناه « أسندمر » بالنون . قال ابن تغري بردي في حوادث سنة ٦٩٤ : « ثم في يوم الخميس سابع عشر المحرم أمسك السلطان الأمير أسَنْدَمُر وقيَّده وحبسه بالقلعة(٢) » . فقال محقق الكتاب في الحاشية : « هو أسندمر بن عبد الله الكُرْجي سيف الدين ، توفي سنة ٧٢١ كما في الدرر الكامنة وفي هامشها والمنهل الصافي أنه توفي سنة ٧١١ » ، وكرَّرُوا أكثر هذه الحاشية عند تكرار اسمه في حوادث سنة ٦٩٨ وفي ذكره ما يدل على أنه كان إذ ذاك

(١) خريدة القصر « قسم العراق ١ : ١٨٣ نشر المجمع العلمي العراقي بتحقيق الأستاذ الأديب الشهير محمد بهجة الأثري » .

(٢) النجوم الزاهرة « ٨ : ٦٢ » .

نائب طرابلس (١) ثم كرّر اسمه مرات في الكتاب ، وفي الذي ذكرناه مجزأة عن الإطالة .

٥٠ — وورد في الصفحة ٥٣١ في ترجمة محمـــد الأمين « ثمّ جهّز عبد الرحمن بن جبلة الأنباري في أربعين ألف فارس » . والذي علمناه وحفظناه « الأبناوي » بتقديم الباء على النون نسبة إلى أبناء فارس الذين وُلدُوا في البلاد العربيّة في الجاهلية أو الإسلام ، قال تاج الإسلام في « الأبناء » من الأنساب : « يقال في التعريف : فلان من الأبناء والنسبة إليه أبناويّ وكل من ولد باليمن من أبناء الفرس وليس من العرب يسمونه الأبناوي ، هكذا ذكره أبو حاتم بن حبان البستي ، وقال أبو علي الغساني : الأبناوي منسوب إلى الأبناء وهم قوم يكونون باليمن من ولد الفرس وجههم كسرى مع سيف بن ذي يزن إلى ملك الحبشة باليمن فغلبوا الحبشة وأقاموا باليمن ، فلولدهم يقال الأبناء ... » .

وقال ابن خلكان في ترجمة وهب بن منبه اليماني : « وهو معدود في جملة الأبناء ، ومعنى قولهم : فلان من الأبناء أن أبا مرّة سيف بن ذي يزن الحميري صاحب اليمن لما استولت الحبشة على ملكه توجه إلى كسرى أنو شروان ملك الفرس يستنجده عليهم ... وخلاصة الأمر أنه سيَّر معه سبعة آلاف فارس من الفرس وجعل مقدمهم وهرز وهكذا قال ابن قتيبة » إلى أن قال : « والمقصود من كل هذا كله أنّ جيش الفرس لما استوطن اليمن تأهلوا ورزقوا الأولاد فصار أولادهم وأولاد أولادهم يدعون (الأبناء) لأنهم من أبناء أولئك الفرس ... » .

قلت : الصواب ما ذكره السمعاني أولاً قال أحمد بن أبي طاهر عن المأمون أنه قال : « ما في الدنيا أشجع من عجم أهل خراسان ولا أشد شوكة

(١) المرجع المذكور « ص ١٥٨ » .

ولا أثقل وطأة على عدو ... فقال القائد : ما في الدنيا قوم أشجع من أبناء خراسان للوالدين ولا أفتك منهم ... وقال نصر بن شبث ... وأما الأبناء فلم أر مثلهم لا يكلّون ولا يملون ولا ينهزمون [١] ... » . فالصواب « الأبناوي » .

٥٠ — وورد في الصفحة ٥٧٦ « شمس الدين محمود الكوفي الحنفي الواعظ » وأورد له شعراً ، وقد وهم مؤلف فوات الوفيات في اسمه فان اسمه « محمد » لا محمود ، قال مؤلف الحوادث في وفيات سنة (٣٩٠) هـ : « وفيها توفي شمس الدين محمد بن عبيد الله الهاشمي الكوفي الواعظ وكان أديباً فاضلاً عالماً شاعراً ، ولي التدريس بالمدرسة التُتُشيّة وخطب في جامع السلطان ووعظ في باب بدر وكان عمره نحو اثنتين وخمسين سنة وكان له شعر حسن [٢] ... » وأورد له شعراً ، وقد كان ذكرُهُ مرات ، وذكره ابن الفوطيّ في تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب مرّات كذلك ، وذكره غيرهما وهو في كل ذلك « محمد » لا محمود .

٥١ — وورد في الصفحة ٥٩١ « التاج الصرخدي رحمه الله تعالى » . ولم يذكر المحقق اسمه ولم يجد مرجعاً يرجع إليه في ذلك ، وهو على ما ذكره جمال الدين ابن الصابوني « الفقيه العلامة أبو الثناء محمود بن عابدين الحسن بن محمد بن علي التميمي الصرخدي الحنفي » قال : « أحد الفضلاء المتميزين والعلماء الصالحين ، جمع بين الفقر والأدب [٣] ... » وأطنب في مدحه ونعته ، وذكره محيي الدين القرشي وذكر أن لقبه « تاج الدين » وأنه ولد سنة

---

(١) تاريخ بغداد « ص ١٤٣ ، ١٤٤ » طبعة أوربة .
(٢) المسمى الحوادث الجامعة وهماً « ص ٣٩٠ » .
(٣) تكملة إكمال الإكمال « ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ طبعة المجمع العلمي العراقي بتحقيقي » .

٥٨٢ وتوفي سنة ٦٧٤ وذكر مقطوعة من شعره (١) . وله ترجمة في النجوم الزاهرة « ٧ : ٢٤٩ ، ٢٥٠ » والسلوك « ١ : ٦٢٤ » والشذرات « ٥ : ٣٤٤ » .

٥٢ — ووردت في الصفحة ٥٩٧ ترجمة « فخر القضاة ابن بصاقة » . وقد تركه الشيخ الفاضل على هذه التسمية المجردة من غير تعليق ، وهو « نصر الله بن هبة الله بن محمد بن عبد الباقي الغفاري أبو الفتح « ٥٧٧ — ٦٥٠ » وقد ترجم له محيي الدين القرشي وذكر أنه فقيه شاعر ماهر ، كان خصيصاً بالملك المعظم عيسى ابن الملك العادل الأيوبي ثم بابنه الملك الناصر داود ، وذكر له شعراً (٢) ثم ذكره في باب الأبناء بصورة « ابن بصاقة نصر الله بن هبة الله بن محمد بن عبـــد الباقي فخر القضاة أبو الفتح الصفاري (كذا) (٣) » . وترجم له المقريزي في وفيات سنة (٦٥٠) قال : « وتوفي فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقي بن هبة الله ابن الحسين بن يحي ابن بصاقة الكناني الكاتب الوزير للناصـــر داود ، الأديب المنشىء (٤) . . . » وذكره ابن العماد في وفيات (سنة ٦٥٠) قال : « وفيها فخر القضاة نصر الله بن هبة الله بن بصاقة الحنفي الكاتب ، من شعره (٥) . . . » وذكر له أبياتاً .

٥٣ — وورد في الصفحة ٦١٥ ما هذا نصه « هكذا وجدت البيتين في زينة الدهر تأليف أبي المعالي الخطيري » ، هكذا بتقديم الخاء المعجمة

(١) الجواهر المضية في طبقات الحنفية « ٢ : ١٥٨ » .
(٢) الجواهر المذكورة « ٢ : ١٩٩ » وقد تصحف فيـــه بصاقة إلى رصافة ، والغفاري إلى الصفاري » .
(٣) المرجع المتقدم « ص ٣٩٢ » .
(٤) السلوك « ١ : ٣٨٥ » .
(٥) الشذرات « ٥ : ٢٥٢ » .

على الطاء ، والصواب « الحَظيري » بالظاء المعجمة أخت الطاء المهملة ، وهو « أبو المعالي سعد بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم بن علي بن القاسم الأنصاري الخزرجي الوراق الحظيري المعروف بدلال الكتب ، قال ابن خلكان : « كانت لديه معرفة وله نظم جيد وألّف مجاميع ما قصّر فيها ، منها كتاب (زينة الدهر وعصرة أهل العصر وذكر ألطاف شعر العصر) الذي ذيله على دمية القصر لأبي الحسن الباخرزي[1] . . . » وذكر أنه توفي سنة ٥٦٨ ، ثم قال : « والحَظيري بفتح الحاء المهملة وكسر الظاء المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء . وهذه النسبة إلى موضع فوق بغداد يقال له الحظيرة ، ينسب إليه كثير من العلماء ، والثياب الحظيرية منسوبة إليها أيضاً » ، وله ترجمة في كتب أخرى .

٥٤ — وجاء في الصفحة ٦١٦ في ترجمة أبي القاسم هبة الله بن الحسين الملقب بالبديع الاسطرلابي « وتوفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة بعلّة الفالج ودفن بمقبرة الوردية » . فعلق الشيخ على هذا التاريخ ما نصه « في معجم الأدباء : أربع وثلاثين ومائة . تحريف » . ولم يذكر الطبعة التي وقع فيها التحريف من معجم الأدباء ، ففي طبعة مرغوليوث « مات ببغداد بعلة الفالج سنة ٥٣٤ [2] » ولا تحريف فيها .

٥٥ — وورد في الصفحة ٦١٧ في ترجمة هارون الرشيد « وخرج عطاف ابن الوليد السامري بالموصل والوليد بن طريف ، وخرج الخزر من باب الأبواب وخرج عمر الشاذي من شهرزور » . فالسامري والشاذي تصحيف « الشاري » وهو من أسماء الخوارج ويجمع على الشُراة ، كما هو مشهور معلوم عند المختصين بالتاريخ والفقهاء والأدباء .

(١) الوفيات « ١ : ٢٢٠ من طبعة إيران » .
(٢) معجم الأدباء « مختصر الجزء السابع ص ٢٤٢ من الطبعة المشار إليها في الأعلى » .

٥٦ — وجاء في الصفحة ٦١٨ في ترجمة أبي القاسم هبة الله بن الفضل ابن القطان البغدادي الشاعر « وسمع الحديث من جماعة منهم أبوه وأبو طاهر محمد بن الحسن الباقلاني وأبو الفضل أحمد بن الحسن ابن جيرون الأمين » . هكذا ورد « جيرون » بالجيم ، والذي علمناه وحفظناه « خيرون » بالخاء المعجمة قال الذهبي في المشتبه — ص ١٩٤ — « خَيْرُوْن :أحمد بن خَيْرُوْن المصري ... والحافظ أبو بكر (١) أحمد بن الحسن بن خيرون وأخوه عبد الملك ، سمع البرقاني ، وابن أخيه مقرئ بغداد مع سبط الخياط ، أبو منصور محمد بن عبد الملك » . والأول هو المُراد قال ابن الجوزي في وفياتَ سنة ٤٨٨ : « أحمد بن الحسن بن أحمد بن خيرون أبو الفَضل الباقِلاوي ، ولد لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة ست وأربعمائة وسمع الحديث الكبير وكتبه ، وله به معرفة حسنة ، روى عنه أبو بكر الخطيب وحدثنا عنه أشياخنا وكان من الثقات وشهد عند أبي عبد الله الدامغاني ثم صار أميناً (٢) ثم ولي إشراف خزانة الغلات وتوفي ضحوة يوم الخميس رابع عشر رجب هذه السنة ودفن بمقبرة باب حرب (٣) » .

هذا آخر ما استوجب التعقيب مما اعتددته أوهاماً ، تبقى فطنة لإيهام القارئ الشادي ، والباحث المبتدئ البادي ، ومع ذلك فينبغي لي أن أشكر للأستاذ الشيخ الفاضل محمد محيي الدين عبد الحميد مجهوده الأدبي للتاريخ المجيد ، فقد أجاد وأفاد ، ولكنه لو كان أشرك معه باحثاً آخر أو باحثين لتفادى من هذه الأوهام الكثيرة المُزلقة وأخرج الكتاب بهيأة (٤) مشرقة ،

---

(١) جاء في حاشيته المثبتة « كذا بخط المؤلف وصوابه أبو الفضل » . وقد صدق المعلق .
(٢) أي أميناً على أموال الأيتام .
(٣) المنتظم « ٩ : ٨٧ » .
(٤) هذه طريقة سلكناها في كتابة كل همزة مفتوحة في داخل الكلمة .

لأن الاختصاص اليوم شرط من شروط نشر التراث الأدبي فالمصري المحقق يعرف المصريين أكثر من غيره ممن هم ليسوا بمصريين ، والعراقي المدقق أعلم بالعراقيين ممن سواه وكذلك الشامي البارع أدرى بالشاميين ، وكتاب فوات الوفيات يترجم لرجال من مختلف العصور ومختلف الأصقاع والأقطار ، ومختلف صنوف الرجال . وقد وقعت في الكتاب غلطات مطبعية ومنها ما ليست بمطبعية فحشرناها معها ، وهي :

الصفحة	الغلط	الصواب
٣٨	ابن شانيل	ابن شاتيل
١٣٤	هيهات إنّ	هيهات أنّ
١٣٥	أيا هجري	أيا هاجري
١٧٩	هب الهوى	هب الهواء
١٨٠	وللأزاهر	وللأزاهير
٢٠١	رفع الظلم	دفع الظلم
٢٠٤	عسكسته	عكسته
٢١٨	فقاري	(مصحف)
٢٧٤	يسمي مُنازل	... مُنازلاً
٣٦٠	مَعنىً	مَغنىً
٣٦١	تأتى أهلها	تأتىَ ...
٣٨١	حوبر	جوبر
٣٩٠	أوزاري	آزراري
٣٩٦	درتا	درتا
٤٠٤	عاش تسمة	... تسعاً (لأنها سنة)
٤٣١	السكون	الكون

الصفحة	الغلط	الصواب
٤٤٣	زُهر	زَهَر
٤٧٠	كيف تلقى	(غير موزون)
٤٧٥	فهوٌ	فهوٌن
٤٨٣	كتب	كتبتُ
٥١٧	والبمّ	والبَمْ (لأنه في قافية)
٥٥١	يا خليليّ	يا خليليْ
٥٨٠	ومات التي	ومات الذي
٥٨٠	لطيف	كطيف
٦٢٢	الحيص	الحيص بيص
٦٣٦	حملتُ	حمّلتَ

(بغداد) مصطفى جواد



شعر

الوقوف على الأطلال

من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

- ٥ -

٥ — حال الشاعر حين الوقوف على الديار

يختلف هذا المعنى عن المعاني الأخرى في شعر الوقوف على الأطلال . فالمعاني التي درسناها سابقاً تتعلق جميعاً بالديار وبقاياها ، على حين يدور هذا المعنى الجديد على أنفس الشعراء وأحوالهم حين الوقوف على الأطلال . وهو مع ذلك نتيجة لتأثير المعاني السابقة في أنفس الشعراء ، فهو لذلك يتعلق بهذه المعاني ، ويرتبط بها بهذا الرباط الوثيق .

والشعراء مشغوفون بأطلال الديار ، وقلوبهم متعلقة بها . وهذا الشغف هو الذي يشدهم إلى الأطلال ، ويحبسهم للوقوف عليها . وهو بذلك بدء أحوالهم النفسية ومشاعرهم ، ومنطلقها الأول حين وقوفهم على الأطلال . قال امرؤ القيس (١) :

لمن طللٌ درستْ آيُه وغيَّره سالفُ الأحْرُسِ (٢)
تَنَكَّرُه العينُ من حادث ويعرفه شغفُ الأنفسِ

---

(١) زهر الآداب ٢٤٠ .

(٢) آيه : أي علاماته وآثاره ، واحدها آية . والأحرس : جمع حَرْس ، وهو الدهر والزمن .

وقال طريح بن إسماعيل الثقفي [١] :

تستخبر الدمنَ القفارَ ، ولم تكن لتردَّ أخبـاراً على مستخبرِ
فظللتَ تحكم بين قلبٍ عارفٍ مغنى أحبَّته وطرفٍ منكرِ

والحالات النفسية التي كانت تعتري الشعراء جميعاً ، والمشاعر التي كانوا يحسون بها حين وقوفهم على أطلال الديار كثيرة متعددة . وهي على كثرتها وتعددها تتصف دائماً بالحزن والكآبة . والسر في ذلك أن هذه الأحوال النفسية تنشأ عن الذكرى ، ذكرى الأيام الماضيـة السعيدة التي قضاهـا الشاعر ناعماً سعيداً مـع أحبائه . ومن طبيعة الذكرى أن تثير الحزن والأسى . وقد ذكر الشعراء هذه الأحوال والمشاعر، ووصفوها في شعر الوقوف على الأطلال وصفاً حزيناً كئيباً ، يشجي النفوس ، ويثير في أعماقها تعطفاً وتحناناً على هؤلاء الشعراء .

وكأننا بالشاعر حين يقف بالديار ، ويجيل نظراته في أنحائها ، ويرى بقاياها البالية المهجورة تغالب الفناء ، وتظل قائمة ، تثور في نفسه الذكرى ، فيعود بخياله إلى أيام حياته السعيدة التي قضاها في هذه الربوع على وصال مع أحبته . فتثير هـذه الذكرى في نفس الشاعر الألم والحزن ، « ولا يبعث الأحزان مثل التذكر » كما قالت ليلى الأخيلية [٢] ، وتهيـج فيها الشوق والصبابة . وقد تذهله الذكرى عن نفسه ، فيذهب به الخيال بعيداً ، ويبلغ به الحزن مبلغاً ، فيبكي ويذرف الدموع كالأطفال . وبعد فراغ شحنة الحزن والصبابة التي تذهب وتنقضي مع سيلان الدموع يفيق الشاعر من ذهوله ، وتثوب إليه نفسه ، ويرى أن لا طائل في الوقوف والبكاء ، فيتسلى عن

(١) زهر الآداب ٢٤٠ .
(٢) الأغاني ١٠/٧٢ ـ ٧٣ .

حزنه وهمه وذكري أيامه الماضية بتابعة طريقه في السفر ، ويحث مطيتـه على السير في مجاهل الصحراء .

وهكذا فانبعاث ذكرى الأيام الماضية أولاً ، ثم ثورة الحزن والألم في نفس الشاعر ثانياً ، وهياج الشوق والصبابة ثالثاً ، وذهول الشاعر عن نفسه رابعاً ، والبكاء وذرف الدموع خامساً ، ثم التسلي والتعزي سادساً ، هي أهم الحالات النفسية التي كانت تعتري الشعراء حين وقوفهم على أطلال الديار .

وهذه الحالات النفسية التي ذكرناها نراها تتردد كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال . على أن أشهر هذه الحالات التي تعتري الشعراء ، وأكثرها دوراناً في الشعر هي حالة البكاء وذرف الدموع . وقلما يخلو شعر في الوقوف على الأطلال من البكاء والدموع . فقد بكى الشعراء طويلاً على ديار أحبائهم ، وتعللوا بوصف الديار ، وتسلوا بنعت الأطلال ، ولا سيما الغزلون البداة منهم . والشعراء يتصفون برقة الطباع ، ورهافة الإحساس ، فلا نعجب منهم إذا ما بكوا في ديار الأحبة ، وأطالوا في هذا البكاء . على أن بعضهم قد بالغوا في البكاء ، وأوغلوا في سفح الدموع حتى سالت على خدودهم ، وبلت ثيابهم . وأبيات امرئ القيس في معلقته معروفة مشهورة في هذا الميدان . قال (١) .

كأني غــداةَ البين يوم تحمَّلوا   لدى سَمُرات الحي ناقفُ حنظلِ (٢)
وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم   يقولون : لاتهلك أسىً ، وتجمَّلِ (٣)
ففاضت دموعُ العين مني صبابةً   على النحر حتى بلَّ دمعيَ مِحْمَلي (٤)

---

(١) ديوانه ٩ .

(٢) السمرة : شجرة الصمغ العربي . وناقف الحنظل : الذي يستخرج حبه ، والحنظل له حرارة تدمع منها العين .

(٣) المطي : الإبل ، واحدتها مطية .

(٤) المحمل : أي محمل السيف .

وكان هذا البكاء يشفي هموم الشعراء ، ويطفىء غلة صدورهم ، ويمسح عن نفوسهم آلام الذكرى ، ويغسل عنها آثار الحرمان ، ويريحهم من حرقة الوجد . قال ذو الرمة (١) :

خليليَّ ، عوجا من صدور الرواحلِ ببرقة حُزْوى ، فابكيا في المنازلِ
لعل انحدارَ الدمع يعقب راحــــةً من الوجد ، أو يشفي نجيَّ البلابل(٢)

* * *

وقد عمد الشعراء في وصف بكائهم وانحدار الدموع من عيونهم إلى التصوير . فصوروا ذلك في صور طريفة ، تستوقف نظرنا منها صورتان اثنتان شهيرتان ، تردان كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال . الصورة الأولى هي تشبيه انبجاس الدموع من العينين وانحداره بتسرب الماء من شقوق القربة البالية وانحداره إلى الأرض . قال امرؤ القيس (٣) .

ذكرت بها الحيَّ الجميعَ ، فهيجتْ عقابيلَ سقمٍ من ضمير وأشجانِ(٤)
فسحَّتْ دموعي في الرداء كأنها كُلَىً من شَعيب ذات سَحٍّ وتَهْتانِ(٥)

فنحن نرى امرأ القيس قد تذكر حين وقف بالديار أحباءه ، وهم مجتمعون في الماضي ، فهيجت هذه الذكرى داءه القديم . فبكى لذلك بكاء غزيراً ، وسحَّت دموعه ، حتى بلل الدمع رداءه . ثم ذكر في تصوير

(١) ديوانه ٤٩١ ــ ٤٩٢ .
(٢) النجي : ما يحدث به الإنسان نفسه . والبلابل : الهموم التي تتردد في الصدور .
(٣) ديوانه ٨٩ ــ ٩٠ .
(٤) الجميع : المجتمعون النازلون في موضع واحد . وعقابيل السقم : بقاياه . ويريد بالسقم هواه وحبه .
(٥) الشعيب : مزادة الماء البالية . والكلى : جمع كلية ، وهي رقعة تكون في أصل عروة المزادة ، وأكثر ما يسيل الماء منها .

انحدار دموعه أنها تشبه قطر الماء وسيلانه من خرز قربة الماء . وقد اعتاد الشعراء أن يذكروا قربة الماء البالية في هذا المجال . والسر في ذكر القربة البالية خاصة في أمثال هذه الصورة هو المبالغة في الوصف ، وذلك أن خرز هذه القربة تكون أوسع من خرز القربة الجديدة ، وشقوقها أكثر ، وهذا أدعى لتسرب الماء وسيلانه .

والصورة بعد مأخوذة من صميم حياة الأعراب في البادية ، فاستقاء الماء من الآبار والغدران ، ونقله في الروايا والقرب شيء مألوف في حياة الأعراب اليومية ، وهو منظر يكثر وقوع أعين الناس عليه . فلهذا أكثر الشعراء من إيراد هذه الصورة في شعر الوقوف على الأطلال في موضوع وصف بكائهم وسفحان دموعهم .

* * *

والصورة الثانية هي تشبيه انحدار الدموع من العينين أثناء البكاء بسيلان الماء من جوانب الدلو حين تنزع من البئر مليئة ، والماء يفيض من جوانبها ، ويتحدر رشاشاً أبيض نحو الأرض . قال الحطيئة في ذلك (١) :

أمن رسم دار مربعٌ ومصيفُ لعينيكَ من ماء الشؤون وكيفُ (٢)
رشاش كغربيٌ هاجريٌ ، كلاهما له داجنٌ بالكرَّتين عليفُ (٣)
تذكرتُ فيها الجهلَ حتى تبادرتْ دموعي ، وأصحابي عليَّ وقوف (٤)

---

(١) ديوانه ٢٥٣ .
(٢) معنى البيت : أمن رَسْمِ المربع والمصيف هذه الدارَ تبكي عيناك .
(٣) الغرب : الدلو العظيمة من جلد ثور ، يجرها بعير . والهاجري : الساقي الماهر . والداجن : البعير الذي ألف السقي . والكرتان : كرة بالذهاب حين نزع الدلو من البئر ، وكرة بالعودة لإنزال الدلو في البئر .
(٤) الجهل : جهل الشباب وطيشه .

لقد وقف الحطيئة على دار أحبته ، فرأى أن مرور الربيع والصيف قد غيّرا آثارها ودرساها ، فبكي لذلك ، وذرف الدمع من عينيه غزيراً سخيناً ، حتى كانت عيناه كدلوين ترشان بالماء رشاً !

وهذه الصورة شبيهة بالصورة الأولى في الأصل ، قريبة منها في الشكل والعناصر الأخرى . وهي أيضاً مثلها مستمدة من حياة الأعراب في البادية ، لأن استقاء الماء بالدلاء من الآبار للشرب وسقي الأغنام والأنعام ضرورة لازمة لهذه الحياة ، وعمل أساسي من أعمال الأعراب اليومية .

* * *

وللشعراء صور أخرى جيدة طريفة في وصف سيلان دموعهم من عيونهم حين وقوفهم على ديار الأحبة . منها تشبيه الدموع الجارية بالجمان المنتثر من النظام . قال ذو الرمة في ذلك (١) :

قف العيسَ في أطلال مية ، واسألِ ... رسوماً كأخلاق الرداء المسلسلِ (٢)

أظن الذي يجدي عليك سؤالها ... دموعاً كتبديد الجمان المفصّلِ

ومنها تشبيه ذرف الدموع بسقوط قطرات ماء المطرِ من أغصان الشجر . قال جران العود في ذلك (٣) :

فبتُّ كأن العينَ أفنانُ سِدرةٍ ... عليها سَقيطٌ من ندى الليل ينطفُ (٤)

(١) ديوانه ٥٠١ .

(٢) العيس : الإبل البيض . وأخلاق الرداء : قطعه البالية .

(٣) ديوانه ١٣ .

(٤) أفنان السدرة : أغصانها . والسقيط : الثلج .

وقد أتى إبراهيم بن هَرْمَة بالصورتين معاً في شعر له ، قال(١) :

كأن عينيَّ إذ ولَّت حمولهمُ   مني جناحا حمام صادف مطرا
أو لؤلؤٌ سلِسٌ في عقد جارية   ورهاءَ نازعها الولدانُ فانتثرا (٢)

ووصف امرؤ القيس بكاءه في الديار مرة ، وصوّر دموعه ، فشبهها في معرض التصوير بأشياء عديدة مختلفة دفعة واحدة ، فقال (٣) :

عيناكَ دمعُها سِجالُ   كأن شأنيها أوشالُ (٤)
أو جدولٌ في ظلال نخل   للماء من تحته مَجالُ

هذه عدة صور أتى بها امرؤ القيس في مبالغة وإغراق . ولكنها مبالغة شيقة مستحبة ، لأنها من صنع شاعر مجيد . والشاعر يضفي على صوره ومعانيه أشياء من عواطفه ومشاعره ، فيخفف بذلك من وقع المبالغة في نفوسنا . والشعراء بعدُ أصحاب أخيلة مجنحة تطير بهم بعيداً في أجواء الفن ، فنغفر لهم ، ولا نحاسبهم لذلك حساباً عسيراً .

وتابع عبيد بن الأبرص امرأ القيس في وصف بكائه وتشبيه دموعه بعدة أشياء في صور متوالية ، مبتدئاً بقربة الماء البالية ، ومنتهياً بجدول ماء

(١) التشبيهات ٨٠ .
(٢) ورهاء : أي حمقاء .
(٣) ديوانه ١٨٩ .
(٤) السجال : جمع سَجْل ، وهو الدلو . والأوشال جمع وَشَل ، وهو الماء القليل الجاري .

يجري خلال النخيل . قال عبيد (١) :

عيناكَ دمعها سروبُ كأن شأنيها شعيبُ (٢)

أو فَلَجٌ ما ببطن وادٍ للماء من تحته قسيبُ (٣)

أو جدول في ظلال نخل للماء من بينه سُكوبُ

هذه صور طريفة ، سريعة الحركات ، متلاحقة النغمات ، نرى فيها رقة ومرحاً ، ولا نسمع رنة الحزن ولا ترجيعات البكاء ، فهي تغيب وتختفي وراء أمواج النغم التي يوقعها الشاعر .

* * *

ولقد أفصح الشعراء عن حزنهم وألمهم في شعر الوقوف على الأطلال بمعان كثيرة وعبارات مختلفة . ولكن المعنى الذي تداولوه جميعاً ، وعبروا عنه بعبارة واحدة هو معنى الشجو ، أي الحزن الدائم العميق في سكون ، حتى إنهم كثيراً ما كانوا يبدؤون أشعارهم بلفظ (الشجو) نفسه ، كما قال طرفة ابن العبد (٤) :

أشجاك الربعُ أم قِدمُهْ أم رمادٌ دارسٌ حُمَمُهْ (٥)

فهو يتساءل عن هذا الحزن أو الشجو الذي ثار في نفسه من وقوفه على الديار ، وعبّر عن هذا الحزن بلفظ مأخوذ من الشجو ، فقال : أشجاك .

---

(١) ديوانه ١٢ .

(٢) سروب : كثير الجريان . والشعيب : قربة الماء البالية .

(٣) الفلج : الماء الجاري . والقسيب : صوت جري الماء .

(٤) ديوانه ١٤٨ .

(٥) حممه : أي فحمه ، واحدتها حُمَمة .

وكذلك أكثر الشعراء من ذكر هياج الشوق والصبابة في هذا المجال ، واعتادوا افتتاح قصائدهم بلفظ (هاج) نفسه . قال الحطيئة (١) :

وهاج لك الصبابةَ من هواها بحزوى قراقرٍ طللٌ مُحيلُ (٢)
كما هاج الصبابةَ يوم مرَّت عوامدَ نحو واقصةَ الحُمُولُ (٣)

وقال زهير بن أبي سلمى (٤) :

هاج الفؤادَ معارفُ الرسمِ قفرٍ بذي الهضبات كالوشمِ

وقال حسان بن ثابت (٥) :

أهاجكَ بالبيداء رسمُ المنازلِ نعم،قد عفاها كلُّ أسحمَ هاطلِ (٦)

والشكوى من دأب الشعراء في وقوفهم على أطلال الديار . فهي حبيبة إلى قلوبهم ، قريبة إلى نفوسهم ، يناجونها ويبثونها آلامهم وأحزانهم ، ويشكون إليها ما يكابدون من شوق إلى أهلها الظاعنين ، ويجدون في هذه الشكوى عزاء وسلوى . وكأن هذه الديار رفيق أمين يسعدهم في بلواهم ، فيأنسون بقربه ، وينعمون بلقائه ، وينسون وحدتهم ووحشتهم عنده ، ولو إلى حين . قال ذو الرمة في الشكوى (٧) :

وقفتُ على ربع لميـة ناقتي فما زلتُ أبكي عنده وأخاطبُه
وأُشكيه حتى كاد مما أبثه تكلمني أحجاره وملاعبُه (٨)

---

(١) ديوانه ١٩٧ .
(٢) المحيل : المتغير .
(٣) عوامد : أي قواصد . والحمول : الإبل عليها هوادج النساء .
(٤) ديوانه ٣٨٢ .
(٥) ديوانه ٣١٣ .
(٦) الأسحم : السحاب الأسحم ، وهو الأسود .
(٧) ديوانه ٣٨ ، واللسان (شكا) .
(٨) أشكيه : أشكو إليه أمري .

وبعد فإن الاستغراق في الذكرى ، والذهول عن النفس من المعاني التي رددها الشعراء كثيراً في شعر الوقوف على الأطلال ، لشدة حزنهم وفرط صبابتهم وشغفهم ، حتى ما يطيقون مغادرة الديار . قال امرؤ القيس في هذا المعنى (١) :

ظَلِلْتُ ردائي فوق رأسي قاعداً أعد الحصى ، ماتنقضي عبراتي
أعِنّي على التَّهْمام والذِّكَراتِ يبتن على ذي الهم معتكراتِ (٢)

فهو قاعد لايبرح الديار ، ذاهل عن نفسه وعن الدنيا من حوله ، يعد الحصى من الهم حيرانَ آسيفاً ، ويبكي لهفة وشغفاً . وتأخذه الذكرى والهموم من كل جانب ، فيفر منها إلى رفيق الطريق في السفر يطلب العون والعزاء .

وقد شبّه كثير من الشعراء أنفسهم في ذهولهم واستغراقهم في الذكرى والصبابة بشارب الخمر الذي باكر الشراب فانتشى . قال امرؤ القيس (٣) :

فظَلِلْتُ في دمن الديار كأنني نشوانُ باكره صَبوحُ مدامِ

وقال عبيد بن الأبرص (٤) :

ظَلْتُ بهــــا كأنني شاربُ صهبـــاءَ مما عتّقتْ بابلُ (٥)

فقد استغرق امرؤ القيس وعبيد في الذكرى ، وغابا في دنيا الذكريات عن نفسيهما وعما يدور حولهما ، كما يغيب النشوان من أثر الخمر .

(١) ديوانه ٧٨ .
(٢) معتكرات : أي داغمات متتابعات .
(٣) ديوانه ١١٥ .
(٤) ديوانه ٩٨ .
(٥) ظلت بها : أي ظللت بها .

على أن تشبيه الشاعر نفسه بشارب الخمر النشوان في ذهوله واستغراقه في الذكريات حين وقوفه على أطلال الديار قد انقطع في الإسلام بعد أن كان شائعاً في الجاهلية . وهذا أثر من آثار تعاليم الإسلام التي تحرم شرب الخمر على المسلمين .

وقد انتهى الشعور بالوجد والحزن والصبابة بالحطيئة الشاعر حين وقف على ديار هند ، ورأى بقاياها العافية ، وفعل الزمن والرياح في آثارها ، وبدأ يسائلها عن أهلها الظاعنين ، نقول : انتهى كل ذلك بالحطيئة الشاعر إلى الارتماش والألم الشديد الذي يعتري من تنهشه أفعى قديمة قاطعة الدم . قال الحطيئة (١) :

قد غيَّر الدهرُ من بعدي معارفَها والريحُ ، فادَّفنتْ فيها مغانيها
جرَّت عليها بأذيال لها عُصُفٍ فأصبحتْ مثلَ سَحْقِ البرد عافيها
كأنني ساورتني يوم أسألهـا عَوْدٌ من الرُّقْش،ماتصغي لراقيها(٢)

وشعور الحطيئة هذا وألمه أمام هذه الآثار العافية من ديار هند هو أعلى درجات الانفعال والحزن في شعر الوقوف على الأطلال .

الدكتور عزة حسن



---

(١) ديوانه ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

(٢) العود : القديم المسن ، ويريد حية قديمة هنا . والرقش : جمع رقشاء ، وهي الحية المنقطة .

شيء من الفعل في العربية

سأعرض في هذا البحث لشيء يتصل بالفعل العربي مما له فائدة خاصة وهي دخوله في الأساليب الخاصة . ومن ذلك المادة الفعلية التي تؤلف أسلوبي التعجب وأسلوب المدح والذم .

أقول إن قولهم : « ما أحسن زيداً » و « أحسنْ بزيد » أسلوب للتعجب ، فانه يتوصل بهذا الأسلوب الى التعجب من « حسن زيد » .

ولو درس النحويون هذه المسألة على أنها أسلوب من أساليب الكلام لكانوا في غنى عن الذهاب في متاهات بعيدة عن العلم اللغوي .

فسر النحويون « ما أحسن زيداً » بـ « شيء أحسن زيداً أي جعله حسناً » ، وما أظن ان التعجب حاصل في هذه الجملة المفسرة ، فهي كما قالوا جملة خبرية في حين أن أسلوب التعجب لا يتأتى بهذا فهو « إنشاء » .

ولم يصلوا إلى هذا التفسير إلاّ ليحلوا المشكلة الإعرابية ، فإن « ما » عندهم نكرة تامة بمعنى شيء ، وهي مبتدأ . ولم أستطع أن أهتدي إلى هذه النكرة وإلى تمامها وإلى تأويلها بشيء ، ثم لم أستطع أن اهتدي إلى كونها مبتدأ . ألا ترى أن « ما » هذه لا صلة إسنادٍ لها بما بعدها من جملة التعجب إذ لا يكون الخبر وصفاً للمبتدأ كما زعموا .

وقد بدت حيرتهم في « ما » هذه ، فقال الأخفش : « إنها موصولة وتأويل الكلام « الذي أحسن زيداً شيء عظيم » ومعنى هذا أن الخبر محذوف . وما أظن أن أسلوب التعجب حاصل في هذه الجملة المفسرة .

وذهب بعضهم إلى أنها استفهامية ، والجملة التي بعدها خبر عنها ، والتقدير « أي شيء أحسن زيداً ؟ » وما أظن أن أسلوب الاستفهام مفيد للتعجب ، وهذا لم يقله إلا نحوي أفقده ثقل الوضوع التمييز بين أسلوبين مختلفين كل الاختلاف .

وقد ذهب بعضهم إلى أنها نكرة موصوفة ، والجملة التي بعدها صفة لها ، والخبر محذوف ، والتقدير « شيء أحسن زيداً عظيم » . وهذا قول ضعيف غاية الضعف .

ومن هذا العرض يتبين أنهم لم يحاولوا درس هذا الأسلوب الذي يعبر به عن التعجب ، فقد شغلوا أنفسهم بالإعراب . وكان أصلح للعربية والنحو العربي أن يقولوا في هذا التركيب « إنه أسلوب للتعجب مؤلف من « ما » التعجبية متلوة بـ « فعل » على « أفعَلَ » ، أو « أشـــد ونحوها » متلوة بالمصدر في أحوال أخرى عرض لها النحاة واشترطوا لها شروطاً خاصة .

وإن هذا « الفعل » من الأفعال الخاصة غير المتصرفة التي بنيت على هيئة مخصوصة فأفادت التعجب .

ومثل هذا تقول في « أحبب بزيد » فهو أسلوب للتعجب مؤلف من فعل التعجب الذي جمد على هذه الصورة ليؤدي هذا الغرض متلواً بالبـاء ثم مدخلوها ، وبذلك ليتم هذا الأسلوب المشار إليه .

قلت : إن النحاه كانوا في حيرة في كل جزء من أجزاء هذا الأسلوب ، فقد اختلفوا في فعلية هذه المادة أو اسميتها ولا نريد أن نعرض لأقوال كل من الفريقين ، أما الذي نريد أن نقرره فإن « أفعَلَ » و « أفْعِلْ » من المواد الفعلية التي بنيت على هذه الصورة المخصوصة فجمدت وابتعدت عن قبول علامات الأفعال ، وذلك لانصرافها عن عناصر الفعلية وهي الدلالة على الحدث وترشحها لزمان ما ، وبذلك تؤدي أسلوب التعجب .

وكنا قد رأينا مثل هذه الأفعال التي تحجرت في سورة ما ، لتؤدي معنى خاصاً وهي : عسى وحرى واخلولق وكاد وكرب وغيرها .

ولا بد أن نختم هذا البحث فنشير إلى قلق النحويين وعدم تثبتهم فيما ذهبوا إليه فقالوا : « ما أجمله و « أجمِلْ به » ، والهاء عندهم مفعول به في الجملة الأولى ، وفاعل في الجملة الثانية والباء حرف جر زائد .

ولا ندري ما الفرق بين الجملتين بحيث أدى ذلك إلى الاختلاف في اعتبار المتعجب منه من الناحية النحوية . وهذا من غرائب أقوالهم التي لا يمكن الاطمئنان إليها .

ومن هذه الأساليب أسلوب المدح والذم ويعبر عنه بمادة « نعم » للمدح و « بئس » للذم و « حبذا » للمدح و « لا حبذا » للذم . وهذه المواد من الأفعال التي تفرغت من الدلالة الفعلية وهي الحدث المقترن بالزمان ، للدلالة على المدح أو الذم في أسلوب خاص كما في « نعم الولد زيد » و « بئس المرأة هند أو بئست » .

وقد كان النحويون الأقدمون في حيرة من هذه بسبب إعراب هذه المواد في الجمل التي تقع فيها ، فقد اختلفوا فيها فذهب جمهور النحويين إلى أن « نعم » و « بئس » فعلان بدلالة دخول تاء التأنيث الساكنة عليها . وذهب جماعة من الكوفيين ـ ومنهم الفـراء ـ إلى أنهما اسمان واستدلوا بدخول حرف الجر عليها نحو قولهم : « والله ما هي بنعم الولد » . ورد قول الكوفيين بالتخريج النحوي المثبت في كتب النحو .

ولم يهتم النحاة باستعمال هذين الفعلين وورودهما في النصوص الفصيحة ، وذلك لاهتمامهم بمسألة الفاعل والمرفوع الذي يليه . والفاعل في هذه الجملة إما أن يكون محلىً بالألف واللام ، وإما أن يكون شيئاً آخر .

وقد قالوا في هذه الألف واللام : إنها للجنس حقيقة أو مجـــازاً ، وقالوا : إنها للعهد كما في قوله تعالى : « نعم المولى ونعم النصير » . ويكون الفاعل مضافاً إلى ما فيه « أل » كقوله تعالى : « ولنعم دار المتقين » .

ويكون مضمراً مفسراً بنكرة بعده منصوبة على التمييز نحو : « نعم قوماً معشره » ففي « نعم » ضمير مستتر يفسره « قوماً » و « معشر » مبتدأ وزعم بعضهم أن « معشره » مرفوع بـ « نعم » وهو الفاعل ولا ضمير فيها ، وقال بعض هؤلاء : إن « قوماً » حال ، وقال آخر : إنه تمييز .

وهذا الاختلاف في إعراب « قوماً » و « معشره » دليل على أن هذه المسائل قلقة في مكانها ، بل قل : إنهم لم يهتدوا إليها اهتداءً كافياً ، فهي إما أن تكون كذا وإما أن تكون أشياء أخرى .

وقولهم : إن في « نعم » ضميراً مفسراً بالتمييز شيء ملفق مصطنع ، ذلك أن الضمير لا يستعمل إلا حيث كان مسبوقاً باسم ظاهر ، والطبيعي أن يذكر الظاهر ثم يعود عليه ضميره .

وإذا قالوا : « نعم الولد زيد » فإن « زيد » خبر مبتدؤه محذوف أو أنه خبر الجملة قبله مبتدأ والتقدير « زيد نعم الولد » . أو أنه مبتدأ خبره محذوف والتقدير : « زيد الممدوح » .

وهكذا انصبَّ اهتمام النحويين على إعراب هذه الأجزاء التي وقعت في هذه الجمل التي عبر بها عن أسلوب المدح والذم .

قلت : لم يهتم النحاة بورود هذين الفعلين في النصوص الفصيحة وأكثروا من الاعتماد على الأمثلة التي اصطنعوها هم أنفسهم نحو : « نعم الرجل زيد » و « نعم غلام القوم زيد » و « بئس غلام القوم عمرو » .

ومثل هذه الأمثلة لم نعرفه في لغة التنزيل مثلاً ، وذلك أن « نعم » وردت في ست عشرة آية ، وفي جميع هذه الآيات ورد هذا الفعل مسنداً

إلى مرفوعه ولم يرد ما أسموه بالمخصوص بالمدح وهو « زيد » كما في قولهم ، « نعم الرجل زيد » .

والآيات التي وردت فيها « نعم » هي على النحو الآتي :

الآية	رقمها	السورة
ونعم أجر العاملين	١٣٦	آل عمران
وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل	١٧٣	آل عمران
وإن تولّوا فاعلموا أن الله مولاكم		
نعم المولى ونعم النصير	٤٠	الأنفال
سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار	٢٤	الرعد
ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين	٣٠	النحل
نعم الثواب وحسنت مرتفقا	٣١	الكهف
واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير	٧٨	الحج
نعم أجر العاملين	٥٨	العنكبوت
ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون	٧٥	الصافات
ووهبنا لداودَ سليمانَ نعم العبد إنه أوّاب	٣٠	ص
إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب	٤٤	ص
فنعم أجر العاملين	٧٤	الزُّمَر
والأرضَ فرشناها فنعم الماهدون	٤٨	الذاريات
فقَدَرْنا فنعم القادرون	٢٣	المرسَلات

وقد وردت « نِعِمّا » في آيتين هما :

إن تبدو الصدقات فنِعِمّا هي	٢٧١	البقرة
إن الله نِعِمّا يعظكم به	٥٨	النساء

ومثل «نعم» جاءت «بئس» في لغة التنزيل العزيز»، وليس فيها إلا آيتين على نحو ما استشهد به النحاة . ولنعرض للآيات التي جاءت فيها «بئس» وهي على النحو الآتي :

الآية	رقمها	السورة
ولبئس ما شرَوا به أنفسَهم	١٢٦	البقرة
فحسْبُه جهنم ولبئس المهاد	٢٠٦	البقرة
ستُغلَبون وتُحشَرون إلى جهنمَ وبئس المهاد	١٢	آل عمران
ومأواهم النارُ وبئس مثوى الظالمين	١٥١	آل عمران
ومأواه جهنم وبئس المصير	١٦٢	آل عمران
واشترَوا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون	١٨٧	آل عمران
ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد	١٩٧	آل عمران
لبئس ما كانوا يعملون	٦٢	المائدة
لبئس ما كانوا يصنعون	٦٣	المائدة
لبئس ما كانوا يفعلون	٧٩	المائدة
لبئس ما قدمت لهم أنفسهم	٨٠	المائدة
ومأواه جهنم وبئس المصير	٧٣	التوبة
فأوردهم النارَ وبئس الوردُ المورود	٩٨	هود
بئس الرِّفْدُ المرفود	٩٩	هود
ومأواهم جهنم وبئس المهاد	١٨	الرعد
جهنم يصلَونَها وبئس القرار	٢٩	ابراهيم
فلبئس مثوى المتكبرين	٢٩	النحل
بئس الشرابُ وساءتْ مُرتَفَقا	٢٩	الكهف

الآية	رقمها	السورة
بئس للظالمين بدَلا	٥٠	الكهف
لبئس المولى ولبئس العشير	١٣	الحج
وبئس المصير	٧٢	الحج
ومأواهم النار ولبئس المصير	٥٧	النور
جهنمَ يَصلونها وبئس المهاد	٥٦	ص
فبئس القرار	٦٠	ص
ادخُلوا أبوابَ جهنمَ خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين	٧٢	الزمر
فبئس مثوى المتكبرين	٨٦	غافر
فبئس القرين	٣٨	الزخرف
بئس الاسم الفسوقُ بعد الإيمان	١١	الحجرات
مأواكم النارُ هي مولاكم وبئس المصير	١٥	الحديد
حسبُهم جهنمُ يَصلوْنها وبئسَ المصير	٨	المجادلة
بئس مَثَلُ القومِ الذين كذَّبوا بآيات الله	٥	الجمعة
أولئك أصحابُ النارِ خالدين فيها وبئس المصير	١٠	التغابن
ومأواهم جهنمُ وبئس المصير	٩	التحريم
وللذين كفروا بربهم عذابُ جهنم وبئس المصير	٦	الملك

وقد وردت « بئسما » في ثلاث آيات هي :

بئسما اشتَرَوْا به أنفسَهم	٩٠	البقرة
قل بئسما يأمركم به إيمانكم	٩٣	البقرة
بئسما خلَفتُموني مِن بعدي	١٥٠	الأعراف

ويتبين من عرضنا للآيات التي وردت فيها « نعم » وللآيات التي وردت فيها « بئس » أن النحاة لم يَشغَلوا أنفسَهم بشيء كثُر في لسان العرب ، بل اهتموا بمسائلَ لم ترد إلا قليلاً ، وأقاموا فيها المشكلات الصعبة فاختلفوا وذهبوا مذاهب شتى كما تبين لنا ذلك من أقوالهم . غير أنهم لم يهتموا بالكلام الفصيح الذي يُعَدُّ النموذجَ الصحيح للعربية في هذه الفترة التاريخية .

ونخلُص من ذلك ان « زيداً » المذموم ، و « عمراً » الممدوح لم يكونا في هذه اللغة القويمة على النحو الذي ورد في كتب النحو .

ثم جاء النحاة إلى « حبذا » و « لاحبذا » لإفادة المدح والذمّ فقالوا في المدح : « حبذا زيد » ، وفي الذم : « لاحبذا زيد » .

ومن ذلك قول الشاعر :

ألا حبذا أهل الملا غير أنه اذا ذكرت ميّ فلا حبذا هيا

وشأنهم في « حبذا » و « لاحبذا » شأنهم في « نعم » و « بئس » فقد اختلفوا في إعرابها كما اختلفوا في « نعم » و « بئس » .

ذهب أبو علي الفارسي وابن برهان وابن خروف ـ وزعموا أنه مذهب سيبويه إلى أن « حَبَّ » فعل ماض و « ذا » فاعله ، وأما المخصوص فجوّز أن يكون مبتدأ والجملة قبله خبره ، وجوّز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف ، والتقدير « هو زيد » أي الممدوح أو المذموم زيد .

وذهب المبرّد ، وابن السراج في « الأصول » ، وابن هشام اللخمي ـ واختاره ابن عصفور ـ إلى ان « حبذا » اسم ، وهو مبتدأ ، والمخصوص خبره ، أو خبر مقدم والمخصوص مبتدأ مؤخر فركبت « حب » مع « ذا » وجعلتا اسماً واحداً .

وذهب قوم ـ منهم ابن درستويه ـ إلى أن « حبذا » فعل ماض و « زيد » فاعله فركبت « حب » مع « ذا » وجعلتا فعلاً .

ويبدو من هذا أنهم اختلفوا في حقيقة « حبذا » وفعليتها واسميتها ، وما ذلك إلا للفصل في كل جزء من أجزاء الجملة التي تقع فيها « حبذا » وإيقاعه في موقع إعرابي خاص . واختلافهم هذا في حقيقة هذه الأفراد التي تتكون منها جملة « حبذا » دليل على أنهم قلقون في اعتبار هذه الأساليب الفعلية الخاصة لإفادة غرض خاص هو المدح أو الذم .

أما القول في إسمية « حبذا » و « لا حبذا » فهو شيء مستبعد في جملة « حبذا » ، وذلك لأن هذا التركيب جاء لإفادة أسلوب المدح ، وإفادة المدح والذم تحصل في الجملة الفعلية ، وإن لفظ « حب » هو الفعلية ولكن الذي أبعدها عن الفعلية الصريحة تركيبها مع « ذا » ولايعني هذا التركيب أنهـــا انتقلت من فعل إلى اسم . غير أن من المناسب أن نقول : إن هذه الالفاظ أفعال خاصة تحولت من فعليتها الصريحة فتفرعت عن مادة الفعل من حيث الدلالة على الحدث المقترن بزمان ما للإعراب عن أسلوب خاص من أساليب الـكلام ، وهو المدح والذم ، ولذلك فقدت التصرف فجمدت على حالتها المعروفة ، والقول بأنها فعل ماض غير سديد ، وذلك أن الأفعال قصد من تحولها إلى الجمود ، وتركيبها مع « ذا » إفادة للمدح أو الذم وإفادة هـــذا الأسلوب يعني أنه من جملة الأساليب الإنشائية ، ولا تستقيم هذه الأساليب مع الزمن الماضي .

أما القول بأن « ذا » فاعل فليس بسديد أيضاً ، وذلك أن تركيب « حب » مع « ذا » جعلها كلمة واحدة ، ولا يمكن أن تنصرف « حبذا » إلى جملة . ولعل ابن درستويه كان على حق في اعتباره « حبذا » كلمة واحدة . ثم ان « حبَّ » لم يتضح لنا أنها أسندت إلى « ذا » فيؤدي هذا الإسناد إلى حصول فائدة ما .

وبسبب من هذا التركيب وصيرورة هذا المركب (وصيرورة هذا المركب) كلمة واحدة مال المعربون في عصرنا إلى اشتقاق فعل من هذا المركب هو « حبّذ » بمعنى « استحسن » أو « فضّل » واستعملوا من ذلك الأبنية المختلفة كالمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول وسائر الصيغ الاخرى .

وبعد فإنّ هذه الألفاظ قد اتجهت في العربية اتجاهاً خاصاً للتعبير عن فن من فنون القول . ومن المفيد ألاّ تدخل هذه في اختلاف النحويين وجدلهم فتضيع في متاهات الفاعل وضمير الظاهر ، والمبتدأ وخبره المحذوف أو الخبر ومبتدئه المحذوف . وإن محاولتهم في إيجاد هذه المسميات في هذه الجمل التي أفادت التعجب والتي أفادت المدح أوالذم إضاعة للغرض الذي أطلقت من أجله .

ومن المفيد أيضاً ان نكتب نحونا الجديد على شيء من هذا الفهم ، فجنب الناشئين في عصرنا الذهاب في تلك الأوهام التي تبعد اللغـة عن كونها حياة يحياها المعربون .

وعلى هذا فإن اللغة ليست وسيلة يعبَّر بها عن الفكر ، بل هي في حركاته وسكناته وهي الفكر مكتوباً أو منطوقاً به .

وأعود فأقول : إن دعوات أصحاب التيسير يجب أن تكون دعوات مفيدة فتيسر وتنبذ ما ليس من طبيعة اللغة ، وأن يكون النحو الجديد مادة تصف اللغة وصفاً بعيداً عن التعليل والتأويل ، وبذلك يتم لأصحابنا القائلين بالتيسير والداعين إليه بمقترحاتهم وآرائهم منهج علمي جديد .

وقد يقول ، إن النحو القديم في مصنفاته الضخمة يؤلف مادة من تراثنا فماذا نحن صانعون به إن أخذنا بآراء أهل التيسير التي تتنكر لكثير من العلم النحوي القديم ؟

ونجيب عن هذا السؤال فنقول : إن النحو القديم وهو من تراثنا الذي نجله ونقدره قدره ينبغي أن يظل في حلقة الدراسات التاريخية ندرسه ونفهمه

بأصوله وفلسفته وعلله وأحكامه ومناهجه التي اخذوا أنفسهم بها ، وأدى بهم ذلك الى اختلافات جوهرية وثانوية . والذي نعرفه أن العلوم كافة تخضع للتطور والتجديد ، فالفلسفة الحديثة غير الفلسفه في القرون الوسطى وغيرها في أيام الإغريق . والعلوم الطبيعية في عصرنا جديدة كل الجدة بحيث انسلخت عن أصولها القديمة وربما انقلبت النظريات ، فالذي كان مقبولاً في العلم منذ قرن من الزمان لم يعد مقبولاً في أيامنا . ومثل هـــذا حدث في العلوم الاجتماعية جميعها كما حدث تطور عظيم في المفاهيم الفنية في الرسم والنحت والموسيقى وغير ذلك .

ثم إن الدراسات النحوية في اللغات الأوربية الحديثة تذهب في هذا السبيل ، فهناك النحو الذي يتعلمه الدارسون ، وهو نحو جديد مبني على الاستقراء والوصف للنصوص الفصيحة الموروثة دون التنكر للغات الحديثة وما جد فيها من التطور في الأصوات ، وفي تركيب الجمل وسائر العناصر النحوية التي تغيرت عما كانت عليه في عصور سابقة . على أن لهذه اللغات نحواً قديماً يقبل عليه الدارسون المعنيون بالدراسات اللغوية التاريخية ليصلوا من ذلك إلى الجديد المتطور الذي يقوله الناس ويكتبونه .

ومن الخير للعربية وأبنائها أن نجري في هذا السبيل لنأخذ بالأسلوب العلمي الذي يقوم على التطور وهو سنة الحياة في مظاهرها المختلفة .

الدكتور ابراهيم السامرائي (بغداد)



مجتمع الهمذاني
من خِلال مقاماته

بحث يحلل المقامات ويستشف من ورائها صورة المجتمع الذي أنشئت فيه

- ٥ -

---

٤ ـ الكُدْيَـة

الكدية مظهر من مظاهر الفقر في المجتمع وعدم التكافل الاجتماعي بين الناس . وربما تكون في بعض الأحيان مظهراً من مظاهر العجز أو الكسل الفرديّ ، وهي قديمة في التاريخ ؛ وجدت منذ وجد العجز والفقر إلى جانب القوة والغنى مهما يختلف تأويل ذلك :

متى ما يرِ الناس الفقير وجارُه غني يقولوا عاجز وجليد !

الكدية في التاريخ : وقد كانت الكدية معروفة منذ القديم ، كما يبدو أنها كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام حتى نهى عنها الإسلام وحارَبها النبي ﷺ وحض على العمل والكسب ، وشاعت أقواله في ذلك ، ومنها « لأن يأتي أحدكم الجبل فيأتي بحزمة من الحطب فيبيعها خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ومنها « اليد العليا خير من السفلى » ويرجح أن تكثر الكدية وتنتشر حيث يعمّ الفقر ، وتقل حيث يسود الرخاء . وقد مرّ بنا الحديث عن سوء الوضع الاقتصادي أيام الهمذاني ، وهو في مقاماته إنما يطلعنا على سبيل المكدين في حرفتهم ، ويكشف لنا أساليب

خداعهم ... بل إنه يُعنى بالكدية عناية خاصة حتى كانت المحور الأساسي الذي تدور حوله معظم المقامات .

وليس مانقله إلينا الهمذاني من أخبارهم ، على كثرته وطرافته ، غريباً أو بعيداً عما عرف في ذلك العصر ؛ فلقد ذكروا أن بعض الناس كانوا يحتالون للسلب بحيل شتى ، وأن من الحيل التي يلجأ إليها بعض المكدين لجمع المال تظاهرهم بالغزو والجهاد فيجمعون المال لتجهيز أنفسهم أو فك أسراهم !! وكثير من هؤلاء كانوا يركبون الدواب ويطوفون البلاد كالغزاة ليوهموا الناس بصدقهم ، بل إن في أخبار التاريخ أن جيشاً من عشرين ألفاً خرج من خراسان سنة ٣٥٥ هـ بحجة الغزو ثم ظفر بأموال الدولة وانقلب إلى جيش للسلب والنهب (١) .

ولعل من أطرف ماوصف به المكدون وأساليبهم تلك القصيدة الطويلة الرائعة المعروفة بالقصيدة الساسانية والتي نظمها أبو دلف الخزرجي(٢) ومطلعها :

جفون دمعها يجري   لطول الصدّ والهجر (٣)

وقد وصف فيها الغربة والتنقل ، وذكر حيلَ المكدّين من كتابة التعاويذ والتآمر مع القصّاصين الذين يتصدّرون حلقات القصص ويأمرون المستمعين باعطاء الفقراء ثم يقاسمونهم ماجمعوا بعد انفضاض الحلقة ، كما ذكر كثيراً من أساليب المكر والخداع كتصفير الوجه أو تجريحه ، أو إيهام الناس بقطع اللسان ، أو ارتداء زي الرهبان أو الحجاج ، أو الاحتيال بالتنجيم

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٦٦ .
(٢) هو مسعر بن مهلهل . انظر ترجمته وأخباره في يتيمة الدهر ٣ : ٣٥٦ (ط محي الدين عبد الحميد) .
(٣) انظر القصيدة في اليتيمة ٣ : ٣٥٨ .

أو باصطحاب عدد من الأطفال عليهم آثار الجوع والعري.. أو بترقيص القردة أو الدبة ...، وهي قصيدة جامعة حتى إن آدم متز يقول « إنها وثيقة اجتماعية عن القرن الرابع . »[1]

الكدية في المقامات : أما الهمذاني فيحدثنا عن الكدية حديثاً طريفاً يتنكر له الأساليب ويمدّد المذاهب ، فلا يترك نوعاً من الكدية إلا يأتينا بنموذج منه ويمثله لنا وكأنه أستاذ فيه .

ومما يجلب النظر في أساليب المكدين التي عرضها علينا أنها ليست غريبة عنا ولا عن عصرنا ، وأنها هي نفسها الأساليب المتبعة عند المكدين المعاصرين وكأنهم توارثوها جيلاً عن جيل .

فمن المكدين من كان يجول في الأسواق رافعاً صوته في الإنشاد :

ويلي على كفّين من سويق ... أو شحمة تضرب بالدقيق
أو قصعة تملأ من خرديق ... يفثأ عنا سطوات الريق
يقيمنا عن منهج الطريق ... يارازق الثروة بعد الضيق[2]

أو يستجدي قائلاً :

ياقوم قد أثقل دَيني ظهري ... وطالبتني طَلّتي[3] بالمَهر
أصبحت من بعد غنى ووفر ... ساكن قفر وحليف فقر
ياقوم هل بينكم من حرّ ... يعينني على صروف الدهر[4]

(١) الحضارة الاسلامية ٢ : ١٠٧ .
(٢) المقامة الازاذية : ١٥ .
(٣) الطلّة : الزوجة .
(٤) المقامة المكفوفية : ٨٤ .

فإذا نال ماطلب من أحد المحسنين أتبعه بالدعاء والشكر :

يامن عناني بجميـــل برّه أفضى إلى الله بحسن سرّه
واستحفظ الله جميل ستره ان كان لاطاقة لي بشكره
فالله ربي من وراء أجره (١)

ومن المكدين من يتظاهر بالمرض ويمثل دور المصاب المبتلى فيضمد ساقه أو يشدّ يده إلى عنقه أو يعصب رأسه أو يعمد إلى الارتجاف كلما شعر بدنوّ أحد المارّة منه .. ومنهم من كان يتظاهر بالعمى كالذي حدثنا عنه الهمذاني في المقامة المكفوفية فهو « أعمى مكفوف » ولكنه سرعان مايعرف الدينار من لمسه مما جعل ابن هشام يشك في أمره ويقول « وتبعته فعلمت أنه متعامٍ لسرعة ماعرف الدينار ... ثم فتح عن توأمتي لوز (٢) .. »

ومنهم من كان يكتب حاجته على أوراق يوزعها على الناس ، شأن بعضهم اليوم ، وقد رأى ابن هشام من هؤلاء في أسواق العراق وقال لأحدهم « ألم أرك بالعراق تطوف في الأسواق مكدّيا بالأوراق ؟ (٣) » .

وقد تكون للمكدّ طريقة أخرى في سؤاله الناس وذلك بأن يغتنم الفرصة السانحة ويأتي في الوقت الملائم ، وللنفس أحوال تحب أن تصنع فيها الخير كأن يكون الإنسان مقدماً على سفر فإذا هو قبل أن تتحرك مطيّته أمام سائل بتضرع داعياً له بالأمن والسلامة على حين أنه منصرف إلى التفكير في أخطار الطريق ومشاقّ السفر .

(١) المقامة الازاذية : ١٦ .
(٢) المقامة المكفوفية : ٨٦ .
(٣) المقامة البلخية : ٢١ .

وكثيراً مانشاهد اليوم أمثال هذه الفئة من المكدّين يقفون في المحطات أو مراكز انطلاق القطر والسيارات يتصيّدون المسافرين حافّين بهم داعين لهم بالأمن والسلامة ، ومن هؤلاء ذلك الذي حدثنا عنه ابن هشام في المقامة البلخية حيث قال : « ولمّا حنى الفراق بنا قوسه أو كاد دخل عليّ شاب في زيّ ملء العين .. ولقيني من البرّ في الثناء ، ثم قال : أظعناً تريد ؟ فقلت : اي والله . فقال : أخصب رائدك ولا ضلّ قائدك . فأين تريد ؟ قلت : الوطن . فقال : بلّغت الوطن وقضيت الوطر .. ، قال : إذا أرجعك الله سالماً من هذا الطريق فاستصحب لي عدوّاً في بردة صديق من نجار الصُفر يدعو الى الكفر ويرقص على الظفر ، كدارة العين يحطّ ثقل الدين وينافق بوجهين . قال ابن هشام : فعلمت أنه يلتمس ديناراً فقلت : لك ذلك نقداً ومثله وعدا ... »(١)

ومن الأحوال التي يحبب فيها الخير الى النفوس أن يكون الانسان في جوّ ديني تسوده روح البذل والتعاون ، أو أن يكون الإنسان منصرفاً إلى تذكّر الآخرة والزهد في الدنيا ، راغباً في الأجر والثواب ... فهو في مثل هذه الأحوال أقرب الى الاستجابة وأسرع الى السخاء . . وقد عرف المكدون ذلك فرابطوا عند أبواب المساجد أو دخلوا على الناس في المساجد فوعظوهم وذكّروهم حتى امتلأت قلوبهم بحب الآخرة ونعيمها والزهد في الدنيا ومباهجها ثم عرضوا على الناس بؤسهم وفقرهم وطلبوا منهم عونهم ومساعدتهم ؛ إنهم كثيراً مابدأوا واعظين مذكّرين وانتهوا سائلين مستجدين !

والطريف أن بعض هؤلاء الماكرين لايدعون مجالاً يسمح للمصلي بالانصراف، فهم يحرجون الناس ويشدّونهم بأغلظ الأيمان لئلا يخرجوا من المسجد قبل

(١) المقامة البلخية : ١٨ .

سماع الشكوى ، وذلك على نحو ماحدث لابن هشام في أحد مساجد أصفهان حين فرغ الإمام من ركعتيه ، وأقبل على التشهّد بلحييه ومال الى التحية بأخدعيه ، وقلت : قد سهّل الله المخرج وقرب الفرج . قام رجل فقال : من كان منكم يحب الصحابة والجماعة فليعرني سمعه ساعة ! قال عيسى بن هشام : فلزمت أرضي صيانة لعرضي . فقال : حقيق عليّ ألا أقول غير الحق ولا أشهد إلا بالصدق . قد جئتكم ببشارة من نبيكم لكني لا أؤديها حتى يطهّر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد نبوّته . قال عيسى بن هشام : فربطني بالقيود وشدّني بالحبال السود .... »[1] ، وتابع خطابه حتى ملأ جرابه وانصرف .

ومن المكدين من يستجدي بحجة البيع ؛ يزعمون أنهم يبيعون الأحراز والأوراد وكتابات لها عمل السحر ! في تحبيب الأزواج بزوجاتهم أو إخراج الأفاعي من أوكارها ...

ومنهم من يزعم أنه اهتدى بعد ضلال ، وأن عطاء الناس له وتصدّقهم عليه يعصمه من العودة الى ضلاله ، يقول واحد من هؤلاء « ... والآن لما أسفر صبح الشيب وعلتني أبهة الكبر عمدت لإصلاح أمر المعاد بإعداد الزاد فلم أر طريقاً أهدى الى الرشاد مما أنا سالكه . » ثم يقول « ودُفعت إلى مكاره نذرت معها ألاّ أدّخر عن المسلمين منافعها ولا بدّ لي أن أخلع ربقة هذه الأمانة من عنقي إلى أعناقكم وأعرض دوائي هذا في أسواقكم فليشترِ مني من لا يتقزّز من موقف العبيد ولا يأنف من كلمة التوحيد .. »[2]

---

(١) المقامة الأصفهانية : ٥٨ .
(٢) المقامة السجستانية : ٢٦ .

وقد يزيد في الخداع فيزعم أنه على أهبة الجهاد والغزو وان الجود عليه إعانة له على الجهاد في سبيل الله فيقول :

أدعو الى الله فهل من مجيب الى ذرا رحب ومرعى خصيب
وجنـــة عاليـــة ما تني فطوفهـــا دانيـــة ما تغيب
إن أك آمنت فـكم ليلة جحدت ربي وأتيت المريب
ثم هـداني الله وانتاشني من ذلّة الكفر اجتهاد المصيب
فظلت أخفي الدين في أسرتي وأعبـــد الله بقلب منيب [1]

يا قوم وطئت داركم بعزم لا المشق شاقه ولا الفقر ساقه ، وقد تركت وراء ظهري حدائق وأعنابا .. وخرجت خروج الحية من جحره [2] والطائر من وكره مؤثراً ديني على دنياي .. فلو دفعتم النار بشرارها ورميتم الروم بحجارها وأعنتموني على غزوها مساعدة وإسعادا ومرافدة وإرفادا ، ولا شطط ؛ فكل على حسب قدرته وقدر طاقته ولا أستكثر البدرة وأقبل الذرّة ولا أردّ التمرة ، ولكل مني سهمان : سهم أذلقه للقاء وسهم أفوقه بالدعاء .. » [3] ولا عجب في أن يزعم الجهاد والغزو لينال المال فقد رأينا جيشاً بكامله يزعم الغزو في سبيل النهب .

ومن المكدين من يطرق عليك الباب ليلاً ليزعم أنه ابن سبيل مقطوع قال ابن هشام « ولما اغتمض جفن الليل وطرّ شاربه قرع علينا الباب ، فقلنا : من القارع المتاب ؟ فقال : وفد الليل وبريده ، وفلّ الجوع وطريده وحرّ قاده الضرّ والزمن المرّ ، وضيف وطؤه خفيف وضالته رغيف ، وجار يستعدي

(١) المقامة القزوينية : ٩٢ .
(٢) الحية للمؤنث والمذكر ويفرّقون بينهما بالوصف .
(٣) المقامة القزوينية : ٩٤ .

على الجوع . . . . [١] » ومثله أيضاً ذلك الذي ذكره ابن هشام في المقامة الناجية . [٢]

ومن المكدين من يلجأ الى استدرار عطف الناس باصطحاب أطفاله معه ، وهو لا يتحدث إليك عن فقره وجوعه لأن عطف الأبوة أنساه ذلك ، وإنما يحدثك عن جوع أولاده وعريهم ، وأنت إن لم تتألم للرجولة الذليلة أو الأبوة الملوّعة في شخصه فلا بدّ أن تتألم للطفولة الجائعة العارية في أطفاله ، إنه يكلمك بلسانه ويكلمونك بعيونهم ، فإن لم تتأثر بلهجته فلن تقوى على صدّ نظراتهم الزائغة الضارعة . ولقد عرف ذلك خبثاء المستجدين في عصرنا فراح بعضهم يستتبع أطفالاً يزعم أنهم بنوه وما هم بنيه !

وقد ورد ذكر هذا النوع من المكدين غير مرة على لسان الهمذاني فهذا واحد « قد احتضن عياله وتأبط أطفاله [٣]» وهذا آخر « يتلوه صغار في أطمار[٤] » وربما قدّم المستجدي طفله ودفعه إلى الكلام فان ذلك أدعى للشفقة وأنفذ في القلب ، وقد دفع بعضهم طفله إلى الكلام فقال : « ماعسى أن أقول وهذا الكلام لو لقي الشعر لحلقه أو الصخر لفلقه ، وإن قلباً لم يُنضجه ما قلت لنيء . وقد سمعتم يا قوم مالم تسمعوا قبل اليوم فليشْمل كل منكم بالجود يده وليذكر غده واقياً بي ولده . واذكروني أذكركم ، واعطوني أشكركم [٥] » .

(١) المقامة الكوفية : ٣٠ .
(٢) المقامة الناجية : ١٩٩ .
(٣) المقامة الازاذية : ١٤ .
(٤) المقامة الجرجانية : ٥١ .
(٥) المقامة النجارية : ٨٩ .

ومنهم من يزعم أنه عزيز ذلّ وغنيّ افتقر ؛ « إنكم لن تأنسوا حادثاً ولن تعدموا وارثاً . فبادروا الخير ما أمكن وأحسنوا مع الدهر ماأحسن ، فقد والله طعمنا السكباج وركبنا الهملاج [١] ولبسنا الديباج وافترشنا الحشايا فما راعنا إلا هبوب الدهر بغدره وانقلاب المجن لظهره فعاد الهملاج قطوفاً وانقلب الديباج صوفاً وهلمّ جرّا إلى ماتشاهدون من حالي وزيّي [٢] » .

الكدية الجماعية : ومن الطريف أن بعض المكدّين كانوا يؤلفون جماعات يستغنون بها عن الاطفال ويقدّمون واحداً منهم يسيرون وراءه ويقول الجملة فيعيدونها من خلفه .. ؛ والحق أننا نكاد لانعرف هذا النوع من الكدية الجماعية اليوم . إذ نحن نعرف تلازم مكدّيْن أحدهما أعمى مثلاً أو مقعد ، أو تلازم رجل وزوجته ، أو تلازم أسرة بكاملها . أما الكدية الجماعية فقد وصفها لنا الهمذاني في المقامة الساسانية فقال : « فبينا أنا على باب داري إذ طلع علي من بني ساسان كتيبة قد لفّوا رؤوسهم ، وطلوا بالمغرة لبوسهم ، وتأبط كل واحد منهم حجراً يدق به صدره ، وفيهم زعيم لهم يقول وهم يراسلونه ، ويدعو ويجاوبونه .. [٣] » .

وهكذا استعرض لنا الهمذاني أنواع الكدية وأساليب المكدين في عصره ، وقدّم لنا صوراً مختلفة عن تلك الطبقة الفقيرة التي كانت تحتال للقوت ، والتي كانت في عددها متناسبة مع ماذكر من فساد الحال وسوء الوضع في تلك الفترة ، وهي فترة قيل إنه مامرَّ على الدولة أسوأ منها ، وحسبنا منها أنها بيعت فيها الدور والعقارات بما يمسك الرمق من الخبز .

(١) الهمّلاج من البراذين الحسن الاهملاج .
(٢) المقامة النجارية : ٨٨ .
(٣) المقامة الساسانية : ٩٧ .

٥ ـ قلة الأمن وكثرة اللصوص

السياسة والأمن : رأينا أن الأحوال السياسية لذلك العصر كانت مضطربة وأن أوضاع الحكم فيه كانت غير مستقرة ، ولا شك أن ذلك يؤدي في أغلب الأحيان إلى فقدان الأمن وكثرة الجرائم ، ونحن لانزال إلى اليوم نشاهد الأمثلة الكثيرة على ذلك ؛ إذ لاتلبث أن ترتبك سياسة البلاد وتتزلزل أوضاع الحكم حتى تنشط الجريمة ويكثر الفساد ... وما يزال الأمر كذلك حتى يعود الأمر إلى نصابه وتتولى زمام الحكم يد قوية تعرف كيف تضرب على يد البغي والفساد ..

في التاريخ : وكان طبيعياً أن تكثر الجرائم وحوادث النهب في تلك الفترة التي اضطربت فيها شؤون البلاد وأصبحت المناصب الكبرى نهباً مرزّعاً بين الأقوياء ؛ لقد كان بين الناس لصوص يسطون على القوافل في الطرقات وعلى البيوت والمخازن في المدن ، كما كان بين السياسيين والحكام لصوص يسطون على المناصب وينهبون الوظائف ، والناس على دين ملوكهم ، وإذا كان عمران بن شاهين يغتصب السلطة في أرض البطيحة ويستقل بها أيام معز الدولة ، فقد كان معز الدولة نفسه مغتصباً للسلطة مستأثراً بها . ومما يدل على مبلغ الاضطراب وفقدان الأمن ذلك التعرّض الوقح لقوافل الحجاج والتجار حتى بات الحاج لايأمن على حياته « لقد كان الحج في تلك العصور بسبب ما كان في الطرق العربية من المخافات وقلة الأمن غير ممكن أحياناً أو معرّضاً صاحبه للموت أحياناً أخرى [١] » وفي كتب

(١) الحضارة الإسلامية ٢ : ٥٩ .

التاريخ أن الحج تعطل غير مرة نتيجة لما حلّ بقوافل الحجاج من قتل ونهب .

وليس خبر الجيش الذي زعم الغزو وقام بالسلب ببعيد عنا ، وقد ذكروا عن جنوده « المجاهدين » أنهم كانوا يخرجون ليلاً ومعهم الآلات من السيوف والحراب والقسيّ والسهام ويزعمون أنهم يأمرون بالمعروف فيسلبون العامة مناديلهم وعمائمهم وإذا تمكنوا من تفتيشهم وأخذ جميع مامعهم لم يقصّروا في ذلك (١) .

وحسبنا أن نقول إن العراق لم يتمتع بالأمن قط في أثناء القرن الرابع الهجري (٢) وهو مركز الدولة وفيه قوّتها ، فما بالك بالمناطق والأقاليم النائية عنه وعن مركز السلطان ؟

في المقامات : يخصّ الهمذاني هؤلاء اللصوص بنصيب من مقاماته ويذكر أنواعاً منهم متعددة ؛ فيحدثنا عمن يتعرض منهم للمسافرين في الطرقات كذلك الذي خرج على ابن هشام وصحبه في طريق حمص « ثم اندمج بهم وخدمهم وعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوّق سهماً فرماه في السماء وأتبعه بآخر فشقه في الهواء . وقال : سأريكم نوعاً آخر ، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها ، وإلى فرسي فعلاه ورمى أحدنا بسهم أثبته في صدره ، وآخر طيّره من ظهره . فقلت ويحك ما تصنع ؟ قال : اسكت يا لكع ، والله ليشدنّ كل منكم يد رفيقه أو لأغصنّه بريقه ... (٣) » ثم نزع عنهم ثيابهم

(١) الحضارة الإسلامية : ٦٦ .
(٢) المرجع السابق : ٢٩٤ .
(٣) المقامة الأسدية : ٣٧ .

وكاد يذهب بها لولا أن عاجله بعضهم بطعنة قضت عليه ، ومثله الذي خرج على ابن هشام وصاحبه الاسكندري وهما عائدان من الموصل فملك عليها القافلة وأخذ منها الرحل والراحلة ...(١) » .

وأما اللصوص الذين يسطون على البيوت والمحال التجارية ، والنشالون الذين يسرقون من الناس في الطرقات فقد تحدث الهمذاني عنهم طويلاً في المقامة الرصافية حيث قال على لسان ابن هشام : « خرجت من الرصافة أريد دار الخلافة وحمّارة القيظ تغلي بتار النيظ ، فلما نصفت الطريق اشتد الحرّ وأعوزني الصبر ، فملت إلى مسجد قد أخذ من كل حسن سرّه وفيه قوم يتأملون سقوفه ويتذاكرون وقوفه ، وأداهم عجز الحديث إلى ذكر اللصوص وحيلهم والطرّارين وعملهم ...(٢) » ثم يتابع ذكر أسمائهم وتعداد أنواعهم حتى زاد على السبعين نوعاً ، مما جعل هذه المقامة مصدراً « دسماً » للصوص والنشالين أو لمن يريد أن يعرف شرّهم ويدفع عنه أذاهم ، كما جعلها ، من ناحية ثانية ، صورة من صور الأخلاق الفاسدة والبؤس المنتشر ...

(يتبع) الدكتور مازن المبارك



(١) المقامة الموصلية : ١٠٣ .
(٢) المقامة الرصافية : ١٦٥ .

دراسات في العربية[1] والألسنية[2]

« ليس بين كل البلاد التي تضاهي جزيرة العرب حجماً ، أو بين كل الشعوب التي تناهز العرب في الأهمية التاريخية والمكانة العالمية بلد أو شعب ناله من إهمال الباحثين في العصور الحديثة ما نال الجزيرة العربية والشعب العربي[3] » .

بهذه العبارة الصريحة المريرة صدر زميلنا الكبير الدكتور فيليب حتي كتابه القيم (تاريخ العرب) « مكملان ، لندن ونيويورك » منذ نيف وثلاثين سنة .

والواقع أن الباحثين لم يهملوا جزيرة العرب والشعب العربي حضارة وعمراناً فحسب ، بل أهملوها لغة وأدباً أيضاً ، وربما كان لإهمال اللغة العربية سبب وجيه كصعوبة البحث فيها مثلاً من قبل بحاثين لم يقضوا في دراستها أكثر من ثلاث إلى خمس سنوات ، في معاهد أوروبية أو أمريكية . ويذكر عن لسان مستشرق أمريكي شغل كرسي الدراسات العربية في جامعة هارفارد أنه كان يقول : « إن صعوبة دراسة اللغة العربية لا تتجاوز سني

---

(١) المقصود بهذا الاصطلاح « اللغة العربية الفصحى أصواتاً وكلاماً وصرفاً ونحواً » .

(٢) أي علم اللغة التحليلي — التطبيقي ، لِنْجْوِيسْتِيكْس .

(٣) فيليب حتي وادورد جرجي وجبرائيل جبور : (تاريخ العرب) ، « مطول » ، بيروت ، دار الكشاف ، الجزء الأول ، الصفحة الأولى ، هذا الكتاب هو ترجمة كتاب الدكتور فيليب كي هِتّي : هِسْتْري أُفْ ذي أَرَبْز الذي نشرته دار مكملان للمرة الأولى في عام ١٩٣٧ .

الدراسة الحسين الأولى . » ولا يخفى أن لتصريح كهذا أثره في نفس الطالب العربي ؛ إنه ، بالرغم من فكاهته ، تصريح من النوع الذي يعلق في ذهن سامعه فيترك أثراً سلبياً هائلاً لا يلبث أن يفعل فعله في ميول الطالب العملية فيحوله عن العربية والأدب ويدفعه إلى سواهما من الدراسات . . .

ولقد كان من نتائج إهمال البحث في اللغة العربية أن أغمط حق علماء الألسنية العرب فلم يذكر تاريخ العلوم الألسنية لهم فضلاً في تطور هذا العلم الحديث وبناء صرحه . فالطالب العربي والأجنبي على السواء يجد أبحاثاً متعددة تتناول العرب ديناً وشرعاً ، أمةً ودولاً ، وجغرافية وتاريخاً ؛ ولكنه ، إذا ما تصدى للتحري عن مصادر رئيسية في لغة أجنبية ، تبحث في لغة العرب ومساهمة علمائها العرب والمستعربين في بناء صرح العلوم الألسنية والنهوض بها وعزلها عن الخرافات والأوهام، وجد أن دون غرضه خرط القتاد . والقليل القليل المتوفر من هذه الدراسات اللغوية النادرة لا وجود له إلا في خزانات كبار المستشرقين (١) ، وعلى رفوف مكتبات أمهات الجامعات الغربية (٢) ، ولذلك نجد النبيه من خريجي الجامعات الغربية ، في العلوم الألسنية ، لا يزال يعتقد بأن هذه العلوم الحديثة ولدت في

---

(١) علماء الساميات خاصة من أمثال : دي ساسي ، فْلايْشِر ، فْرايْتاغ ، فولِّرْس ، فِيشِر ، رايْن ، بْلوخ ، نِشْمانوف ، فْليش ، بِرْكْلانْد ، شْبيتالِر ، الخ .

(٢) كمكتبات جامعات هارْفَرْد ، وكولومبيا ، وبِرِنْسْتُن في الولايات المتحدة الأمريكية ، مثلاً .

پور رويّال (١) وبدأت نموها العلمي الحديث بفضل السِرْ وِلْيَمْ جونْزْ (٢) ... بينما الحقيقة العلمية تقرر بأن العرب، تسعة قرون قبل پور رويّال، ونيف وألف سنة قبل وليم جونز ، أنجبوا علماء كان لهم في ميدان العلوم الألسنية شؤون . في القرن الثامن الميلادي ـ وربما قبل ذلك بقرنين أو أكثر (٣) ـ كان علماء الألسنية من العرب والمستعربين يتجادلون في ماهية الصوت وكيفية حدوثه ، وفي ذاتية الحرف ، وكيفية حرفه ؛ وكان منهم من يخرج إلى المناطق المعزولة في الصحراوات العربية للاستماع إلى اللغات واللهجات المتحدث بها هناك وللاستماع إلى لغة من هو في عروبته عريق من الذين إذا تكلموا أجادوا وما لحنوا .

أين هذه الحقائق التاريخية المثبتة مما يقوله مستشرقو الغرب وعلماؤه من أمثال هُلْجِر پِدِرْسونْ الذي يقرر ، بحق :

---

(١) پور رُوْيّالْ دِي شانْ ، دير يبعد ثمانية أميال تقريباً عن فِرْسايْ بالقرب من باريس ، أسست فيه مدرسة دينية عام ١٦٤٣ م درّس فيها لأول مرة غراماطيق لاتيني (١٦٤٤ م) وآخـر إغريقي (١٦٥٥ م) من تأليف لانْسِلو ــ رَجي ، إي سانْدِزْ ؛ إي هِسْتْري أُفْ كْلاسِكالْ سْكالَرْشيپْ . نيويورك ١٩٥٨ ، المجلد ٢ ص ٢٩٠ .

(٢) السر وليم جونز ، ١٧٤٦ ـــ ١٧٩٤ ، مستشرق انكليزي زائع الصيت وأول من لفت نظر علماء الغرب إلى صلة القرابة اللغوية بين اللغة السنسكريتية الهندية واللغات الأندو ـ أوروبية المنتشرة في أوروبا الغربية ، وخاصة اللغتين الاغريقية واللاتينية الكلاسيكيتين .

(٣) هنالك من يقول بأن المبشرين المسيحيين قد ترجموا التوراة والأناجيل إلى العربية قبل نزول الوحي على الرسول العربي . فاذا صح هذا القول ـ وهو لا يزال بحاجة إلى إثبات ـ كان علماء الألسنية من العرب والمستعربين قد بدأوا وأتموا دراسة العربية في العصر الجاهلي .

« أورث العالم القديم (يعني بذلك الإغريق والرومان) أوروبا ميراثاً مثقلاً بالأوهام في تاريخ اللغة ... »

« وكان انتشار المسيحية مطلع المرحلة الأولى في تاريخ العلوم الألسنية في أوروبا . فلقد جلبت معها أولى الانبساطات في أفق العلوم الألسنية ... »

« وكذلك تدين العلوم الألسنية الحديثة للبوذية بدين كبير ... »(١)

ولكنه يختم قوله بتصريح لا يمتّ إلى الحقيقة العلمية بصلة ، فيقول :

« ليس هنالك من سبب قط لشكر المحمدية (يعني الإسلام) في هذا المضمار . » (٢) أو العلامة پِسْپِرسِنْ الذي يتجاهل في أبحاثه مساهمة العرب والمسلمين في تصعيد العلوم الألسنية والارتقاء بها إلى مصاف العلوم الحديثة في الغرب ، فيقرر بأن هذه العلوم ولدت عندما بدأ الناس يتساءلون لماذا لا يتكلم البشر جميعاً لغة واحدة ؟ كيف خلقت الكلمة ؟ ما هي الصلة بين اسم الشيء الحقيقي وذاتيته ؟ ولماذا يسمى هذا الشيء كذا عوضاً عن كيت ؟ الخ . ثم يتابع پسپرسن عرضه التاريخي هذا فيقول بأن اليهود هم سبب الفوضى في العلوم الألسنية إذ علّم أنبياؤهم بأن اللغة هي من وضع

(١) إِنْشْ پِدِرْسونْ، سْبْروغْتيدِ نْسْكابِإيِدِتْ نِنْتَنْدي آرْهُنْدْرِدي: ميتودِرْ اوغْ رِزِلْتاتِرْ كوبنهاغن ١٩٢٤ وقد ترجمه إلى الانجليزية جون وِبْسْتِرْ سْبراغو ونشر في كامبريدج ، ماس ، عام ١٩٣١ بعنوان لِنْجْويسْتِك سايِنْس إنْ ذي نايْنْتينْ سِنْتْشِري : مِتُدْزْ إنْد رِزَلْتْزْ رَ الصحيفة التاسعة حيث الاشارة إلى البوذية تهدف المدرسة اللغوية الهندية التي تبلورت أسسها العلمية وظهرت في أبحاث پانيني .

(٢) المصدر ذاته ، التعليق والهوامش ستأتي فيما بعد .

الإله ، خالق كل شيء . ويزيد فيقول بأن الاغريق القدماء أيضاً سببوا تشويشاً في هذا المضار إذ عالجوا موضوع الألسنيات معالجة فلسفية موضوعية فقال قسم من فلاسفتهم بأن اللغة وجدت وتطورت بصورة طبيعية (فوزيي) وقال آخرون بأنها وضع متوافق عليه (ثوذيي) . ثم يشير هـذا العالم الغربي إلى أهمية ترجمة التوراة والأناجيل إلى اللغة القوطية في القرن الرابع الميلادي (١) متجاهلاً تمام التجاهل الترجمة الروسية للكتاب المقدس التي وضعها كيريلُسْ وميتوديوسْ في القرن التاسع (٢) والتي لا تقل أهمية عن الترجمة القوطية . أما القرون الوسيطة فإن يسبرسن يؤكد بأنها لم تنتج السنيّا ما يستحق الذكر وبأن هذا الحال المتم الكالح لم يزُل إلا بفضل السر وليم جونز (٣) ...

وهكذا نجد الطالب المتخرج في العلوم الألسنية من جامعات الغرب ما زال كسلفه يظن بأن القرون الوسيطة وحتى القرون السبعة التي سبقتها كانت قروناً جرداء خالية لم ينتج خلالها في العلوم الألسنية إلا ما سجله پانيني وخلفاؤه من علماء الهنود . هذا الوهم هو المسؤول الوحيـد عن تصريحات علماء الغرب الذين يقولون بأن العلوم الألسنية لم تتقدم خطوة واحدة خلال الزمن الواقع بين عهد پانيني الهندي وپور رويّال الفرنسي .

---

(١) الترجمة المعروفة باسم « ترجمة وُلْفيلا أو وُلْفيلاسْ » التي يتفق المؤرخون على أن تاريخها هو ٣٨٣ ميلادية .

(٢) آ . ليسْكِينْ : « سْلافيشِه إيبَرْستَزْونْغ » في سلسلة تِكْسْتْ اونْدْ ايبَرْسِتْزونْغْ دِرْ بيبِلْ المنشورة في لايبزيغ عام ١٨٩٧ ص ٢١١ .

(٣) انظر المقال المعنون « غْرامَرْ إنْدْ غْرامَارْ يَنْزْ » في اوكسفُرْد كْلاسِّكالْ ديكْشنَري المطبوع في أكسفورد عام ١٩٤٩ .

وإذاً ، فالهدف من هذه الدراسة (وما سيليها من دراسات في العربية والألسنية) هو تعريف القسم الأكبر من المتخرجين وذوي الاختصاص في العلوم الألسنية بفضل العرب والإسلام في تطور هذه العلوم وعرض حقائقها التاريخية عرضاً يستند إلى وثائق لا مجال للشك فيها لا تاريخاً ولا نصاً ، وثائق نشرت لا في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد فحسب ، بل وأيضاً في لندن وأكسفورد واوسلو ولايبزغ وبرلين وباريس . ولسوف نبدأ هذه الدراسات بالتحري عن فضل الإسلام والمسلمين من عرب ومستعربين في الأبحاث الصوتية (فُنيتيكْسْ) .

بدءُ اهتمام العرب بالعلوم الألسنية

ليس من السهل تحديد تاريخ اهتمام العرب بالعلوم الألسنية . إن أول دليل على هذا الاهتمام هو الدليل الكتابي المتوفر لنا من خـــلال الآثار والنقوش التي عثّر عليها حتى تاريخ تحرير هذا البحث . وربما عثّر فيما بعد على نقوش وآثار كتابية أقدم من المراجع التي اطلعنا عليها حتى هذا التاريخ ؛ في هذه الحال ، يجب إعادة كتابة هذه المقدمة الموجزة وإبدال ما نعتبره اليوم كمطلع فجر العلوم الألسنية العربية ، ورده إلى تاريخه الصحيح الذي نعتقد بأن علماء الآثار سوف يوفّقون إلى اكتشافه . وإذاً ، فان هذه المقدمة ليست سوى حجرة مسافة موقتة نضعها على مفرق طريق طويل لا نعرف حتى الآن أين مبدأه وإن كانت لدينا فكرة واضحة عن منتهاه .

إن الآثار والنقوش التي اكتشفت حتى الآن هي كل ما لدينا اليوم من مصادر في دراسة الألسنية العربية القديمة . ومن أقدم وأوثق هذه الآثار آثار سيناء والنقوش المصرية القديمة التي يعود تاريخها إلى أولى السلالات الفرعونية ،

والتي تحتوي على ذكر وصور لأعراب عملوا في المناجم المصرية في شبه الجزيرة المذكورة (١) . وليس هنالك من شك في أن تلك الصور المصرية القديمة هي لعرب البادية ، إذ يؤيد هذا الرأي وجود صور مشابهة لها لأقوام دعوا في اللغة الأشورية أربي ، أي أعراب / عرب ، اكتشفت في العراق الحديث . فإذا ما اعتبرنا أولئك « الأربي » عربا — وهذا افتراض منطقي — تمكنّا من التقرير بأن الفكر الألسني العربي بدأ في التاريخ القديم البعيد ، وتبلور خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أي قبل الاغريق واليهود والهنود بقرون . فأعرابنا هؤلاء اهتموا بلغتهم اهتماماً علمياً دفعهم إلى محاولة إبداع صور للكلام العربي ، أي إلى كتابة لغتهم القومية . ومعلوم أن فن الكتابة هو الدليل الأول على نضوج الفكر الألسني .

أما إذا وجد من يعارض هذا القول مشيراً إلى أن الدلائل على اعتبار « الأربي » المشار إليهم عرباً هي غير وافية — وهذا من حق العلماء ، طبعاً — فإننا في هذه الحال نملك حق الإشارة الى نقوش الجزيرة العربية — وهذا حق لا يمكن الاعتراض عليه . ففي جنوبي جزيرتنا الكبرى اكتشفت حتى اليوم نقوش يعود تاريخ أقدمها إلى حوالي عام ٩٥٠ قبل المسيح ، نقوش تدل بوضوح على نضوج التفكير الألسني لدى العرب القدماء نضوجاً تاماً لا يقبل الريب ، وصل إلى ذروته أربعة قرون قبل ولادة ارسطـــاطيس

(١) رَ فْلانْدِرْزْ پِيتْري : رِيسِرْشْزْ إنْ سايْناي . لندن ، ١٩٠٦ ؛ وانظر مثلاً البحث الذي نشره غارْدْنَرْ في جِرْنَال أُفْ إجِيپْشَانْ أَرْكيولَجي ، ٣ ، ١٩١٦ ، ص ١ — ١٦ ، وأيضاً المصادر المذكورة في هوامش الصفحة السادسة من كتابنا لِنْجِوِسْتِكْس إنْ ذى مِدْل آجِزْ : فونِتِك سْتَدي إنْ إرْلي إسْلامْ ، لايدن ، ١٩٦٨ .

فيلسوف الاغريق الذي ندين له بفكرة تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف . . . .

وإن في النقوش التي اكتشفت لعرب الجنوب لأوفى دليل على أن العرب سبقوا الغرب بقرون في العلوم الألسنية وخاصة في علوم الصوت (فونتيكْس) الذي يعتبر حجر الزاوية في الدراسات الألسنية . هؤلاء العرب القدماء درسوا لغتهم أصواتاً وكلاماً فأبدعوا في أبحاثهم وارتقوا بها إلى درجة من الكمال قلّما بُلِغَت حتى في عصرنا الحاضر (١) فلقد ميزوا بين أصوات لغتهم بين حروف لم يتمكن علماء (٢) الغرب من معرفة وتحقيق مخارجها بالضبط حتى اليوم فمرفوها بِـ (س١ ، س٢ ، س٣) ، أي حروف السين والشين والصاد وحرف ربما كان بين السين والصاد (؟) والزاي والظاء .

إننا لعلى حق عندما نقرر ونقول بأن العرب أسْدَوا أكبر الفضل وساهموا أكبر المساهمة في تطوير وتصعيد المعارف الألسنية . أين هذه الحقيقة مما يقرره علماء الغرب ويقولونه كتابة ومحاضرات بأن العرب والمسلمين لم يساهموا قط في تطوير العلوم الألسنية ؟

* * *

(١) انظر كتاب « ألتْسودْ أرابيشه غْرامّاتيكْ لماريّا هِفْنَرْ المطبوع في لايبْزِيغ عام ١٩٤٣ وكتاب كْرِسْتوماثيا أرابيكا مِريديونالِيسْ إيغْرافيكا لِكونتي روسّيني المطبوع في روما عام ١٩٣١ .

(٢) هكذا عبر عن هذه الأصوات وُلفْ لِسْلو في كتابه « لِكْسيكْ سوكوتْري » باريس ١٩٣٨ » (؟) .

كان عرب الجنوب أصحاب تجارة ، وكانت قوافلهم تجوب الشرق العربي من أقصاه إلى أقصاه ، طلباً للكسب عن طريق التبادل التجاري المنتج . وكانت لهذه القوافل خانات تحط فيها طلباً للراحة بين كل مرحلة وأخرى . ونمت تلك الخانات حتى أصبحت جاليات مستقلة استوطنت طوال الطريق من الجنوب إلى الشمال ، ومن الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي . وإن لدينا من المعلومات العلمية الصحيحة المستندة إلى وثائق صحيحة الكثير مما تضمنته كتب وأبحاث كثيرة يسرنا أن نشير إلى أهمها ألا وهو الكتاب القيم الذي ألفه السيد الدكتور جواد علي في تاريخ العرب قبل الإسلام والذي طبع ، في أجزاء لدينا منها ثمانية ، بإشراف المجمع العلمي العراقي ، فليرجع إلى هذا المصدر الوثيق .

وكان من جرّاء الاتصال الحضاري بين عرب الجنوب وعرب الشمال أن توحدت الكثير من العادات الماشية والحضارية بين القومين . ومن جملة ما تعلمه عرب الشمال من إخوانهم الجنوبيين فنّ الكتابة مما تدلنا عليه النقوش التي عثر عليها في جنوبي الجزيرة وشمالها ، والتي يعود تاريخ بعضها إلى القرن السادس قبل المسيح ، صاعداً بعد ذلك إلى حوالي القرن الرابع الميلادي[١] ! هذه

---

(١) انظر كتاب ونِتّْ المطبوع في كندا عام ١٩٣٧ بعنوان (إي صنْتَدي أفْ لِهْينايْتْ إنْدْ تَمودِكْ إنْسْكْرِبْشَنْزْ) وكتاب كاسْكِل المطبوع في كولونية بألمانية الغربية عام ١٩٥٤ تحت عنوان لِهْيانْ أونْدْ لِهْيانِشْ وكتابي لِتْمانْ المطبوع أولها في برلين بعنــوان تْسور إنْتْسيفرونْغ دِرْ ثاموديشِنْ إنْشْرِفْتِنْ والآخر في لايبزيغ عام ١٩٤٠ بعنوان ثامودْ أونْد صَفا . وراجع أيضاً كتاب فان دِرْ بْرانْدِنْ المطبوع في لوفين ، بالبلجيك تحت عنوان ليزانسْكْروبسيون ثاموديّنْ . وأيضاً الباب الأول القسم الأول آ من كتابنا لِنْجْويسْتِكْسْ إنْ ذِي ميدْلْ آجزْ . فونيتِكْ صنْتَديزْ إن إرْلِي إسْلام المطبوع في لايدن عام ١٩٦٨ ومصادره والوثائق المستند إليها فيه .

النقوش تدل على وجود القباء عربية مؤلفة من ثمانية وعشرين حرفاً تشبه شبها كبيراً الألفباء التي استعملها عرب الجنوب . وأقرب هـــذه النقوش الألفبائية شبهاً بحروف العربية النقش النبطي . ومعلوم أن النبط أقوام عرب استعملوا اللغة العربية في حياتهم اليومية بينما كتبوا باللغـــة والقلم الآرامي المؤلف من اثنين وعشرين حرفاً (١) . وربما كانت النقوش النبطية هذه أصل الخط العربي الذي تطور فأصبح الخط الذي نستعمله اليوم . وسيكون لنا في هذا المجال شوط آخر ....

أما بصدد ما يظنه العلماء من أن المبشرين المسيحيين القدماء قـد تركوا أثراً في هذا المضمار فإن العلماء هؤلاء لا يزالون في حيرة من أمرهم اذ لم يُعثر حتى الآن على أثر كتابي مسيحي بحت تركه المبشرون القدماء خلال عملهم الديني في شبه الجزيرة العربية ، قبل مجيء الرسول برسالته الخـالدة التي كان من جملة ما أسدته للعالم من قيم ونعم لغة رفيعة معبرة خلاقـة وأدباً عالياً إنسانياً نبيلاً ، خُلِدَ بخط جميل لم يعرف البشر مثيلاً لكماله الصوتي حتى تطور العلوم الصوتية في الغرب ، الذي أدى إلى وجود الخط المعروف بالخط الصوتي العالمي في عصرنا الحاضر .



(١) انظر الأبواب الخامس والسادس والسابع من كتاب الدكتور فيليب حتي (فِليب كِي هِتّي) هِسْتْري أفْ ذي أرَبْز ، الطبعـة التاسعة ، ١٩٦٧ ، والباب الثاني من كتابنا المذكور في الحاشية السابقة .

كان فن الكتابة معروفاً في الجاهلية ، وقد استعمله المكيون في معاملاتهم التجارية كما استعملوه وغيرهم من العرب في بعض الأحوال غير الاقتصادية في العصر الجاهلي [١] . وهنالك على الأقل دلائل ثلاث تؤيد هذا الرأي :

أولاً : كلام الله في قرآنه العربي حيث وردت كلمات عديدة تشير إلى هذا الفنّ ودقائقه ومفرداته كـ : كتاب ، قلم ، صحيفة ، قرطاس ، سفر ، قطّ ، رقّ ، دواة ، سطر ، حبر ، مجلة ، نسخة ، سجل ، قمطر ، جرميس ، ختم ، الخ .

ثانياً : إشارات عديدة إلى فنّ الكتابة في القرآن الكريم وفي سيرة رسول الله (ﷺ) ، مثلاً :

آ : القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتّق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فان كان الذي عليه الحقّ سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يملّ هو فليملل وليّه بالعدل ،

(١) انظر مثلاً مارْكْ لِدْزْبارْسْكي : هانْدْبوخ دِرْ نوْرْدْسِمِتِيشِنْ إيغْرافيكْ نيبسْتْ أوْسْغيفِلْتِينْ إنْشْرِقْتِينْ (فايْمارْ ، ١٨٩٨) ، خليل نامي (أصل الخط العربي وتاريخ تطوره قبل الاسلام) (القاهرة ، ١٩٣٥) . وج . كانْتينو لي ناباتيينْ (باريس ، ١٩٣٠ – ١٩٣٢) .

واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين ، فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ، فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها ، وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضارّ كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ويعلّمكم الله والله بكل شيءٍ عليم » . وأيضاً سورة النور ، الآية ٣٣ : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » ... إلى نهاية الآية . » .

ب — سيرة سيدنا محمد رسول الله ، ﷺ (تحقيق ف . فوستنفيلد ، غوتنغن ، ١٨٥٨ ، ص ٣٣٢) وسواها (١) حيث نجد الرسول يأمر كتبته بالكتابة ، مثلاً ، السيرة : « أنا سراقة بن جشعم انظروني أكلمكم فوالله لا أريبكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه قال فقال رسول الله (ﷺ) لأبي بكر قل ما تبتغي منا ، قال فقال لي ذلك أبو بكر ، قال فقلت تكتب لي كتابا يكون آية بيني وبينك ، قال اكتب له يا أبا بكر ، قال فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة أو في خزفة ثم ألقاه إلى ... »

---

(١) مثل الكامل للمبرد ، وأسد الغابة لابن الأثير ، وتاريخ اليعقوبي وخميس الديار بكري ، حيث يجد الباحث كثيراً من الاشارات الدالة على معرفة العرب القدماء بفنّ الكتابة .

ثالثاً : في الشعر الجاهلي حيث نجد عدداً كبيرا من الأبيات التي تحتوى على إشارة الى فنّ الكتابة العربية ، مثل :

أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

من شعر امرئ القيس في ديوانه الذي حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ونشرته دار المعارف بمصر في سلسلة ذخائر العرب رقم ٢٤ — ص ٨٩ (١) .

ولكن هذا الفن العقلي — العملي المهم لم يتقدم تقدماً محسوساً حتى بزوغ فجر الاسلام وشمسه على العالم في شبه الجزيرة العربية . فالإسلام هو دين سماوي أساسه « الكتاب » والكتاب كتاب الله أنزله على رسوله في أوانه ، معجزة ما زال البحث في ماهيتها أمراً غير مستحب ، كما هو الحال في جميع الأمور الروحانية التي هي من الله وله . وعليه فإننا في ذكرنا لكتاب الله لن نحاول أكثر من النظر فيه شكلا ووصفا لغويا من حيث انه ، علاوة على كونه وحدة روحانية تامة ، هو أيضا ، في شكله المادي ، وحدة لغوية تامة ، كتاب في صحائف معدودة يحتوي على مادة لغوية معينة غير قابلة للتصحيف والتغيير . ففي هذا الصدد ، نجد آيات القرآن الكريم إنما كتبت اول ما كتبت بخط قريب الشبه بالخط النبطي ، متحذر منه بلا شك . ومعلوم ان الأنباط كانوا عربا .. وبظننا أنه لو لم يمن الله على العرب برسول منهم تلقى « الكتاب » وحياً أنزل عليه بلسانهم لما تطورت العربية لسانا وكتابة وأدبا وعلوما ، ولما وصلت إلى ما وصلت إليه من الكمال بتلك السرعة الهائلة ، التي لا نجد في تاريخ الأمم وتاريخ الألسنية ما يماثلها ويضاهيها .

---

(١) جمع ج فيدَرْ كْرِنْ الكثير من هذه الشواهد ونشرها في العدد العاشر من اوبْسالا اونيفِرْسيتيتسْ اورْسْكْرِفْتْ عام ١٩٤٨ ، وانظر أيضاً بحثاً لنا في مجلة (ذى مسلم ورلد) الأمريكية ، العدد ٣/٥٦ لعام ١٩٦٦ بعنوان « ادْجوكيشَنْ إنْ إسْلامْ فْرَمْ ذي جاهلية تو ابن خلدون » ص ١٨٨ — ١٩٨ .

هذا ما نراه على أساس معرفتنا الشخصية التي وصلنا إليها عن طريق الدرس والتمحيص . وطبعاً ليس هنالك ما يمنع الغير من مخالفة رأينا هذا ومعارضتنا فيه معارضة علمية رصينة . والواقع أن هنالك البعض ، من عربي أديب ، ومستشرق عالم ، ممن لا يرون رأينا هذا ... والفرق بيننا ان الرأى الذي نبديه تدعمه دلائل وشواهد نظرية ومادية ، بينما لا يدعم رأي معارضينا سوى نظريات احتمالية لا قيمة علمية لها .

أما وقد قررنا بأن الدين الحنيف هو المسؤول الأول عن تطور العربية وعلومها ، فانه ليجدر بنا الآن أن نبين بايجاز كيفية ذلك ونتائجه .

في القرآن الكريم ، سورة المزمل ، الآية الرابعة ، نجد الأمر بترتيل « القرآن ترتيلا » . برأينا أن هذا الأمر الصريح هو نقطة الانطلاق في تطور العربية وعلومها . معلوم أن العـــرب القدماء « أنشدوا » الشعر إنشاداً ولم يلقوه إلقاء كما هي العادة في التزمن خطاب وخطابة وقصة . ومعلوم أن إنشاد الشعر لم تكن له قواعد يعرفها الإخصائيون بذلك ، ويتبعونها بدقة وإخلاص . فلقد كان كل شاعر وراوية إنما ينشد الشعر انشاداً على سليقة فردية . أما « ترتيل » القرآن ـــ والفرق بين القرآن والشعر هو فرق أساسي واضح ـــ فما كان ليجوز فيه التحرر من تقليد أقرّه الرسول ووجب التقيّد به . وطبيعي أن يجري هذا التقليد النبوي مجرى القانون على كل من آمن بالله ورسوله . وهنا ظهرت عوامل ثلاثة :

اولاً : لم تكن لغة سكان الجزيرة العربية واحدة موحدة في القرن السابع الميلادي ، إذ كان هنالك لغات قبلية تختلف واحدتها عن الأخرى أصواتا ومفردات وتركيباً . ومعلوم أن الرسول كان قرشياً ، وان قريش كانت قمة

الهرم الاجتماعي العربي ، وإذاً ، مرجعه في جميع الأمور الحضارية ، بما في ذلك اللغة . ونزل القرآن على محمد بن عبد الله بلسان لا يمكن ان يكون فيه أي اختلاف عن لسان الرسول . ويؤيد هذا ما نقرأه عن أوائل المسلمين ، وإصرارهم على تدوين كلام الله بلغته الأصلية ، لغة قريش ، مقرّن عن علم ومعرفة بأن ذلك الكلام إنما أنزل على رسولهم بلغة قريش نفسها (١) .

ثانيا : عندما توسعت رقعة الاسلام وامتدت عبر حدود الجزيرة العربية ، ابتدأ الناس ، من غير العرب ، يدخلون في الدين الحديث زرافات . ومعلوم أن المسلم ، مهما كانت جنسيته ومهما كان لسانه ، يدين لربه بواجب الصلاة وقراءة ماتيسر من « الكتاب » بلغة « الكتاب » .

وإذاً ، فلقد كان على كل مسلم ، عربياً كان أم أجنبياً تعلّم قراءة العربية تعلّما صحيحا يمكّنه من تأدية واجباته الدينية على سنّة الله ورسوله .

ثالثاً : كان المسلمون الذين اعتنقوا الإسلام في الشام ومصر وفي العراق وفارس أقدم عهداً بالحضارة من عرب الجزيرة ، وكان جلهم من المسيحيين وبعضهم يهود . وهؤلاء كانوا على معرفة بتقاليد الشريعتين : المسيحية والموسوية ، فيما يتعلق بكتبهم الدينية من توراة وأناجيل ، وكذلك كان بعض العرب ممن تنصّر وتهوّد ، أو عاشر أهل الكتاب ، أو على الأقل ، رأى رهبان وكهنة المسيحية يمارسون طقوسهم الدينية ويعنون بكتبهم المقدسة (٢) ، فكان من

(١) انظر المقنع للداني والإتقان للسيوطي وأو. بْرِتْزِلْ اورتوغْرافي اوئْدْ بونْكتيروئْغْ دِسْ كُرانْ (اسطنبول ، ١٩٣٢) و آ . جيفْري مَتِيرْيَلْزْ فورْ ذي هِستْري أفْ ذي تِيكْسْتْ أفْ ذي قُرآنْ لايْدِن ، ١٩٣٧) وأيضاً ح . رابين آتشِنْتْ وَسْتْ أرابِيَنْ (لندن ، ١٩٥١) وجوده (القراءات واللهجات) (القاهرة ، ١٩٤٨) .

(٢) أتت حجج بعدي عليه فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان
وقد تقدم ذكر هذا البيت في حاشية سابقة .

الطبيعي أن ينظر هؤلاء المسلمون الجدد إلى كتاب الله ، ويقرءونه بكثير من التقوى والخشوع . والقرآن الكريم ، كان ولا يزال في نظر المسلمين ، اعظم شأناً من الكتب السماوية الأخرى ، ولذلك كانت هنالك حاجة ماسة لحفظه تاما كاملا لا يشوبه نقص لا في كلامه وتركيبه ولا في تجويده : وكانت هنالك ضرورة لتعليم الناس قراءة آياته البينات قراءة صحيحةً لا لحن فيها ، خاصة وقد وقف بعض الصحابة على ما كان المستعربون يرتكبونه من الخطأ في قراءة « الكتاب » إذكانوا يجوّدونه دون إلمام علمي باعرابه فيقعون في أخطاء شنيعة (١) .

وهنا بدأت المصاعب تظهر للعيان . فالخطّ العربي الذي رُسم به المصحف في عهد عثمان ، والذي أرسلت نسخ منه إلى كل من مكة المكرمة والبصرة والكوفة والشام ، كان خطـّا لم يصل بعد إلى الكمال ، مثلا :

آ . كان الحرف غير منقوط ، وكانت بعض الحروف . تمثل عددا من الأصوات فالباء ، والتاء ، والثاء والنون في مطلع الكلمة ووسطها ، كانت تكتب سواء ، وكذلك الجيم والحاء والخاء ، والدال ، والذال ، والراء والزاي ، والسين والشين ، والصاد والضاد ، الخ .

ب . وكانت الكلمة غير معجمة ، غير محركة او منقوطة بالشكل ، فكانت آنذاك تمثل عدداً من الكلم : وكلم ، مثلا ، كان يمكن ان تُقرأ : كَلَمَ ، كُلِمَ ، كَلْمٌ ، كِلَمٌ ، الخ .

ج . ولم يكن هنالك ما يعبر عن الألف الطويلة وما يشير إلى الإدغام ، فكانت كلمة كلم يمكن ان تقرأ كلَّمَ ، كَلامٌ ، كالَمَ ، كِلامٌ ، الخ .

واذا ، كانت المشكلة الأولى التي وجب التغلب عليها هي تمييز حروف العربية التي شابه أحدها الآخر . ولم يمكن تمييز الحرف بالنقط غريبا عن ثقافات

(١) سوف نتعرض لهذه الناحية اللغوية بالبحث مطولاً في القسم الثالث من هذا المقال .

الشرق الأوسط ، فاللغة السريانية مثلا ، وقد تشابه في البدء بعض حروفها ، استعملت النقط بنجاح لتمييز حرف عن شبيهه (١) . وطبيعي أن يكون أول ماخطر لذهن العالم العربي آنذاك ، استعمال النقط لتمييز حروف العربية . وطبيعي أيضاً أن تكون هذه الطريقة وتطبيقها قد استغرقت أمداً من الزمن قبل استقرارها على حال نهائي ، يدلنا على ذلك :

أولاً : ان تمييز حرف الفاء عن القاف كان بنقطة فوق الأولى وأخرى مثلها تحت الثانية (ولا يزال هذا التقليد شائعاً في المغرب العربي حتى اليوم) ثم تطور فأصبح تمييز هذين الحرفين بنقطة فوق الفاء واثنتين فوق القاف .

ثانياً : ان حرف الشين ميّز أول الأمر عن السين بنقط ثلاث متوازية (أفقية لا هرمية كما هي الحال الآن) ، ويظهر أن هذا الحال قد أدّى إلى الخلط بين الشين وبين التاء والنون أو النون والتاء فنجم عن ذلك إبدال نقط الشين بالشكل الهرمي المعروف .

ثالثاً : ان نقط التاء المربوطة لم يصبح تقليداً مفعولاً به إلا بعد انصرام مدة من الزمن كتبت التاء المربوطة خلالها كالهاء .

أما هذه الطريقة في تمييز حروف العربية المتشابهة فقد عرفت منذ البدء بالإعجام أو التنقيط أو النقط (٢) . ويظهر أن النقط قد دخل العربية بالتدريج كما تدلنا على ذلك مخطوطات عربية قديمة . ولم يرق هذا التجديد في نظر

---

(١) انظر كتابنا لِنْغْويسْتِكْزْ إنْ ذي مِدْلْ آجْزْ : فونيتِكْ سْتَديزْ إنْ إرْلى إسْلامْ (لايدن ، ١٩٥٨) ص ١٣ .

(٢) انظر (كتاب النقط) للداني ، ص ١٣٢ — ١٣٣ ، وأيضاً (العِقد الفريد) ج ٣ ص ١٥٤ .

رجال العلم والدين والأدب فعارضوه معارضة شديدة ، واعتبروا استعماله في الخط حطاً من كرامة العلم والعلماء ، وأيضاً ، تجديداً مكروهاً في رسم المصحف الكريم (١) .

أما المشكلة الثانية فكانت مشكلة الحركات . وهذه العقبة اللغوية ، كسابقتها ، لم تكن غريبة عن ثقافات الشرق العربي القديم ، وقد اعترضت الكتابة السريانية فقررها علماء اللغة السريان باستعمال النقط وباستعارة الحركات من اللغة الإغريقية (٢) . أما العربية ، فلم تلجأ إلى الإستعارة بل عملت على خلق طريقة عربية أصيلة وفت بالحاجة . وإننا لنرى آثار تطور النقط والإعجام واضحة في الكثير من أوراق المصاحف القديمة ، حيث نجد نقطة واحدة فوق الحرف تقوم مقام الفتحة وتحته للكسرة وبجانبه للضمّة ، كما نجد الألف والواو والياء تعبّر عن حركات المدّ . وبعض هذه النقط التي نلاحظ وجودها خاصة في ما لدينا من أوراق مصاحف قديمة وضعت بألوان مختلفة لتمييزها عن سواها . وهكذا ، وبالتدريج ، وأبدعت الثقافة العربية الحركات الثلاث ، الفتحة والكسرة والضمّة (٣) .

وكما جرى الحال في نقط حروف العربية عارض رجال الثقافة العرب

---

(١) الاتقان للسيوطي ج ٢ ، ص ١٧١ ، حيث يذكر عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « جوّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء » ؛ وأيضاً (كشف الظنون) ج ٣ ، ص ١٥٥ .

(٢) كتابنا المذكور في الحاشية الأولى ، ص ١٤ ؛ وأيضاً ت . نولدكه : كومپَنْديوسْ سيرياكْ غرامَرْ (لندن ، ١٩٠٤) ، ص ٦ — ١٤ .

(٣) انظر كتاب النقط للداني ص ١٣٢ .

هذا التجديد معارضـــة قوية أدّت إلى تأخر استعماله بعض الوقت ، وإلى حين (١) .

وبالرغم من هذا كله ، بقي لفظ العربية معقداً بعض التعقيـد إذ لم يكن هنالك من الأشياء ما يمكن القـارىء من تمييز الحروف المدغمـة والمنوّنة والمهموزة ، ولم يكن من السهل تمييز هـذه الحروف في الـكلام المكتوب . وعليه فقد كان على علماء العربيـة إيجاد أشكال تفي بالغرض وتؤمن إجادة قراءة الكلام العربي المكتوب . ونجح علماؤنا في إيجاد الحلول المناسبة إذ قرروا إدخال نقطتين على الحرف إبانة للتنوين ، تطورتا تدريجيـاً فأصبحتا ما يعرف اليوم بالفتحتين والـكسرتين والضمتين . ثم ابتدع علماؤنا الأوائل السكون فالشدة فالهمزة كما فصّل ذلك الداني في كلامه عن الإدغام والإشمام والإمالة والإشباع والاختلاس (٢) ، وأبو داوود في « المصاحف » (٣) والسيرافي في « الأخبار » (٤) ، الخ .

الدكتور خليل سمعان
جامعة ولاية نيويورك في بنغمتن



(١) النقط ، ص ١٣٣ وكتاب المصاحف لابن أبي داوود ص ١٤١ ، والرسالة العذراء لابن المدبر ، ص ٢٥ ، والعقد الفريد ، ج ٣ ، ص ١٢ ، والاتقان للسيوطي ج ٢ ، ص ٢٧١ ، وكتابنا المذكور آنفاً ، ص ١٥ وحواشيها .

(٢) النقط ، ص ١٣٥ — ١٣٧ و ١٤٤ — ١٤٧ .

(٣) ص ١٤٤ — ١٤٧ وكتاب النقط ، ١٣٤ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٥٠ .

(٤) ص ١٦ وأيضاً كتاب النقط ، ص ١٣٣ والفهرست ، ص ٤٠ .

بين كاتب وشاعر

في التاريخ الأدبي مصادفاتٌ عجيبة ومفارقات غريبة توحي إليك بأن القدر يهيء أشخاصاً لأشخاص ، ويخلق أناساً من أجل أناس ، لخيرهم أو لشرهم ، هذا يكسب وذاك يخسر ، ولكن هذا الكسب وذاك الخسار ، كلاهما ، يظلان خالدَيْن في بطون الكتب ، باقيين في أثناء التاريخ على مر العصور والأيام

لقد وجد النابغة والنعمان ، وخلق جرير والفرزدق والأخطل ، وعرف الزمن أبا تمام والبحتري ، ورأينا المتنبي إلى جانب سيف الدولة ، لولا هذا لما عرف ذاك ، ولولا ذلك لكانت شهرة هذا أقصر أمداً وأخصر مدىً.

من هذه اللقاءات العجيبة في الفن والأدب اللقاء الذي جمع الشريف الرضي الشاعر الكبير ، وأبا إسحق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب الألمعي والمتفنن اللوذعي ، لقد جمعتهما صحبة خالدة ، ولاقت بينهما علاقة وشيجة من الفن في الشعر والنثر أوحت إليهما بالكثير من القصائد والمراسلات والعبارات التي ذهبت مذهب الأمثال ، يستشهد بها الناس ويرون فيها آثاراً عريقة الأصالة ، بعيدة الأثر في النثر والشعر العربيين .

أما الصابي ، فهو أبو إسحق الحرّانيّ (١) ، واسمه إبراهيم بن هلال الصابي ، ولد سنة ثلاثَ عشرة وثلاثمائة للهجرة وتوفي يوم الخميس ، لاثنتي عَشْرَةَ ليلة خلت من شوال سنة أربع وثمانين وثلاثمائة (٢) .

---

(١) بلدة بينها وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم (معجم البلدان — ياقوت) .

(٢) معجم الأدباء (الجزء الثاني ص ٢٠) .

وأسرة الصابي أسرة حفل التاريخ بذكرها لما عرف من رجالها الكثر الذين خدموا الأدب والعلم ، وكانوا من مذهب يعرف أهله بالصابئة أو الصابئين ، وصَبَأَ وصَبُؤَ ، صَبْأً وصُبُوءاً ، خرج من دين إلى آخر ، وصبأ فلان في دينه ، صار صابئاً ، وصبأ النجم ؛ خرج من مطلعه وظهر ، وصبأ فلان عليهم : طَلَعَ [1] .

والصابئة والصابئون ، يزعمون أنهم على ملة نوح ، ويعرفون في العراق باسم : الصُبَّة ، واحدهم : صابيْ . وما زال منهم جماعة حتى الآن . ويقال إن دينهم عبادة الكواكب ، ومذهبهم أن للعالم صانعاً حكيماً مقدساً عن سمات الحدثان وهم عاجزون عن الوصول إلى جلاله [2] .

كان الصابي في عصر بني بويه ، وقد عاش مدة القرن الرابع للهجرة ، وهو العصر الذي تكشفت عبقرية الأدب العربي والفكر الإسلامي ، وبلغ الشعر فيه أوجه ، كما وصل النثر فيه إلى المحل الأعلى ، وبحسبك أن تعلم بأن من رجال هذا العصر : المتنبي وابن العميد والصاحب بن عباد وأبو اسحق الصابي ، وعضد الدولة وسيف الدولة وأبو فراس الحمداني وغير هؤلاء كثيرون ممن حفلت كتب التاريخ بذكر مآثرهم وتدوين أخبارهم .

كان صديقاً لعز الدولة بختيار [3] بن معز الدولة بن بويه ، وقد أراد له هذا الصديق الحاكم كل خير وحاول أن يسلمه الوزارة لديه شريطة أن يعتنق الإسلام ، ولكن الصابيء امتنع من ذلك ، ويروي الصفدي أن

---

(١) معجم متن اللغة .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني .

(٣) بختيار : لفظ فارسي مركب من بخت وهو الحظ ويار بمعنى صاحب ، أي صاحب الحظ وكان هذا لقب عز الدولة .

عز الدولة بذل له ألف دينار على أن يأكل الفول فأبى ، لأن الصابئة تحرم أكل الفول .

وصفه مؤرخوه بالعفة وحسن المعاشرة ، ولكنه ، على مايبدو ، كان متعصباً لمذهبه لايهادن فيه ولا يداهن ، من ذلك رفضه للأعطيات والمناصب التي عرضت عليه حين اشترط عليه الإسلام أو مخالفته اعتقاد من معتقداته ومع ذلك فقد وصل إلى المراكز العليا في الدولة فقد عمل نائباً للوزير أبي محمد المهلبي في ديوان الإنشاء وأمور الوزارة (١) .

ولكن الأمور لم تسر على مايشتهي فقد اعترضت حياته مشاكل عديدة وصعاب كثيرة كادت أن تودي بحياته ، إذ كان العصر قد بلغ المرحلة الدنيا من الناحية السياسية ، وإن كان متقدماً ، كما أسلفنا ، من الناحية الأدبية والعلمية والثقافية ، وقد نَقَمَ عضد الدولة عليه أموراً لم تكن للصابىء يد فيها وأساء الظن به حين قدم بغداد ، وذلك بسبب بعض الرسائل التي كتبها عن الخليفة وعن عز الدولة بختيار ، فحبس من أجل ذلك ، ولكن الناس ، من المعجبين بالكاتب الأديب ، توسطوا لدى عضد الدولة وعرفوه مكانة الرجل وفضله ، وأوضحوا له عذر الموظف في وظيفته ، والعامل في عمله ، فاستجاب الوساطة ، ورضي بأن يخلي سبيله على أن يعمل كتاباً يضمنه أخبار بني بويه وتاريخهم ومآثرهم وهو الكتاب الذي أسماه « التاجي » (٢) .

ولكن الصابي لم يسلم من التعرض لخطر الموت حين صرح لأحد زائريه في السجن أنه غير راضٍ عن تأليف هذا الكتاب وأنه إنما حمل

(١) معجم الأدباء (جزء ٢) .

(٢) أخذ الاسم من : تاج الملة ، وهو من ألقاب عضد الدولة .

على تأليفه حملاً ، وربما كانت الكلمة التي نقلت إلى عضد الدولة ، ملفقة تلفيقاً ، أو مدسوسة دساً ، فان مثل الصابي ، وهو من عرف بفضله ورزانته وفهمه ، لايقدم على البوح برأيه والإدلاء بذات نفسه لكل زائر أو عابر ، فقد روت الأخبار أن أحد أصحابه زاره في السجن ، وكان الصابي متهماً في كتابة كتابه ، فسأله عما يعمله ، فقال : أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها ، ووصلت العبارة بنصها إلى عضد الدولة ، فأمر بإلقاء الصابي تحت أرجل الفيلة ، ولكن إخوان الرجل ، شفعوا إلى عضد الدولة في أمره ، ويروى أنهم قبلوا الأرض بين يديه (١) فرضي أن يبقيه حياً ، ولكنه أخذ أمواله ، وأبقاه بالسجن بضع سنين ، إلى أن أفرج عنه في أيام صمصام الدولة ابن عضد الدولة (٢) .

كان أبو أسحق يمثل الرجل « المحترم » هذه الأيام ، فقد كان الوزراء يقدرونه ويثقون بقدرته وعلمه وادبه ، كالوزير المهلبي وسيف الدولة وآل بويه والصاحب بن عباد .

ولا أدل على قيمة أبي أسحق الصابي الأدبية من هذه القصة يرويها عنه ابنه أبو عليّ المُحسّن بن إبراهيم بن هلال أن أبا أسحق قال : راسلت أبا الطيب المتنبي - رحمه الله — في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسطت بني وبينه رجلاً من وجوه التجار ، فقال له (٣) قل له : والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدحَ غيرك ، ولا أوجبَ علي في هذه البلاد واحدٌ من الحق ما أوجبتَ ، وإن أنا مدحتك ، تنكّر لك الوزير ، يعني — أبا محمد المهلّبي — وتغير عليك لأنني لم أمدحه ،

(١) معجم الأدباء (جزء ٢) .
(٢) المصدر السابق .
(٣) أي المتنبي .

فانْ كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمستَ ، وما أريد منك مالاً ، ولا عن شعري عوضاً ؛ قال والدي ، فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمتُ أنه قد نصح ، فلم أعاوده (١) .

ولكن أبرز حدث في حياة هذا الرجل يتلخص في الصداقة الأدبية التي كانت بينه وبين الشاعر الكبير الشريف الرضي ، والشريف هذا هو أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوي ، وقد كان شاعراً مرموقاً وشريفاً منظوراً ، ونقيباً للطالبيين في عهده كما كان أبوه نقيبـــاً ، وأخوه هو الشريف المرتضى صاحب الأمالي .

كانت الصداقة ، والعلاقة الأدبية بين الصابي والشريف ، موضع تساؤل واستفهام ، فالصابي رجل يدين بغير الإسلام ، وهو حرّاني الأصل بعيـد عن الوسط العربي في تفكيره وعقليته ، وإن كان يحترم رجال المسلمين ويسايرهم ، إذ كان يصوم شهر رمضان ، كما يقال ، ولو أنه لايؤمن بهذا الصيام ، ولكن الشريف رجل من آل البيت ، ومن بيت النبوة ، ونقابة الطالبيين لم تكن بالمكان الهيّن في مقامها ومحلها ، لأن هذه النقابة كانت تنافس الخلافة في نظر المسلمين ، وكانت الشيعة العلوية ترى في النقيب الطالبي ممثلاً للفكرة العلوية التي كانت ترمي في أهدافها البعيدة إلى استرداد الحق العلوي في الخلافة فإن العلويين كانوا وما زالوا يرون بأن سيدنا علياً هو أحق رجل بالخلافة بعد النبي ، لأسباب كثيرة لا مجال لسردها الآن ، وقد كانت نقابة هؤلاء الطالبين بالحق الضائع تمثل الحق الذي لايموت ، والأمل الذي لا يعبث به الزمن ، ولقد رأى الشريف الرضيّ الطالبين بالخلافة من أبناء عمومته يذهبون قتلاً أو تشريداً أو تعذيباً منذ الحسين إلى عبـد الله

(١) معجم الأدباء (جزء ٢) .

ابن الحسن ، إلى زيد بن علي وغيرهم لأنهم أقدموا على الطالبة بالحق الطالبي علناً وصراحة ، ولأنهم لجأوا إلى القتال بـدلا من السعي إلى غايتهم عن طريق السياسة وتكثير الأعوان ، والتقرب من الناس ، وخاصـــة الأدباء وأصحاب المواهب والناقمين على الدولة العباسية .

ولقد أخذ الشريف الرضي يلمح إلى حقه شعراً وحديثاً ، ثم اشتد صراحة وتعريضاً حين رأى قيام الدولة الفاطمية في مصـــر ، ويروى أن الخليفة — وهو القادر بالله يومئذ — قد استدعاه اليه وسأله عن معنى قوله حين افتخر بالخليفة العلوي في مصر ، ويُروى أن الشريف أنكر هذا القول ، وإن كان الأسلوب الشعري يدل عليه دلالة واضحة ، وهذه الأبيات من قصيدة يقول فيها :

كم مقامي على الهوان وعندي مقول صـــارم وانف حميُّ
وإباء محلق بي عن الضيـــم كما راع طائر وحشيُّ
أي عذر له إلى المجد إن ذلَّ غلام في غمـده مشرفي
ألبسَ الذلَّ في ديار الأعادي وبمصر الخليفة العلويُّ
من أبوه أبي ، ومولاه مولاي اذا ضامني البعيد القصيُّ
لفَّ عرقي بعرقه سيدا النا س جميعاً محمـد وعليُّ

إنها مطالبة صريحة بالحق الطالبي ، واستنجاد صارخ بالخليفة الفاطمي العلوي في مصر واعتراف بتحمل الضيم في ظل الخليفة العباسي ، وألم نفسي من هؤلاء البويهيين الديلم ممن استولوا على الخلافة وأعمالهـا ، واضطلعوا بشئونها رغم الإرادة العربية هاتيك الأيام .

كان الشريف إذن يلجأ إلى الصراحة في طلب حقه بأن يكون خليفة ، لأنه من أولاد علي بن أبي طالب صاحب الحق الأول ، ولقـــد غرر به شعره مرة فعرض نفسه لخطر محقق يوم خاطب الخليفة العباسي القادر بالله

بهذه الأبيات الصريحة التي تجعل من الشريف منافساً قوياً ونداً علوياً لا يسكت عن حق ولا يهادن في طلب .

عطفاً أمير المؤمنين فاننا   في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت   أبداً كلانا في المعالي معرق
إلاّ الخلافة ، ميزتك فانني   أنا عاطل منها وأنت مطوّق

لقد قامت الخلافة العباسية على الفكرة العلوية ، فالطالبيون هم أساس الدعوة التي استند اليها أبو مسلم الخرساني وابراهيم الإمام وأبو عبد الله السفاح ، ولكن المادة محكمة ، كما يقول الفقه ، فإن العباسيين حين وصلوا إلى الخلافة استأثروا به ونسوا أبناء عمومتهم وشركاءهم في الدعوة إلى الحق الهاشمي ضد الأمويين — بل لقد صار الطالبيون الأعداء الألداء للعباسين وخاصة في زمن أبي جعفر المنصور وهارون الرشيد .

ولكن العلويين لم ينسوا حقهم هذا ، وظلوا يطالبون به إلى أن سكنت ريحهم وذهبت الخلافة الاسلامية عنهم وعن خصومهم الهاشميين إلى الأتراك والديلم والسلاجقة وغيرهم ، ممن تسلقوا إلى الحكم عن طريق هذه الفكرة الهاشمية ، ثم نسوا أهلها حين وصلوا إلي غايتهم .

لذلك لجأ الشريف الرضى إلى الطريقة المعقولة ، لجأ إلى الأصحاب وأكثر من الدعاية ، والأدباء من الكتاب والشعراء هم أولى الناس بأن يتقرب إليهم صاحب الهدف السياسي ، لأن هؤلاء هم وسيلة الدعاية الأولى هاتيك الأيام .

ولقد لام أناس الشريف الرضي يوم رثى الصابي ، فما يحق لرجل مسلم

شريف ونقيب للأشراف أن يبكي رجلاً غير مسلم ، ولكن الشريف أجاب اللائمين بقوله : إني رثيت علمه وفضله (١) .

وقد اتهم المؤرخون الشريف الرضي بأنه انما سمح لنفسه برثاء الصابي لأنه كان يطمح إلى الخلافة وأن الصابي كان يرشحه لها — وأنه كان من أكبر أعوانه (٢) .

ولا بد من الوقوف قليلاً قبل الاقتناع بهـذا الرأي ، لأن الصابي لم يكن في ذلك الزمن إلا شخصاً ينتمي للعلم والفضل الأدبي ، فلم يكن له أنصار ولا قوم ، لقد قضى ردحاً من حياته يتنقل بين الاضطهاد ، والسجن واستصفاء الأموال ، وليت شعري ما عسى أن يستطيعه رجل مثل هـذا لا يأمن على نفسه غائلة الظلم ولا عادية الاضطهاد ، أمثل هـذا يمكن أن يعتمد عليـه الشريف الرضي في أكبر مطمح يخطر على بال عربي هاتيك الأيام وهو الخلافة الإسلامية .

الذي اعتقده أن الشريف لم يعتمد على الصابي في سعيه للخلافة ، بل اتخذ الرجل الأدب وسيلة للدعاية ، بدلاً من أن يكون وسيلة للمعارضة ، وأرجح أن العلاقة بين الرجلين الأديبين لم تتعد الحدود الأدبية إلا قليلاً — ولهذا فقد كان الشريف صادقاً في رثائه متفجعاً في بكائه ، ولعلك تحس صدق العاطفة وأثر الحزن في قوله :

يا ليت أني ما اقتنيتك صاحباً ... كم قنية جلبت أسى لفؤادي

ويرجح لدينا قوة هذه العلاقة الأدبية قوله :

الفضل ناسب بيننا إذ لم يكن ... شرفي مناسبه ولا ميلادي

إن لا تكن من أسرتي وعشيرتي ... فلأنت أعلقهم يداً بودادي

(١) معجم الأدباء .

(٢) معجم الأدباء (جزء ٢ الصفحة ٢٦ رفاعي) .

تلك الصداقة ، ما نظن إلا أنها بريئة ، وإن شابها الزمن بشوب من السياسة لم يكن منه بد في ذلك الزمن فلم تزل صداقـــة الأدباء أقوى الصداقات كما قال أبو تمام قبل الشريف :

إن يختلف نسب يؤلف بيننـا   أدب أقمناه مقـــام الوالد

ولقد عرف الشريف بالوفاء لإخوانه والإخلاص لأخدانه من الأدباء والشعراء ، ويكفي تأييداً لهذه الفكرة ، أن تعلم عطفه وحدبه على مهيار الديلمي ، تلميذه وربيبه ، فلولا أدب مهيار وموهبته الفنية لما كانت علاقته بالشريف متسمة بهذه القوة التي ذهبت مضرب الأمثال .

لقد كان الزمن الذي عاش فيه الأديبان الكبيران — الصابي والشريف — زمن اضطراب في السياسة والمفهوم الأخلاقي بحيث تغيرت الأفكار وساءت الظنون . ومن هنا جاء هذا الرأي الذي لم يستطع قبول الصداقـة البريئة حتى رماها بالقصد المادي والغاية الدنيوية . وإن رجلاً مثل الشريف ، في أخلاقه وفنه وثقافته وكرم محتده ، لأبعـــد ما يكون عن سوء القصد وزيغ النية .

أحمد الجندي



الـكلمات التركية

في اللهجات العربية الحديثة

لما ذهبت إلى القاهرة في سنة ١٩٦٤ واستمعت إلى لهجتها شد انتباهي بعض الكلمات فيها مثل سادة ، وطازه ، وخانه وبقشيش وبهلوان وترزي وجنزير ، وعشرات أخرى من هذا القبيل شدت هذه الكلمات انتباهي لأنني استعمل الكلمات نفسها في لغتي — الأردية — وتفيد نفس المعاني أو معاني متقاربة — فما سر وجود هذه الكلمات في هاتين اللغتين : اللغة الأردية وبعض اللهجات العربية الحديثة . لم تدم دهشتي طويلاً فبعد بحث يسير تبين لي أن هذه الكلمات فارسية الأصل دخلت اللغة الأردية مباشرة بينما دخلت اللهجات العربية الحديثة عن طريق التركية والمعروف أن اللغة التركية غنية بالكلمات الفارسية . فلما تأثرت اللهجات العربية الحديثة باللغة التركية . وأخذت بعض كلماتها كانت من ضمنها هذه الكلمات الفارسية « المتركة » .

لقد دفعني حبي لدراسة الكلمات وتاريخها إلى جمع هذه الكلمات الفارسية ثم توسعت وجمعت الكلمات التركية المستعملة في اللهجة المصرية بغض النظر عن أصلها . ولما اتسع المامي بلهجات عربية أخرى أضفت إلى هذه الكلمات كلمات أخرى تركية تستعمل في بعض اللهجات العربية الأخرى مثل اللهجات السودانية والأردنية واللبنانية .

لقد دخلت اللهجات العربية الحديثة — لاسيما اللهجة المصرية — مئات من الألفاظ التركية طوال حكم المماليك والأتراك غير أن معظم هذه الكلمات

انقرضت وما بقي منها إلا قدر يسير — ولقد استقر بعض هذه الكلمات في اللغة العربية وارتقى عن مستوى الكلام العامي إلى مستوى اللغة الأدبية مثل بشرف وبصمه ، وبوغاز وجمرك وطابور وطاقم وقنبلة ونيشان . ومن ثم اكتسبت دراسة هذه الكلمات نوعاً من الأهمية والخطورة .

إني أذكر الكلمات التركية المعربة وأشرحها وإذا كانت الكلمة مستعملة في لهجة غير لهجة مصر فإني أشير إلى ذلك ثم آتي بأصلها التركي مكتوباً بالحروف اللاتينية وفيما يلي بيان نطق بعض الحروف ولها نطق يخالف مثيلاتها في اللغات الأوربية .



تكتب اللغة التركية الحديثة بالحروف اللاتينية ، وتنطق معظم هـــذه الحروف كما تنطق في اللغة الانجليزية . أما الحروف التي يختلف نطقهـا فسنذكرها فيما يلي ونشرح نطقها :

C	ينطق مثل j في اللفظ الانجليزي Jam , Judge
ç	ينطق مثل ch في اللفظ الانجليزى Church
ğ	هذا الحرف في الغالب يطول الحركة السابقة .
j	ينطق مثل j في اللغة الفرنسية .
ş	ينطق مثل الشين العربية .
I (بدون نقطة)	صوت الضمة بدون تدوير الشفتين .
ö	صوت e مع تدوير الشفتين .
ü	صوت i مع تدوير الشفتين .
u	صوت u كما في Put في الانجليزية .



« أ »

أبلة : كلمة تخاطب بها امرأة صغيرة السن من غير الأقارب
تركي Abla الأخت الكبيرة .

أجزجى : الصيدلي
تركي Eczaci

أجزخانه : الصيدلية
تركي Eczahane ، Eczàne واللفظ مركب من الكلمة العربية « أجزاء » التي تفيد معنى الأدوية بالتركية ، والكلمة الفارسية « خانه » بمعنى البيت أو الدار .

ادبخانه : المرحاض
لا يوجد هذا اللفظ في التركية الحديثة ، وهو مركب من الكلمة العربية « أدب » والكلمة الفارسية « خانه » بمعنى الدار .

اشكره خبر : على المكشوف ، كما في قولهم : فعل كذا أشكره خبر .
لقد انقرض هذا اللفظ في اللهجة المصرية ولكنه لا يزال يستعمل في اللهجة الأردنية .
تركي Aşikâre : علناً ، واضحاً ، واللفظ فارسي الأصل : آشكار .

أفندم : كلمة مفادها (١) (لبيك) (٢) أعد ما قلت من فضلك .
تركي Efendim .

أفندى : لقب كالسيد ؛ المثقف ثقافة غربية والمتزيي بالزي الأوربي .
تركي Efendi ؛ واللفظ يوناني الأصل .

الاى : فرقة كبيرة من العسكر ،
تركي Alay .

انجليز : جيل من الناس يقطنون انجلترا .
تركي Ingiliz من الإيطالية Inglese .

أوروبا : القارة المعروفة .
تركي Avrupa من الإيطالية Europa .

أورطه : وحدة من ألف جندي .
تركي Ordu : الجيش ، المعسكر ، والجدير بالذكر أن من هذا اللفظ جاءت كلمة « أردو » وهي اسم إحدى اللغات الهندية وسميت بهذا الاسم لأنها نشأت في المعسكر ، كما جاءت من هذا اللفظ الكلمة الانجليزية Horde بمعنى القبيلة المتنقلة .

اورمان : اسم حديقة في القاهرة .
تركي Orman : الغابة .

أورنيك : الاستمارة ، وجمعه أرانيك . يكثر استعمال هذا اللفظ في السودان .
تركي Örnek العينة ، النموذج .

أوسطى : صاحب صنعة ، ميكانيكي ، سواق السيارة .
تركي : Usta .

اوضه : الحجرة ، جمعها أوَض .
تركي Oda .

أونباشي : رتبة في الجيش والشرطة . ويكتب أيضاً « امباشي » ويجمع على اونباشية .
تركي Onbaşi وأصل معنى الكلمة قائد العشرة وهو مركب من On أي العشرة Baş أي الرئيس(١) .

---

(١) الياء في لفظ « باشى » ضمير الاضافة فاصل معناه : رئيسهم . يقول الأتراك : العشرة رئيسهم بمعنى رئيس العشرة . وهكذا في بكباشى ويوزباشى وحكيمباشى .

« ب »

باش : الرئيس كما في باشكاتب أي رئيس الكتبة ، وباشمهندس أي رئيس المهندسين .
تركي Baş الرأس ، الرئيس .

باشا : لقب شرف تركي .
تركي Paşa .

باشتخته : مكتبه ، سبوره .
تركي Paştahta من الفارسية : پيش تخته ، پيش معناه إمام وتخته معناه لوحة من الخشب ، والجدير بالذكر أن « باش » في هذا اللفظ محرف من پيش ولا صلة له بباش بمعنى الرأس .

باميا : الخضار المعروف .
تركي Bamya .

بخشونجى : مدير الحديقة .
تركي Bahçivan والكاسعة ci .

بدروم : الطابق السفلي من الدار . ويقال له أيضاً « بدرون » .
تركي Bodrum وأصل معناه السرداب .

برتقال : فاكهة معروفة .
تركي Portakal من الإيطالية Portogalle أصل معناه البرتقال .

برجل : أداة من أدوات الرسم الهندسي .
تركي Pergel .

برضه : أيضاً ، مع ذلك .
تركي Pirde . يظن بعض الناس أن الهاء في برضه ضمير الغائب ، ويستبدلونها بالكاف عند الخطاب فيقولون : انت برضك .

برطمان : وعاء من زجاج . ويقال له أيضاً مرطبان وهو الأصل .
فارسي مرتبان .

برنجي : الأول وهو من المصطلحات العسكرية ، واسم سيجارة في السودان .
تركي Birinci الأول .

برواز : الاطار .
تركي Pervaz .

بروجي : من ينفخ في البوق (مصطلح عسكري) .
تركي Boru البوق والكاسعة ci .

بزونج : القواد ، (يستعمل هذا اللفظ في اللهجة الأردنية) .
تركي Pezevenk .

بسطرمه : لحم مملح مجفف .
تركي Pastarma .

بشتى : من يتصل به جنسياً من الرجال (في اللهجة السودانية) .
تركي Puşt .

بشرف : مقدمة اللحن في الموسيقى .
تركي Peşrev من الفارسية وهو مركب من « پيش » أي أمام
و « رو » أي الذاهب يعني المتقدم أو القدمة .

بصمة : خطوط الأصابع .
تركي Basma الختم .

بقسماط : نوع من البسكويت الصلب .
تركي Peksimet .

بقشيش : ما يعطى من نقد لخدم الفنادق والمطاعم وغيرهم .
تركي Bahşiş من الفارسية بخشش أي العطاء والجدير بالذكر أن في هذه الكلمة المعربة أبدلت الخاء قافاً وهذا شاذ .

بك : لقب تركي . وينطق « بيه » ويجمع على بهوات .
تركي Bey .

بقجه : الصرة .
تركي Bokça .

بكباشي : رتبة عسكرية وينطق بمباشي .
تركي Binbaşi وأصل معناه قائد الألف ، وهو مركب من Bin أي الألف و Baş أي الرئيس .

بلكه : يمكن ، لعل . يكثر استعمال هذه الكلمة في اللهجتين الأردنية والفلسطينية .
تركي Belki من الفارسية وهو مركب من « بل » العربية و « كه » الفارسية .

بلطجي : الحارس المسلح بالفأس ويطلق مجازاً على رجل مستبد متشدد .
تركي Baltaci .

بلطة : الفأس .
تركي Balta .

بلوك : فوج أو جماعة (مصطلح عسكري) .
تركي Bölük .

بلياتشو : المهرج .
تركي Balyaço .

بمبه : القنبلة ، نوع من اللعبة المفرقعة .
تركي Bomba من الايطالية .

بنج : خمسة في لعبه الطاولة . بنج وسه : خمسه وثلاثة .
فارسي پنج .
بنجر : خضار معروف .
تركي Pancar .
بهار : التوابل .
تركي Bahar .
بهريز : نوع من الشوربه .
تركي Perhiz ، Pehriz الامتناع ، الحمية ، من الفارسية .
بهلوان : اللاعب على الحبل ومنه أيضاً « الفهلوة » .
تركي Pehlivan : الملاكم ، البطل ، من الفارسية .
بوظة : في اللهجتين السورية واللبنانية الآئس كريم ، وفي اللهجة المصرية نوع من الشراب المسكر .
تركي Buz الجليد .
بوغاز : المضيق .
تركي Boğaz .
بوية : الدهان . وفي اللهجة السودانية بوهيه .
تركي Boya .
بياده : المشاة .
تركي Piyade من الفارسية پياده ، وقديماً عرب هذا اللفظ الفارسي « بياذق » واشتق منه بيذق ظناً أن بياذق جمع .
بيره : شراب معروف .
تركي Bira من الإيطالية .
بيش : خمسة في لعبة الطاولة .
تركي Beş .

(يتبع) السودان : ف . عبد الرحيم

التعريف والنقد

أمراء البيان

أعادوا طبع كتاب: أمراء البيان، للأستاذ الرئيس محمد كرد علي، أدخله الله في واسع رحمته، ولقد أعيد طبع هذا الكتاب النفيس في وقت ترامت فيه الشقة بيننا وبين البلغاء من كتّابنا المتقدمين واشتدت فيه الحاجة إلى الاقتباس من خالد بيانهم، فنحن نعيش في عصر تكاد الصلة بيننا وبين أدبنا القديم تكون منقطعة الأواصر، لقد انقلب عالمنا كلّ منقلب، أدبه وثقافته، ودخلت علينا مذاهب حديثة في كل أفق من آفاق الحياة حتى كاد بياننا يعجز عن الإفصاح عن هذا المنقلب العظيم، على أن المتقدمين من بلغاء كتّابنا وكبار علمائنا لم يضعفوا عن تمثيل الانقلاب الذي وقع في عصرهم في كل ناحية من نواحي الحياة، فقد استطاعوا أن يجدوا لغة وأسلوباً لكل ماجرى في أيّامهم، أما نحن فقد ظهر عجزنا في هذا الأمر حتى كاد بياننا ينفصل عن بيان المتقدمين ولذلك نجد الحاجة ماسّة إلى تذكيرنا ببلاغة أولئك الأئمة والغرف من بحرها، وهذا مايحملنا على أن ننظر إلى كتاب: أمراء البيان نظرة خاصة، ونشكر للذي ألّفه والذين أعادوا طبعه.

طبع الكتاب مرتين وأعيد طبعه هذه السنة، وقد صدّر الدكتور سامي الدهّان، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الجديدة بمقدمة بليغة لم يبخس فيها الأستاذ الرئيس حقّه كما لم يبخس كتاب أمراء البيان حقّه، لقد أنزل في مقدمته الأستاذ الرئيس المنزلة الرفيعة التي تليق بمقامه كما أنزل

الكتاب نفسه المنزلة السامية التي يستحقها ، كل هذا في بيان يدلّ على ذوق خالص وبراعة فائقة .

أما الأستاذ الرئيس فان هذه السطور عاجزة عن أن تعطيه حقه أو تصوّر مقامه الجليل في فهم الأدب وقدره حق قدره ، لقد فصّل الكلام في مقدمته على بيان العرب أبلغ تفصيل ، فلم يغفل عن شيء من خصائص الأدب في عصوره بأجمعها ، كما لم يغفل عن شيء من تصوير الأطوار التي تقلّب فيها هذا الأدب ، وكما ظهرت بلاغته في المقدمة فكذلك ظهرت هذه البلاغة في الكلام على كل إمام من أئمة البيان مثل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن هارون وابن مسعدة وابن يوسف الكاتب والصولي والزيات والجاحظ والتوحيدي وابن العميد .

من هذه الطبقة الرفيعة من رجال البلاغة ندرك مقادير هذا النثر الذي انتخبت منه نماذج في كتاب : أمراء البيان ، فاذا كنّا نقدّس هذا النثر فلا يرجع تقديسنا إلى مجرّد الإعجاب ولكنّا نشعر بتقصيرنا عن طبقته وبالجد في ذوق محاسنة حتى نصل إلى درجته على الأقل ، هذا إذا كنّا لا نستطيع أن نجاوز هذه الدرجة .

لقد استطاع الأستاذ الرئيس محمد كرد علي أن يبلغ الدرجة الرفيعة من بلاغة المتقدمين ، فما علينا أن نضمّ اسمه الكريم الى أسماء أمراء البيان .

شفيق جبري



حكاية الأيام الثلاثة

لا نرى الدكتور عمر النص غريباً عن فنّ الرواية ، لقد ظهرت قدرته على هذا النوع من الأدب في روايته الأولى : شهريار ، التي كانت جذّابة من أولها إلى آخرها ، وإذا كان من شروط الرواية محاسن اللغة ، فلغة الدكتور عمر النص لاتفتقر إلى هذه المحاسن ، ويكاد يكون شرط هذا الحسن أبرز شروط الرواية ، ولمّا أثنى « أنا تول فرانس » على « موپاسان » في أحد كتبه الأدبية كانت مسألة اللغة مظهراً من مظاهر هذا الثناء .

وقد يضاف إلى إتقان اللغة في الرواية إتقان الحوار ، فالحوار إنما هو روح الرواية على ما أعتقد ، ولقد نشاهد براعة الحوار ومحاسن اللغة في رواية الدكتور عمر النص الثانية وهي : حكاية الأيّام الثلاثة ، فان أكثر الروايات في أدبنا لاتزال تحتاج الى أشياء كثيرة من قواعدها ، مثل سلامة اللغة وبساطة التعبير ودقة التحليل وحسن الحوار وماشا كل هذه الأمور .

إنّا نجد في رواية : حكاية الأيّام الثلاثة قوة في جذب القارىء إلى تتبع حوادثها ، فالقارىء لايكاد يفرغ من قراءة الفصل الأول من فصولها حتى يشتدّ به الميل إلى الاطلاع على الفصل الثاني .

لقد جرت حوادث حكاية الأيّام الثلاثة في مدينة « جالوق » سنة ١٤٠٢ الميلادية ، خلال غزو التتار لبلاد الشام ، ومن ذكر التتار وبلاد الشام نعرف روح موضوع الرواية ، لقـــد تجلّت البلاغة في وصف بطولة « جالوق » أي بطولة رجالها ومجدهم وضحاياهم ، ثم تجلّت هذه البلاغة في وصف إهمال المدينة وخضوع رجالها ونومهم عن الدفاع عنها ، وقد نجد في

أعمال « تيمورلنك » صورة لأعمال كل معتدٍ أثيم ، فكل كلمة من كلمات الرواية في وصف هذه الأعمال تعبّر عن حالة كل مغلوب على أمره في أي عصرٍ من العصور ولعلّ بلاغة الصبر على احتمال الأذى والإصرار على دفع هذا الأذى تتمثل في هذه الجملة : ولكن « جالوق » ستظل تضيء ... » هذه العبـــارة تتضمن الاشارة إلى كل مدينةٍ من المدن التي تحتمل الشر حيناً من الدهر ثم توطن النفس على دفع هذا الشرّ .

لسنا نبالغ إذا قلنا ان الدكتور عمر النص خلق للرواية وإتقانها ، وليس هذا بشيء قليل بالنسبة إلى عصرنا الذي استفاض فيه هـــذا النوع من الأدب .

ش . ج



اتجاهات النقد الحديث

للدكتور جميل صليبا

عهدُنا بأستاذنا الدكتور جميل صليبا أنه قد نذر نفسه للفلسفة فهو منذ قرابة أربعين عاماً ما انفك يعلّمها ، ويدرُس قديمها وحديثها ، ويحقق بعض ذخائرها وكنوزها ، ويضع معجماً لمفرداتها ، وينقل إلى العربية بعض روائعها الغربية ، بأسلوب عربي مشرق أصيل ، نبتت أصوله في « مكتب عنبر » ، واخضرت غصونه وفروعه مع طول مصاحبة كتب الأمهات . وهو حين علّم وحقق ألف ونقل ، المثال الذى يحتذى ، والأسوة التي تقتفى . فمن استمع إلى دروسه وهي في فجرها البكر ، رأى عليها مسحة من الأدب ظاهرة ، وطلاوة تنبع من حسن اختيار الألفاظ ، وضم الكلمة إلى أختها ، ومن حسن التوفيق في الجمل والتراكيب . وطلابه الأولون يذكرون أنه لم يعلمهم الفلسفة ليس غير ، ولم يلقنهم مذاهبها وفِرقَها ، شرقيها وغربيها ، وما حفلت به كتب القدامى والمحدثين من مناقشات ومساجلات وردود ليس غير ، وإنما أخذوا عنه كذلك أدباً ولغةً ، ولقد كان يؤكد لطلابه دوماً الصلة الوثقى بين الفلسفة والأدب فيقول : الأدب يتوّج الفلسفة ، ولهذا لم أعجب حينما أهدى إليّ كتابه الأدبي الأول عام ١٩٥٨ الذي سماه (الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث) ، ولم أسأل نفسي : ما لهذا الإخصائي في الفلسفة يغير على الأدب ، فيبحث عن تأثير الاتجاهات الفكرية فيه ؟ فلقد كان جميل صليبا دوماً فيلسوفاً أديباً ، وأديباً فيلسوفاً .

كذلك لم أعجب يوم أهدى إليّ كتابه الجديد (اتجاهات النقد الحديث في سورية وهو مجموع محاضراته التي ألقاها في هذا العام (١٩٦٩) على طلاب معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة ، قسم البحوث والدراسات الأدبية واللغوية ، التابع لجامعة الدول العربية . فالنقد من الأدب ، ولم نعرف في أدبنا العربي عصراً من العصور خلا من النقد ، منذ أن قام سوق عكاظ وجلس فيه مقدم من الشعراء ، حكماً بين الشعراء ، إلى يومنا هذا . فمن حق جميل صليبا الأديب الفيلسوف أن يبحث في النقد الحديث واتجاهاته في سورية ، ولا جناح عليه في أن يخوض ميدان الفن الذي يتوج اختصاصه .

قسم أستاذنا المؤلف كتابه إلى اثني عشر فصلاً وخاتمة .

فتناول في الفصل الأول ركود الأدب في سورية خلال العهد العثماني ، وحالة الأدب في سورية خلال الحكم العربي ثم خلال الانتداب الفرنسي ، ثم خلال عهد الاستقلال ، وعوامل الإنتاج الأدبي وتأثيرها في النقد ، والمحافظون والمجددون .

وتناول في الفصل الثاني : رواد النقد الأدبي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي الفصل الثالث : النقد اللغوي : المحافظون المتشددون ، وفي الفصل الرابع : المحافظون المتدلون ، وفي الفصل الخامس : طلائع التجديد في النقد ، وفي الفصل السادس : تحرير الأسلوب العربي من العيوب التي علقت به في عصور الانحطاط ، وفي الفصل السابع : الثورة على الأدب التقليدي ، تحطيم الأصنام ، وعقد في الفصل الثامن فصلاً سماه : من النقد البياني إلى النقد التحليلي ، وفي الفصل التاسع فصلاً سماه : بين النقد الذاتي والنقد الموضوعي ، وبحث في الفصل العاشر : نقد

أنواع الأدب ، وفي الفصل الحادي عشر : مذهب الالتزام ، وفي الفصل الثاني عشر : مذهبه في النقد . وأنهى الكتاب بالخاتمة .

ومن العسير أن نبحث في هذه الكلمة مضامين العناوين التي أوردناها فيما سبق ، فالكتاب يقع في (٢٦٦) صفحة من القطع المتوسط وحسبنا أن نلم ببعض المواضيع التي نرى أنها تستحق البحث ، لنعطي صورة قريبة من الوضوح عن هذا الأثر القيم الذي قدمه أستاذنا الدكتور صليبا إلى المكتبة العربية .

فالكتاب كما ترى من تعداد فصوله يغلب عليه الترتيب المنطقي ، فهو يتدرج منذ أوائل النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا ، وهو يبدأ بالمحافظين المتشددين ، وينتهي بالمتحررين وبالملتزمين ، وليس بدعاً في التأليف أن يأتي كتاب من علم المنطق أربعة عقود منطقيَّ الترتيب .

وعلى الرغم من أن أستاذنا قد غاص في الأدب والنقد واللغة فإنه لم يستطع التحرر في بعض مواضيع الكتاب من أسلوب الفلاسفة وتعابيرهم وألفاظهم ، فقد غلبت عليه أحياناً بشكل واضح ، كقوله (ص ٢٥١) :

« قيل ان بين النقد والعلم فرقاً كبيراً ، لأن العلم ينظر في الأشياء للكشف عن القوانين الطبيعية التي تضبطها ، والنقد ينظر في قيم هذه الأشياء . وإذا كان النقد مؤلفاً من أحكام إنشائية أو تقديرية تفاضل بين قيم الأشياء ، بحسب قربها من المثل العليا أو بعدها عنها ، فان العلم مؤلف من أحكام خبرية أو وجودية تعبر عما هو كائن بالفعل . وإذا علمت أن مايكتبه الكاتب أو يصوره الفنان أو يقوله العالم أو الفيلسوف يرجع في النهاية إلى أحكام خبرية أو إنشائية ، علمت أن حكم الناقد على قيمة هذه الأحكام كلها ليس حكماً بسيطاً ، وإنما هو حكم مركب أي حكم على حكم . »

فإذا كان النقد « حكماً على حكم » كما قرر أستاذنا المؤلف ، فان كتابه لم يخل من هذه القاعدة ، فكثيراً ما أصدر « حكماً على حكم » أو إن شئت « نقداً على نقد » . ولنضرب على ذلك مثالاً واحداً فهو من جهة شديد الإعجاب بالأستاذ الرئيس محمد كرد علي رحمه الله ، يقول عنه بمعرض الرد على أحمد شاكر الكرمي (ص ١٣٧ — ١٣٨) : « فمحمد كرد علي الذي تربع في دست الوظيفة لم تخمد شعلة مواهبه ، بل ترك الكتابة في الجريدة وانصرف إلى الكتابة العلمية والأدبية ، ونشر خطط الشام والإسلام والحضارة العربية ، وأقوالنا وأفعالنا ، وكنوز الأجداد ، والمذكرات وغيرها ، حتى صار — بما قبسه من الثقافة العربية والثقافة الغربية . قائد الحركة الأدبية في بلاد الشام ، ويعد أسلوبه الأدبي من الأساليب البليغة الواضحة في غير تصنع ولا إفراط » . إلا أن قائد الحركة الأدبية ليس في نجوة من نقد أستاذنا المؤلف كقوله عنه : « وبلغ من ضعف ملكته الموسيقية أنه كان يستعين ببعض أصدقائه على ضبط أوزان الأشعار التي يستشهد بها في مقالاته » .

ويشير أستاذنا المؤلف إلى نقد قائد الحركة الأدبية في بلاد الشام لكتاب قواعد التحديث الذي ألفه جمال الدين القاسمي (ص ١١٩) ، وينقل قوله في مؤلفه : « إنه ينقل عن مجلات غاضاً من ذكر أسمائها ترفعاً ، وأنه يقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب إلى آخره ، وأنه من العلماء المشهورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة في الجمع والنقل وأنه آخر من جرى على تلك الطريقة التي ضعفت فيها ملكة التأليف ، فاكتفى في أكثر تآليفه ببسط آراء غيره .... » ثم يشير إلى المساجلة التي جرت بين شكيب أرسلان ومحمد كرد علي حول هذا الموضوع ، ويعلق على رأي كرد علي بقوله (ص ١٢٢) :

« وإذا عدنا الآن إلى رأيه في طريقة النقل والجمع ، قلنا : انه لم يسلم هو نفسه من اتباع هذه الطريقة في بعض تآليفه ، فإن تراجم بعض الرجال الذين ذكرهم في كتاب كنوز الأجداد لا تختلف عن تراجم ابن خلكان والبيهقي والقفطي وابن أبي أصيبعة إلا قليلاً » .

ويتضح إنصاف أستاذنا المؤلف ، وغيرته على المجمع ، في رده على سامي الكيالي الذي اتهمه بأنه (ص ١٦٤) : « كان يضم الكثير من الأطباء ولكنهم كانوا يحاولون إنقاذه بطب إبن سينا لا بطب باستور ... ولم يستطع أن يخطو أي خطوة في تطوير الأدب » . فيقول : « وفي هذا القول حيدة عن الطريق ، لأن المجامع اللغوية لم تنشأ لتطوير الأدب ، بل أنشئت للحفاظ على سلامة اللغة ونقاوتها وتطوير ألفاظها حتى تصبح صالحة للتعبير عن حاجات العصر ... ويكفي المجمع العلمي شرفاً أن يعمل على صيانة اللغة ، وتطوير ألفاظها ، ونقد أساليبها ... » .

وفي فصل « الثورة على الأدب التقليدي — تحطيم الأصنام » الذي اتخذ له أنموذجاً ماتركه أحمد شاكر الكرمي ، يحلل الأسباب التي دعت إلى هذه الثورة « التي أرادت أن تطور الأدب ، وأن تنهض به ، وأن تبعث الحياة فيما ركد منه ، ولكن بشرط المحافظة على الفصحى ، وعلى اللغة وقواعدها ، « لأنها من أهم أركان الأدب » وتتبين نصرة أستاذنا المؤلف لهذه الثورة بما نقل من أقوال الكرمي ، وبالمقتطفات التي اختارها . مثال ذلك قول الكرمي (ص ١٤٦) :

« أول مايجب الشروع به لاحياء الآداب العربية هو القضاء على المعجمة الخبيثة ، واجتثاث أصولها ، وإقصاؤها عن الناشئين جهد المستطاع : لكي لا تعلق بأذهانهم فتفسد ملكاتهم . » .

وأحمد شاكر الكرمي يسمي الذي يهملون شأن اللغة بالمتمردين ، ويقول عنهم (ص ١٤٧) : تعصف في رؤوسهم عاصفة الطموح ، وتدب في عروقهم حمى الطمع في الشهرة وبعد الصيت ، فيندفعون إلى الكتابة دون تعلم قواعدها ، فيشوّهون وجه الأدب بالخبائث التي ينفثونها ، والجرائم التي يشونها . . » .

ولهذا فإن أستاذنا المؤلف يحكم على الكرمي هذا الحكم المنصف الجميل (ص ١٥١) :

« وإذا أضفنا إلى ذلك كل ماعرفناه من حماسته وإخلاصه وصدقه وعدالته أمكننا أن نقول أن ذلك النجم المتوقد كان لايزال في دور التكوين يوم أدركه الاحتراق » .

وكما يبدو أن أستاذنا المؤلف كان نصيراً لثورة الكرمي فانه يبدو أيضاً أنه كان رفيقاً بأصحاب المذهب الحر وبدعاة مذهب الالتزام ، وعلى الرغم من أنه قد عرض آراء الموافقين والمخالفين ، فان عرضه كان مجرداً ، ولم يصدر فيه « حكماً على حكم . » .

وليس هنا مجال بحث البدعة التي استحدثوها ، وزعموا أنها تحرير للشعر من الوزن والقافية ومن كل قواعد « عمود الشعر » التي أشار إليها الأقدمون ، منهم المرزوقي في مقدمة شرحه لحماسة أبي تمام . وإنما نكتفي بالإشارة إلى أن هذا المذهب إذا كتب له البقاء ، وهذا الحال ، فيمكن أن يكون كل شيء إلا الشعر .

وأما ماسموه « الالتزام » فهو أيضاً بدعة جديدة منكرة ، لايمكن أن تستقيم في أي زمان أو مكان .

لو عدت إلى أقوال أصحابها لوجدت فيها برقاً خلّباً ، وسراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماءً ، ذلك بأن نصرة الأماني الوطنية ، والتحدث عن المآسي الاجتماعية ، والنكبات القومية ، أمور قد التزمها الشعراء والأدباء في سورية ، في جميع العصور ، وفي العصر الحديث خاصة ، من غير إلتزام وإنما دفعهم إليها شعور قومي عميق صادق ، وحس دافق يتألم لأرزاء المجتمع ، وجراح نازفة لما حل بأرض الوطن من النكبات . ولا أدل على ذلك من مجموعة القصائد التي قيلت في الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ — ١٩٢٧) التي جمعها الأستاذ محب الدين الخطيب في كتاب سماه « ديوان الثورة » . هذا الديوان لم يوح به مذهب سياسي معين ، ولا أملاه تسخير لقرائح الشعراء ، ولم يستلهم أصحابه قصائدهم إلا من وحي وجداناتهم . ولا ريب عندي في أن الذين يتحدثون عن « الالتزام » إنما ينظرون من وراء الأفق إلى ردة « باسترناك » فيما زعموا .

وخلاصة القول فإن الكتاب الذي بين أيدينا يمكن أن يوصف بأنه جديد في موضوعه وفي أسلوبه ، وهو من خير الدراسات الملهمة الرصينة التي ينبغي أن يحرص عليها المتأدبون الناشئون ، وأن تزين بها مكتبات العلماء والأدباء والنقاد .

ضهور الشوير (لبنان) ظافر القاسمي



دراسات في فقه اللغة

تأليف الدكتور صبحي الصالح

طبعة دار العلم للملايين في بيروت سنة ١٩٦٨ (الطبعة الثالثة)

الأستاذ الدكتور صبحي الصالح علم من أعلام التأليف في دنيا العرب. عرفناه أول ما عرفناه في كتابه (مباحث في علوم القرآن) الذي أصدره سنة ١٩٥٨، ثم في كتابه (علوم الحديث ومصطلحه) الذي أصدره سنة ١٩٥٩، ثم في كتابه (دراسات في فقه اللغة) الذي أصدره سنة ١٩٦٠. وقد صدرت هذه الكتب جميعاً أول مرة في دمشق حين كان المؤلف أستاذاً في كلية الآداب بجامعتها.

وسرعان ما عرفت هذه الكتب، ولقيت عناية فائقة من الدارسين والباحثين، كما طارت شهرتها بين طلبة الجامعات العربية خاصة. ثم تتابعت طبعاتها لذلك، حتى صدرت الطبعة الثالثة من كتاب (دراسات في فقه اللغة) في السنة الماضية منقحاً، ومزيداً فيه بحثان جديدان كما يقول المؤلف[1].

وهذا الكتاب الأخير هو الذي يعنينا في هذه الكلمة العجلى. وهو كتاب قيم قويم، أقامه المؤلف على أصول الدروس التي كان يلقيها على طلابه في كلية الآداب بجامعة دمشق.

أجاد الدكتور صبحي تأليف هذا الكتاب وتبويبه، وأحسن فيه دراسة كثير من خصائص العربية ومسائلها وقضاياها التي تدارسها علماؤنا في القديم والحديث، مثل مسألة اللهجات العربية القديمة وأثرها في تكوين العربية

(١) انظر مقدمة المؤلف للطبعة الثالثة ص ٥ — ٦.

الفصحى ، ونقل اللغة وتدوينها ، ومثل ظاهرة الإعراب ، ومسألة الاشتقاق وأنواعه المختلفة ، ومسألة الدخيل وتعريب الألفاظ الأجنبية ، ثم المشكلات التي تواجهها العربية في العصر الحديث ولا سيما مشكلة المصطلحات العلمية ، وغيرها من قضايا العربية .

وكلها قضايا معروفة ، بحث فيها العلماء من العرب والمستشرقين ، وأبدؤوا فيها القول وأعادوا في أبحاث ومقـــالات متفرقة في كتب وصحف دورية كثيرة . ولكننا لم نرها مرتبة مجموعة معروضة معاً بين دفتي كتاب قبل أن يصدر الدكتور صبحي كتابه هذا . فهو لذلك يعد فريداً ، لا صنو له في بابه . وهذا إلى بيان عربي أصيل جميل ، ولغة صحيحة فصيحـة ، طبع عليها الدكتور صبحي ، فتجلت في كتبه جميعاً . ومن وراء هذا البيان الجميل واللغة الفصيحة حماسة ظاهرة للغة الضاد ، وإشادة دائمة بأصالتها وعبقريتها في القديم والحديث . ومنشأ هذه الحماسة حب للعربيـــة خالص ، يتملك نفس الدكتور صبحي ، ويجعله دائماً راضياً عمن يحب ، مستحسناً لأحواله جميعاً . وهو على حق لا ينكر ولا يدفع في حبه الكريم هذا ، والموقف النبيل الذي يؤدي إليه . ولقد أوتينا مثله حظاً وافراً من هذا الحب ملأ ليالي عمرنا ، واستنفد منا طاقة الشباب الغالي .

ولا يمكننا هنا أن نوفي القول في هذا الكتاب القيم . وغايتنا القصوى هو التعريف به والإشارة إلى قيمته وحسب . وقيمة الكتاب الأساسية كائنة ، كما نرى ، في براعة المؤلف في رسم المعالم الكبرى في طريق الباحثين في كثير من قضايا العربية التي ذكرنا طرفاً منها آنفاً ، مثل قوله في كلامـه على قضية اللهجات العربية القديمة : « هذه خلاصة الفوارق الرئيسة بين لهجتي تميم والحجـــاز ، رأينا من خلال عرضها أننا من تميم أمام لهجة

خاصة قائمة بذاتها ، لها خصائصها ومميزاتها . وعسى أن نكون قد استنتجنا من معرفتنا لذلك أن لهجة تميم قد أمدت العربية الفصحى بروافد غنية غزيرة ، ساعدت على استقرار نحوها وصرفها ، وسعة اشتقاقها ، وبعد دلالاتها ، وانبساط مدرجها الصوتي ، وحياة عدد كبير من مفرداتها . فإذا أردنا أن ننتقل إلى دراسة خصائص العربية ومميزاتها كان لزاماً علينا أن نفهم لدى أول خطوة نخطوها حتى آخر نتيجة نعطيها أن تميماً تشارك قريشاً بنصيب كبير من هذه الخصائص ، وأن إغفال دور تميم في هذا إنما هو تهاون بجزء لا يتجزأ من لغتنا العربية الفصحى[1] » .

وهذا حق مبين ، وهو أيضاً تخطيط وجيز دقيق لدراسة لهجة تميم ، وبيان أثرها في تكوين العربية الفصحى . ومثل هذا كثير في الكتاب .

ولنا بعد كلمة أخيرة نحب إسماعها ، وهي أن المؤلف الكريم قد صرف أكبر همه إلى بعض قضايا العربية دون بعضها . فقد أولى الاشتقاق وأنواعه مثلاً عناية خاصة ، وبذل في بحثها جهداً جاهداً ، على حين مرّ مرّاً سريعاً بقضايا أخرى مثل مسألة الترادف ، والمشترك في اللفظ ، أو ما اتفق لفظه واختلف معناه كما يسميه القدماء ، ومثل مسألة الأضداد . وهي كلها لا تقل أهمية عن مسألة الاشتقاق ، بل تفوق في أهميتها مسألة مناسبة حروف العربية لمعانيها من مباحث الكتاب . وهي في الدراسات اللغوية أقرب إلى مسائل ما وراء الطبيعة في الدراسات الفلسفية .

ونحن في انتظار مزيد من الخير من الدكتور صبحي ، وهو أهل لذلك . قوّاه الله ولقّاه برّاً .

الدكتور عزة حسن



(١) انظر ص ١٠٣ — ١٠٤ من الكتاب .

المـــــورد

قاموس انكليزي عربي

تأليف منير البعلبكي

كتب منير البعلبكي في صدر مقدّمته لمعجمه المورد(١) أن مؤلَّفه كان ثمرة عمل متواصل طوال سبع سنوات أنفقها في تأليفه وطبعه ، وجاء في ثبت المراجع التي اعتُمدت في تأليف هذا المعجم أن معجم وَبْستر الجامعي السابع المطبوع في الولايات المتحدة الأميركية في عام ١٩٦٥ كان في جملة هذه المراجع . وقد تصفحت معجم وبستر المنوه عنه ، وأنا أتصفح هـذا المعجم في كل يوم تقريباً منـذ صدوره ، فاذا بأصحابه يدوّنون على غلافه أنه نتيجة خبرة تنيف مدتها على القرن . أفلا يحق لنا إذن أن نأخذ من ذلك أن معجم البعلبكي الذي هو وليد معجم وبستر أشهر معاجم العـالم الأنكلو أميركي على الإطلاق ، إنما هو ثمرة عمـــل وجهد وخبرة يزيد أمدها على قرن كامل .

وكم كان إعجابي شديداً بقاموس المورد ، وبرسوخ قدم صاحبـه في اللغتين العربية والإنكليزية لدى قراءتي مقدمة القاموس التي سماهـا المؤلف تصديراً . وكنت قرأت فيما سبق لأحد الكتبة المتأخرين مقالاً كتبـه عن اللغوي والمحقق المشهور الشيخ إبراهيم اليازجي ، فقد قال هذا الكاتب في معرض وصفـه لشرح ديوان المتنبي الذي وضَعَهُ اليـازجي ، وللدراسة المستفيضة التي كتبها اليازجي عن المتنبي وجعلها ذيلا لشرح الديوان « لو لم

(١) صدر هذا المعجم عن دار العلم في بيروت وأنجز طبعه على المطابع الأهلية اللبنانية في عام ١٩٦٧ .

يكن لليازجي غير هذه الدراسة لكفى بها دليلاً على علو كعبه في اللغة العربية وآدابهـــا ، وأنا أقول ، وأراني على حق فيما أقول ، لو لم يكن لمنير البعلبكي غير هذا التصـدير الذي مهّد به لقاموسه لكفى به شاهداً على بلاغة صاحبه وتمكنه من اللغتين العربية والإنكليزية .

وكم كان إعجابي شديداً أيضاً بقاموس المورد لدى ماعلمته من تصديره أن عدد مفرداته أو مواده entries كما سماها المؤلف ، لايقل عن مائة ألف مادة . فذكرت بعد علمي بذلك أن المعجم الانكليزي العربي المدرسي الذي وضع بين أيدينا خلال سنوات الدراسة الابتدائية والثـــانوية في المدارس الأميركية في لبنان ، وهو قاموس ابكاريوس [1] ، لم يكن يزيد عدد مفرداته على ٢٥ ألف مفرداً ، وقلت في نفسي ما أوفر حظ المثقف العربي — وقل الطالب العربي على الأقل — في هذا العصر حين يتاح له في دراسته اللغة الإنكليزية أن يستعين بقاموس البعلبكي الكبير ، عوضاً عن قاموس ابكاريوس الصغير ، وكم كنت أشعر بالخيبة في دراستي للجغرافية والتاريخ والعـلوم الطبيعية والرياضية حين اضطراري على مراجعة قاموس ابكاريوس للتفتيش عن المعنى العربي لإحدى الألفاظ الإنكلـيزية ، فلا أجد فيه غير المعـاني البعيدة عن المعنى الذي افتش عنه ، أو لا أجد اللفظة المطلوبة بين ألفاظه فلا أرى بدأ إذ ذاك من مراجعة معجم وبستر للتفتيش عن ضالتي المنشودة فاذا وجدت اللفظة المطلوبة وعثرت بين معـانيها على المعنى الذي أريده ، وهذه المعاني قد تكون في بعض الأحيان كثيرة تحتاج في قراءتها وفهمهـا إلى الوقت والدأب ، لرحت بعد ذلك افتش عن اللفظة العربية المقابلة لمعنى اللفظة الإنكليزية الذي وُفّقت في العثور عليه ، وإنما كان التفتيش كما هو واضح ، فيما كانت تعيه حافظتي من المفردات العربية ، وجل هذه المفردات

(١) طبع هذا القاموس لأول مرة في المطبعة الأميركية في بيروت سنة ١٩٠٣ .

مقتبس من كتابات بعض مشاهير المتأخرين من أمثال جرجي زيدان وفرح أنطون وجبران والريحاني وطانيوس عبده وسواهم .

وعلى ذلك فاني بعد هذا البيان الذي يجلو حقيقة الدراسة للغة الإنكليزية في الحقبة الممتدة من أول الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية لايسعني إلا أن أغبط دارسي اللغة الإنكليزية في هذه الآونة ، وبخاصة الطلاب الجامعيين الذين يدرسون اللغة الإنكليزية وآدابها ، لأن لديهم سفراً مطولاً هو معجم البعلبكي يستطيعون الرجوع إليه لتقصي المعاني العربية لمعظم الألفاظ الإنكليزية التي تعترضهم خلال الدراسة ، بدون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الرجوع إلى المعاجم الأميركية أو الإنكليزية . وإني إذ أغبط المثقفين والطلاب لأن لديهم مرجعاً غزير المادة يستطيعون اعتماده في تعلمهم اللغة الإنكليزية ، لأغتبط أيضاً لأنني في كل يوم تقريباً أقلب صفحات هذا المعجم لاستقصاء المعاني العربية أو للتحقيق في المعاني العربية التي قد أجدني في حاجة إليها خلال الترجمة من الإنكليزية إلى العربية .

غير أنني شأن كل باحث مدقق ، ونزولاً عند رغبة المؤلف بابداء ما يخطر للمراجع من الملاحظات على منهج تأليف المعجم وعلى ما بين دفتيه من الثروة اللغوية استميح المؤلف عذراً إذا أنا أبديت له الملاحظات التالية :

١ — كثيراً ما يلحق المؤلف أل التعريف بالأسماء الموصوفة وربما كان ذلك تمييزاً لها عن الصفات ، فهو في الصفحة الأولى من المورد يورد لفظة « الحيظار » بأل التعريف لمقابلة لفظة abatis الانكليزية ، وبعدها بلفظة واحدة يذكر لفظتي « مَجْزَر ، مَسْلَخ » بدون أل التعريف لمقابلة لفظة abattoir ، فهو إذن في إيراد الأسماء الموصوفة ، يهمل أل التعريف أحياناً ويلحقها بها أحياناً بدون أن يكون لذلك سبب هام يقتضي هذا الإلحاق . وحبذا لو تخلى

عن أل التعريف تخلياً تاماً جرياً على المنهج المتبع في معجم ابكاريوس ومعجم الأب بلو اليسوعي ، وهو معجم فرنسي عربي ، ومعجم المصطلحات الطبية الكثير اللغات لمؤلفيه الأساتذة خاطر وخياط والكواكبي وهذا أيضاً فرنسي عربي ، إلا في أحوال خاصة يفضل فيها تعريف الاسم بدلاً من بقائه بحالة التنكير . وليس بمنكر أن أل التعريف تلحق دوماً بالأسماء الموصوفة في المعاجم العربية وحتى بالصفات أيضاً ، وربما كان ذلك أحد الأسباب التي دعت المؤلف إلى هذا الالحاق . ولكن الفرق جسيم بين التأليف في الحالة الواحدة وبينه في الحالة الثانية ، لأن أسلوب التأليف في المعجم العربي يقتضي أن يكون الكلام في سياق واحد وأن تكون فقراته المتتابعة معطوفة إحداها على الأخرى فلا مَحالة من إلحاق أل التعريف حتى بالصفات . قال المعلم بطرس البستاني على الصفحة الأولى من قاموسه محيط المحيط « الأَبابُ الماء والسراب والأُباب معظم السيل والموج » . وقال أيضاً « الآبِدة الداهية يبقى ذكرها أبداً ج أَبَدٌ وأوابدُ . والأوابد أيضاً الوحوش والقوافي الشرَّد . الأَبدُ الدهرُ والدائمُ والقديمُ الأزلي والولَد الذي أتت عليه سَنَة ج آباد وأُبود » وهكذا إلى آخر صفحة من صفحات معجم البستاني وإلى آخر مفرد من مفرداته .

وعلى نقيض ذلك فإن مؤلفي المعجم الطبي المذكور آنفاً أسقطوا أل التعريف من كل الأسماء الواردة في المعجم فقالوا عضلة لمقابلة كلمة muscle وقالوا عضلة صُدغية في ترجمة muscle temporal بدون أل التعريف ولم يقولوا العضلة الصُدغيّة بأل التعريف مع أن اسم هذه العضلة خاص بها دون سواها من العضلات فهو أحرى باستلحاق أل التعريف من كلمة عضلة ذات المعنى العام أو الدلالة العامة .

٢ — ويصطلح المؤلف في ترجمة الأفعال على صيغة المضارع بدلا من الماضي الذي هو الأصل في بناء الفعل وهو الصيغة الأصلية التي تقابل صيغة الـ infinitive في اللغة الانكليزية وسواها . فهو يقول على الصفحة الأولى في ترجمة كلمة abandon « يتنازل عن ، يهجر ، يترك الخ . . » وربما كان الأفضل ما جرى عليه مؤلفو المعاجم الأخرى الانكليزية العربية والفرنسية العربية من استعمال صيغة الماضي لمقابلة الأفعال ، وربما كان الأفضل من هذا وذاك أيضاً استعمال الماضي والمضارع معاً مع الاهتمام باثبات حركة عين الفعل في كلتا الصيغتين لما لهـــذه الحركة من الشأن في تصويب التلفظ بالأفعال .

٣ — أما بشأن البوادىء التي تدخل على الألفاظ الانكليزية فيمكن أن تقسم قسمين همـــا البوادىء بخاصّة prefixes وهذه تكون عادة من الحروف أو الظروف اللاتينيـــة أو اليونانية نحـــو البوادىء في الكلمات abduct أي أبعَدَ و abscess أي خُرّاج و subcutaneous أي تحتَ الجلد الخ ... والقسم الثاني هو الصيغ التركيبية combining forms وهـــذه تكون عادة من الأسماء اللاتينية أو اليونانيـــة نظير الجزء الأول من الكلمتين oropharynx أي البلعوم الفموي و nasopharynx أي البلعوم الأنفي . غير أن مؤلف المورد لا يفرق بين هذه الصيغ فهو يسميها جميعاً بوادىء (الصفحتان ١٩٤ و ٧١٨ من المورد) وهب أن تسميتها كذلك جائزة ، فما نفعل حين تعترضنا كلمة مركبة من ثلاثة أجزاء مثل sternocleidomastoid أي العضلة القَصّيّة التَرْقُوية الخُشَّائيّة وماذا نسمي جزأها الثاني أي -cleido- الذي لا يمكن اعتباره بادئة لأنه الجزء المتوسط من الكلمة فلا هو بادئة ولا هو لاحقة . لذلك نري أن الأفضل في التفريق بين هذه الألفاظ المستعملة في

بناء الكلمات المركبة أن نسمي ما كان منها من قبيل الأسماء بالصيغ التركيبية أي بترجمة اسمها حرفياً عن الانكليزية ، وأن يقتصر في إطلاق كلمة البادئة على الأدوات والحروف والظروف وما أشبه .

٤ — وفي المعجم الكثير من الألفـاظ المعربة كلفظة السُقُّوبة التي عربت بها لفظة succubus ولفظـة السُكُّتاش لمقابـلة لفظة succotash والصَّنْفَرة أو السَّنْفَرة لمقابلة sandpaper أو emery paper وغير ذلك . وإني أظن أنه لاحاجة إلى أمثال هذه المُعرّبات إذ أن الناس يتعذر عليهم الاقبال على استعمالها فلا ينقضي عليها بعض الوقت حتى تعود من الألفـاظ الماتة . وقد عرب المجمع العلمي العربي بدمشق فيما مضى كلمة chocolate بكلمة شَكُولات على وزن فَعُولات فهل استعمل الناس اللفظة المعربة في الكلام أو الكتابة ، إنهم لايزالون يقولون ويكتبون شوكولا أو شكولاته أو شكولاتا أو ما اقترب من هذه الكلمات في هجائه ولفظه .

٥ — ثم إن في بعض ألفاظ المعجم العربية شيئاً من نقص الايضاح أو عدم التفريق فيما ترمز إليه من المعاني الانكليزية فكلمة solder الفعل ترجمت بكلمة « يَلْحُم » ، وكذلك كلمة weld ، مع أن هناك فرقاً بين اللفظتين إذ أن الأولى تفيد معنى وصل قطعتي المعدن بالالّحام والثانية تفيد معنى وصلها بالحرارة وبدون وساطة اللحام ، فلا بد إذن من التفريق بين المعنى الانكليزي لكل من اللفظتين فيما يقابله بالعربية .

٦ — وقد يكون في المعجم قليل أو كثير من الأخطاء في اللغة العربية نفسها ، فقد جاء على صفحة ٤٦٠ في ترجمة Indian club ما نصه « أداة خشبية قارورية الشكل يُتَرَيَّضُ بها » والصواب يُتَرَوَّضُ لأن الفعل راض واويّ وليس في صيغة المضارع المجهول يُتروّض شيء من الاستثقـال لقلب الواو ياء . وجاء على صفحة ٢٤٨ في ترجمة كلمة dark « مظلم ، داكن ، قاتم

الخ ... ، والصواب أدكن ومؤنثه دكناء لأن لفظة داكن على وزن فاعل لم ترد فيما اطلعت عليه من المعاجم العربية (محيط المحيط للبستاني صفحة ٦٦٩) . ثم إن المؤلف يقول على الصفحة ٦٥ من المعجم في ايضاح التعبير artificial horizon «حين يتعذر عليهم رؤية الأفق الحقيقي» ، والصواب تتعذر لأن الفاعل رؤية مؤنث . ويقول على نفس الصفحة في تعريفه اللغة الآريّة « اللغة التي تَحـدَّرت منها معظم اللغات الأوروبيـة .... واشتقت منها معظم اللغات الأوربية » والصواب تَحدَّر واشتُقَّ لأن فاعل تَحدَّر مذكر وكذلك نائب فاعل اشتُقَّ .

٧ — وقد يذكر مؤلف المورد القليل أو الكثير من الألفاظ العامية لمقابلة نظائرها الانكليزية مع وجود مايقوم مقامها من الألفاظ الفصيحة فهو يستعمل كلمة غامق لمقابلة كلمة deep وفاتح لمقابلة كلمة light مع أن الكلمتين عاميتان ، وقد استعمل الشيـخ إبراهيم اليازجي كلمة مشبع لترجمة كلمـــة deep وكذلك فعل الأب بلو في معجمه الفرنسي العربي فذكر كلمة مشبـع لمقابلة كلمة foncé التي لها نفس المعنى .

وذكر صاحب المورد كلـة مستديم في ترجـة كلمة constant وهي عامية في هذا الاستعمال وفي المحيط استدام اللازم غير ثابت عنـد العرب لأنه مُتَعَدٍّ ومعناه طلب دوامه ولا يعـني دام . لذلك كان الأصوب ترجمة كلمة constant بالدائم أو الموجود بصورة دائمة .

على أني فيما يتعلق بالتنبيه على الخطأ اللازم لاستعمال لفظـة مستديم ، لا أخال أنها ستستعمل على وجهها الصحيح بل إن استعمالهـا كفعل لازم سيستمر إلى ما شاء الله لأنها كالفعل تَبَقّى الذي تعده كتب متن اللغـة فعلاً متعدياً في حين أن أكثر الناس لايستعملونه إلا فعلاً لازماً فيقولون

ماتَبَقّى من الشيء أي بقي والشيءُ المُتَبَقّي أي الباقي حتى أن صاحب المورد نفسه أثبت كلمة مُتَبَقٍ لمقابلة كلمة residual التي تفضل ترجمتها بالباقي . والغريب في أمر هذه الألفاظ التي شاع استعمالها الخاطئ حتى طغى على استعمالها الصحيح أنه ما من وسيلة يمكن التوسل بها لحمل الكتّاب وسواهم على اجتناب الخطأ في استعمالها . خذ مثالاً آخر على ذلك لفظة استهدف اللازم فانها تعني أصبح هدفاً أو غرضاً يرمى ومنه قولهم من صَنَّفَ فقد استهدف أي أصبح هدفاً للنقد . ومنه قول ابن الفارض :

ولقد أقولُ لمن تحرَّشَ بالهوى عرَّضتَ نفسَكَ للبَلا فاستَهدِفِ

أي اجعل نفسك هدفاً . أما الاستعمال الشائع فيُعدّي هذا الفعل ويجعل معناه رمى هدفاً مُعَيَّناً أو رمى نحو هدفٍ معيّن فيقولون مثلاً أن هذه الخُطة تستهدفُ إصلاحَ هذا الأمر ، وما إلى ذلك . فاذا نحن نبَّهنا على هذا الخطأ فلا اخال أننا نستطيع إصلاحه ما دامت إذاعات العالم العربي وغير العربي قاطبة وربما معظم جرائده أيضاً تجعل الفعل استهدفَ فعلاً متعدياً وتستعمله بهذا المعنى الخاطئ .

٨ — ثم إنّ في تعريفات بعض المصطلحات الطبية والبيولوجية شيئاً من النقص مثال ذلك لفظة antibiosis فقد ورد ما يقابلها بالعربية كما يلي « التضادّيّة : تضادٌّ بين مُتَعضيَيْن يؤدي إلى إتلاف احدِهما» . وقد جاء في معجم دورلند الطبي(١) ما معناه :

«ان antibiosis هي bacterial antagonism أي التضادّ الجراثيمي وهو عبارة عن اجتماع المُتَعَضّيَيْن متلفٍ أو مؤذٍ لأحدهما أو لهما معاً» . ومن ناحية

(١) الطبعة الرابعة والعشرون الصادرة عن شركة سوندرز للنشر والطباعة في فيلادلفيا سنة ١٩٦٥ .

ثانية فقد جاء في المورد أن antagonism هي بالمعنى الطبي أو البيولوجي التضادّ ، فلماذا نترجم اللفظة الأولى بالتضاديّة بياء النسبة وتاء المصدرية ، ونترجم اللفظة الثانية المرادفة antagonism بالتضادّ بدون الياء والتاء .

وقد اعتبر المورد بعض الألفاظ الطبية أسماء في حين أنها قد تكون أسماء nouns وصفات adjectives في آن واحد مثل anticoagulant أي مانع التخثر فقد جعلها المورد اسماً فحسب مع أن معجم دورلند الطبي يذكر أن اللفظة تعني مانع التخثر أي أنها تكون صفةً وتعني أيضاً المادة مانعة التخثر أي إنها تكون اسماً . والغريب أن صاحب المورد لم يغفل نسبة الإسميّة والوصفيّة إلى بعض المصطلحات الأخرى الطبية نظير antiseptic أي مانع المفونة و antipyretic أي مانع الحمى فقد اعتبرها أسماء وصفات في آن معاً ، وذلك على حد ما جاء في معجم دورلند الطبي وسواء من المعاجم الطبية وعلى حد ما ورد في معاجم متن اللغة الانكليزية .

٩ — وقد يضع مؤلف المورد في بعض الأحايين ألفاظاً عربية جديدة لمسمَّيات انكليزية لها ما يقابلها بالعربية نظير لفظة مُجتَلَد الموضوعة لمقابلة كلمة arena التي تعني ساحة البراز أو حَوْمة القتال أو حوْمة بدون إضافة . والطريف في هاتين اللفظتين الانكليزية arena والعربية حَوْمة أن لفظة arena عَنَتْ في أصلها اللاتيني الرمل أو المكان الرمل ثم أطلقها الرومان على ساحة البراز لأن هذه كانت تفرش بالرمل ، وكذلك كلمة حومة فإن العرب استعملوها في بعض المركبات الاضافية فقالوا حومة البحر والرمل والقتال وغيره أي معظمه أو أشد موضع فيه . وهم يسمون موضع القتال حومة لأن الأقران يحومون حوله (محيط المحيط) .

وذكر صاحب المورد أن كلمة premolar وهي السن التي تلي الناب ، تقابلها كلمة قَبْطَاحِن العربية وهذه الأخيرة كما ترى منحوتة من كلمتين هما قبل وطاحن لمقابلة البادئة pre- المأخوذة من prae- اللاتينية ومعناها قبل ، وكلمة molar أي السن الطاحنة أو الرحى وهذه مأخوذة من mola اللاتينية أي حجر الرحى . غير أن العرب أطلقوا لفظة الضاحكة على السن التي تبدو عند الضحك ، أو السن التي تلي الناب . وجاء في محيط المحيط الضاحكة مؤنث الضاحك وكل سن تبدو عند الضحك أو السن التي بين الأنياب والأضراس وهي أربع ج ضواحك . وقال الأصمعي في الفم الأسنان وهي الثنايا والرَّباعيَات والأنياب والضواحك والطواحن والأرحاء والنواجذ . ويقول الأصمعي ويلي الأنيابَ الضواحكُ وهي أربعة أضراس إلى كل ناب من أسفل الفم وأعلاه ضاحكٌ ثم تلي الضواحكَ الطواحنُ والأرحاءُ ثم تلي الأرحاءَ النواجذُ . أما نحن في جامعة دمشق فقد اعتبرنا الأسنان التي تلي الأنياب ضواحك أولى first premolars وسمينا طواحن الأصمعي بالضواحك الثانية second premolars وذلك لما بين الضاحكة الأولى والثانية من التشابه في الملامح التشريحية حتى ليتعذر التفريق بينها أحياناً ، وأطلقنا اسم الأرحاء molars على الأسنان الثلاث الباقية وهي التي تلي الضواحك ، وسمينا أولاها بالرحى الأولى first molar وثانيتها بالرحى الثانية second molar وثالثتها بالرحى الثالثة third molar وهذه الأخيرة هي الناجذ الذي ذكره الأصمعي . وقد سميناها رحى لأنها تحاكي أرحاء الأصمعي في أوصافها التشريحية وكل ذلك موافق للتسمية التي اصطلح عليها الفرنجة (١) . غير أننا احتفظنا بلفظة الناجذ لمرادفة ضرس العقل

---

(١) معجم المصطلحات السنّية الذي وضعه اتحاد طب الأسنان الدولي وأصدره عن لاهاي سنة ١٩٦٦ .

wisdom tooth المسمى كذلك عند الكثير من الأمم . وعليه وبعد هذا التفصيل التشريحي لايبقى ثَمَّةَ وجوب لنحت كلة جديدة هي القَبْطَاحين هذا ناهيك من أن هذه الكلمة المنحوتة ثقيلة يمجها السمع فلا محالة من عدها ميتة من يوم ولدت .

١٠ — وقد يعمد صاحب المورد أحياناً — وهي أحيان قليلة جداً — إلى التعاريف الطويلة لشرح بعض المعاني أو بعض التعابير الاصطلاحية كما في ترجمته للتعبير الاصطلاحي rule out فقد ترجمه بعبارة صحيحة ولكنها طويلة حيث قال « يعلن أنه غير وارد أو لا مجال للبحث فيه » مع أنه قد يمكن الاستغناء عن هذا التعريف الطويل والاكتفاء بالفعل نفى أو استبعد لا سيا وأن وبستر يرى أن التعبير rule out يرادفـــه الفعلان exclude أي استثنى و eliminate أي أخرج واستبعد .

١١ — ثم إن المؤلف قد أحسن كل الإحسان بإيراده الكثير من المصطلحات الطبية حتى ما استعمل منها في مختلف نواحي الاختصاص كلفظة bitewing الدالة على الفِلْم الشُّعَاعي المُجَنَّح الذي يستعمل بعد عَضِّ جناحه في تصوير تيجان الأسنان العلوية والسفلية في آن واحد . وقد أحسن المؤلف كل الإحسان أيضاً بإيراده للكثير من الألفاظ مَعَانِيَها المستعملة في البحوث الطبية . وذلك عملٌ جزيل النفع يفيد منه المشتغلون في ترجمة هذه البحوث . فهو يقول مثلاً إن من معاني لفظة invasive معنى طبي هو « توسعي » ، وبخاصة : نَزّاعٌ إلى غزو الأنسجة السليمة » ، ويستشهد على هذا المعنى بقوله invasive cancer cells . ولكنه على العكس من ذلك يسقط بعض المعاني الهامة التي يتوالى استعمالها في الكتابات الطبية مع أنها قد تكون في غاية البساطة مثل كلة common الكثيرة الاستعمال في وصف درجة تفشي المرض فيقال مثلاً common disease أي مرض شائع ومألوف

أو كثير المصادفة والحدوث . وقد جاء في وبستر شرح هذا المعنى بقوله occurring or appearing frequently أي كثير الحدوث او أنه يحدث أو يصادف غالباً وتكراراً . ومع ورود هذا المعنى في وبستر فانه لم يرد بين معاني كلمة common في المورد .

ومن هـــذا القبيل أحد المعاني التي أوردها مؤلف المورد لمقابلة كلمة dull فقد ذكر أن من معاني هذه اللفظة المعنى « غير واضح » . وبما أن هذه اللفظة صفة يغلب استعمالها في وصف الألم فيقال dull pain فقد كان من المفيد أن يُعَزِّز المؤلف معنى عدم الوضوح بهـذا الشاهد الذي يوصف به الألم بكونه مبهماً أو عميقاً وغير واضح . وذلك ما جاء في معجم كلارفيل الفرنسي الكثير اللغات ، وهو المعجم الذي نقله إلى العربية الأساتذة خاطر والخياط والكواكبي والذي سبقت الإشارة إليه ، فقد قال المؤلف الفرنسي douleur sourde بالفرنسية يقابلها dull pain بالانكليزية . وكذلك فان معجم لاروس الفرنسي الكثير التداول لم يغفل إيراد هذا الشاهد لوصف الألم مع أنه ليس بالمعجم الطبي فذكر بين معاني كلمة sourde المعنى الذي يوصف به الألم بالعمق والإبهام فقال douleur sourde .

ومن هذا القبيل أيضاً عدم إيضاح المعنى البيولوجي الذي يتضمنه الفعل اللازم break في الاستعمال الاصطلاحي break down فقد ذكر المؤلف أن من معانيه « يَنحَلّ أو يُحَلِّلُ مركباً كيميائياً » في حين أنه ليس من الضروري أن يكون الجسم المنحل مركباً كيميائياً بل قد يكون أيضاً نسيجاً مرضياً فيقال إذ ذاك في وصف الآفة المنحلة أو المتجـــزأة the lesion breaks down أي أن نسج الآفة يتجزأ أو يتهتّم .

ومن المعاني الطبية التي تحسن الإشارة إليها بين معاني الكثير من كلمات المورد المعنى واقع في الجانبين أو مؤثر في الجانبين لمقابلة كلمة bilateral فقد

ذكر المؤلف جميع معاني هذه اللفظة خلا المعنى المتقدم مع أنه شائع الاستعمال في علمي التشريح والأمراض فيقال مثلا bilateral enlargement أي ضخامة واقعـــة في الجانبين . وقد عبر وبستر عن هذا المعنى بقوله affecting reciprocally two sides أي مؤثر في جانبين متقابلين .

ومما سقط ذكره من المورد لفظة stiffness الاسم مع أن الصفة stiff مذكورة وأن من معانيها « جاسِئ أو صُلْبٌ » . وعليه كان من الضروري أن تذكر كلمة stiffness التي تفيد من الوجهة الطبية معنى جُسأةِ العُضو أو صلابتِهِ ويبُوستِهِ . ومما يدعو إلى العجب أن مؤلف المورد أثبت لفظة supraorbital أي فوق الحَجَاج أو فوق المَحْجِر وترجمها باللفظة المنحوتة فَوْمَحْجِريّ ، ولكنه أسقط من المعجم لفظة infraorbital التي تعني تحت الحَجَاج أو تحت المَحْجِر مع أن هذه اللفظة الثانية لا تقل في كثرة استعمالها عن الأولى .

ومما يشبه هذا السهو في التأليف أن صاحب المورد أثبت لفظـــة polymer ومشتقاتها ، وهي لفظة تطلق على المركب الكيميائي ذي الذرات المتآزرة أو المتضاعفة ، والوزن الذري المرتفع ، ولكنه أغفل اللفظة الشقيقة وهي لفظة monomer التي يسمى بها المركب الكيميائي ذو الذرات البسيطة أو غير المتضاعفة ، والوزن الذري المنخفض ، مع أن أول هذين المركبين يتكوّن عادة من اتحاد أو تآزر (تبلمر كما يقول المؤلف) ذرات المركب الثاني (راجع معجم دورلند الطبي في مادّتي polymer و monomer) .

ومن الألفاظ التي أشار المؤلف إلى معانيها العامة ولكنه أغفل الإشارة إلى معانيها الخاصة لفظة artifact (أصلها اللاتيني artis facta ويعني تأثير العمل الفني في الشيء المصنوع أو في مظهره) . فقد ذكر المؤلف من معاني

هذه اللفظة معنيين هما أولاً الشيء الدال على مهارة صانعه والثاني النتيجة الصنعية الناجمة عن عامل خارجي . غير أنه لم يُشرْ إلى المعنى المألوف في الاستعمال الطبي والدال على الخطأ الحادث في التصنيع المخبري أو على التبدل الطارئ على نتيجة العمل المخبري . مثال ذلك المظهر الكاذب أو الخادع الذي يشاهد أحياناً في الصور الشعاعية أو المُحَضَّرات النسجية ، فاذا أعيد التصويرُ الشعاعي أو التصنيع المخبري بعد تعديل طريقة التصنيع أو بعد تغيير المواد المستعملة فيه ، لاختفى المظهر الخاطئ من الصور أو المحضّرات . وعليه فان هذا المظهر الكاذب والطارئ على نتيجة العمل المخبري يشار إليه بالمعنى الخاص للفظة artifact ، وهو المعنى الذي تذكره المعاجم الطبية ويهمله أكثر المعاجم العادية ومنها معجم المورد ومعجم وبستر الجامعي . وإنني اخال أن المؤلف في إغفاله المعنى الطبي لهذه اللفظة ذهب إلى ما ذهب إليه معجم وبستر الجامعي ، وكان الأحرى الاقتداء بمعجم وبستر الدولي الذي جعله المؤلف في عداد المراجع التي اعتمدها في تأليفه ، فقد أثبت هذا المعجم المعنى الطبي الخاص للفظة artifact كما تفعل المعاجم الطبية .

وقد يقال رداً على كل ما جاء في هذه الملاحظة أن معجم المورد ليس بالمعجم الطبي لكي يثبت المعاني الطبية لجميع ما ورد فيه من المفردات ولكن الرد على هذا الرد ما أكّدته في صدر هذه الملاحظة وهو أن المؤلف أورد المعاني الطبية للكثير من مفردات معجمه حتى أنه أورد فيه العدد الكبير من المفردات الطبية كما أشرت إليه في أعلاه ، فكان من المفيد أن تذكر فيه أيضاً بعض المعاني الطبية الأخرى التي أغفل ذكرها مع أنها لاتقل في أهميتها وكثرة استعمالها عن المعاني الواردة في المعجم .

١٢ — وأخيراً فانني لن أترك القلم جانباً قبل أن أقول كلمة عن هذه الألفاظ المنحوتة التي تكثر في قاموس المورد نظير دُوْأحْمر أي دُونَ الأحْمر التي ترجمت بهـا لفظة infrared ، وفَوْبَنَفْسَجِيّ أي فَوقَ البَنَفْسَجِيّ لترجمة لفظة ultraviolet وفَوْمَحْجِري أي فَوق مَحْجِر العين لترجمة لفظة supraorbital ، وشَمْقَمَري أي شمسيّ قمريّ solunar وحِسِّيْحَرَكيّ أي حِسِّيٌّ حَرَكيٌّ sensorimotor ، وشِرْيَانيوَرِيْدي أي شِريانيٌّ وريديٌّ arteriovenous الخ . الخ . . .
أنا لا أنكر أن في استحداث هذه الألفاظ جرأة كبيرة من مؤلف المورد ولكني لا أظن أن صدى هذه الجرأة سيكون على النحـو أو من القَدْر اللذين يشاؤهما المؤلف ، وذلك لأنني أعتقد بأن الأقلام لا تُقبِلُ على تداول هذه الألفاظ المنحوتة لأنها غريبة الوجه واليد واللسان ، ولأنها تبتعد كل البعد عن أصول تركيب الألفاظ العربية . أجلْ لقد نحت العرب بعض الألفاظ كما هو معروف فقالوا عبشميٌ ، وقالوا البسملة والحمدلة والحوقلة ولكن هذه الألفاظ المنحوتة على ما أعلم قليل عديدها فلا يتجاوز أصابع اليدين . وعليه فأنا أرى ــ وربما رأى سواي هـذا الرأي ــ أن تترك أجزاء هذه الألفاظ المذكورة حرة بدون بترها وحصرها في كلمات منحوتة . وظاهر أن المغالاة في النحت ممكنة وسهلة في اللغات الأجنبية حيث يغترف العلماء والمُعْجَميُّون ما شاؤوا من المعين اليوناني اللاتيني لبناء الألفاظ الجديدة ، لا بل ان النحت هو الوسيلة الوحيدة عندهم لبناء الألفاظ المركبة ، خلافاً لما نحن عليه في لغتنا العربية من التقيّد بأحكام لغويَّة وبيانيَّة لا نستطيع الخروج عليها . وللتمثيل على هذا الرأي الذي أراه أعود فأذكر اللفظـة الانكليزية المنحوتة sternocleidomastoid التي تقدم ذكرها في صدر هذا المقال والتي تعني العَضَلَة القَصيَّة التَّرْقُويَّة الخُشَّائيَّة . إن هذه اللفظة

الإنكليزية مركبة من ثلاثة أجزاء ، فإذا أردنا جمع الألفاظ العربية الثلاثة التي تقابلها في كلمة منحوتة واحدة لقلنا مثـــلاً العضلة القَصْتَرقُشائيَّة على طريقة مؤلف المورد ، وتلك لفظة لا تسر الناظرين كما أن موسيقاها لا تُطرب السامعين . ولذلك فاني أخال أن أكثرنا يعرض عن هذا التكلف الذي يغنينا عنه ما في لغتنا العربية من الليونة والطواعية وما في أسمائها من قابلية الإضافة وبناء صيغ النسبة ، هذه الصيغ التي تحبب إلينا الاحتفاظ بالمصطلحات القديمة وتسهل علينا بناء المصطلحات الجديدة .

وبعد فان هذا ما خطر لي تدوينه من الملاحظات على قاموس المورد . وكنت قد أنعمت النظر فيه وأكثرت من مراجعته في الأسابيع الأخيرة خلال قيامي بترجمة مقال طبي من الانكليزية إلى العربية ، فاجتمع لديَّ من هذه المراجعة الملاحظات التي كثَّفتها وأوجزتُها فيما تقدم ذكره . ومع أنها ليست كل ما يمكن قوله في مجال الملاحظة على مواد المعجم ، فانها مهما كثرت لا تعدُّ شيئاً مذكوراً إذا هي قيست بالحسنات الجُلّى التي يطفح بها معجم المورد ، والتي تجعله خير معجم إنكليزي عربي أخرج للناس . هذا وان المؤلف قد وعد في تصديره لمعجم المورد بأنه سيوالي التحقيق في أصول الألفاظ حين اقتضائها هذا التحقيق لتكون الطبعات القادمة أكثر شمولاً وأغزر مادة من الطبعة الحالية . وإني لموقن بأن تحقيقه سوف لا يقتصر على أصول الألفاظ ، بل سيتناول الألفاظ الجديدة والمعاني الجديدة للألفاظ الراهنة وذلك من شأنه أن يرفع معجم المورد إلى درجة الكمال التي يتّسم بها معجم وبستر الدولي وسواه من المعاجم الأجنبية المطوّلة .

الدكتور ميشيل الخوري
أستاذ في جامعتي دمشق وبغداد سابقاً



المعجم العربي

نشأته وتطوره

كتاب في جزأين صفحاته ٨٣٥ للدكتور حسين نصار المدرس بكلية الآداب في جامعة القاهرة

منشورات مكتبة مصر ـ دار مصر للطباعة ١٩٦٨

سبق لهذه المجلة أن وصفت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في مجلدها السابع والثلاثين (ص ١٢٥) بقلم العالم الجليل الأستاذ عبد الله كنون ، وصفاً وفّى الكتاب ما هو أهل له من التقدير ، ومنح المؤلف « إضافات قيمة أفاد منها » في طبعته الثانية هذه وقد أشار إليها شاكراً في مقدمة الطبع .

لا أعيد شيئاً مما نشر عنه في هذه المجلة ويحسن بالقارىء الرجوع إليه ، لكن لا مندوحة لي عن تذكيره بأن الكتاب دراسة تاريخية نقدية خطوطها العريضة ثلاثة :

١ ــ الرسائل اللغوية على الموضوعات

٢ ــ المعاجم

٣ ــ المعاجم التي نحتاج إليها

والدراسة متأنية صابرة جاهدة تستحق مع الشكر والتقدير المنافة بهـا وبالنواحي التي أطافت بهـا ، وكلها ذو خطر من الواجب الاهتمام به ؛ ولم يسعني الاعتذار حين كلفني السيد رئيس المجمع الكتابة عن هـذه الطبعة ، فرأيت بعد الإشارة إلى ما كتب عن الطبعة الأولى وبيان نظرتي إلى هـذه الدراسة أن أعرض ما بدا لي من ملاحظ بالترتيب :

ص ١٦ — « واعترف القرآن للعرب بهذه القدرة اللغوية قال تعالى : (ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصيمون) وقال : (فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدا) ...

... ومثال ذلك الرسول الكريم ... فكان يقول بصدد تعليل فصاحته : (أنا أفصح العرب ، بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد ابن بكر) ...

.. كانوا يدفعون صبيتهم إلى أدبائهم وشعرائهم ليعيشوا معهم وينشؤا على تفوقهم اللغوي . مثال ذلك زهير بن أبي سلمى الذى عاش مع خاله بشامة ابن الغدير الشاعر فخرجه شاعراً » .

هذه النقول من صفحة واحدة ينتظمها ظاهرة واسعة الشيوع في الدراسات الحديثة هي تحميل النصوص فوق ما تحمل ، وتجاوزها في الاستنباط إلى أبعد منها ، فلا يوقف حيث وقفت ؛ فالآيتان ليستا اعترافاً بالقدرة اللغوية وشتان ما بين اللدد في الخصومة والقدرة اللغوية . ، والحديث على فرض صحته لا يشهد لقول المؤلف (إذ أرسل [الرسول] الى البادية في طفولته لهذا السبب) وقد ضعفه المحدثون . وليس في ترجمة زهير ما يؤيد (انهم كانوا يدفعون صبيتهم إلى أدبائهم وشعرائهم ليعيشوا معهم وينشؤوا على تفوقهم اللغوي) إنما هي حال زهير الخاصة أن كان خال أبيه سيد غطفان وحكيمها وكان شاعراً .

ص ١٨ — أحكام عدة عن زواج الوالي هي موضوع نظر وتحتاج إلى تمحيص ، ويحسن أن يرجع فيها إلى كتب الفقه والأحكام ، وما كان (الأغاني) و (العقد الفريد) يوماً ما مرجعاً في مثل هذه الأمور .

ص ٢٢ — « بل تعلم بعض العرب أنفسهم الفارسية ونظموا بها شعراً وتشبهوا بالفرس في أزيائهم واحتفالاتهم . نفهم ذلك من خبر الشاعر العربي يزيد بن ربيعة بن مفرغ مع عبيد الله بن زياد » وليس في الخبر المشار إليه ما فهمه ، وكل الذي فيه أن الغلمان الذين خاطبوا يزيد بالفارسية أجابهم بها جملة بجملة ، وهو شيء يستفيده عادة من أقام حيث أقام يزيد فلا نظم شعر ولا تشبه في الأزياء والاحتفالات .

ص ٥٩ — في كلامه عن (الفائق) للزمخشري قال : « ولا يعرض للمجاز وما إليه ، مما بني عليه الأساس . ولعل سبب ذلك أنه ألف الأساس بعد الفائق . » وهذا تعميم فيه نظر إذ لانعدم في الفائق تعرضاً للمجاز ، ففي كلامه مثلاً على مادة (ختل) جاء في شرح المراد من الحديث (وأن تتخذ السيوف مناجل) :

المناجل المجاز ، أي يؤثرون الحرث على الحرب .

ص ١٠٣ — « ومن المؤرخين من سلبه (أي ثعلباً) الكتاب جملة فنسبه إلى الحسن بن داوود الرقي أو يعقوب بن السكيت » .

قلت : يحسن إثبات ما اشتهر عند المطلعين من كثرة نقد القدماء فصيح ثعلب حتى حملوه على إنكار نسبة الكتاب إليه (١) .

ص ١٦٥ — في كلامه على كتاب الفزاري الإسكندري أقحم ثلاثة أسطر . (وألف محمد بن أبي القاسم بن بايحوك البقالي .. الخ يحسن تأخيرها إلى ما بعد انتهاء كلامه على كتاب الفزاري في الصفحة التالية .

(١) في أصول النحو ص ١٩٣ (مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٤) .

ص ٢٠٠ — س ١٤ (أبواب السالم) وأعني به هنا ما فيه حرف علة واحد أو همزة واحدة) ، أطلق (السالم) وهو يريد (غير السالم) كما هو ظاهر فلعل كلمة (غير) سقطت في الطبع ، إلا أن ذلك تكرر .

ص ٢٥٦ — في كلامه عن الخليل وكتاب العين : (بل أورد أشياء من لغة المعاصرين له في إقليمه العراق ، أو بلدته البصرة خاصة ولو كانت لا تعرف في البادية مما يدل على تسامحه وتحرره من القواعد المتزمتة) !! ؟

ولغة معاصري الخليل في البصرة عربية وما أثبته منها في العين لا يخالف القواعد ، ومن الذي قال إن على صاحب المعجم ألا يثبت إلا ما كان يعرف في البادية ؟! وأيٌّ كان فكلمة (تسامح) و (تزمت) وأمثال لهما مما تستعمل في عصرنا في غير محلها ، تصان عنه دراسة موضوعية جادة عن (المعجم العربي) .

ص ٢٥٨ — فيما نقل عن ابن الأنباري في قياسية النحو استقاه المؤلف من (الاقتراح) للسيوطي وكان ذلك سائغاً في الطبعة الأولى سنة ١٩٥٦ أما في الطبعة الثانية فلا ، إذ أن (الاقتراح) منتزع انتزاعاً من كتاب لابن الأنباري اسمه (لمع الأدلة) (١) وقد نشرته الجامعة السورية سنة ١٩٥٧ ونقل السيوطي تجد أصله في ص ٩٩ من لمع الأدلة ، ولم يعد (الاقتراح) مصدراً أصيلاً بعد نشر الأصل (لمع الأدلة) .

ص ٢٧٨ — (يكفي أن يذكر أمام المتأخرين كتاب العين حتى تنهال الشتائم والتهم جزافاً ، وأقرب مثال لذلك الأشموني الذي قال عن لفظ انفرد به الخليل : « ... لم يسمع إلا من كتاب العين فلا يلتفت إليه » ومن

(١) في الكتاب (رسالتان لابن الأنباري) الإغراب في جدل الإعراب ولمع الأدلة) مطبعة جامعة دمشق ١٩٥٧ بتحقيق سعيد الأفغاني .

الطبيعي أن يشاركه الصبان محشيه في شتائمه قال : « قوله (إلا من كتاب العين) أي المحشو بالخطأ » .

في هذه الأسطر مثال آخر على الظاهرة التي أشرنا اليها في كلامنا على ص ١٦ : المبالغة في تحميل النصوص ما ليس فيها فكلمتا (لا يلتفت إليه) و (المحشو بالخطأ) خطأ ، ولكنها ليستا (شتائم تنهال) ولا تهمــــا تكال (جزافاً) .

ح ٢ : ص ٤٤٤ في كلامه على ابن فارس في مقاييسه : (فهو يقدم الأصل أو الأصول ثم يبني الفروع عليها ويختم المادة بالشواذ) . ولكن هذه الطريقة اضطربت عليه فمادة (عق) أصلها الشق ولكنها تطورت إلى ثلاثـة فروع واضحة أولها ما زال محتفظاً بمعنى الشق صراحة ، وثانيها ما يــــدور حول الشَعر الذي يولد به المرء ، والثالث ما يدور حول عقوق الوالدين . ومن الطبيعي أن يتناول الإنسان صيغ كل فرع منها على حـدة ولكن ذلك لم يحدث في المقاييس) .

قلت : لا اضطراب ، فقد أشار ابن فارس في أول كلامه على المـادة بقوله : (العين والقاف أصل واحد يدل على الشق وإليه يرجع فروع الباب بلطف نظر ، قال الخليل : أصل العق الشق وإليه يرجـع العقوق وكذلك الشعر ينشق عنه الجلد) . فلا يزال الأصل ملحوظاً في كل الفروع حتى دون لطف نظر ، وإذاً لا اضطراب ...

ص ٥١٦ — (ويبدو أن النسخة المطبوعة من الصحاح نالها شيء من التصحيح ، إذ ورد فيها البيت الأول والثالث ، ورواية (سمعوا من صالح) لا البيت الأول وحده ، ولا الرواية التي ذكرها الصغاني .)

قلت : لعل نسخة الصغاني فيها التصحيف لا أن النسخة المطبوعة من الصحاح صححت .

ص ٧٥٥ — (وكان المعتل من المهموز من أعظم الأمور إثارة لحيرتهم واضطرابهم حتى تخلص كثير منهم بجمع المعتل الواوي والياء والمهموز معاً ... والحق أن هذه مشكلة أخرى ربما تفوق غيرها في الصعوبة ..)

ربما صح هذا الوصف في المراحل الأولى لتأليف المعاجم ، أما اليوم فمن الإسراف إطلاق مشكلة على مثل هذه الأمور وقد تيسر للباحث الفصل في الواوي واليائي ، بل تيسر ذلك لمن قبلنا وفصلوا كلاًّ عن الآخر ، والخطأ في بعض كلمات ممكن إصلاحه ، فليس مشكلة ما حلوه منـــذ أزمان متطاولة .

ص ٧٥٦ — كان من أثر الدعايات السيئة التي أغرق فيها غيرنا كثيراً منا حتى صار يردد أن لغتنا نحوها وصرفها ومفرداتها وحروفها كلها مشاكل في مشاكل ، أن تسممت ناشئتنا في عقيدتها في لغتها ، ولولا أنهم يعرفون لغة أجنبية يجدون فيها ما هو أبعد مما يعد أولئك في باب المشكلات لأسرع ذلك في إهمالهم لغتهم مرة واحدة ، وليس هنـا موضع بيانه ، وكان من ذلك التيار : الدعاية المريضة في أثر دراسة اللغات السامية الميتة وتصحيح العربية عليها ، وذلك عكس ما يقضي به المنطق وعلم اللغة العام ، أذكرني بذلك قول المؤلف (وحصروا [حروف الزيادة] في عبارة (سألتمونيهـــا) ولكن البحث المقارن بين اللغات السامية جميعاً يهزأ من هذا الحصر ويرى أن الممكن زيادة غيرها من الحروف وقد حدث هذا فعلاً في العربيـــة وأخواتها . وأترك هذا البحث المقـــارن إذ لا أستطيع أن أقوم به لعدم معرفتي بالساميات » !! .

والمؤلف يعرف أن حروف (سألتمونيهـــا) هي الزيادات المطردة في الكلمات لمعانٍ خاصة ، وأن الأقدمين من علماء اللغة فرقوا بينها وبين حروف مزيدة سماعاً ، فوصفوا ذلك الواقع اللغوي وقرروه ونبهوا على هذه الألفاظ المعدودة القليلة ، مستغنين كل الاستغناء عما يسمى بـ البحث المقـارن بين اللغات السامية الذي يهزأ) .

ص ٧٨٤ — ارتبـاط العربية بالدين (ارتباطاً شديداً أسبغ عليهـا القداسة فكان في ذلك نفعها وضررها . . أما ضررها فلأن هذه القـداسة جعلت المسلمين والعرب يتمسكون بها بصورة واحدة (؟) منها ، فتأخرت عن حاجيات العصور الحديثة ولم تستطـع أن تجاريها حتى نادى كثيرون بهجرها تماماً) .

لم أفهم المقصود بالصورة الواحدة منها إذ لم يشرحها المؤلف ولا بسط الصور الأخرى التي كان يجب أن يتمسك بهـا العرب والمسلمون . أترك ذلك وأتساءل عن آخر الفقرة : (وتأخرت عن حاجيات [كذا] العصور الحديثة) وهي شبهة يتلقفها ناطق عن آخر : هل كان ينتظر هؤلاء الكثيرون أن يجد الكيميائي والفيزيائي والميكانيكي في القاموس المحيط ولسان العرب مصطلحات لما جدّ في ديار المخترعين بعدها بقرون ؟ ثم من هم كيميائيونا وفيزيائيونا وميكانيكيونا الذين اخترعوا ولم يجد لهم علماء اللغة مسميات لمخترعاتهم وأجهزتهم وأجزائها ؟ ما تأخرت اللغة ولكن أرباب الألسنة الطويلة في غير طائل تأخروا وانحطوا وتكاسلوا إلا عن اللغو . ولا يقال إن اللغة تأخرت حتى يعجز المهندسون منا والعلماء المتخصصون الذين درسوا لغتهم كما يدرس الأجنبي لغتــه ثم تخصصوا وحاولوا وضع المصطلح . أما حين يتصدى المختص المؤهل فسيجد كل شيء ممهداً وقد حصل ذلك فعلاً في آخر المئة الماضية في القاهرة وساحل الشام ، وفي الخمسين سنة الماضية

في دمشق حيث لبت اللغة حاجات الإدارة والجيش وكليات الجامعة (في الطب والحقوق والعلوم والتجارة والزراعة)، لبتْ حين بذل المحتاج الجهد ولم يقعد يسوغ كسله بأن الماضين لم يهيئوا له .

إن تأخرنا هو في إعداد أنفسنا لنكون مؤثرين في عصرنا في العلوم والفنون والابتكار ، ومتى أردنا بجد وصدق هذا الإعداد وجدنا لغتنا سابقة أمامنا.[1] فما تقديسنا لغتنا أخرنا ، ولكن أخرنا إهمالها وقبول الدعايات المغرضة فيها وانسياقنا على أذيال مخططيها ومروجيها .

ص ٧٨٥ — (ووضع ابن سيده في مقدمة محكمه منهجاً يعتبر ثورة في عالم التأليف اللغوي العربي ... ولو طبقه عليه لأغنانا عن كثير من التخبط والاضطراب وكثير مما زيد أخذه عن الغربيين اليوم ، ولكان معجمه فذاً بين معجمات العربية) .

قلت : خير من (لو) هذه أن يقوم نفر منا بتطبيقه على (المحكم) في طبعة علمية ذات نهج سليم محكم ، وحسب ابن سيده أن وضع الخطة وليكن التطبيق من نصيبنا . وعصرنا ميسر فيه كل شيء .

* * *

لست أرى ما رأى المؤلف من تسمية (منشورات اليسوعيين في بيروت) بالمعاجم في دراسة علمية من خصائصها تحديد الأسماء والصفات ، وكان حسبه أن يشير إلى هذه الأعمال التجارية التي نظر حين تأليفها إلى ماخطط لمدارس اليسوعيين في حاشية تنوه بأثرها في إفساد اللغة ، أما أن تسمى

(١) انظر بسط قضية اللغة العربية وما أثير حولها من حرب خفية في عصرنا الحديث في كتابي (حاضر اللغة العربية) — مطبوعات معهد الدراسات العالية بالقاهرة ١٩٦٢ .

مدرسة !! وتقرن بالمعجم الوسيط فهذا ظلم كبير . ولن أستشهد إلا بأقوال المؤلف نفسه في وصفها ، وإنصافه كفيـل برفع الحيف في طبعة قادمة إن شـاء الله .

في كلامـه على (أقرب الموارد) وزياداته على القـاموس المحيـط قال (ص ٧١٨) :

« وأخـذ بعضَها الآخر (يعـني الزيادات) من معجمي جوليوس Golius وفريتاج Freitag ومحيط المحيط وقطر المحيط للبستاني . وكان جيوليوس وفريتاج قد اعتمدا في معجميها على بعض كتب الأدب المتأخرة التي لايستشهد بلغاتها ولا تعنى بالـتزام الفصحى ، فأدخلا في معجميها كثيراً من الألفاظ المولدة والعامية ، فتسربت إلى معاجم بطرس البستاني والشرتوني ، فنقدت هذه المعاجم نقداً مرًّا . وخاصة من الأب انستاس ماري الكرملي الذي كان يقف لها بالمرصاد . » .

وإشارة المؤلف إلى أنها لم يقصـد بتأليفها إلا غرض خاص لطائفـة معلومة مما يبعدها عن صفـــة المعجم الذي يكون عاماً عادة ، جاء في ص ٧٣٠ :

« وآخر الظواهر فيها عنايتها بالألفاظ والمعاني المسيحية أو الـتي لهـا دلالات خاصة عند المسيحيين . وكان ذلك أمراً طبيعياً لهم لأنهم جميعـاً مسيحيون نشؤوا على تربية مسيحية دينية وألفوا معاجمهم لمدارس مسيحية دينية هي مدارس اليسوعيين » .

وعرض المؤلف لنقد بعض هذه المنشورات الذي نشره اليازجي فقال :

« .. ونكتفي هنا بالإشارة إلى كتاب تنبيهـــات اليازجي على محيط البستاني الذي يخرج الباحث من دراسته بأن البستاني وقع في الأخطاء التالية :

التصحيف ، وتفسير الألفاظ بأخرى غير موجودة في موادها ، والخطأ في التفسير ، وعدمه تماماً ، وسوء عبارته ، والخطأ في ضبط الألفـاظ ، والإتيان بمعانٍ لم ينص أحد من القدماء عليها وقد استمد كثيراً من هذه المعاني من جوليوس وفريتاغ ، ومن الآثار المسيحية ، وأتاه كثير من هذا الخطأ من سوء فهمه لبعض عبارات الفيروزآبادي وبعض اصطلاحاته وعاداته في قاموسه .

وكل هذه الأخطاء على وجه التقريب نجده عند أفراد مدرسة اليسوعيين جميعاً .. » اهـ وواحدة مما عدّد المؤلف كافية في إبعاد هـذه المنشورات عن صفة المعجم أو أي صفة علمية .

إذا كان ماتقدم يسمى مدرسة فللمؤلف رأيه ، لكن الذي لايجـوز بحال أن تقرن هذه الأعمال بالمعجم الوسيط ويقال في المقابلة إن هذا خير من معاجم اليسوعيين ، بين الفريقين فروق صارخة فأين أعمـال هؤلاء الموصوفة آنفاً من أعمال مؤسسة دستورها المحافظة على سلامة العربية وتلبية حاجات العصر في ميادين العلوم والفنون .. الخ وجماعتها علمـاء أعلام ، أعمالهم خلصت للعلم لا لاستهلاك مدارس خاصة أريد الحيلولة بين تلاميذها وبين معاجم اللغة الصحيحة .

* * *

لئن استطعت تعداد ما وقفت عنده من هذا الكتاب النافع إن ما راقني منه أكثر ، والأعمال العلمية هي التي تستحق أن يوقف عندها طويلاً ويبذل في سبيل استكمالها كل جهد ، وأرجو أن يطرد نمو هذا البحث واستكماله

في طبعة بعد طبعة والله الموفق (١) .

(١) رأيت - خدمة للكتاب - أن أشير إلى ما لم يذكر فيه من أخطاء الطبع التي تلفت النظر لغلبة الصحة والجودة عليه :

ص	س	خطأ	صواب
ح	١	جدير بالشكر المشرفين . .	المشرفون
«	«	والعاملين	والعاملون
٢	٤	هذا	هذه
١٦	١٧	وينشئوا	وينشؤوا
١٧	١٧	حدا بالمؤرخين إلى	حدا المؤرخين على
٥٤	٤	لا زال	ما زال
١٠٤	٤	أخطئوا	أخطؤوا
١٢٢	٢٢	الألف بائي	الألفبائي
١٢٤	٢٢	بينها	بينها
١٦٢	١٥	الجغرافيا	الجغرافية = ١٦٩ الخ
١٧٠	٩	وصفهم	وصفها
٢٠١	٢٣	الباقين	الباقيين
٢١٢	١٩	عقد	عقدوا
٢٢٢	١٤	يعبئون	يعبؤون
٢٢٣	٤	نظام . . بنظام	بنظام . . . نظام
٢٢٩	٩	الرائين	الراءين
٢٣٥	١٤	سمحمح	صمحمح
٢٥٠	٥	هل لا بد	ألا بد
٢٦٢	٦	أقطب	أقب

ص	س	خطأ	صواب
٣١٩	٦	الأقصين	الأقصيين
٣٤٤	١١	ههنـــا	ها هنا = ٥/٣٧٠
٣٧٤	٥	لاضطرادها	لاطرادها
٣٨٦	٥	لا يتعارض ... مع تحريه	لا يتعارض ... هو وتحريه
٤٢٨	٦	اتفق مع الخليل	اتفق هو والخليل
٤٤٦	٢	ثلاث أصول	ثلاثة أصول
٤٤٩	٩	بواسطتها	بوساطتها
٤٥٤	٩	والمزاد	والمزيد = ٥٣٩ .. الخ
٤٧١	٢٠	تميزه عن	تميزه من
٤٨٦	١٩	عربي	غير عربي
٥٠١	٩	اللغويين	اللغويون
٥٤٠	٢٢	فأجفئوا	فأجفؤوا
٥٦٤	٣	على جميع صيغ ومعاني كتابي العين والجمهرة :	على جميع صيـغ كتابي العين والجمهرة ومعانيها
٥٨٦	١٧	المعاني الثلاث	المعاني الثلاثة
٦٤١	١٣	المعلقات السبعة	المعلقات السبع
٦٧٧	٧	حدا به إلى	حداه على

سعيد الأفغاني



الأعلام العربية

(دراسة لغوية اجتماعية) للدكتور ابراهيم السامرائي

٩٤ ص من القطع الوسط ـ مطبعة أسعد ـ بغداد ١٩٦٤

ما ضم بلد مختلفين في الجنس أو العقيدة أو الحضارة إلا كان بين فئاته أخذ وعطاء وتأثر وتأثير، في الأخلاق والعادات والمواضعات، لا فرق في ذلك بين غالب ومغلوب ووطني ومحتل. واللغة، هذه الظاهرة الاجتماعية لاتتأبى على الناموس العام، فما زالت اللغات الأوروبية الغربية مثلاً تحمل طوائف من كلمات أصولها عربية تسربت إليهم من مئات السنين، وما زالت لهجاتنا الدارجة في البلاد العربية عليها آثار من التركية والكردية والفارسية، ثم الإنكليزية والفرنسية والإيطالية في عصرنا الحديث.

وهذه الرسالة محاولة من صاحبها، أثبت فيها عدداً من الأعلام التي يسمّى بها في العراق، بين طوائفه المختلفة من مسلمين ونصارى ويهود وصابئة، استقراها الباحث، وأشار إلى ظاهرة حديثة تسربت فيها أعلام مما يسمي به المسلمون إلى بقية الطوائف، كما أثبت أعلاماً سجلها من تونس والجزائر، ثم تطرق إلى ما يشيع في إيران من أعلام عربية الأصل على أكثرها الطابع المذهبي، وهو يأمل أن تتيسر له مادة أخرى يكمل «بها هذا الاستقراء الذي لا بد منه في الدراسات اللغوية الاجتماعية التاريخية» على حد تعبيره.

ولا ريب أن الخطوة الأولى إلى تلك الغاية هو الاستقراء والتسجيل، يعقبها خطوة ثانية تتميز بها مدلولات الظواهر التي تدرس، وينظر بعدها ما يمكن أن يستنبط منها من أحكام اجتماعية تاريخية.

هذا وقوله ص ١٥ « وهذه المسألة اللغوية [يعنى تعبيرهم في الشمال الإفريقي عن ابن الحاج بـ بلْحاج] عربية قديمة فقد سمع (بلْحارث بن كعب وبلْعنبر وبلْهجيم) وغيرها » موهم ، فلا شك أن الباء في الأعلام الأخيرة مختصرة من (بنو ، بني) على حين باء (بلحاج) مختصرة من ابن .

وأخشى أن يكون خلل في قوله ص ٥٠ « دراسة الأعلام الحديثة ... تؤلف جانباً لغوياً لا بد من الاضطلاع به والتبصر فيه ليكون ذلك معيناً على فهم العربية الفصيحة » فالمتبادر إلى الذهن العكس .

وربما كان شيء من التعميم غير الصحيح في حاشية (٧) ص ٥٣ : (حمد الله) من أعلام الإيرانيين وهو غير معروف عند العرب » !! ففي دمشق مثلاً عدد من البيوت ألقابها آل حمد الله

كما توقفت عند قوله ص ٧٣ « سبتي : من الأعلام الشائعة بين المسلمين في عصرنا هذا » ويحسن أن يحدد المكان ، فما أذكر أني سمعت به في الأعلام الشائعة .

وفي بعض أخطاء الطبع ما يحير القارئ كقوله ص ٧٥ : (سِمحه) وهي من أعلام اليهود الشائعة الاستعمال ، وهي من مادة عبرانية وهي صفة مؤنثة تعني في العربية (فرحة) . اهـ فهل يريد : تعني في العبرانية (فرحة) العربية ، كما هو الظاهر من القرينة ؟

والعرب ترسم (سورية) بالهاء لا بالألف كما ورد في ص ٨ وكذلك إفريقيـــة المرسومة بالألف خطأ في ص ٢٧ . وصواب (ابن أصيبعة) في ص ٤٠ هو : ابن أبي أصيبعة .

أرجو أن يوفق الله المؤلف الفاضل إلى بلوغ ما يأمل فيما ينفع .

س . أ

طب الحبشة ونباتاتها

المؤلفات الطبية الحبشية

تأليف ستيفان ستره لسين

نشرته الأكاديمية البولونية للمؤلفات الشرقية عام ١٩٦٨

هذا الكتاب تبلغ صفحاته نحو (٨٠٠) صفحة مطبوع على ورق جيد بقياس ١٦٫٥ × ٢٤ سم٢. عالج فيه المؤلف في مقدمة بلغت نحواً من (١٠٠) صفحة ، البحث عن الطب والسحر عند الأحباش ، وتوسع توسعاً كلياً في الكلام عن اللغة الحبشية وكتابتها ولهجاتها ، وذكر المراجع التي اعتمد عليها ، كما تحدث عمن عالج الموضوع من علماء آخرين ، ثم استطرد في الكلام عن بعض المخطوطات الطبية ، فخصص لكل من المخطوطات الست التي كانت ترجماتها الافرنسية تحتل الجزء الأكبر من الكتاب ، صفحات يتحدث فيها عن أوصاف المخطوطة ومكان وجودها ومؤلفها ولمن كتبت ، وتجد المؤلف يصرف جهده لوصف اللهجة التي كتبت بها المخطوطة ، ويستعين بصور الكلمات الحبشية التي لفتت نظره ليتحدث عن تهجيتها وعن موضوع الرسالة ولماذا خصصت ، ويذكر الأمراض بأسمائها الافرنسية ، فإن لم يعرف اسم المرض كتب اسمه بأحرف افرنسية كما يلفظ بالأمهرية أو الغيزية ، وإليك مثالاً لذلك : يقول في وصف مخطوطة (أبا يوحنس) أي (الأب يوحنا) ما يلي :

إن القسم الثاني من هذه المخطوطة (الوريقات ٥١ — ١٠٠) تحمل عنوان « كتاب الكتاب لكل أمراض الجسم » تحوي الكلام عن الجراحة.

ومعالجـــة الأمراض العامة (الكسور والقطوع والعضات وال ميزه ، والكسلاسينا ، والجرب ، والجروح ، والجذام الخ .....) فنجد هنا كلمتي الميزه والكسلاسينا أمهريتين .

ويتحدث عن التكرار في الواصفات وكثيراً ما يستعمل نصوصاً كاملة مكتوبة بالأحرف الأمهرية . ثم يتحدث المؤلف في الفصل الثالث عن مشاكل كتابه ولهجات المخطوطات فيستعرض كل حرف من حروفها فيتوسع في الكلام عن ذلك الحرف وأشكاله المستعملة في كل لهجة من لهجات الحبشة ، مستعيناً بكلمات مرسومة طبق الأصل ، ثم ينصرف إلى تهجية الأحرف فيوزعها إلى أحرف حلقية وشفوية وسنية ، ويمضي طويلاً في التحدث عن ذلك فتبلغ الصفحات التي خصصت لذلك (٦٠) صفحة ، ويتحدث خلالها عن الكلمات المستعارة من لغات أخرى يستهلها بالعربية فيتحدث عن الألفاظ التي اقتبسها الأحباش من العربية وأماكن وجودها في المخطوطات كالمصطكي والصبر والزبيب والسفرجل والهيل والخيار والراوند والنيل ولسان البحر إلخ ......

ثم ينتقل إلى الإغريقية واللاتينية فيستعرض ما اقتبس من هاتين اللغتين من ألفاظ وأسماء ، ثم اللغة التيفرينيا ، ثم لغة الأغاو وخلاف ذلك من لهجات ولغات ، ثم ينهي مقدمته في التحدث عن اللغات الخليطة بين الأمهرية والنيزية ، وملخص القول : إن تلك المقدمة ذات قيمة كبيرة لكل من يحاول الترجمة من اللغات الحبشية كالأمهرية والنيزية ، فقد جمعت فأوفت وتحدثت فأفاضت ، واعتباراً من الصفحة ١٠٣ حتى الصفحة ٥٨٠ يترجم لنا المؤلف المخطوطات الست التي عثر عليها ، فيخصص الصفحة اليسرى لصفحة من صفحات النص المخطوط مصورة بعناية والصفحة اليمنى لترجمة

تلك الصفحة ، وقـــد ذيل كل صفحة من صفحات النص بحاشية تذكر مقابلة بين كلماتها والكلمات المختلفة في النصوص الأخرى .

ويبتدىء بكتاب الحميات حسب المخطوطة (ك) فيستغرق ذلك (٤٤) صفحة ثم يخصص (١٢) صفحة لتصوير المخطوطة (ل) ثم يترجم المخطوطة (ث) وهكذا إلى أن يتم له ترجمة المخطوطـات الست حسب الخطة ذاتها ومنتهجاً النهج ذاته . ثم يخصص ما تبقى من الكتاب لتصوير مخطوطات أخرى غير مترجمة .

والخلاصة إن الكتاب المذكور هو كتاب ترجمة مخطوطات حبشية عن الطب قام بترجمتها إخصائي باللغات واللهجـات الحبشية غير طبيب ، ولذلك فهو لا يعرف النباتات الطبية وأسماءها العلمية ، وكثيراً ما نجـــده يستعمل الكلمات الحبشية للنباتات ، وهذا ما يجعل إمكانية الاستفادة من تلك الترجمة محدودة بالنسبة للأطبـاء والمشتغلين بالطب القـديم . وقد اعترف المؤلف في صدر مقدمته بأن الموضوع يحتاج إلى لجان مؤلفة من أطباء ونباتيين بالاضافة إلى علماء اللغات الحبشية ليكون العمل تاماً .

ولعل الأجزاء الأخرى من هـــذه المجموعة القيمة ستتحفنا بمعلومات أكثر وضوحاً وأكثر فائدة سواء للأطباء أو للنباتيين .

حسن السقا



مجمل تاريخ الأدب التونسي

من فجر الفتح العربي لافريقية إلى العصر الحاضر

تأليف : حسن حسني عبد الوهاب

عدد صفحاته ٣٥٨

طبع بمطبعة المنار بتونس ١٩٦٨ م

ظهر هذا الكتاب لأول مرة بتونس سنة ١٩١٨ م بعنوان المنتخب المدرسي من الأدب التونسي . وبعد مضي نحو ربع قرن على الطبعة الأولى ، طبع طبعة ثانية بالقاهرة سنة ١٩٤٤ م . ثم بعد نفاد الطبعة أعادت طبعه مكتبة المنار بتونس ، بعد أن استبدل اسمه ، وضم مؤلفه اليه طائفة وافرة جديدة من الأدباء ، خلت الأولى والثانية من تراجمهم .

وقد قسم المؤلف تاريخ الأدب التونسي إلى أربعة أدوار رئيسية ، يفصل بين كل واحد منها حادث مهم يحمل في تاريخ البلاد انقلاباً عظيماً في السياسة والاجتماع والعلم والأدب والفن ، وهي :

الدور العربي ٢٧ — ٣٠٠ هـ = ٦٤٧ — ٩١٢ م . والدور العربي البربري الأول ٣٠٠ — ٦٠٠ هـ = ٩١٢ — ١٢٠٤ م ، وفيه ثلاثة عصور : العصر العبيدي ٢٩٦ — ٣٦٢ = ٩٠٩ — ٩٧٣ م ، والعصر الصنهاجي ٣٦٢ — ٤٥٠ = ٩٧٣ — ١٠٥٨ م . وعصر الطوائف ٤٥٠ — ٦٠٠ هـ = ١٠٨٥ — ١٢٠٤ م .

والدور الثالث هو الدور العربي البربري الثاني ٦٠٠ — ٩٥٠ هـ = ١٢٠٤ — ١٥٤٣ م . ويبتدىء مع ظهور الدولة الحفصية التي تدخل الأسبان في شؤون البلاد واستيلاء الترك عليها .

والدور الحديث ، وفيه عصران : العصر الحسيني الأول ١١١٧ — ١٣٠٠ هـ = ١٧٠٥ — ١٨٨٢ م ، والعصر الحسيني الثاني وفيه ظهرت النهضة الأدبية الأخيرة ويمتد حتى قيام الجمهورية التونسية .

وقد سعى المؤلف بقدر المستطاع أن يجمع في هذا المجمل عدداً من الأدباء القدامى المحترمين ، فبلغ عددهم ٩٢ أديباً بين ناثر وشاعر ، وهم :

عبد الله بن الزبير ، عقبة بن نافع ، موسى بن نصير ، الحسام بن ضرار ، الأغلب التميمي ، سليمان الغافقي ، عبد الرحمن بن زياد ، ابراهيم ابن الأغلب ، داود القيرواني ، أسد بن الفرات ، الامام سحنون ، أبو العباس بن الأغلب ، عبد الملك المهري ، أحمد بن سوادة الأغلبية ، بكر ابن حماد ، عبيد الله المهدي ، أبو بكر اللؤلؤي ، أبو العرب التميمي ، القائم بأمر الله ، أبو القاسم الفزاري ، ابن الرايس ، محمد بن هاني ، علي بن الأيادي عبد الله بن أبي زيد ، ابن عبدون الوراق ، عبد الكريم النهشلي ، عبد الرحمن القرامي ، محرز بن خلف . ابراهيم الحصري والكاتب الرقيق ، ابن الربيب ، ابن غانم الكاتب ، علي بن أبي الرجال ، ابن خلوف الحروري ، علي بن حبيب ، عبد الواحد بن فتوح ، ابو طاهر التجيبي ، ابن أبي حديده ، الحسن بن رشيق ، محمد بن شرف ، علي الحصري ، عبد الله الشقراطسي ، أبو الحسن الحداد ، ابن تميم بن المعز ، أبو الفضل بن النحوي ، ابن بشير المهدوي ، جعفر بن شرف ، ابن فرحان القابسي ، أبو زكرياء الأول ، أبو المطرف بن عميرة ، أحمد بن الليانى ، أبو عمرو بن عربية ، محمد بن أبي الحسين ، عنان ابن جابر ، أحمد التيفاشي ، ابن الساط المهدوي ، أبو الفضل التيجاني ، عبد الله التجاني ، ابن حُسَيْنية ، محمد الظريف ، عبد الرحمن بن خلدون ، الشهاب بن خلوف ، أبو الفتح ابن عبد السلام ، محمد الرشيد باي ، علي

الغراب ، الشيخ الشافعي ، محمـــد الورغي ، خليفة المشرّق ، ابن سعيد الحجري ، حمودة بن عبد العزيز ، محمد ماضور ، محمد الأصرم ، الطاهر بن عاشور ، محمود قابادو ، ابن أبي الضياف الباجي المسعودي ، محمد السنوسي ، أبو القاسم الشابي ، الطاهر الحداد ، عبد الرزاق كرباكة ، مصطفى آغة ، سعيد أبو بكر ، الشاذلي خزندار ، محمد أبو رقيبة ، محمد الخضر بن الحسين ، العربي الكبادي ، والسعيد الخلصي .

وقد ترجم لهؤلاء ، ثم ذكر بعض آثارهم من شعر ونثر ، وذيل كتابه ببعض التعليقات المفيدة أوضح بها ما كان غامضاً ، تغمده الله برحمته وإحسانه ، وجزاه خير جزاء .

عمر رضا كحالة



الأصول العربية للدراسات السودانية

جمع وإعداد وتنسيق : يوسف أسعد داغر

عدد صفحاته ٢٦٢

طبع في مطبعة النجوى بيروت ١٩٦٨ م

عهدت منظمة اليونسكو إلى واضع هذا الكتاب ، العمل خلال أربعة أشهر تبتدىء في ٨ كانون الثاني ، وتنتهي في ٨ أيار ١٩٦٧ م ، في وزارة التربية والتعليم في السودان ، كخبير للتوثيق التربوي .

وقد أتاح له رئيس العمل أن ينقب في مكتبة جامعة الخرطوم عن المراجع الخاصة بالسودان ، فتجمع لديه مجموعة كبيرة تقرب من ألفي مصدر في الدراسات السودانية ، من كتب وضعها أو ترجمها سودانيون ، أو كتبت

عن السودان في الخارج ، أو نشرت في السودان في الفترة الواقعة بين ١٨٧٤ — ١٩٦٧ م .

كما تضم هذه المجموعة — مئات المقالات والبحوث المنشورة في المجلات العربية الكبرى ، أو في المجلات السودانية التي ظهرت في السنوات الأخيرة ، مما استطاع الوصول اليه ، ولم يتعرض للأبحاث والمقالات التي نشرت في الصحف اليومية أو الأسبوعية .

وأما خطة العمل في هذه المجموعة فقد وضع جامعها تحت كل موضوع معين المصادر التي تعود اليه ، وأثبتها وفقاً للترتيب المعجمي لأسماء مؤلفين أو كاتبيها ، وإلا فبعنوان الكتاب أو المقال ، ان كان غفلاً من اسم المؤلف .

وإذا شاء الباحث أن يتعرف إلى الكتب أو المقالات والأبحاث التي وضعها المؤلف ، فعليه أن يتبع الأرقام المثبتة بعد اسمه مباشرة في الفهرس الخاص بالمؤلفين ، إذ لكل كتاب أو مرجع رقمه المسلسل الذي يميزه ، كما أورد اسم المؤلف تبعاً للشهرة أو الكنية أو اللقب الأشهر في حال غموض اسم الأسرة .

وبالختام نشكر الأستاذ واضع هذه الأصول على ما قدم ويقدم من بحوث أصيلة تعين الباحث والمؤلف في عملها متمنين له متابعة العمل والبحث .

ع . ك



كتاب الطبقات

عن أبي عمرو خليفة بن خياط

رواية : موسى بن زكريا التستري

لمحمد بن أحمد الأزدي

القسم الثاني : عدد صفحاته ٤٦٧

تحقيق : سهيل زكّار

بلغ عدد من ترجم له في هذا القسم ١٤٢٦ مترجماً ، وقد ذكرهم المؤلف على طبقات وهي من قريش ، ثم من المهاجرين من قريش ، ثم من أبناء المهاجرين من قريش ، ممن سكن مكة من أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم من أهل الطائف من أصحاب النبي ﷺ ، ثم من أهل اليمن من أصحاب رسول الله ﷺ ، فمن أهل اليمامة من أصحاب رسول الله ﷺ ، فممن أتى مصر من أصحاب الرسول وشهد فتح مصر ، فممن أتى الشامات من أصحاب الرسول ﷺ ، فمن أهل الشام بعد أصحاب الرسول ﷺ ، فمن أهل العواصم ، فمن نزل الجزيرة ، فمن أهل الموصل ، فمن أهل خراسان ، فمن أهل الري ، فالمدائن فواسط ، فمن نزل بغداد وتأهل بها من المحدثين ، فتسمية من حفظ عنه الحديث عن رسول ﷺ من النساء .

وقد وضع للكتاب فهارس للطبقات والمترجمين والأعلام والقبائل والأرهاط والأمم والأماكن والأحاديث النبوية ، مما أماط اللثام عما حواه هذا الكتاب من أبحاث جديرة بالعناية والتقدير .

وقد علق المحقق في صلب صفحات الكتاب تعاليق مفيدة ، ذكر في بعضها المراجع التي اعتمد عليها في تحقيق الكتاب مما يدل على جهد مشكور وفقه الله إلى المزيد من العمل على إحياء تراثنا العربي الجليل .

ع . ك

العصا في حياتنا وتراثنا

تأليف عبد القادر عيّاش

عدد صفحاته ٩٦

طبع : دير الزور ١٩٦٨ م

هذا بحث طريف ومفيد عن العصا قد بحثه مؤلفه بحثاً دقيقاً فشمل نواحي متعددة ، فقدم له توطئة ، ثم ذكر الأسماء القاموسية للعصا التي وردت في اللغة العربية ، منذ عصر الجاهلية فذكر ألفاظاً كثيرة لأشكال وأجناس من العصي ، استمر استعمالها في اللغة ، من قبل الشعراء والكتاب والأدباء والعلماء في كل العصور إلى اليوم في تعابير وتشابيه ومجازات وأمثال وحكم بمفرداتها وجموعها ومشتقاتها وتصاريفها بمختلف المعاني ، وقد رتّب المؤلف هذه الألفاظ على حروف المعجم .

ثم أورد الباحث مراتب العصا وما إليها ، فالأسماء المحلية لها ، فشجر العصي والميدان ، فتقويمها وتزيينها ، فالاتجار بها ، فالعصا في التاريخ ، فاستعمالاتها ، فالجلد ، فالعصا في عادات العرب ، فجناياتهـــا ، فالعصا في الفكاهة والنوادر والقصص ، فالعصا في الشعر العربي القديم ، فني الأمثال القديمة ، فضرب الأمثال بهـا في الشعر العربي القديم ، فالعصا في آيات القرآن الكريم ، فني الحديث النبوي ، فتسمية الأشخاص بأسماء العصا ، فالعصا في الأدب العربي الحديث ، فني الأمثال الشعبيـة ، فالعصا في ألعاب الكبار ، فني ألعاب الصبيان ، فالعصا في الفنون والمتاحف ، فالعصا في الاغاني الشعبية في الفرات .

وبالختام نشكر المؤلف على رسالته الصغيرة بعدد صفحاتها ، الكبيرة بما حوته من أبحاث تدل على الجهد الذي بذله في جمع مادة بحثه وتنسيقه ، فجزاه الله كل خير .

ع . ك

ديوان

كمال نصرت

عدد الصفحات (٣٧٦ صفحة من القطع المتوسط طبع في بغداد عام ١٩٦٨)

يضم هذا الديوان شعر أحد الشعراء العراقيين المعاصرين ، وقد قدّم له إبراهيم الوائلي الأستاذ بكلية الآداب من جامعة بغداد . وفي الصفحة الأولى صورة للشاعر تحتها بيتان من نظمه ، وقد أشار صاحب المقدمة إلى تأثر الشاعر نصرت بالرصافي و « طريقته في الأداء » ونحن نؤيد صاحب المقدمة الموفقة في رأيه الناقد ؛ ان شعر الشاعر منصرف إلى الفكرة والموضوع وإنه قليل الالتفات أو الاهتمام (بالموسيقى التعبيرية التي تنسجم في إيقاع رتيب) على حد تعبير الأستاذ الوائلي كما نؤيد رأيه في ملاحظة بعض التناقض عند الشاعر حين يطوّح به اليأس فيتمنى الموت ، وحين تعود إليه قوة ذاته فيصف نفسه بالتحمل ومغالبة الدهر والأيام ، ويلي التقديم مقدمة أخرى للأستاذ عبد القادر البرّاك لم تضف شيئاً إلى الديوان لولا بعض عبارات المديح التي أملاها على الكاتب وفاؤه للشاعر لا نقده العلمي الصحيح ، وبعد هذه المقدمة الثانية ، قصيدة بائنة الطول للشاعر جميل أحمد الكاظمي في تقريظ الديوان ، لم تزدنا تعريفاً ولم تكوّن عندنا رأياً خاصاً ، ثم أبيات أخرى للشاعر عبد الهادي البغدادي ، وهي ذات معنى عام يصح أن توضع بين يدي كل ديوان ، وأخيراً تأتي ترجمة الشاعر بقلم محمد علي حسن وقد تحدث فيها عن أصله ونسبه وحياته ودراسته والوظائف التي شغلها والترجمة تعطينا معلومات مفيدة عن حياة الشاعر حسب السنين .

ثم يأتي شعر الديوان ، وهو موزع على أبواب هي الوطنيات ، السياسيات ، الاجتماعيات ، الإخوانيات ، الوصف ، المراثي ، الهجاء ، الغزل ، ثم عدد من القصائد جعل لها الشاعر عنواناً (ديوان سميّـة) وهي موجهة إلى مغنية عراقية معروفة . ثم مجموعة أخرى عنوانها « السمراء » وهي مغنية عراقية أخرى ألمع إلى اسمها في القصيدة الأولى من هذه المجموعة . ومجموعة شعرية ثالثة عنوانها « عذراء المستشفى » وأخيراً المتفرقات ، ولقد تعددت مقاصد الديوان وفق اختلاف الموضوعات وتباينها ، وشعر الشاعر بسيط في لفظه وفي مضمونه . وهو لا يدلك على ثقافة واسعة ، كما يدل على أن الشاعر اعتمد على فطرته الأدبية وعلى مجالسة الأدباء والإفادة منهم وخاصة الزهاوي والرصافي ، أما الصور الشعرية والمعـاني الجديدة والخيال البعيد فألوان تجدها نادرة في هذا الديوان .

أحمد الجندي



ديوان محمد العيد محمد علي خليفة

عدد الصفحات (٦٠٢) من القطع المتوسط

من مطبوعات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

ومن منشورات وزارة التربية الوطنية بالجزائر لعام ١٩٦٧

يشتمل هذا الديوان الشعري الكبير على مقدمة صغيرة بقلم وزير التربية الوطنية الجزائرية وعلى تقديم بقلم (رائد الأدباء ورئيس العلماء الإمام الشيخ محمد البشير الإبراهيم رحمه الله) ، ويلي ذلك كلمة بقلم الأمير شكيب أرسلان ، ثم خاتمة شعرية عنوانها « خاتمة ثناء وابتهال » ثم تبدأ القصائد مبوبة حسب

الموضوعات ، المتسلسلة على الطريقة الآتية (أدبيات وفلسفيات ، إسلاميات وقوميات ، أخلاقيات وحكميات ، اجتماعيات وسياسيات ، اللزوميات ، الإخوانيات الثوريات ، الذكريات ، المتفرقات ، الألغاز ، الأناشيد) .

وينتهي الكتاب إلى جدول كبير يبلغ ثماني صفحات يشير إلى الخطأ المطبعي الذي ورد في الكتاب ، وهو يدل على كثرة الأخطـــاء ، وفي الصفحة الأخيرة من الغلاف ترجمة لصاحب الديوان مع صورة صغيرة له بلباسه الجزائري الوطني ، ومن الاطلاع على هذه الترجمة ، تتبيّن الطابع الديني العربي الذي الـــتزمه الشاعر وهو الطابع الذي ظهرت آثاره في قصائده الكثيرة التي ملأت الديوان .

أما شعر الديوان ، فمن الشعر العربي الذي أفاد أسلوبه من القراءات الدينية ولا بدع فالشاعر من تلامذة جامع الزيتونة في تونس ، ويلاحظ قارئ الديوان أن القصائد طويلة وأن نفس الشاعر غير قصير ، كما أن أكثر هذه القصائد قيل في مناسبات خاصة وعامة ، كالحفلات والاجتماعات الدينية والوطنية وأبرز ما في هذا الشعر أسلوبه الصحيح ، وإن كان بسيط المعاني غير معتمد على الصور البراقة ، والخيال الشعري الذي يهتم به الشعراء الجدد .

أ. ج



الأمثال البغدادية المقارنة

الجزء الثاني

عدد الصفحات / ٣٩٠/ من القطع المتوسط

من تأليف العميد المتقاعد عبد الرحمن التكريتي

من مطبوعات مكتبة المثنّى ـ بغداد لعام سنة ١٩٦٧

هذا هو الجزء الثاني من كتاب « الأمثال البغدادية المقارنة » ويعني العنوان أن المؤلف ، أو المحقق ، قد جمع أمثال أحد عشر قطراً عربياً وقارنها بالأمثال العراقية المماثلة ، وهي على حد قوله ، أول محاولة لمقارنة الأمثال العربية ، وقد سبق أن أهدانا المؤلف الجزء الأول من سفره ، ويبدأ هذا الجزء بتنبيه أشار فيه صاحب الأمثال إلى المراجع التي استعان بها على وضع كتابه ، وقد رتب الأمثال على الحروف الأبجدية بادئاً جزءه هـذا بحرف « التاء » وطريقته أنه يأتي بالمثل العراقي فيثبته بالخط العريض الأسود مع وضع رقم لكل مثل ، ثم يشرح بعده لماذا يضرب هذا المثل ، ويلي ذلك تعقيب يبين المثـــل الذي يؤدي معناه في قطر عربي آخر ، ويبدأ هذا الجزء بالرقم (٥٨٣) وينتهي بالمثل ذي الرقم (١١٨٥) وفي الصفحات كلها حواشي تبين المراجع التي يمكن الرجوع إليها استزادة للاطلاع .

والعمل الذي قام به العميد التكريتي عمل شاق ومضن ، وهو يسد ثغرة علمية في الثقافة العربية الحاضرة .



أ . ج

ديوان ابن الدهّان الموصلي

حققه عبد الله الجبوري في / ٢٨٠/ صفحة

من القطع المتوسط عام سنة ١٩٦٨ م وطبع في مطبعة المعارف ببغداد

هذا شاعر وُلد في الموصل سنة ٥٢١ هـ على وجه التقريب وتوفي في حمص سنة ٥٨٢ هـ فهو عراقي سوري . وقد قدم المحقق للديوان بمقدمة ذكر فيها تعدد أسماء الذين حملوا هـذا اللقب ، ووصف مخطوطة الديوان وصفاً مسهباً كما تحدث عن أهمية شعر الشاعر . أما اسم الشاعر المفصل فهو : مهذّب الدين عبد الله بن أسعد أبو الفرج الموصلي الشافعي .

لم يلتزم المحقق الترتيب الأبجدي في نشر قصائد الديوان فقـد بدأه بقصيدة عينية . وأكثر الديوان من شعر المديح الذي يتخلله الغزل كما كانت عادة الشعراء في عصر الأيوبيين وهو عصر يعتبر في نظر الناقدين عصر انحطاط للشعر ، ولكن شعر هذا الشاعر على ما تخلله من تكلف وصناعة غير خالٍ من الإحساس الشعري وإن كان التقليد قد أخذ بجانبيه وران عليه . وفي القصيدة العينية التي بدأ بهـا الديوان أبيات مشهورة رددها المغنون وتأنق في تلحينها الملحنون وهي :

قل للبخيـــلة بالسلام تورعاً كيف استبحت دمي ولم تتورعي

وفي قصائد الديوان المطولات التي تذكرك بعهود الشعر الأولى كالقصيدة اللامية التي وردت في الصفحة (٣٥) فقد بلغ عدد أبياتها (٧٤) بيتاً وكذلك قصيدته الحائية التي وردت في الصفحة (٥٩) وعدد أبياتها (٨١) بيتاً وهما في مديح السلطان صلاح الدين الأيوبي .

ويبدو أن الشاعر كان معجباً بالسلطان مأخوذاً بانتصاراته الرائعة مما أثار شاعريته وحفزها على الإسهاب ، وكان يتعالى عن التكسب بالشعر في زمن كان التكسب فيه مهنة فهو يخاطب القاضي الفاضل ، رجل الأدب في عصره فيقول له :

وفاءً لحق الود لا تابعاً منىً ولا بائعاً شعراً ولا طالباً جدوى

وهي مزية تحفظ له فتشكر .

ولكن التقليد الذي ملك عنان شاعريته قد حجب عنه الآفاق الشعرية الصحيحة فخرج شعره بسيطاً مصنوعاً لا يحرك القارئ إلا في موسيقاه اللفظية وعباراته المنمومة . أما المعاني الجديدة وأما الصور واللمحات الأخاذة فنادرة في هذا الشعر الذي جنى عليه عصره كما جنى على الشعراء غيره .

ويختم المحقق الديوان بستة من الفهارس المفيدة ، ثم قائمة خاصة بالكتب التي حققها الأستاذ الجبوري .

وهذا الديوان مفيد لأنه أحيا شاعراً مغموراً ، ولأنه يعطي صورة من صور عصره الأيوبي كما يذكر القراء بقوة الشعر ومتانته وجزالته .

أ . ج



آراء وأنباء

انتخب مجمع اللغة العربية في الجلسة التي عقدها بتاريخ ١٧ ذي القعدة ١٣٨٧ ﻫ وفق ١٥ شباط ١٩٦٨ م ، الأستاذ عبد الهادي هاشم عضواً عاملاً فيه ، وقد صدر بذلك المرسوم ذو الرقم (٧٥٤) المؤرخ في ٨/١/١٣٨٨ وفق ٦/٤/١٩٦٨ .

وقد دعا المجمع الأستاذ المنتخب لاحتلال المقعد الشاغر بوفاة المرحوم الأستاذ عز الدين علم الدين التنوخي ، وعقد لاستقباله جلسة علنية بتاريخ ٧ صفر ١٣٨٩ ﻫ وفق ٢٤ نيسان ١٩٦٩ م .

وفي جلسة الاستقبال ألقى الدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع خطاب الترحيب بالعضو الجديد ، الذي أجابه بخطاب تحدث فيه عن حياة سلفه وآثاره .

وفيما يلي نثبت نصّ الخطابين .



خطاب الدكتور عدنان الخطيب

في حفلة استقبال

الأستاذ عبد الهادي هاشم

[في ظهيرة يوم من شتاء سنة ست وأربعين وتسعمئة وألف ، كانت الشمسُ تبدو مثقلة وئيدة الخطى ، حينَ بدأت « عناية الله » ، واسمها بالفرنسية « Providence » ، ترفعُ مراسيَها وهي تتحرك ببطء نحو الغرب ، مبتعدة عن رصيف ميناء بيروت .

كانت الباخرة تحمل على ظهرها ، فيمن تحمل من السفّار ، نفراً من أبناء الشام ، وقفوا على سطحها ، والبشر يطفح من وجوه أكثرهم ، فقد جرى الزمان بما يشتهون بآخرة ، وأبحروا نحو بلاد فيها ما يرغبونه من علم ومعرفة .

كان هؤلاء السَفْر ، يلوحون بمناديلهم كعادة المسافرين ، تحيةً لأهل لهم وصحاب وقفوا على الرصيف ، تنسكب الدموع من عيونهم ، ساخنة هادئة تحمل معنيَين ، دمعُ فراق لأحبة ينأون ، ودمع إشفاق لهؤلاء الذين ركبوا البحر ولما يطهر ماؤه مما زُرع فيه من صواعق تزهقُ الروحَ باللمس الرفيق .

لقد كانت « عناية الله » أول سفينة تقصد إلى أوربّة بعد أن أذيع في الناس ، نظافة البحر مما بثّ المتحاربون في دروبه ، خلال حرب ، خمد أوارها ، قبل أن تنفجر . وكانت العناية المبذولة في الكشف عن هذه

الخبايا في البحر ، أضيق من أن تحيط بكل شيء ، وما زال الناس في الفينة بعد الفينة ، يسمعون عن قرابين قدمتْها هذه الألغام طعاماً شهيّاً لما ضمّ البحر بين جنباته من أحياء . كان من بين هذه الضحايا برءاء ما اجترموا ذنباً ، فاصطلوا بالنار ، بعد أن قدّر لسعيرها الذي أججه الطامعون ، أن يهدأ ، فلا جرم ، تسكبُ الدموع عن حبّ ، وتسكبُ الدموعُ من إشفاق .

ما كادت الباخرة تبعد قليلاً ، حتى أخذ جرسٌ فيها يقرع على شكل خاص ، فُسّر للسفّار ، بأنه دعوةٌ إليهم كي يجتمعوا على السطح ، وبدأ المسافرون يتحلقون حول الرّبابنة وهم يرشدونهم إلى ما يجب عمله ، إذا مازُلزلت الباخرة بهم من لغم مسَّتْه ، ويعلمونهم كيف تلبسُ أدوات العوم ، إذا أُهيب بهم : أن ألقوا بأنفسكم إلى الماء .

كان المسافرون يستمعون بقلوبهم إلى هذه الإشارات تُلقى عليهم بالفرنسية ، وتلفتَ الركْب من أبناء الشام أو أكثرهم إلى رجل يحسنُ فهم الفرنسية ينطقُ بها أهلُها ؛ فوجدوه فتىً يكبُرُهم سناً ، سبق له أن أمضى زمناً في فرنسة ، وعاد إلى دمشق ، بعد أن تزود بكثير مما يجهلون ، ثم لما لفت الحربُ الدنيا حالتْ بينه وبين ما يشتهيه من عودة إلى أوربة ليعُبَّ مما كان نهل ؛ فإذا به حين أتيح له السفر من جديد ، يلقَى رفاقاً كانت الحربُ حجزت أكثرَهم عن متابعة الدراسةِ التي منّى نفسه بها .

أخذَ الفتى يترجمُ لرفاقِه ما كان يلقى عليهم بيُسْرٍ وطلاقة وإيجاز ، تركتْ له أثراً طيباً في نفوسِ ركْبٍ تفاوتت أسنانهم واختلفت دراساتهم ، واتفقوا في غاية واحدة ، هي الرغبة الصادقة في أن يكتب لهم أن يَرِدُوا منابعَ للعلم وللثقافة لم تكن سبلُها ميسرةً لهم من قبل .

وأنس الفتى برفاقه وأنسوا به ؛ كان يقصُّ عليهم من أنباء باريس ما تهفو إليه قلوبهم ، وكانوا يستزيدونه شرحاً ، فيجيب كلاً إلى سؤله بتفصيل وافٍ دقيق يلذ للجليس الاستماعُ اليه ، ولو كان لا يعنيه من أمره شيء . كان في أحاديثه َيبِينُ عن ثقافةٍ أدبيةٍ واسعة ، وذاكرة قوية تحسن أن تُلبي ، يزينُه تواضع جَم . فإذا به في مركز الريادةِ بين الركْب ، ساعدَه في ذلك خلقٌ رضيٌ ، وصدرٌ رحْبٌ ، وعقلٌ راجحٌ ، وأريحيَّةٌ كريمةٌ ، وصنعةٌ مارسها فملَكتْ عليه جانباً من طباعه ، كان مدرساً عانى التعليم مذ كان يَفَعاً سنواتٍ طوالاً ، فتعود مصادقةَ طلابه وأهليهم ، في المدينة وفي القرية ، فليس بِدْعاً أن يغدو في هنيهات صديقاً لنفَرٍ من الشباب الجامعيين ، كانوا رفاق سَفَرٍ طويل .

كان يقف إلى جانب الفتى المعلم ، فتىً آخر يبدو أصغر منه بسنوات قد لا تجاوز الثلاث ، كانا ابني حيٍ واحد من أحياء دمشق القديمة ، واتفق أن أمضيا بعض دراستها في مدرسة واحدة ، يوم لم يكن من ثانوية في دمشق إلا « مكتب عنبر » . كانا يلتقيان حيناً في باحة المدرسة ، وفي الدروبِ المؤديةِ إليها حيناً آخرَ ، وكان أقصى ماربطها تحية عابرة يتبادلانها إذا ما التقيا في درب ضيّق .

كان الفتى الأول ، رجلَ أدبٍ واجتماع ، موفداً من وزارةِ المعارف للتعمقِ في دراسةِ اللغاتِ القديمةِ ، وكان الثاني رجلَ قانون وإدراة . يشغَلُ منصباً قضائياً ، إنه موفدٌ من وزارة العدل لدراسة النظم القضائية في البلاد الأوروبيّة المختلفة ، وبحكم صنعته هذه ، كان متئداً في خطواته متمهلاً في أحكامه ، لايتكلم إلا بمقدار ، يحب النكتة ويحسن الاستماع إليها ، ولكنه يندر أن يلقيها إذا اتسعت حلْقة المستمعين إليها .

وجد الفتى القاضي نفسَه ، إلى جانب رفيق عرف صورته وجهل طويّته ، فاذا به يجد رفيقاً عاليَ التهذيب ، عفيف اللّسان لين العريكة ، سمحاً في صلاته مع الآخرين ، فحين أُتيح له أن يلتقي به على انفرادٍ يمتع طرفــه بمنظر الشمس وهي تتكوَّرُ في البحر ، نابَه شعورٌ أنيس مدَّ الحديثَ بينهما حتى وجدا نفسيهما ينشدان مع شاعر دمشقَ الكبير :

ما له في عِظَمِ الشأنِ قرينْ   كلُّ جبّـارٍ يدانيهِ مهـينْ
سِعَةٌ ليس لهـا من غايةٍ   حَسُرتْ عنها عيونُ الناظرين
أنا إنْ أوجستُ منه خيفـةً   خافه قبــلي أمير المؤمنين
يملأُ العينَ فتغضي فَرَقـاً   ويهولُ النفْسَ حتى تستكين
كلَّ يومٍ تسجدُ الشمسُ له   فكأنَّ الشمسَ بالبحر تدين
ترتمي في حضنــه محمرَّةً   خجلاً كالوَرْد في حضن خدين

وكانا إذا نظرا إلى أمواج البحر تتلاحق مرتفعةً منخفضةً ، رددا مع الشاعر قولَه :

أترى ، أمواجُه أنفـاسُه   رُدِّدت بين شهيـقٍ وأنـين
جحفلٌ يركب منهـا جحفـلاً   يتمــادى كجنود زاحفين

وكانا إذا اجتمعا ضحى يستمتعان بدفء الشمس ، ويمتعـان ناظريها بجمال حوْم الطيور ، تلتقط ما تخلفـه الباخرة من طعام ركابهـا ، أو إذا ذكرا حنينها إلى مراتع الصبا ومدارج الطفولة ، أنشدا مع الشاعر :

وطيورُ البحر في أسرابهـــا   تتهادى كشراعاتِ السفين
قلت للسّرب ، وقد أقبلَ من   أُفقٍ ؛ قلبي به عانٍ رهين
أيّها القاطعُ عُرْضَ البحر هلْ   لكَ عهدٌ بروابي قاسيون

ثمَّ مهوى القلب دارات الهوى منزل الأهلِ ، حمى المستضعفين
بأبي الشامَ وأمي ، إنهــا كعبة الآمالِ والحصن الحصين

* * *

وفي يوم غامت شمسه ، وتجمَّعَ السفَّار يصطلون بالقرب والحديث ، انضمَّ إلى السفْر الدماشقـــةِ أحد رجال السلك السياسي في بلدٍ عربيٍ شقيق ، وقد أنس بظَرْفهم وتهذيبهم ، وأنسوا بعلمه وثقافته ، فإذا بـه يدعوهم إلى مائدته عشيّة اليوم التـالي ؛ ولكنَّ البحرَ هاج ضحوةً ، وكانت الباخرة تمرُّ في مضيق « مِسينا » وصخِبَ موجـه ، واضطربت السفينة ، ثم غدت على ضخامتها ، وكأنها طفلٌ عُصبت عيناه بغمامة يسعى وراء لِداتِه ، فإذا بالسفّار يُهرعون إلى مضاجعهم مرضى بدوار البحر ، فأخذ أفراد الركْبِ الشامي ، ينسل الواحدُ منهم تلوَ الآخر ، وما كادت ساعةُ الغروب تأزفُ ، حتى كانت قاعة الاستقبال قد أقفرت إلا من ثلاثة ، صاحب الدعوة والصديقين وهما يتساءلان عن الدعوة ، إن كانت ما تزال قائمةً ، فأجاب صاحبها : هي قائمة ما دمنا ثلاثـة على الأقل . ولم تمض بضعَ عشرةَ دقيقة ، حتى اعتـذر المعلم ، فران صمتٌ مطبقٌ ، ثم قام السياسيُّ وقام القاضي ، دون أن ينبسا ببنت شفَةٍ ، لقد مضى كلٌّ منهما متجلداً نحو مقصورته .

وعندما بدأت السفينة تلقي مراسيَّها في « مرسيليا » ، كان كلٌّ رفقة السَفَر شعر بأن المُتعَة التي نعِم بها أربت على مشاق السفر الطويل ، وكان أكثر الركْب شعوراً بهذه النُّعمَى ، ابنا الحيّ الدمشقي الواحد ، فقـد شعرا بأن آصرةً ربطت بين رجلين فجعلت منهما صديقين أخوين .

ولا ينسى القاضي يوم نزل من الباخرة ، ليلحق بقطـار باريس ، أن اليابسةَ كانت تميد من تحت قدميه ، فقد حمل معه شيئاً من دوار البحر ، وأن ساعد صديقه المعلم كان عوناً دفع عنه أذىً كثيراً .

وحمل القطار الصديقين إلى باريس حتى إذا بلغاها ، سلك كلٌ منهما مسلكاً وما اجتمعا بعدئذٍ ، على نَدْرَةَ ما اجتمعا ، إلا على ودٌ صافٍ وحبٌ مقيم] .



أيها الزميل العزيز .

هذه صفحةٌ من « ذكريات » كتبتها في يوم غبر ، ثم جاء يوم في سنة أربع وخمسين وتسعمئة وألف ، وكنتُ أتولى منصب « نائب عام في وزارة العدل » فإذا بي أسجل في هامشٍ : [في هذا اليوم زرتُ الصديق الأستاذ عبد الهادي هاشم ، مهنئاً بتوليه منصب الأمانة العامة لوزارة المعارف ، وقد ذكرنا رحلتنا على السفينة « عنـاية الله » فنعمنا دقائق برجْع الذكرى وانتشينا بالحديث عن أيام لا تنسى] .

وإذا كنتُ يا صديقي ، بدأت حديثي الليلة بذكرياتنا فلأصل الحديثَ بالقول : إني أمّلتُ يوماً أن تكون في استقبالي في هذه القاعة ، إذا ما قيض لي الدخولُ إلى هذا الصرحِ المظم ، فقد كبرتَني بسنوات ، وكنتَ ذا سابقةٍ في خدمة العربية ، والعمل على تحقيق أغراض هـذا المجمع الذي نفاخرُ العربَ به ، وكان من حقِّ سابقتك ، أن تكون سابقاً في الدخول إليه ، ولكن الرياح كثيراً ما جرت بغير ما تشتهي السفن ، على انها قد تجري أحياناً بأسرعَ مما كان يؤمل ذو حظ من السفّانين ، وما كان الحظ ليغير يوماً من فضل السابقين في علم أو معرفة . لقد حالفت الرّيحُ سفينتي فأرستها بجليةٍ ، وها هو ذا حظي يجري الليلة بما أشتهى فأمنح من قبل الرصفاء شرف استقبالك باسمهم .



سيدي الأستاذ الرئيس

أيها الزملاء الأعزاء

سادتي المحترمين

يسعدني في هذه الأمسية الزاهرة بمشاركتكم ، أن أقدم إليكم واحداً من رجال يعتز مجمع دمشق بأن يضمهم إليه ، فيقوى بهم على حمل العبء الذي نهض له خمسين عاماً ما ناء به ، عبء خدمة الضاد أم اللغى لسان الذكر المبين . وبأمثال هذا الزميل الجديد يستمر مجمعنا الغالي مجاهداً في سبيل تحقيق أغراضه ، ملقياً الأضواء على تراثنا المجيد ، خبيء الأقبية المهملة والقاعات المجهولة ، ساعياً لجعل العربية الخالدة ، لغة العصر الحديث تساير علومه وفنونه .

لقد ولد رصيفنا الجديد عبد الهادي هاشم ، في حيّ من أقدم أحياء دمشق ، سنة ثلاثين وثلاثمئة وألف للهجرة ، الموافقة لسنة اثنتي عشرة وتسعمئة وألف للميلاد ، في أسرة شامية عُرف كثير من رجالها بمزاولة التجارة ، كما عُرف بعضهم بالانصراف إلى طلب العلم أو الانقطاع إلى العبادة .

بدأ الزميل تحصيله الأولي ، كما كان يفعل أكثر أبناء الأسر الشاميّة العريقة التي تسكن داخل دمشق وحول جامعها الأموي الكبير ، في « المدرسة الجقمقية » يوم كان على رأسها علامة دمشق وأحد رواد نهضتها المعاصرة وأصحاب الفضل على كثير من شبابها المرحوم الشيخ عيد السفرجلاني .

ومن الجقمقية تحوّل زميلنا إلى مدارس أهلية وأجنبية تلقى فيها تحصيله الثانوي ، إلى أن أنهى هذا التحصيل في « مكتب عنبر » ثانوية دمشق الحكومية الفريدة .

ومن « الجامعة السورية » جامعة دمشق الوحيدة ، حصل الزميل على شهادة « مدرسة الأدب العليا » ، وكان أول متخرجيّ دفعته . وحالت الوظيفة بينه وبين إتمام دراسة « القانون » التي بدأها ، فانتسب إلى « سلك التعليم » واضطر إلى العيش سنوات عديدة بعيداً عن داره في دمشق .

وفي سنة ست وثلاثين وتسعمئة وألف أوفدت وزارة المعارف زميلنا إلى باريس ، فتلمذ لكبار المستشرقين فيها ، وانعقدت أواصر الصداقة بينه وبين كثير منهم ، وفيها درس شيئاً من علوم الفلسفة والتربية والألسن وألم إلماماً وافياً ببعض اللغات الساميّة ، ومنها اللغة الحبشية القديمة (الجعز) ، ثم عاد إلى دمشق في بداية الحرب العالمية الثانية ، فسُمّي أستاذاً للعربية في المدارس الثانوية ومديراً لدار المعلمين ، حتى إذا ما وضعت الحرب أوزارها ، أوفد إلى سويسرة ليتم فيها دراسة اللغات السامية والحامية ، فتمكن من المصرية القديمة ومن العبرية ، ونال في هذه جائزة « باومان » عن دراسة وضعها عن الفيلسوف اللغوي اليهودي ، سماديا غاوون المعروف عند العرب بـ « سعيد بن يوسف الفيومي » ثم اختارته منظمة « اليونسكو » آنذاك ليكون خبيراً ثقافياً لها في القطر الليبي الشقيق ، بعد إعلان استقلاله سنة ١٩٥٢ م ، فأقام فيه مدة عامين ، كان خلالها خير سفير بين شقيقين ، يحمل الحبّ والودّ بين جنبيه ، كما يحمل رسالة الفكر بين يديه .

ولما عاد الزميل عبد الهادي هاشم إلى دمشق ، تولى فيها وظائف كثيرة علمية وإدارية فكان محاضراً في كلية الآداب بجامعة دمشق ، ومديراً للتعليم الثانوي والتعليم الريفي ، فرئيساً للجنة التربية والتعليم ، فأميناً عاماً لوزارة المعارف ، ثم تولى بعدها مديرية دار الكتب الوطنية بدمشق « المكتبة الظاهرية » ، ثم مديرية إحياء التراث العربي القديم في وزارة الثقافة .

وزميلنا اليوم أمين عام مساعد للشؤون الثقافية في وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، ويتولى تدريس « فقه اللغة » في كلية الآداب بجامعة دمشق ، وهو عضو في اللجنة الوطنية السورية لـ « اليونسكو » وعضو في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

وإلى جانب هذا قام زميلنا الأستاذ عبد الهادي هاشم بتمثيل سورية على خير ما يكون التمثيل ، في كثير من المؤتمرات العلمية والتربوية ، ولا سيما في مؤتمرات « اليونسكو » و « جامعة الدول العربية » و « مكتب التربية الدولي في جنيف » ، كما شارك في تحرير كثير من المجلات الأدبية والتربوية ، وحاضر في أكثر من مدينة عربية ، وحقق بعض المخطوطات من تراثنا ناشراً ذلك في مجلة مجمع دمشق ، كما أعان بعض الباحثين في تحقيقاتهم لمخطوطات عربية قيمة . وقد سبق لمجمعنا أن نشر تحقيق رصيفنا لكتاب فقيد العربية الكبير أستاذ الجيل المغفور له سليم الجندي المسمى « الجامع في أخبار أبي العلاء وآثاره » وهو في ثلاثة أجزاء ضخام .

* * *

سادتي :

هذه الكلمة سريعة عن الأستاذ عبد الهادي هاشم ، الذي أجمع أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق على اختياره رصيفاً لهم ، خلفاً للزميل الراحل فقيد العربيـة الاستاذ عز الدين علم الدين التنوخي ، يشدّون به أزرَهم ويتابعون معه خدمة العربية وآدابها .

وإني باسم المجمع أدعو الرصيفَ الكريم إلى خطاب مجمعي يحدثنا فيه عن سلفه الراحل أجزل الله ثوابه .

دمشق في ٧/٢/١٣٨٩ هـ — ٢٤/٤/١٩٦٩ م

عدنان الخطيب

خطاب الأستاذ عبد الهادي هاشم

في حفلة استقباله

سيدي وزير التعليم العالي ، سيدي وزير الثقافة ،

سيدي الأستاذ الرئيس ، سادتي أعضاء المجمع سدنة اللغة وحماتها .

أحسنتم بيّ الظن فارتضيتموني لكم رصيفاً ، وأخذتم بضبْعي ، مُنعمين متفضلين ، فأحللتموني في مجمعكم الكريم منزلة سامية تجاوز الأماني وتفوت المطامع ، منزلةً ماكانت عنقي تتطاول إليها ، لمعرفتي بنفسي وشعوري بنقصي ويرحم الله امرءاً عرف حدّه فوقف عنده . وإنني لموقن أنه لم يرفعني إلى مزاملتكم إلا عين راضية نظرتم بها إليّ ، ونفسٌ سمحة عالية تجاوزت عن عجزي واحتسبت محبتي لهذه اللغة الشريفة وإخلاصي لها واعتدادي بأدبها وحرصي على تراثها ففسحت لي مكاناً بينكم ، وأرجو ألا تكونوا على ذلك فيما بعد من النادمين .

ولئن لم أكن أطمع في أن أغدو في يوم من الأيام من أعضاء المجمع فما ذلك لأنني غريب عنه أو بعيد منه ، فأنا من معينه ارتويت ، وبرجاله اقتديت ، ألِفتُ رحاب المجمع منذ أكثر من أربعين سنة ألزم قاعاته وأشهد محاضراته وأتَلْمَذ لأعلامه وأتخرّج بمن شرُفتُ بصحبته منهم أو حظيتُ بزمالته فيهم ، وكنتُ أجد في ملازمتي المجمعيين الخالدين شرفاً أزهي به واعتزّ ، وأرى في عشرتهم غذاء الروح ومتعة العقل وراحة النفس ، وما أزال أذكر الفرحة التي غمرتني يوم اختارني الأستاذ الرئيس محمد

كرد علي منذ خمسة وعشرين عاماً لأشارك في التهيئة لمهرجان المعري الألفي ، ولأكون في إمرة الرجل النبيل الأمير جعفر الحسني في الإعداد للمهرجان والعمل لإنجاحه .

كما أذكر بالفخر والشكر ذلك اليوم الذي وقف فيه طه حسين منذ أكثر من اثني عشر عاماً في حفل افتتاح مؤتمر المجامع العلمية الأول في دمشق يتوجه على رؤوس الأشهاد إلى رئيس الجمهورية السورية المرحوم شكري القوتلي طيّب الله ثراه بقوله :

« ولا بدّ أن يُرَدّ الحق إلى أهله ، ولا بد من أن استأذن فخامتكم في إشارة موجزة إلى تاريخ التفكير في عقد هذا المؤتمر ، وأولُ تفكير في عقد هذا المؤتمر إنما كان في اجتماع اللجنة الثقافية للجامعة العربية في جُدّة ، وكان الفضل فيه لممثل سورية العظيمة ، في ذلك الوقت كان الزميل عبد الهادي هاشم ممثل سورية في اللجنة الثقافية ، فهو الذي أوحى إلينا بهذه الفكرة ، ولا غرابة في هذا ، فما رأيتُ إلى اليوم أحداً كالسوريين لا ينسى العروبة ومجد العروبة ومستقبل العروبة ، ما رأيتُ أحداً كالسوريين يذكر هذا ويستصحبه في حلّه وترحاله ، يفكر فيه كما يفكر في نفسه ، فالعروبة جزء مقوّم لكل عقل سوري ، وجزء مقوّم لكل قلب سوري ، وجزء مقوم لكل ذوق سوري . كان الذي أوحى إلينا بالتفكير في هذا المؤتمر رجلاً من رجال سورية ، فكان من الطبيعي أن يكون عقد أول مؤتمر للمجامع العلمية في مصدر التفكير فيه : في دمشق مهد العروبة وعاصمتها .... وهناك مزية خاصة لدمشق ، فمجمعها

العلمي الموقر هو أولُ المجامع العربية وجوداً وأشدُّها نشاطاً وأخصبُها إنتاجاً وأعظمُها تأثيراً في حياة اللغة العربية الحبيبة وأقدرُها على إحياء التراث العربي القديم ؛ نتخذه في كل هذه الأشياء مثلاً ونموذجاً ، ونطمع في أن نسير في إثره ونطمع في أن نصنع صنيعه ونقتدي برجالاته من زعماء العروبة وأعلام البيان . »

اعذروني أيها السادة إذا أطلتُ الاستشهاد بشيء من خطاب عميد الأدب العربي في هذا العصر ورئيس مجمع اللغة العربية في القاهرة اليوم ، فقد فعلتُ ذلك لأعيد إلى الذاكرة رأي كرام زملائكم في مجمعكم وتقديرهم رجاله وإكبارهم جهاده .

قلتُ لم تنقطع صلتي بالمجمع ، بَعُدْتُ أو قربتُ ، ولكنَّ انضرَ أيّام عمري وأعودَها عليَّ بالخير واليمن تلك الأعوام التي قضيتُها في حرم المجمع ، على رأس دار الكتب الظاهرية ، فقد كنتُ ألقى الأستاذ الرئيس (خليل مردم باك) رحمه الله ، كل يوم ، لا للمذاكرة في قضايا الادارة فقد كان أمرها سهلاً ميسوراً ، ولكن للمداولة في مسائل أدبية ولغوية ، وللقاء الأفاضل من الوافدين على المجمع لزيارة رجالاته ، ولما حلَّ العلامة الأمير مصطفى الشهابي في نيابة الرياسة خلفاً للمرحوم الأستاذ المغربي كان يخصني بوده ويُشْرِكني في بحوثه ، وقد ذكّرني بلقاءاتنا الماضية يوم زرتُه رحمه الله الزورة الأخيرة قُبيل وفاته بيومين .



ولئن أتيح لي شرف لقاء أكثر أعضاء المجمع من قبل ، فإن صلتي بالمرحوم عز الدين التنوخي الذي أحللتموني محله بعد انتقاله للملأ الأعلى كانت أوثق وأقوى ، فقد كنتُ أعرفه وأنا في ريّق الشباب من خلال ما ألّف

وترجم وحقق وحاضر ، فلما سُمّيتُ منذ ثلاثين عاماً أستاذاً للعربيـة في ثانوية حمص خَلَفتُ فيها الأستاذ التنوخي وسرتُ على نهجه ، وكنتُ أزوره عند مقدمي إلى دمشق وأستهدي برأيه فيحتفي بي ويصفيني وده وإخاءه ، وكان تواتر اللقاء يزيدني إعجاباً بأبي قيس ومحبة له ، ويكشف لي كرُّ الأيام فضائل وَشمائل في نفسه وخلقه وعلمه لا يـكاد يعرفها أخص خلطائه .

ثم ازدادت صلتي به توثقاً أيام كنتُ في المجمع ، فكانت لجنة المطبوعات تعقد اجتماعاتها في مكتبي ، وكان التنوخي أحد أعضائها ، وكانوا يبيحون لي أن أخوض في الحديث معهم وكأني أحدهم ، ويُشركونني في عملهم وإن لم أكن منهم . ثم لما تحولتُ عن المجمع إلى وزارة الثقافة كان الفقيد يتعاهدني بالزيارة بين الفينة والفينة ، فأرد تحيته وأقصد إلى مكتبه في المجمع وإلى داره في ضاحية المزة (أو دمشق الجديدة كما كان يحلو له أن يسمّيها) وكنت في الحالين سعيداً مغتبطاً لما كان يفيض فيه من طليّ الحديث وحلو النادرة وبارع الرواية وحاضر النكتة ، ولما كان يلقى به مجالسه من كرم الترحيب ورفع الكلفة والانبساط الوقور دون ما تبذّل ولا إسفاف . ولا أزال أذكر آخر لقاء بيننا وكان قُبَيْل وفاته بلواذ أسبوع وكنا نتحدث فيه عن (معاني الشعر) للاشنانداني وما صنعه في تحقيقه ، وكان يومها مفترّ الثغر منشرح الصدر يتدفق بشراً ونشاطاً ، وما كنتُ أعلم أنها آخر مرة ألقاه فيها في هذه الفانية . على أن صلتي لم تنقطع بالتنوخي بعد وفاته ، فقد عكفتُ على العناية بكتاب الأشنانداني واستكمال تحقيق أصله وَلحَقه وذيله والتقديم له ، وأرجو أن يظهر الكتاب إلى الأسواق بعد أسبوع أو أسبوعين .

★ ★ ★

تقضي سنة للمجمع حميدة بأن يتحدث الخلف من أعضائه في حفل استقباله عن سلفه ، وكنتُ أحسب الأمر هيناً يسيراً ، وأن معرفتي بأبي قيس وبجمل آثاره قمينة بأن تجمل الأمر على طرف الثمام ، وما كنتُ أدري أن شدة القرب حجاب وأن العين لا ترى جارتها ولا تحسن وصفها وأن أجهل ما يكون المرء عندما يحسب نفسه عالماً ، وأن ترجمة مَن بعُد من الغرباء قد تكون أسهل وأيسر من ترجمة مَن دنا من القرباء ، وهـــذا عذري إذا لم ترضوا سيداتي وسادتي عما سأسوقه في ترجمة الفقيد ووصف بعض آثاره .

يَنْتَمِي عز الدين علم الدين التنوخي إلى أسرة يذكر بعض العارفين أنها كانت قد اتخذت العراق سكناً منذ مئات السنوات ، ثم هاجر بعض أبنائها إلى الشام وأقاموا في سواحله وعلى جباله الشم يشتركون مع أهلها في رد عادية الصليبيين عن الثغور الشامية . ثم انتهت تلك الحروب واستقر أبناء هذه الأسرة في لبنان وتكاثر نسلهم وغلبوا على أرجاءٍ واسعة من الجبل . فلما وقعت الواقعة في عين دارة سنة ١٧١١ م / ١١٢٢ هـ بين القيسيين وعلى رأسهم الأمير حيدر الشهابي واليمنيين وأمراؤهم بنو علم الدين وانجلت عن هزيمة اليمنيين وقتل الكثيرين منهم نزح مَن سلم من آل علم الدين إلى دمشق واتخذها موطناً له .

وقد ولد الفقيد عز الدين بدمشق حوالي سنة ١٨٨٩ م في أسرة كادحة عاملة تصنع سروج الخيل وتتفوّق في هذه الصناعة فتصير إليها مشيختها ويسمى والده (شيخ السروجية) فإذا لقي الوالد وجه ربه حل محلّه في المشيخة ابنه وهو أخو عز الدين .

نشأ الفتى عز الدين في هذه البيئة ، ولكن نفسه عزفت صغيراً عن الرضى بأدنى المعيشة ، وتطلعت إلى مجد مؤثل مؤمل . فبعد أن أنهى الدراسة

الابتدائية في المدرسة السباهية والاعدادية في المدرسة الرشدية تحوّل عن دمشق إلى يافا وعنها إلى الأزهر في القاهرة يدرس على شيوخه مجمل معارف عصره ، وقد عاش التنوخي في مصر عيشة شظَف وقَشَف يتبلَّغ بالقليل ، وينصب ويتعب من أجل الحصول عليه ، ثم عاد إلى دمشق قبيل إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ ولم يبلغ العشرين من العمر ، فتصدَّر للتدريس والإقراء في جامع بني أمية ، وأقبل الناس عليه ، ورضُوا عن طريقته في الوعظ والإرشاد ، ودعوته إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقد أعانه على امتلاك قلوب طلابه طلاقة لسان وحلاوة حديث وبعدٌ عن الجمود والتطرف ، ودعوة معتدلة لإصلاح في شؤون الدين والدنيا متزن متئد ، وعلم غزير اكتسبه من الأزهر ومن دروس علاّمتي دمشق يومئذ جمال الدين القاسمي وعبد الرزاق البيطار .

وكان جو الشام متلبداً بالغيوم : حكومة تركية غاشمة توجس من بنيه شراً ، وتضمر لهم أذى وضراً ، وتتربص للايقاع بمن أبوا منهم الاقامة على ضيم يراد بهم وببلادهم ، وأنفوا من الاستكانة إلى ظلم أولئك الطورانيين الغاصبين ، فقامت جمعيات سرية عربية تدبّر للخلاص مما تعانيه البلاد وكان التنوخي فيما يبدو ضالعاً معها مشاركاً في بعضها .

وتوفده جمعية أهلية مع بعض الشباب الشاميين إلى فرنسة لدراسة الزراعة في (غرينيون) ، فاذا أتم عز الدين دراسته عرّج في طريق عودته على القسطنطينية يتصل فيها بالجمعيات العربية السريّة ، وينتسب إلى بعضها كالمنتدي الأدبي ، ثم يهبط بيروت لينهض بتعليم الزراعة في مركزها الزراعي سنة واحدة ، وما تلبث أن تنشب الحرب العالمية الأولى ويساق التنوخي إلى مدرسة ضباط الاحتياط في دمشق ، وقبل أن تتم دروسها يفرّق جمال باشا قائد الفيلق الرابع طلاب المدرسة العرب ، ويعيّن التنوخيّ في

حلب ، ولكن الضابط الصغير يتبيّن الغدر في نفوس الأتراك فيفـــارق دمشق خفية إلى جبل الشيخ ومنـه إلى بادية الشام فإلى الجوف (وهي دومة الجندل) ثم يمم شطر العراق فالحجاز لينضم إلى الشريف حسين عندما أعلن ثورته على الأتراك . وهنالك يسميه الشريف (وزيراً للزراعة في واد غير ذي زرع) كما يقول التنوخي . ثم يلتحق بجيش الأمير فيصل ويدخل دمشق ثانية بعد أن حرّرها الجيش العربي .

وكانت تلك الفترة مباركة على الأمة التي أخذت تنشئ الحياة يومئذ ، وتمدّ لغدٍ باسم مشرق يذكّر بالأمس البعيد الوضّاء .

وشارك التنوخي مع بعض علماء الشام حينئذ في بعث العربية ونشرها وتعليمها ، وتألف من صفوة هؤلاء العلماء المجمع العلمي العربي في حزيران عام ١٩١٩ وكان عز الدين في عِداد هذا الرعيل الأول .

ثم يسهم التنوخي من بعد في تأليف جمعية (الرابطة الأدبية) ويشرف على إصدار مجلتها ، ولكن السلطة الفرنسية — وقد غزت جيوشها البلاد الشامية بالحديد والنار — لم ترُق في عينها الرابطة ولا مجلتها ، فأمرت بحل الجمعية وحجب مجلتها سنة ١٩٢٢ وكمّت الأفواه وكسرت الأقـــلام وبثت في البلاد الهلع والفزع .

ضاقت السبل أمام هذا الشاب التنوخي في بلده ، فلما دعاه ساطـــع الحصري إلى العراق — وكان قد رافق فيصلاً الأول إليه — ولى وجهه شطر بغداد وأخذ يدرّس في دور المعلمين الأولية والعالية وينشر المعرفة ويبصّر الناشئة بلغة الجدود وتراثهم المجيد الحسب ويضع لطلابه كتباً في العلوم واللغة والأدب لايزال الناس يذكرونها ويشكرون مسعاته في تأليفها .

ثم يغالبه الحنين إلى مسقط رأسه فيعود في أوائل العقد الرابع إلى دمشق وينصرف إلى المجمع وعمـله فيه ردَحاً من الزمن ، ويشارك في

محاضراته وندواته ، ويسهم في مهرجان المتنبي سنة ١٩٣٦ ، ثم يُسَمَّى بُعيد ذلك مدرساً للعربية في ثانوية حمص ويتقلب بعدها في وظائف كثيرة إدارية وتعليمية في السويداء ودمشق ؛ إلى أن يوكل إليه تدريس علوم الآلة في كلية الآداب ويظل قائماً بها إلى أن يحال إلى التقاعد عام ١٩٥٣ وهو على أتم مايكون نشاطاً وحيوية . فيتفرغ أو يكاد للعمل في المجمع وفي مجلته ، ثم ينتخب عام ١٩٦١ عضواً في المجمع العلمي العراقي ، وأخيراً يسمى نائباً لرئيس المجمع العلمي العربي في دمشق أواخر العام ١٩٦٤ بعد وفاة العلامة الأستاذ المغربي . فكان يقضي سحابة نهاره في المجمع ويروح أصيلاً إلى مزرعة له في ضواحي دمشق كان قد اقتناها لما عاوده الحنين إلى الزراعة . ومن هذه المزرعة يذهب إلى لقاء وجه ربه راضياً مرضياً فجر يوم الجمعة ٢٤ من حزيران ١٩٦٦ (٦ ربيع الأول ١٣٨٦ هـ) .



كان المرحوم التنوخي رضيّ الخلق كريم النفس جمّ التواضع عفّ اللسان قريباً إلى القلب ، وكان متمسكاً بدينه معتزاً بقوميته مجاهداً في سبيل أمته بسيفه وقلمه ، جاهداً في الحفاظ على لغتها وتراثها . وكان وافر النشاط يعمل في المجمع والمزرعة والمشروعات الخيرية والاجتماعية لا يصرفه واحد منها عن غيره .

وكان إلى ذلك قوي الذاكرة حاضر البديهة جميل النكتة .

وقد قضى حياته الطويلة جلداً دءوباً على الدرس والبحث والعلم والعمل حتى غدا حجة في العربية مشاركاً في علوم أخرى كثيرة ، وحتى خلّف لنا ثروة ضخمة من الآثار النافعة والتصانيف القيمة . وقد نُشير في حياته

منها أكثر من عشرين كتاباً ورسالة بين مؤلف ومترجم ومحقق في شتى ضروب المعرفة .

فأول ما ألف رسالة فلسفية سماها (الفتح المبين) في شرح عينيـــة ابن سينا الرئيس :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنّع

وقد طبعت هذه الرسالة في مصر أيام كان التنوخي يدرس في الأزهر ولم تجاوز سنه الخامسة عشرة فيما يبدو .

ثم نشر في العراق كتاباً في مبادئ الفيزياء في جزئين ترجمه عن الفرنسية لفرنان مايير ، ثم ترجم قصة قلب الطفل في جزئين أيضاً ، وأصدر كتاب دروس الإنشاء مقتبساً من كتاب موريس غربغو ثم والى في دمشق تحقيق بعض التآليف الأدبية واللغوية ومنهـا :

كتاب المنتقى من أخبار الأصمعي للرَبَعي وكتاب تـكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي وكتاب بحر العوّام فيما أصابت فيه العوامّ لابن الحنبلي . ثم أخرج لطلابه في الجامعة ثلاثة أجزاء فيها شرح (إيضاح القزويني الدمشقي) في البلاغة وكتاباً سماه (إحياء العروض) وشارك في وضع (المعجم العسكري) الفرنسي العربي والانكليزي العربي ثم نشر تحقيقه المتقن لكتـاب الابدال لأبي الطيب اللغوي في جزئين كبيرين وكتاب المثنى وكتاب الإتباع وكلاهما لأبي الطيب نفسه ثم نشر كتاب الابدال للزجاجي وحقق مقدمة النحو لخلف الأحمر كما نشر الجزء الثالث من شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع ابن حبيب الأزدي .

ويتوفاه الله قبل أن يفرغ من تحقيق كتب أخرى كان يعتزم نشرها ، ومنها كتاب (معاني الشعر) للأشناندانى في أصله ومَلحَقه وذيله ، وكتاب

(الدلائل في غريب الحديث) لقاسم بن ثابت السرقسطي، وكذلك كتاب (منتهى الطلب) لابن ميمون فيما يذكر صديقه العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي .

هذا إلى عدد جم من الرسائل الصغيرة والمقالات والقصائد التي كان ينشرها في مجلات كثيرة كالمجلة السلفية ومجلة الزهراء ومجلتي التربية والتعليم في بغداد والشام ومجلة الرابطة الأدبية ومجلة الثقافة ومجلة المجمع العلمي العربي ، ومن عجب أن آخر مقالة له نشرت في صدر عدد مجلة المجمع الذي نعاه فيه .

قضى التنوخي ستين سنة كاملة (من ١٩٠٦ إلى ١٩٦٦) يؤلف ويترجم ويحقق في أنواع شتى من المعرفة ، ولوددت أن أتحدث عن خصائص كلٍّ من مؤلفات التنوخي وأن أذكر موضوعه ومنهج التنوخي فيه لو كان الوقت مسعفاً ، ومع ذلك فلا أحب أن يفوتني الحديث ولو موجزاً عن ثلاثة من تصانيف التنوخي هي كتاب الابدال وكتاب تهذيب الإيضاح وكتاب مسند الربيع بن حبيب . ففي هذه النماذج دلالة واضحة على نهج التنوخي رحمه الله في التأليف والتحقيق ، وبيان لطول باعه في علوم كثيرة لا يتاح لغيره الإلمام بها مجتمعة ، بلهَ إتقانها والتمكن منها .



فأول هذه التصانيف التي اخترتُ كتاب (الابدال) لأبي الطيب عبد الواحد ابن علي اللغوي الحلبي المتوفى سنة ٣٥١ ، وقد نشره التنوخي في جزئين يقعان في قرابة ألف ومائتي صفحة ، ووطأ له بحديث ضافٍ عن الإبدال اللغوي والنحوي وحدودهما ، وبسط قواعد الإبدال اللغوي وضرب الأمثلة عليها ، ثم انتقل إلى الكلام على القلب الشعري وعلى تعاقب الفصحى والعامية ، وعلى التعاقب بين العربية واللغات السامية ، وعلى تولد اللغات من اللثغات ، وشرح ذلك كله شرحاً علمياً لا تكاد تقع على مثله عند المعنيين المتفرغين

امثل هذه البحوث ، وانتقل بعد ذلك إلى بيان أثر قلة الإعجام في التصحيف ، وإلى مباحث شتى تتصل بالترادف والتعاقب . ثم أخذ يقارن بين المتقدمين والمحدثين في هذا العلم ويرجّح المحدثين .... وهو في خلال ذلك يسوق آراءً في هذه الظاهرة اللغوية الصوتية : ظاهرة الإبدال ، يحاول فيها أن يفيد من العلم الوضعي المستحدث اليوم في تعليل ما رواه العرب سماعاً ولم يُحكموا تعليله . ثم عرّف التنوخي بمؤلف (الابدال) أبي الطيب اللغوي وانتقل إلى الحديث عن مخطوطة اشتملت على الكثير من كتب أبي الطيب ، وساق الأدلة على أن عزو الكتاب الذي نشره إلى أبي الطيب عزو صحيح . أما نص الكتاب فقد ضبطه بالشكل الكامل المتقن ، وهذا الضبط في الشكل أمر لا مندوحة عنه في كتب اللغة ، ولم يدع التنوخي كلمة لغوية في هذا السفر الضخم إلا شرحها ، معتمداً أوثق المراجع وأوسع المعاجم ، حتى جاءت حواشي الكتاب أضعاف متنه . ويبدو أن أبا قيس كان يودّ المضيّ في العناية بالكتاب فوق ما فعل ، فهو يقول (في مقدمة الابدال ص ١٢) :

« ولوددتُ مهلة من العمر لأشرح ابدال أبي الطيب اللغوي أو فائت ابداله مما جمعته من كتب اللغة على طريقته ، محصّصاً لها وباحثاً عن أصولها وفروعها وذاكراً آراء فقهاء اللغة فيها من المتقدمين والمحدثين .-»

ولا شك أنه لا يقوى على نشر هذا الكتاب وضبطه وتخريجه والتعليق عليه إلا الراسخون في العلم ، فتحقيق كتاب لغوي ليس بالأمر اليسير ولا سيما كتاب لم تصل إلينا منه إلا مخطوطة واحدة . وهذا الكتاب يعالج زاوية عسيرة من اللغة ، وقد وفق المحقق في التعليق على الكتاب بما يستوجب الحمد والثناء . ويكاد المرء يجد في كل صفحة منه ما يحسبه صنيع لجان مجتمعة لا فرد متوحّد . وكان التنوخي يعلم أن عمله هذا مجازفة قد يكبو فيها

جواده فقال في المقدمة : فقلَّما خلا تحقيق كتاب ، من مباينة لوجه الصواب ؛ والتنزه عن الخطأ معوز ، والكمال لغير الله معجز .

★ ★ ★

أما الكتاب الثاني الذي أود التحدث عنه فهو (تهذيب الإيضاح) .

والحق أن التنوخي لم يكن يرضى بالاقتصار على علم واحد من علوم الأوائل ، بل كان يود الإحاطة بها جميعاً ، ويتطلع إلى إتقانها كلها وتجديدها وتيسيرها ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وعلوم البلاغة ، كما صنعها المتقدمون ، عسيرة الطلب وعرة المسلك ، قل العارفون بها ، المتمكنون منها ؛ على أنه لا غُنْية عنها لمن يودّ فهم أساليب عصور طويلة من تاريخ أدبنا ، وأنماط كثيرة من تفكيرنا ، وجوانب عديده من ثقافتنا . وأشهد أن التنوخي كان في هذا الميدان من أبرع مَن عرفنا في علوم البلاغة كلها ، ومن أقدرهم على تبين خصائصها ونقائصها .

ولما نيط به تدريس طلاب جامعة دمشق علوم البلاغة اختار من كتب المتقدمين كتاب (الإيضاح) للقزويني الدمشقي المتوفى عام ٧٢٦ هـ فشذبه وهذبه وشرحه وعلق عليه في أجزاء ثلاثة يسَّرت لطلابه معرفة أصول هذه العلوم وأذاقتهم حلاوة درسها وفتحت عيونهم على طريقة في فهم البلاغة ما كانت تتاح لهم لولا كتاب التنوخي هذا .

ولا شك عندي في أن خدمة أبي قيس (لإيضاح) القزويني خدمة جليلة محمودة ، ولا أكتمكم أنني كنتُ قد قرأت منذ سنوات طويلات (مفتاح العلوم) للسكاكي و (تلخيص المفتاح) للقزويني ، و (مختصر تلخيص المفتاح) للتفتازاني ، و (مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح) لابن يعقوب المغربي و (عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) لبهاء الدين

السبكي و (الايضاح لتلخيص المفتاح) للقزويني ، و (حاشية الدسوقي على شرح السعد التفتازاني لتلخيص المفتـــاح) ، كل هذه المفاتيـح والشروح والحواشي المتعلقة (بايضاح) القزويني لم تَسْنِ لي أبواب البلاغة ، ولم تُنِرْ لي ظلماتها ، وكنتُ أجد في نفسي انصرافاً عن القزويني وزهـداً عما ألّف ، فلما رأيتُ كتاب التنوخي قلت : وهذا مفتاح آخر لن يزيد الباب إلا إرتاجاً . ولكني مضيت في قراءته فأدركت وهمي ، وعرفتُ أنه كم ترك الأول للآخِر وكم فات السابقَ ما أدركه اللاحق ، فقد يسّر التنوخي علومَ البلاغة وأضاء مجاهلها ، بمرهف ذوقه ودقة فهمـــه وسعة حفظه وسلاسة شرحه واستحضاره الشواهد البينة الواضحة ، واستكثاره من النصوص المحكمة المتخيّرة ، وتَعليقاته المفيدة النافعة . وقد أعانه ذلك على أن يذيّل كل باب بأمثلة كثيرة متخيّرة جميلة يسوقها لتدريب القراء وتمرينهم والأخذ بيدهم لادراك وجوه الجمال في التعبير وضروب البلاغة في الأداء . وليس لنا أن نقتضي التنوخيَّ وضعَ أسس جديدة لعلوم البلاغة واستكمال ما فات القزويني وغيره منها ، ليس لنا ذلك ، لأنه في هـذا المقام شارح للكتاب لا مؤلف . ويبدو أنه كان يود أن يصنع شيئاً من ذلك ، ولكن لم يقيّض له قصر الزمن بلوغ غرضه .



كان التنوخي -- كما سبق القول — متعدّد جوانب المعرفة ، متّسع آفاقها ، فقد بدأ حياته العلمية بدراسة شيء من اللغات الأجنبية كالفرنسية والتركية والفارسية ، ثم انصرف إلى تعمق العربيـــة والعلوم الدينية في الأزهر ، ثم عكف على دراسة العلوم الزراعية في فرنسة ، ثم اتجه إلى العلوم الوضعية في العراق ، وعاد لتدريس علوم الآلة في دمشق ، واشتغل

بتحقيق عيون تراثنا الجيد في اللغـــة والأدب والنحو . على أن من آخر الكتب التي حقق ونشر كتاباً في الحديث يثق به الاباضية من الخوارج ، عنيتُ به الجزء الثالث من (شرح الجامع الصحيح مُسْنَدِ الإمام الربيع ابن حبيب بن عمرو الفراهيدي الأزدي) وقد طبع بدمشق عام ١٩٦٣ م. وأنتم تعلمون أيها السادة أن هذا الجامع الصحيح هو عمدة الاباضيـــة في الحديث ، لا يعدلون به شيئاً من كتب السنة والشيعة ، وأن لهذا الجامع شأناً — وأي شأن — عند الباحثين ، لأنه لم يَسْلَم لنا من كتب الخوارج الأولين غيرُه في بابه . وقد توفر التنوخي خرّيج الأزهر على تحقيق متن هذا الجامع وشرحه ، ووطأ له بمقدّمة أرّخ فيهـــا أوّلية تدوين الآثار والأخبار والأحكام عند المسلمين ، ثم أفاض في بدء تدوين الحديث وشرح رتب الصحيح من أحاديث الرسول والأسانيد الثلاثية ورجالها ، ومقـام مسند الربيع بن حبيب ، وجلا ثلاثيات الربيع وكيف أن أحاديثها في مسنده من أصحها رواية وأعلاها سنداً ، وقد ترجم لرجال هذا المسند : أبي عبيدة التميمي وجابر بن زيد الأزدي والبحر عبد الله بن عباس . وجابر هـذا هو — كما تعلمون — أصل المذهب الاباضي في عُمان والمغرب ومن أصحاب عبد الله بن عباس .

وكأن التنوخي كان يخشى أن يُرمى بنصرة المذهب الاباضي — وهو الجاهر بسنّيته المعتزّ بها — ، فقال في مقدمة الكتاب : « وما آثرت تخريج أحاديث المسند والشرح ، ولا سيما مارواه الشيخـان ، إلا لتطمئن قلوب اخواني ابناء السنة بأن مسند الربيع الذي بُني عليه المـذهب الاباضي هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها مما جاء في الصحيحين ، وجابر بن زيد ممّن روى عنهم البخاري وغيره ؛ لكيلا يقع الناظر في هذا الكتاب فيما وقع

فيه خصوم الاباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم وعقيدتهم فيظنهم من الخوارج الغلاة . »

أما تحقيق التنوخي لهذا الجامع الصحيح فيدلّ على تمكن من علم الحديث قلّ في عصرنا مَن يضارعونه فيه ، فهو يقابل ما جاء فيه بكتب أهل السنة ويشرح وينقد ويترجم للرواة ويعدّل ويجرّح ، وقد يعدل إلى شيء من العربية يعينه على إيضاح الغامض وتقويم المتآد .

ومن الطريف أن آخر تعليقة للتنوخي في هذا الجزء من الكتاب عادتْ به إلى ما اعتاده رفاقه وطلابه منه حين كانوا يسمعون أحاديثه الطلة الحلوة ، وأستميحكم العذر في تلاوة هذه التعليقة الأخيرة عليكم لصلة ما فيها ببعض أعمال مجمعكم ، ولتصويرها جانباً من جوانب العزّ التنوخي رحمه الله . فقد جاء في تعليقه على شرح الحديث الشريف : « مَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة » :

« يقول الشارح : نكّره (نكّر علماً في قوله : يلتمس فيه علماً) ليندرج فيه القليل والكثير ؛ فيضيف التنوخي : كما نكّر العلم في قوله تعالى : هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ليكون شاملاً لجميع العلوم النافعة ، فليس مقصوراً على الفقه والنحو والصرف وحدهما ، بل يطلق أيضاً على العلوم الرياضية والفيزياء والكيمياء وعلم الحِيَل (الميكانيك) وعلى كل علم يقوى به المسلمون والعرب ويعينهم على اختراع الأسلحة الحديثة الذرّيّة التي يقاتلون بها الأعداء من المستعمرين ، ويدافعون بها عن حوزة الوطن والدين ، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ صدق الله ؛ لا يستوي عالم وجاهل ولا دارع عالم وأعزل غافل ؛ ولو أن شاعرنا العربيّ الشدّاخ عاش في عصر العرب المسلمين هذا لقال :

أبَيْنا فلا نعطي السلاطينَ طاعةً ومستمراً إلا الصّروخَ المضرّما
ولا نتتضي هـــذا الحسام مجرّداً ولا نرتضي ذاك الوشيـج القوّما

ثم يضيف التنوخي الجمعي : الصّروخ وزن فعول هو الصاروخ الذي يصعد بتضريم النار إلى السماء ، وبيتا الشدّاخ بن عوف الكناني هما :

أبَيْنـــا فلا نعطي مليكاً ظلامةً ولا سوقةً إلا الوشيـجَ المقوّما
وإلاّ حساماً يبرُقُ العينَ لَمْحُهُ كصاعقـةٍ في غيث مزنٍ تَرَكّما .»

هذا ولا أعلم أن للتنوخي كتباً أخرى نشرهـا في الحديث النبوي ، ولكنه كان في أواخر أيامه معنيّاً بكتاب (الدلائل في غريب الحديث) لقاسم بن ثابت السرقسطي ، فقد عرّف به في مجلة المجمع في مطلع العـام ١٩٦٦ م في مقالة ضافية جميلة ، واشتغل بتحقيق الكتاب ، ولكن وافاه الأجل قبل الفراغ منه . وقد عزم المجمع على إتمام تحقيقه ونشره .

وصفوة القول كان التنوخي حافظاً للكثير من الأحاديث النبوية ، واقفاً على معانيها المستفادة منها عارفاً بظانّها ورواتها قادراً على تنخّلها وتبيّن صحيحها من موضوعها .

وهذا جانب آخر يدل على فضل الفقيد واتساع آفاق علمه .



وبعدُ فما يجمُل بي أن أجتزىء بالإلماع إلى آثار التنوخي وأغفل الحديث عن صاحب هذه الآثار ، ولكن استيفاء هذا الحديث يشغَل من وقتكم فوق ما يتسع له صدركم ، فاسمحوا لي أيها السادة بأن أقتصر على كلمات قليلات أقولها في التنوخي المجدّد والتنوخي الشاعر والتنوخي اللغوي .



عُرِف الأكثرون من رجالاتنا في فاتحة عصرنا هذا بالمحافظة والوقوف عند ما وقف عنده المتقدمون فهم لا يميلون للتجديد إلا بقدر ، ولا يرضَوْنَ من الاصلاح إلا بما تشتد الحاجة إليه ؛ ولئن غلبت نزعة التجديد — ولو إلى حد — عند بعض رجال السياسة والفلسفة والاجتماع والثقافة والفكر والأدب ، فإن نزعة التجديد هذه كانت تطرق على استحياء وخفر أبواب اللغويين ولا تلجها إلا بحذر وتردد ، تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى . وكانت دواعي الإصلاح والتجديد في بادئ الأمر وافرة غزيرة ، ولكن عوامل البيئة المحافظة ، وغلبة الثقافة التقليدية ، والخشية من التردّي في مهاوي المنبتّ كانت تدعو إلى القصد في التجديد والتغيير ، ومن أجل ذلك كانت صدور رجال اللغة مثلاً تحرج بتقبل الدخيل والمولّد ، وتحجم عن مجاراة ما استنّه أبناء اللغات الأخرى في المستحدث من الألفاظ للدلالة على المستجدّ من المعاني . وتفسير ذلك عندي أن الأمة العربية كانت في مطلع هذا القرن في معركة حياة أو موت ، وأن مقوّمات النصر في هذه المعركة لضمان بقاء الأمة كادت تنحصر يومئذ في الحفاظ على اللغة ، فزوال اللغة مؤذن بزوال الأمة ، وبقاء أبنائها ببقاء لغتهم ، فكانت صدور علمائنا تضيق بالمولد والدخيل وتود الرجوع إلى المأثور الأصيل . فلما اطمأنّت الأمة إلى وجودها وبقائها (أو لمّا خُيِّل لها ذلك) اتسعت صدور علمائنا ، فرضوا بتسنية أبواب اللغة وبالاجتهاد فيها ، وغدا علماؤنا أقلّ تزمتاً وتصلباً ، وأصبحوا أميل إلى التيسير والتجديد ، وقد يختلفون في تعيين الحد الذي ينبغي لهم أن يقفوا عنده ، وقد يغلو أحدهم فيجاوزه بأشواط أو يتصلب بعضهم فلا يبلغه إلا من بعد ، ومردّ ذلك اختلافهم في التقدير وتباعد نظرتهم في الأصلح والأمثل .

ويروعنا أن محمد التنوخي ـ وقد ولد في القرن الماضي ونشأ نشأة أزهرية في بيئة دينية وتكوّنت ثقافته ونفسيته في هذه الفترة الأولى ـ يروعنا أن

نجده ، عمرَه كله ، منادياً بالتجديد ، راضياً به ، داعياً له ، ما أعانه عليه إعداده الفكري وتفتحه الذهني وتقديره الشخصي ، فهو يقول مثلاً في واحد من أوائل كتبه وقد نشره في العراق عام ١٩٢٧ :

« وما زالت هذه الصناعة (صناعة الإنشاء) تتبع في تهذيبها وترقّيها سير العلوم وتكامل الصنائع حتى أوشكت أن تبلغ بين الفرنجة تمامها ، ونحن لم نزل على تركة أسلافنا جامدين ، وسادّين أبواب الاجتهاد في الفقه بأنواعه : فقه اللغة وفقه البيان والتبيين وفقه الآداب الرفيعة وفقه الصنائع المفيدة وفقه السلم وفقه الحياة بحذافيرها أي فقه الدين والدنيا معاً . »

ويقول في مقدمة كتاب آخر أصدره بعد أكثر من ثلاثين سنة :

« ولو توفّر لسلفنا الصالح من وسائل دراسة الأصوات السمعية والآلية وعلم أمراض الكلام والاطلاع على اللغات السامية ومقارنة اللغات القديمة والحديثة كما توفرت لفقهاء اللغة في ديار الغرب في هذا العصر ، لرأينا من حلّ مشكلات الابدال واستبطان أسرار لغتنا العربية ما هو مقطع الصواب » .

ويقول في موضع آخر (مقدمة الابدال) :

« ثم ماذا كان علينا لو انتفعنا بأبحاث علماء التجويد الحديث Phonologie من الغربيين ، بعد أن نضجت على نار الاختبار مباحثهم الصوتية ...

... إن أساتذة اللغة المحدثين الذين كتب لهم الاطلاع على المباحث الصوتية الحديثة ودرسوا علم الأصوات اللغوية وتطور الأصوات في اللهجات العربية القديمة والحديثة ثم تابعوا سير الدراسات اللغوية في ديار الغرب وتطوّر أصوات الصبيان في مراحل النموّ أو درسوا علم أمراض الكلام ، وأبحاث آفات اللثغات وأسباب حدوثها وطرق معالجتها هم لعمري أصدق نظـــراً في أحوال الابدال وأصح أحكاماً على نظائره وأقوى على حلّ مشاكله

واستبطان دخائله ممَّن لم يطَّلع على غير فن التجويد أو بحث الفصاحة من كتب البلاغة أو آراء ابن جني وأتباعه وغيرها .... »

ويقول في مقدمة كتاب آخر (مقدمة الإتباع) :

« ولقد آن لنا أن ندرس لغتنا العامية دراسة علمية .. »

كما يقول في مقدمة (الايضاح) :

« إن البلاغة العربية التي تشتمل على هذه الفنون الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) إنما تبحث عن الجملة والصورة وهما شطر من الأسلوب الذي أغفلته بلاغتنا . والأسلوب لا تخلد الكتابة ولغة الأمة إلاّ به ، ولم تَبْحث معه عن الفكرة والعاطفة والخيال وعن قواها وأنواعها ، ولئن كانت الجملة والصورة قوام جسم البلاغة فالفكرة والعاطفة والخيال روح ذلك الجسم السويّ الجميل ، والتعبير المستوفي لشرائط الحسن إذا ما خلا من روحه أشبهَ التمثالَ الذي استوفى نحتُه شرائطَ الإتقان ولكنه يظلّ معها جامداً بارداً لفقده الروح والحياة .

ثم إن لهذه الفنون أو الفصول الثلاثة من البلاغة أنواعاً أدبية أخرى Les genres littéraires لها بها اتصال وثيق ، وبجملتها يتم بيان الإنسان كالوصف والخطابة والقصة والرسالة والبحث والمناظرة ، فلها بلاغات فنية خاصة ، وعسى أن نوفق يوماً لإتمام البحث عنها في رسائل أو كتب مستقلة تدل طالب البلاغة الإنسانية على أصولها وأساليبها وشرائط الإتقان والإحسان فيها . »

والتنوخي في كتابه (إحياء العروض) يشير الى النزعات الانتقادية في العروض وغلبة سلطان التقليد وتحكّمه في أصحاب هذا العلم ، وينعَى عليهم موادعتهم له ورضاهم به ، كما يجاهر بإنكاره على الجامدين جمودهم ويقول :

« والعلماء الاتباعيون لا يعدون ما تستحدثه الحاجة من فروع العلم علماً ، ولذلك لا يعتبرون ما استحدثه الأندلسيون من الموشّحات شعراً ، على أنها أرق فنون الشعر العربي ، ومن أقوى الدلائل على حيويته وخلوده بتطوره ؛ وأمتنا العربية اليوم في حاجة حاقّة إلى هذه الأوزان الموسيقية ... »

هذه النية الحسنة في التماس الإصلاح ، وهذه الدعوة الصريحة إليه هل وَلِيَها عند التنوخي جرأة على العمل تعدل الجرأة على القول ، هل حاول التنوخي أن يلج باب الاجتهاد والتجديد في فقه الدين والدنيا كما دعا أكثر من مرة ؟

الحق أنه حاول التجديد والإصلاح ، وحاوله صادقاً ، ولكن البيئة والنشأة والتربية كبحت جماحه وكبّلت يده وحبَست قدمه ، فلم يقوَ على السير إلى غاية الأمد وقنع ببلوغ القليل مما كان يدعو إليه . فهو في تجديده العروض مثلاً لايزيد على تغيير ترتيب بحور الشعر ، فيبدأ العروض بالمتدارك والمتقارب ثم الهزج والوافر .. وهكذا دواليك حتى ينتهي بالمنسرح ؛ وهو يثبت دوائر البحور ولكنه يذكر أقوال من نقدها . وقد يورد في الحين بعد الحين (ألحوظات) و (نظرات) ترجّح رأي ابن الحاجب أو الزجّاج أو الزمخشري على آراء اخرين من أقرانهم ، أو يجلو قرابة الخفيف والمديد إلى الرمل ، أو المجتث إلى البسيط ، أو المضارع إلى المتقارب . وقد يستشهد بما اختاره من شعر المحدثين ولكنه لايمضي في الشوط إلى أبعد من ذلك ، فلا يحاول مثلاً وضع علم جديد للعروض لا يقوم على أسس الخليل ولكن على أسس من الدراسات الموسيقية والصوتية التي تيسرت لنا اليوم ، ولا يدلي برأيه في هذا التحلل من الوزن الذي عاذ به الناشئون من شعرائنا ، ولا يصرفهم عن هذا الذي يسمى (بالشعر الحرّ) بوضع ما يرضيهم من قواعد طريفة مستحدثة سليمة مقبولة .

ويحاول التنوخي التجديد في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) فيقنع بأن يقلب ترتيبها المأثور المألوف فيقدّم علم البديع ثم يثنّي بالبيان ويختم بالمعاني ، ويضيف إلى شواهد (الايضاح) تمرينات اختارها مما حفظ أو مما نظم ؛ أما إنجاز ما وعد به من التأليف في (البلاغات الفنية) وأساليب إتقانها فلم يقيّض له الوفاء به .

والتنوخي يدعو إلى دراسة اللغة العامية دراسة علمية ، وهي دعوة جريئة لايزال الكثيرون يُصمّون آذانهم دونها ، ويرمون دعاتها بخبث النية وسوء الطوية ، كما يدعو التنوخي إلى الانتفاع بما جاء به علماء الصوت ومقارنة الألسن لتجديد البحث في العربية ، ولكنه في هذا المجال لاينطلق بعيداً ، ولا يزيد على شرح بعض الفصاح بما يقابلها من العامية ، أو مضارعة الألفاظ الدارجة بالألفاظ الصحيحة ، ثم يقف عند هذا لايعدوه .

والحق أن التنوخي كان فيما يدعو إليه من التجديد حذراً متأنياً ، وكان فيما يأخذ به منه أكثر حذراً وحيطة ، لم يكن يصدر في هذا الحذر والحيطة عن مصانعة أو مداجاة ، وإنما كان يخشى استبهام المحجّة وخفاء نهاية المطاف . ولَلخَيْرُ ألف مرة أن نسير الهوينى ولكن على بصيرة ويقين من أن نلقي بأنفسنا في مجاهل لانعرف صيّورنا فيها .



إلى جانب التنوخي المجدّد يمكن أن تقال كلمة في التنوخي الشاعر .

وقد أدرك أبناء جيلنا أبا قيس يعلو المنابر ويلقي الشعر بصوته الجهوري الرفيع ، وقرأ الكثيرون شيئاً من النظم الذي كان يطالع به الناس بين الحين والحين . ولكني لا أعلم أن شعره جمع في ديوان برأسه . وقد يجد المتتبّع لآثار فقيدنا في الصحف والمجلات والكتب شعره على ضربين : مقطعات

وقصائد ، أما المقطعات القصيرة فتمتاز بسلاسة أسلوبها وجمال نكتتها وخفتها على اللسان وعلوقها بالحفظ ، فمن ذلك قوله وقد نقل مقر عمله إلى دمشق من السويداء بعد أن ضاق ذرعاً بمقامه فيها :

الحمـــد لله الذي أنقـــذني ولم أصَب
وردّني لبـــلدتي (وسلتي بلا عنب)

ومثال ذلك ما كان يكتبه أو ينشده لإخوانه أو يرتجله لمناسبة عرضت أو نكتة حضرت . وكثيراً ما كان ينثر بعض المقطعات في كتبه ولا سيما في أجزاء تهذيب (الايضاح) و (إحياء العروض) ، فهو يؤلف مقطعة لكل من ضروب الوجوه البديعية والبيانية والأعاريض والأضرب الشعرية .

وإلى جانب هذه المقطعات القصيرة قصائد يحرص التنوخي فيها على قوة الحوك وشدة السبك ومتانة الأسر وسموّ الغرض . ومثال هذه القصائد ما قاله إبان الثورة السورية عام ١٩٢٥ وقد قذف المستعمر المدن والقرى بقنابله المحرقة الفاتكة وقتّل الرجال وسبى النساء ومثّل بالأطفال :

قف في المنازل نادباً أطلالهـــا ماذا يفيدك أن تطيل سؤالهـــا
قد أحْرِقت عمداً دمشق فلم تعد تصف الجميلة الورى وجمالهـــا
النـار تمطرهـا المشية وابـلاً والعلج ويل العلج جاس خلالهـا
يا ربّ آمنـة هناك بسربهـا تغدو لتصلح دارهـا وعيالهـا
برزت تصيح وشعرهـا متفرق سترت به حذر العيون جمالهـا
وهناك نائحة تنوح لبعلهـا الـــثاوي وتندب بعـده أطفـالها
اللهَ للأطفال كيف غدت لقىً صرعى القنابر بعثَرت أوصالهَا
تشجيك أيدي صبية بُتِرت وأر جلهـا ترن يمينهـا وشمـــالها

والتنوخي قصائد وطنية واجتماعية كثيرة كقصيدته التي قالها في الجامع الأموي بدمشق عام ١٩٤٥ يستنهض الهمم لجهاد الغاصب والمحتل ، أو قصيدته في العيد الألفي للمتنبي . على أن من أجمل شعره ما كان ينشده في الإشادة بالدروز بني عمه ، ومن ذلك قوله :

سل الوغى عن تنوخ فهي تعرفهم   من كل أروع في الهيجاء مشهود
تسلسل الملك فيهم قبل ذي يزن   إلى المناذرة الغرّ الأماجيد
أهل السدير وأصحاب الخورنق والـ   ـخيل السوابق والمهرية القود
أبناؤهم في ذرى لبنان تملكهم   صبابة بالعلى لا الخرّدِ الغيد
ولم تزل بحمى الفيحاء هابطة   بقية السيف منهم والصناديد
عصابة لو رأى حسان طلعتهم   لقال قول امرئٍ بالحق معهود
هذي وجوههمُ هذي أنوفهمُ   البيض والشمّ ما شيءٌ بمفقود



جانب آخر من جوانب حياة التنوخي الخصبة : التنوخي اللغوي .

وقد يعفّي الزمن على تصانيف فقيدنا في الأدب والشعر والنقد ، وقد تتنكر الأجيال القادمة لصنيعه في مضامير البلاغة والحديث والعلوم ، ولكن ستنقضي أعوام وأعوام قبل أن تُنسى آثار التنوخي في ميدان اللغة .

لقد أحب علاّمتنا لغته وافتتن بها وسعى في إحيائها منذ صباه إلى يوم لقي وجه ربه ، حافظ على تراثنا اللغوي وحقق منه ما استطاع وعلق عليه ونشره نشراً علمياً ، ودعا إلى التآزر في بعثه وحثّ على التكاتف في الإفادة منه ، ثم حاول جاهداً أن يحبّب العربية إلى الناشئة فعمل على تقريبها إلى أفهامهم وتيسيرها على أقلامهم وترويض ألسنتهم بها ، وحضّ على اصطناعها في الدار

والمدرسة في الجامع والمجتمع في الجد واللهو في السرّاء والضرّاء ، وكان القدوة الصالحة لهم في هذا كله .

وقد أعانه على ذلك حافظة واعية وذوق مرهف واطلاع واسع وصبر على الدرس لم يؤتَهُ غيره ، وقد راعني عندما كنتُ في الظاهرية أن التنوخي أشار بخط يده على المخطوطات التي قرأ فوجدتها تجاوز المئين عدداً وأكثرها عسير القراءة عدا الزمان على ورقه وخطه وحمّل قارئه عناءً وعنتاً لا يحتمله إلا أولو العزم من عشاق العربية المخلصين لها ولأبنائها .

وقد وضع التنوخي لأبناء هذا العصر الكثير من المصطلحات الجديدة شاع بعضها وذاع ، والتزمه الناس في دنيا العروبة كلها قاصيها ودانيها .

نظر يوماً في الدرّاجة وأحصى أسماء أجزائها بالفرنسية ثم وضع لكل من هذه الأجزاء كلمة عربية سائغة ونشرها في مجلة دمشقية وعاش بعض هذه المصطلحات وتناقلها الناس ونسَوْا من وضعها لهم .

وقبل ذلك عندما كان في العراق وترجم كتاب (فرنان مابير) عرّب كلمة Physique بـ (فيزياء) كما صنع أسلافنا عندما وضعوا كلمة (كيمياء) على وزن سيمياء ، وهي ـ كما يقول التنوخي ـ أدق علمياً من كلمة (الطبيعة) التي تشمل علوم الأرض والسماء ، وأخص من (الحكمة) أو (الفلسفة الطبيعيـــة) . وقد انتشرت كلمة (الفيزياء) على ألسنة الناطقين بالضاد في المشرق والمغرب .

وقد شارك أبو قيس في لجنة كان على رأسها الأستاذ المرحوم الأمير مصطفى الشهابي كلفت ترجمة المصطلحات العسكرية بمصطلحات عربية سائغة ، فقامت اللجنة خير قيام بما وكل إليهـا ، وأخرجت للناس معجمين اثنين قيّمين تستأنس بهما اليوم جميع الجيوش العربية وترضى أكثر ما وضعـــه التنوخي وصحبه من مصطلحات .

وقد وضع المجمع ـ والتنوخي من أوائل أعضائه ـ في مطلع تأسيسه مصطلحات كثيرات فصيحات عرفناها وألِفناها اليوم، ولولا التنوخي ورفاقه لكانت ألسنتنا ترطُن ـ في أغلب الظن ـ بما جرى على ألسنة آبائنا منها كالجرنال والكزيطة والدركنار واستاتيستيق ورابور وبول وقوجان وماصه وقاصه وقومسيون ودوسيه وغيرها وغيرها .

كان التنوخي رحمه الله يحرص على ألا تستبدل العربية الخبيث الأعجمي بالطيب من كلمها أو صيغها، وقد كرر الدعوة في آخر مقالة كتبها قبيل وفاته إلى تغليب (تلفاز) على (تلفزيون) إذ أن إقحام أمثال هذه الكلمة بصيغتها الأعجمية سيضعف شأن اللغة ويُدْخل الضيم على شخصيتها وعبقريتها وسيمحو خصائصها التي انفردت بها ورُكّبت عليها .

وقد وضع التنوخي ألفاظاً كثيرة رشيقة البنية صحيحة التركيب خفيفة على اللسان، ولكن لم يتح لكلها الذيوع، فقد اقترح مثلاً (المكيني) لما نعبر عنه اليوم بـ (الميكانيكي) فلم تشع وإن كنا نحار اليوم في التعبير عن معناها، ووضع كلة (الأصولي) ترجمة لـ (كلاسيكي) و (مكفَل) لـ (بانسيون) ومصطلحات أخرى كثيرة .

ولم يقنع التنوخي باللفظ الفصيح الصحيح يستعمله ويدعو إليه، وإنما كان ينشر أيضاً الأسلوب الأصيل القويم، ويدلّ على ما تسرَّب إلى آثار كتاب عصره من تراكيب قد تكون مفرداتها ـ متفرقةً ـ سليمة قوية، ولكنها في مجموعها وتأليفها ضعيفة سقيمة، كقولهم : رحنا صباحاً .. وفصيحها غدونا صباحاً، أو : فمابه الأستاذ على كسله، وصحيحها : فعاب الأستاذ كسله ... والتنوخي في هذا يجاوز دائرة العالم اللغوي إلى حيّز البياني البلاغي فيقول مع صاحب (المثل السائر) : إن أسرار الفصاحة

لا تؤخذ من علماء العربية ، وإنما تؤخذ منهم مسئلة نحوية أو تصريفية أو نقل كلة لغوية وما هو من هذا المجرى ، أما أسرار الفصاحة والعلم بالموسيقى اللغوي فلها قوم مخصوصون بها .

وبعد فمَراد القول في التنوخي رحب فسيح ، ولكن صبركم على حديثي لن يتسع لأكثر مما قدَّمت ، فلأجتزئْ به ولأتوجه في الختام بالحمد أصدقِه وأصفاه ، والشكر أوفره وأوفاه ، إليكم وإلى الزميل الكريم الدكتور عدنان الخطيب فقد أسبغ عليّ من الثناء حلة زاهرة لا تليق إلا بفضله ، وفوَّفها بألوان زاهية أخذها من كريم نبله ، ولعلّني أبلغ في مقبل الأيام بعض ما شام فيَّ من كفاية وما توسم من اجتهاد .

« ربِّ هبْ لي حكماً وألحقني بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين . »

والسلام عليكم ورحمة الله .

٢٤/٤/٦٩ عبد الهادي هاشم



حول التأثيل اللغوي

ظاهرة في المعجم العربي

جديرة بالدراسة

(مادة الباء في ترتيب الصحاح ، تشتمل على أكثر
مواد المعجم التي يدخل الماء عنصراً في تعريفها)

— ٤ —

ع ز ب عَزب : غابَ ، وأعزب : بَعُد ، وعَزَّب بماشيته : بعُد بها يتتبَّع مساقطَ الغيث . العازبُ من الكلإ : البعيدُ المَطْلب وأرضٌ عَزُوبة : بَجْراء قليلة الكلإ .

ع س ب العَسْبُ : ماءُ الفحل .
المَسْقَبةُ : جمودُ العيْن في وقت البكاء .
عَسْنَبْتُ الماءَ : ثوَّرته .

ع ش ب العُشْبُ : الكلأُ الرَّطْبُ .
وعَشِبَ الخبْزُ : يبِسَ .

ع ص ب العَصْبُ : شدُّ فَخِذَي النَّاقة لِتَدِرَّ اللبنَ كالعِصاب ، وناقةٌ عَصُوب : لاتَدِرُّ إلاَّ بالعَصْب .
والعَصْبُ : جفافُ الرِّيق ، وعَصَبَ الماءَ : لَزِمَه .
والمَعْصُوب : الجائع الذي كادت أمعاؤُه تَيْبَسُ جوعاً .

ع ط ب العَوْطَبُ : لُجَّةُ البحر ، أو أعمق موضع فيه ، أو المطمئن بين الموجتين .

ع ظ ب عَظَبَ الجلد إذا يَبِس .

ع ق ب العُقَبُ : نُوَبُ الوَارِدَة ، ترد قِطعةٌ فتَشْربَ فاذا وردت قطعةٌ بعدها فشربت فذلك عُقْبَتُها ، والعواقبُ الإبلُ تشرب الماءَ ثم تعود إلى المَعْطِن ثم إلى الماء .

وأعْقَبَ مستعيرُ القِدْر : ردَّها وفيها العُقْبَةُ ، وهي مَرَقَةٌ تُرَدُّ في القِدْر .

العُقَاب : مسيلُ الماء إلى الحوض ، والحَجَرُ يقوم عليه السَّاقي ، وحَجَرٌ ناتِىءٌ في جوف البئر ، والرجُلُ الذي ينزل في البئر فيرفعُها يسمى المُعَقِّبُ .

التعاقُب الوِرْدُ مَرَّةً بعد مَرَّة .

ع ك ب عَكَبَتْ القِـــدْرُ : ثار عُكَابُها . والعُكَابُ : البُخَار وشدَّةُ الغَلَيان .

ع ل ب عَلِبَ النباتُ : جَسأَ (أي صَلُبَ) . واستعْلَبَتِ الماشِيَةُ البَقْلَ : أَجمتْهُ واستغلظَتْهُ إذا ذَوَي .

عَلَبَ : غَلُظ وصَلُب ولم يكن رخْصاً . والمكان العِلْبُ : الغليظ من الأرض الذي لو مُطِر دهراً لم يُنْبِتْ خضراء .

والعَلَبُ : الصَّلابةُ والشدَّة والجُسُوء .

العُلْبَةُ : مِحْلَبٌ من جلد أو خشب يحلبُ فيه ؛ أو هي جِلدةٌ تُؤْخَذُ من جَنْب جِلْد البعير إذا سُلِخَ ، يُعَلِّقها الرَّاعي أو الرَّاكب فيَحْلُبُ فيها أو يَشْرَب بها .

عِلْيِبَةُ : مُوَيْهَةٌ في بلاد أسد .

ع ن ب العُنْبَبُ : كَثْرَةُ الماء ، ومن السَّيْل : مُقَدَّمُه .

العُنَابة : ماءٌ في ديار بني كلاب .

عَنْكَبُ : ماء بأَجإٍ لبني فَرِير بن عُنَيْن .

ع ي ب عَابَ السِّقَاءُ : خَثُر ما فيه من اللَّبَن . والعائِبُ : الخاثِر .

غ ب ب غَبَّ : شرب غِبّاً كالغُبُوب . والغِبُّ : وِرْدُ يومٍ وظِمْءُ آخر .

الغُبُّ : الضاربُ من البحر حتى يُمْعِنَ في الأرض .

الغَبِيبَةُ : الرائبُ من اللَّبن .

المُغَبَّبَةُ : الشاةُ تُحلَب يوماً وتترك يوماً .

ومياهٌ أغبابٌ : بعيدةٌ . يقال ماءٌ غِبٌّ أي بعيد ، ومنه قولُهُم : غَبَّ السَّلام .

الغَبِيبُ : المسيلُ الصغيرُ الضيّق .

غَثْلَبَ الماءَ إذا جرعَه جَرْعاً شديداً .

غ ر ب الغَرْبُ : الرَّاوية التي يحمل عليها الماء ، والدَّلو العظيمة ، ومَسيل الدَّمع ، وكثرة الرِّيق ، ويوم السَّقْي ، وأعلى الماء أو هو الماء نفسه الذي يقطر من الدَّلو بين البئر والحوض ، وغواربُ الماء أعاليه أو أعالي موجه .

أغْرَبَ الحوض والإناءَ : ملأهما .

غُرَّبٌ : اسم جبل أو اسم ماء عنده ، وكذلك غُرَّبة .

غ س ب غَسْنَبَ الماء : نَوَّرَه وهَيَّجَه .

غ ض ب مكانٌ غَضْرَبٌ وغضارِب : خِصْبٌ ، كثيرُ النَّبْت والماء .

غ ي ب الغَيابة في الأصل : قعر البئر ، ثم نُقِلت لكُلِّ غامضٍ خفيٍّ .

ق أ ب قَأَب الماءَ : شَرِبَه ، أو أكثر من شُرْبه أو تَمَلَّأَ منه .
ورجلٌ قَؤُوب : كثيرُ الشُّرْب .
إناءٌ قَوْأَبٌ : كثير الأخذ للماءِ .

ق ب ب قَبَّ النَّبْتُ يَبِس . وقَبَّت الرُّطَبَةُ : جَفَّت .
القابَّةُ :القَطْرة من المَطر .

ق ر ب قَرِبَ وقَرَّب وأقْرَب : سار إلى الماءِ أو كان بينه وبين الماء ليلة . والقَرَبُ : طلبُ الماءِ ليلاً ، أو أن لايكون بينك وبين الماءِ إلاّ ليلةٌ ، أو هو اللَّيلة التي تَرِدُ في صبيحتَها الماء .
القارِب : طالب الماء ليلا ، أو طالب الماء . والحمارُ القاربُ الذي يَقْرَبُ القَرَب ، أي : يُعَجِّلُ ليلةَ الوُرُود ، ومنه السَّفينَةُ الصغيرة .
قَرَبَ : طَلَبَ ، والأصل فيه طلب الماء ، ثم اتَّسعَ فيه ، فقيل فيه : فلانٌ يَقْرُب حاجتَه ، أي يطلبُها . والقُرْبانُ : مايُتَقَرَّبُ به إلى الله تعالى ، أي يطلبون القُرْبَ منه بها .
القَرَبُ : البِئْرُ القَريبةُ الماء .
القِرابُ : الدَّلو قارب أن يَمتلِيءَ ؛ وإناءٌ قَرْبان : قارب الامتلاء .
وأقْرَبْتُ القَدَحَ : إذا قاربَ أن يَمتلِيءَ .
القَوْرَبُ : الماءُ لايُطاقُ كَثْرةً . وظهرتْ تقَرُّباتُ الماء ، أي : تباشيرُه .
قُرْبَى : ماءٌ قُرْبَ تَبالةَ .

(يتبع) عدنان الخطيب



الرُّباعِيّات والمَثْنَيات

قرأت في الجزء الرابع من المجلد الثالث والأربعين من هذه المجلة البارعة رأياً الأستاذ الدكتور المحقق عمر موسى باشا عنوانه « الرباعيات أو الدوبيتات » استدرك به على الأستاذ الدكتور المحقق علي جواد الطاهري في هذا الفنّ من فنون النظم وتسميته ، وقد رأيت فيـــه بعض النقصان في البحث فوددت إتمامه :

إن « دوبيت » اسم مركب من كلمتين فارسية هي « دو » بمعنى اثنين ، و « بيت » العربية ، فمعناه « بيتان » فتسمية الدوبيت « الرباعيّة » أو « الرباعيّ » وإن كانت شائعة متداولة ، مخالفة للمعنى الأصلي الفارسيّ ومُوافقة للاصطلاح الذي شاع في دنيا العرب الأدبية ، لأنها استندت إلى « الأشطر الأربعة » لا إلى البيتين ، ولا مُشاحّة في الاصطلاح .

والظاهر لي أن الرباعيّة لم تكن تسمّى دائماً في فنون العرب النظامية هذه التسمية بل كانت تسمّى أيضاً « المَثْناة » وتجمع على « المَثْنَيات » وهي التسمية الأصلية الحقيقية ، قال الجوهري في ث ن ى من الصحـــاح : « وفي الحديث : من أشراط الساعة أن توضع الأخيار ، وتُرفع الأشرار وأن تُقرأ المَثناة على رؤووس الناس فلا تُغيَّر . يُقال هي التي تُسمّى بالفارسية (دوبيتي) وهو الغناء . قال[1] أبو عبيد يذهب في تأويله إلى غير هذا » . وورد في مختار الصحاح قول مؤلفه : « قلت : ذكر في التهذيب أن الحديث

---

(١) هكذا ورد الفعل في طبعة بلاد العجم وهو تصحيف « كان » بدلالة ما ورد في طبعة أخرى ومختار الصحاح .

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنها ـ وفسَّره لما سُئل عنه بما استُكتب من غير كتاب الله تعالى ، وقال أبو عبيدة : قيل إن الأحبار والرهبان بعد موسى ـ عليه السلام ـ وضعُوا كتاباً فيما بينهم على ما أرادُوا من غير كتاب الله تعالى فهو المثناة [1] ، فكأن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ كره الأخذ عن أهل الكتاب ولم يُرد به النهي عن حديث رسول الله ـ ﷺ ـ وسنته ، وكيف ينهى عن ذلك وهو من أكثر أصحابه حديثاً عنه » ؟ ! وجاء في الفائق للزمخشري « ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنها ـ من أشراط الساعة أن توضع الأخيار وترفع الأشرار وأن تقرأ (المثناة) [1] على رؤوس الناس لا تغيّر . قيل : وما المثناة ؟ قال : ما استُكتب من غير كتاب الله . قيل : هو كتاب وضعه أحبار بني إسرائيل بعد موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام على ما أرادوا من غير كتاب الله الذي أنزل عليهم أحلّوا فيه ما شاؤوا وحرّموا ما شاؤوا على خلاف الكتاب وقد وقعت إلى ابن عمر كتب يوم اليرموك فقال ذلك لمعرفته بما فيها [2] » . وذكر المبارك بن الأثير مثل ما ذكر الزمخشريّ وذلك في النهاية وأضاف إليه ما أثر الجوهري في الصحاح من كون « المثناة » الدوبيتي وهو الغناء .

والذي يهمّنا من هذه الأخبار في هذا البحث حاقّ الاهام هو أن « المثناة » الدالة على الاثنين تُقابل « الدوبيتي » أي البيتين ، وأنها كانت تُغنّى

(١) الصحيح أنها « المِشنة أو المشنا » بالشين المعجمة وأشهرها « مشنة يهودا بن شمعون الثاني أو الناسي « ١٣٥ ـ ٢٢٠ م » وهي جمهرة تفاسير التوراة في الزراعة والأعياد والزواج والطلاق والجنايات والمعاملات والعقوبات والمقدسات وغيرها من رحلة بنيامين (ص ٧٣) وغيرها . وهي الآن تقرأ على رؤوس الناس بقيام دولة إسرائيل كما جاء في الحديث ، فهل ظهرت أشراط الساعة ؟

(٢) الفائق « ١ : ١٥٩ طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ١٣٦٤ = ١٩٤٥ » .

ولشيوع الغناء بها سميّت « غناءاً » أما حقيقة الاسم اللغوية فلا تفيد الغناء البتّة ، و « الدوبيتي » تصحّف في لغة العامة إلى « الذوبيت » بالذال المعجمة ، قال المحبي : « وقد اشتهر باعجام داله وهو تصحيف وهو ثلاثة أقسام يكون بأربع قواف كالمواليات وأعرج بثلاث قواف ومردوف بأربع أيضاً وكله على وزن واحد(١) . والدوبيتي أو الدوبيت أو الذوبيت القديم لا يزال يُغنّى عند عوام العراق الجنوبيين ، وقد اعتراه القلب المكاني بعد التصحيف ، فصار الذّوبيت إلى « البُوذبت » ثم صار « البوذيّة » بتشديد الياء ومنهم من يسميه « الأبوذيّة » وقد حارت الظنون واختلفت في أصلها ، وهو ما اهتديتُ إليه ، ولا يصح الالتفات إلى غير هذه الحقيقة ، من مختلقات الأوهام ، و « البوذيّة » من وزن الوافر « مُفَاعَلَتُنْ مُفاعلتُنْ فَعولُ » ولحنُها مُحزن يشبه البكاء ، وتحتوي على النُدبة أو النسيب أو آلام النوى والفراق ، وما أشبه ذلك ، وأقبح الأمور عندنا التغنّي بها في الأفراح .

وقد اخترع الفرس دوبيتاً جديداً على وزن « لا حولَ ولا قوّة الا بالله » ومن أربعة مصاريع أيضاً ، وهو الدوبيت الذي شاع في أوائل القرن السادس للهجرة أو أواخر القرن الخامس في دنيا العرب الأدبيّة ، وذكره المرجوّ له الرحمة الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعيّ في كتابه في تاريخ أدب العرب(٢) ، وبعد أن فسر اسمه المركب قال : « وقد أخذه أدباء العرب عن الفرس ويعرف عندهم بالرباعي واختصَّ بالاجادة فيه بعض شعرائهم كعمر الخيام ... ولا نعرف أول من استعمل هذا النوع في العربيّة ولكن نشأته كانت في بغداد ... ونحن نُرجّح أنّ هذا النوع لم يكن في

(١) خلاصة الأثر « ٢ : ٢٥١ طبعة القسطنطينية سنة ١٢٩١ » .

(٢) تاريخ آداب العرب « ٣ : ١٧٢ طبعة مطبعة الاستقامة بالقاهرة ١٣٥٩ = ١٩٤٠ .

العربيَّة قبل القرن السابع لأننا لم نجده في شعر أحــد قبل ذلك الزمن ولا وجدنا إشارة إليه ، ولم نجد للشعراء ولعاً به إلا في أواخر تلك المائة وما بعدها ، والرباعي يُعد من المخترعات الحديثة في اللغة الفارسيَّة لأن أول من وضعه أبو سعيد بن الخير المتوفَّى سنة ٤٦٥ وبعضهم يقول إنه كان موجوداً قبل ذلك ولا يرجع اختراعه إلى تاريخ معيَّن ، غير أن ممَّن عرفوا بنظمه أبا جعفر رودكي[1] الشاعر المتوفى سنة ٣٠٢ حتى افتنَّ فيه الخيام وأجاده فاشتهر بما نظمه فيه شهرة بعيدة لأنه ضمَّنه أفكاراً سامية وانتقادات مرَّة ثم أقبل الأدباء عليه من بعده » وبعد نقط ثلاث جاء قول الرافعي : « وقد عارضها في العربية سديد الدين الأنباري ، كما ذكر صاحب خلاصة الأثر (٤ : ٣٩٠) ولم يقع لنا شيء من رباعيَّاته . وللدوبيت وزن واحد وهو فَعْلُنْ (بسكون العين) مُتْفاعِلُنْ (وتارة يغيَّر إلى متفاعلن) فَعُولُنْ فَعِلُنْ (بتحريك العين وسكونها) وأمثلته[2] كثيرة » .

---

(١) الصحيح « الرودكي » بالتعريف والذال المعجمة المفتوحة بعد الراء المضمومة والواو الساكنة قال السمعاني في الأنساب : « الروذكي ... هذه النسبة إلى روذك ناحية بسمرقند وبها قرية يقال لها سح (؟) وهذه القرية قطب روذك وهي على فرسخين من سمرقند ، والمشهور منها الشاعر المليح القول بالفارسية السائر ديوانه في بلاد العجم أبو عبد الله جعفر بن محمد بن حكيم بن عبد الرحمن بن آدم الروذكي الشاعر السمرقندي كان حسن الشعر متين القول . قيل أول من قال الشعر بالفارسية هو ، قال أبو سعد الادريسي الحافظ : إبو عبد الله الروذكي كان مقدماً في الشعر بالفارسية في زمانه على أقرانه ... وكان أبو الفضل البلعمي وزير إسماعيل بن أحمد والي خراسان يقول : ليس للروذكي في العرب والعجم نظير . ومات بروذك سنة ٣٢٩ » . قلت لا نشك في أن أبا الفضل البلعمي كان شعوبياً فقال ما قال .

(٢) قوله « وأمثلته كثيرة » متناقض الكلمتين لأن « أمثلة » جمع قلة و « كثيرة » تدل على الكثرة فالصواب « ومُثُلُه كثيرة » .

وقد ظهر للقارئ الكريم أن في تاريخ وفاة الروذكي الذي ذكره الرافعي أو ذكره مَن بعده غلَطاً في السنين ، أما المُعارض العربي للرباعيات الفارسيّة فهو «سديد الدولة» لا سديد الدين ، كما جاء في خلاصة الأثر ونقله الرافعيّ ، قال الذهبي : «محمد بن عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم ابن رفاعة الشيباني سديد الدولة ابن الأنباري ، كاتب الانشاء بالديوان العزيز ، له معرفة بالأدب والشعر والترسل ، بقي بديوان الانشاء نحو خمسين سنة وناب في الوزارة ، ونفّذ رسولاً إلى الشأم وخراسان وكان محموداً ذا رأي وتدبير ، وكانت بينه وبين أبي محمد القاسم بن علي الحريري رسائل وقد دُوِّنت . سمع عبد الله بن أحمد ابن السمرقندي وهبة الله بن الحُصين وروى عن أحمد بن محمد الخياط وأبي عبد الله محمد بن نصر القيسراني من شعرهما . سمع منه أحمد بن صالح بن شافع وعلي بن أحمد الزيدي والمبارك ابن عبد الله بن النقور وعبد المحسن بن خطلخ الأميري . توفي سنة ثمان وخمسين وخمس مئة وشيعه الوزير والأكابر . عاش نيّفاً وثمانين سنة (١)» .
وقال ابن الدبيثي مؤلف أصل المختصر : «وذكر صدقة بن الحسين الناسخ في تاريخه أن سديد الدولة ابن الأنباري توفي ما بين الظهر والعصر من يوم الاثنين تاسع عشر رجب سنة ثمان وخمسين وخمس مئة وصُلّي عليه يوم الثلاثاء بجامع القصر الشريف وحضر الصلاة عليه الوزير يحيى بن هبيرة [الحنبلي] وأرباب المناصب ودُفن بالجانب الغربي بالمشهد - يعني مشهد الإمام موسى [بن جعفر الصادق] - رحمة الله عليه - وكان من مشايخ الدولة القدماء ، وكان سنّه دون التسعين بسنة أو سنتين ، وكان فيه فضل وأدب .

(١) المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ أبي عبد الله ابن الدبيثي «١ : ٧٣ ، ٧٤» ، طبعة المجمع العلمي العراقي سنة ١٣٧١ = ١٩٥١ .

وقال غيره : مولده يوم الاثنين سادس ذي القعدة سنة سبعين وأربعمائة ـ رحمه الله وإيانا ـ[١] » .

وكنتُ قلتُ في التعليق على ترجمته في « المختصر المحتاج إليه » ما هذا نصه « ترجمه العماد في الخريدة (نسخة باريس ، الورقة ٧) وابن الجوزي في المنتظم ١٠ : ٢٠٦ وابن الأثير في حوادث سنة ٥٥٨ وغيرها لأنه كان من كبار رجال الدولة العباسية وقضى عمره في خدمتها مخلصاً ، وله ذكر كثير في التواريخ والظاهر أن القبور التي كانت في الكاظمية المعروفة بقبور الأنباريين كانت له ولأبنائه على ما نصت عليه التواريخ من موضع دفنهم »[٢] . ثم نشر الجزء الثالث من « الوافي بالوفيات » للصفديّ سنة ١٩٥٣ بدمشق وفيه ترجمته « ص ٢٧٩ » وفي سنة ١٣٧٥ = ١٩٥٥ نشر المجمع العلمي العراقي الجزء الأول من خريدة القصر للعماد الاصبهاني الكاتب بتحقيق الأستاذ الكبير محمد بهجة الأثري ، وفيه ترجمته « ص ١٤٠ — ١٤٤ » قال العماد : « وترددت إليه ببغداد وما كان يتعاطى الشعر تعانياً عنه وكنت أهابه وأُكبره من أن أستنشده ، لكنني أثبتُ من شعره البيتين والثلاثة على حسب ما أُنشدتُها فمن ذلك رباعياته الخالية للخلب ، السالبة للّب فمنها[٣] :

يا قلبُ إلام لا يُفيد النصحُ دع مزحَك كم هوًى جناه المزحُ ؟ !
ما جارحة منك خلاها جرحُ ما تشعر بالخُمار حتى تصحو

---

(١) ذيل تاريخ بغداد « نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٥٩٢١ الورقة ٧٤ والورقة ٧٥ » .

(٢) المختصر المحتاج إليه « ١ : ٧٣ » .

(٣) ذكر هذا الرباعي أو هذه الرباعية الصفديّ في الوافي بالوفيات « ٣ : ٢٧٩ ، ٢٨٠ » .

ومنهـا :

الدهر يعوقني عن الإلمـام مع ما(١) أنّي إلى التصابي ظامِ
لا تأخذني بمـا جنت أيامي ما ذنب السهم حين يخطي الرامي؟!

ومنهـا :

يا ريح تحملي من المهجور شكواه إلى المعسكر المنصورِ
قولي لمعذّبي شبيه الحُورِ ما أنت عن الجواب بالمعذور

ثم ذكر له من رباعياته :

الآن وما روضه العُمر ندِي لا تُخلِ من الكؤوس والراح يدي
في باقي العمر فُز بعيشٍ رغدِ إنّ الدنيـا إذا مضت لم تعُدِ

فإن كانت هذه الرباعيات من نظم أيام الشباب أمكننا أن نقول إن سديد الدولة نقل وزن الدوبيت الجديد إلى أدب العرب في أواخر القرن الخامس للهجرة أو أوائل القرن السادس كما ذكرنا آنفاً .

وبقي البحث عن حقيقة الرباعيات التي ذكرها الدكتور المحقق عمر موسى باشا مأثورة في رسالة «آداب العشرة وذكر الصحبة والاخوة» لبدر الدين محمد الغزي ، ومذكورة بلسان الجنيد الصوفي الكبير الشهير أهي الدوبيتي القديم أم الدوبيت الحديث ؟ فورودها مقرونة بالطرب والوجد يدل على أنها من النشأة القديمة لا الحديثة ، قال القاضي أبو علي المحسّن بن علي التنوخي المتوفى

---

(١) يستعمل كتاب العصر بدلاً من هذا التعبير « بالرغم من كذا وكذا » وهو ترجمة حرفية للعبارة الفرنسية ... En dépit de وباب المجاز مفتوح في العربية استئناسا واقتباساً إلا أن عبارة بالرغم من كذا تأتي أحياناً مناقضة لقول الكاتب ومراده وذلك عند استعمالها للنفي كقول بعضهم : « بالرغم من أن الأشغال لم تسمح لي فقلت كذا » .

سنة ٣٧٤ : « حضرني أبو أحمد عبد الله بن عمر الحارثي وعندي صوفيّ يترنم بشيء من الرباعيّات ، فلم يستطبه أبو أحمد فقال له على البديهة : يا أخي لا أقطع حديثك إلا بخير [١] » . فالتسمية بالرباعيّة كانت شائعـــة بالعراق في القرن الرابع .

وذكر العماد الكاتب في ذلكم الجزء من الخريدة ترجمة الوزير جلال الدين أبي علي الحسن بن صدقة [٢] المتوفى سنة ٥٢٢ هـ وأورد له شعراً قال : « أنشدني له محمود الكاتب المعروف بالمولّد البغدادي بالشام [٣] ، وذكر أنه رآه يكتب بخطه إلى المواقف المسترشدية هذه الأبيات ... وتنسب إليه هذه الرباعيّة :

آتيكِ غداً ولو حَماكِ الأهلُ   لا أرجع عنكِ أو يتمّ الوصلُ
آتيكِ ولو سُلَّ عليَّ النصلُ   السيفُ أو الفِراقُ كلٌّ قَتْلُ » .

فان صحّ عزو الرباعية إلى الوزير جلال الدين الحسن بن صدقة تأكد شيوع الدوبيت الحديث في الأدب العربي بالقرن الخامس للهجرة ولم يبق مجال تصديق لقول الرافعي بترجيح أنه لم يكن معروفاً عند العرب قبل القرن السابع للهجرة ، وأختم بحثي بتقديمي الشكر الأوفى إلى الدكتور المحقق البارع عمر موسى باشا لاغنامه إياي فرصـــة الكلام على الرباعيّة والدوبيت والمثناة والمترادفات .

(بغداد) مصطفى جواد



(١) نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة « طبعة مطبعة أمين هندية بالقاهرة ١ : ٥٤ » .
(٢) خريدة القصر « ١ : ٩٤ ــ ٩٦ قسم العراق » .
(٣) في هامش نسخة المتحفة البريطانية بلندن « وكان مليح الخط توفي بدمشق سنة سبعين » اهـ. يعني « سنة سبعين وخمس مئة » . (وأرقام النسخة ١٨٥٢٤ والترجمة في الورقة ٣١ منها) .

السلطانة رضية الدين
لا
جلالة الدين

ورد في الصفحة ٨٩٤ من الجزء الرابع من المجلد الثالث والأربعين من هذه المجلة البارعة في نقد كتاب « النساء الحاكمات في الدول الإسلامية » تأليف الدكتورة التركية بحرية أوچ أوق « السلطانة جلالة الدين رضية بنت السلطان شمس الدين إيلتُتْمش التي تولت الحكم سنة ٦٣٤ في دولة المماليك الأتراك في شمالي الهند » ، والذي علمناه وحفظناه أنها « رضية الدين » لا جلالة الدين ، بَلْهَ أن الاسم الثاني غاية في الغرابة ، فلم نعرف إنساناً لقب بجلالة الدين ، جاء في حوادث سنة ٦٣٥ من كتاب الحوادث « وفيها توفي شمس الدين التمش بن قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين محمد بن سام الغوري ملك الهند وملك بعده ولده ركن الدين فيروزشاه فلم يستقم له الأمر ، وتفرق عنه العسكر فقبضت عليه أخته وملكت بعده وأطاعها الجند والرعية وتلقبت (رضية الدنيا والدين) واستقام لها الأمر [1] » .
واستطرد الفضل بن أبي الفضائل المؤرخ في حوادث سنة ٧٢٥ ﻫ إلى ذكرها وذكر أسرتها قال : « ولما قتل السلطان شهاب الدين محمد بن سالم الغوري تولى بعده قطب الدين أيبك [مملوكه] مدة قليلة ، ثم تولى الملك شمس الدين ايتمش وأقام أربعين سنة وخلف جماعة أولاد فتولى الملك بعده علاء الدين

(١) كتاب الحوادث الذي سمي غلطاً الحوادث الجامعة « ص ١٠٤ » .

ثم أخوه ركن الدين تترشاه ومن بعدها أختها (رضية خاتون) وأقامت ثلاث سنين وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخ بغداد قال : وصل الخبر إلى بغداد أن ركن الدين تترشاه بن شمس الدين ايتمش ملك الهند ولّي بعد وفاة أبيه وذلك في سنة أربع وثلاثين وستمائة للهجرة وأقام سنة فلم يستقم أمره وتفرقت عنه عساكره فقبضت عليه أخته وملكت بعده وأطاعها الجند والرعية واستقام لها الأمر وتلقبت (برضية الدنيا والدين) قال المؤرخ : وتولى بعد رضية خاتون أخوها ناصر الدين وكان متزهداً ملك أربعاً وعشرين سنة [١] . . . » وفصل تاريخ الأسرة ابن بطوطة قال : « ذكر السلطان شمس الدين للمش : وضبط اسمه بفتح اللام الأولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم ، وهو أول من ولي الملك بمدينة دهلي مستقلاً ، وكان تملكه مملوكاً للأمير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره ونائباً عنه ، فلما مات قطب الدين استبد بالملك . . . وكان عادلاً صالحاً فاضلاً . . . ولما توفي السلطان شمس الدين خلف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالي بعده ومعز الدين وناصر الدين وبنتاً تسمى (رضية) وهي شقيقة معز الدين منهم فتولّى بعده ركن الدين . . . ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدّي على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته ، فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها ، فلما كان في بعض أيام الجمع خرج ركن الدين إلى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم وهو يسمى دوله خانه ، ولبست ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلّمتهم من أعلى السطح ، وقالت لهم : إن أخي قتل أخاه وهو يريد قتلي معه . وذكّرتهم أيام أبيها وفعله الخير وإحسانه إليهم ، فثارُوا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو في المسجد فقبضُوا عليه وأتوا به إليها فقالت لهم : القاتل يقتل .

---

(١) النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد للمفضل بن إبي الفضائل ، نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٤٥٢٥ و ٢٠٢ » .

فقتلوه قصاصاً ، وكان أخوه ناصر الدين صغيراً فاتفق الناس على تولية رضية ، ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية اخته (رضية الملك) فولّوها واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان ، كما يركب الرجال ، ولا تستر وجهها ، ثم إنها اتّهمت بعبدٍ لها من الحبشة فاتّفق الناس على خلعها وتزويجها ، فخُلعت وزُوِّجت من بعض أقاربها ، ووُلّي الملك أخوها ناصر الدين . . . ولما خُلعت رضية ولي ناصر الدين أخوها الأصغر واستقل بالملك مدة ، ثم إن رضية وزوجها خالفا عليه وركبا في مماليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد ، وتهيأا لقتاله وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بَلَبَن متولي الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية وفرّت بنفسها فأدركها الجوع وأجهدها الإعياء فقصدت حرّاثاً رأته يحرث الأرض فطلبت منه ما تأكله فأعطاها كسرة خبز فأكلتها ، وغلب عليها النوم وكانت في زيّ الرجال ، فلما نامت نظر إليها الحراث وهي نائمة فرأى تحت ثيابها قباءاً مرصّعاً فعلم أنها امرأة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها في فدانه وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق يبيعها ، فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشحنة وهو الحاكم فضربه فأقرّ بقتلها ودلّهم على مدفنها ، فاستخرجوها وكفنوها ودُفنت هنالك وبُني عليها قبّة وقبرها الآن يُزار ويتبرك به ، وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر الجون على مسافة فرسخٍ واحدٍ من المدينة ، واستقل ناصر الدين بالملك بعدها واستقام له الأمر عشرون سنة ، وكان ملكاً صالحاً ينسخ نسخاً من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها [1] » فهذه طراغوذيا [2] رضية الدين أو رضية الملك .

(بغداد)  مصطفى جواد

(١) تحفة النظار في غرائب الأمصار المعروفة برحلة ابن بطوطة ٢ : ٢١ ، ٢٢ طبعة مطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٣٢٢ .

(٢) أي تراجيدي كما جاء في تاريخ مختصر الدُول لابن العبري « ص ٣٤ » .

التقرير السنوي (لدورة ١٩٦٧ ــ ١٩٦٨ م)

لمجمع اللغة العربية

يتفق تاريخ عقد هذه الجلسة ، وهي جلسة مجلس المجمع الختامية لدورة عام ١٩٦٨ — ١٩٦٩ م مع ذكرى مناسبة عزيزة هامة هي ذكرى مرور خمسين عاماً على مولد المجمع العلمي العربي الذي أصبح فيما بعد مجمع اللغة العربية بدمشق فلقد استقلت سورية العربية عام ١٩١٨ بعد جهاد طويل وولدت مع هذا الاستقلال فكرة إنشاء هيئة علمية رسمية تعنى باللغة العربية التي طغت عليها العجمة خلال العهد التركي الطويل ، وتعمل على حفظها وصيانتها ووضع المصطلحات العلمية والفنية والادارية الجديدة تمشياً مع حاجة عهد الاستقلال الجديد .

وعن هذه الهيئة انبثق المجمع العلمي العربي عام ١٩١٩ م أي قبل خمسين عاماً خلت وضمت إليه دار الكتب الظاهرية وجعل مقره المدرسة العادلية الكبرى بعد أن حررت من واضع اليد عليها ، وبعد أن رممت لتأخذ شكلها الحاضر ، وهذه المدرسة العادلية تعد من أقدم المدارس بدمشق وأشهرها وأجلها ، أنشأها السلطان نور الدين الزنكي وأتمها الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي لتكون تربة له ، والمدرسة العادلية هي الوحيدة بدمشق التي لم ينقطع فيها طلب العلم والتدريس منذ تأسيسها حتى يومنا هذا لقد درس فيها عدد من أئمة العلماء الأعلام منهم ابن خلكان وابن مالك وابن خلدون وغيرهم ، كما أسس المجمع داراً للآثار الإسلامية وعرض في إحدى غرفه ما تيسر له جمعه يومئذ من الآثار المبعثرة جمعها من مختلف جهات سورية ، وكانت هذه المجموعة نواة المتحف الوطني الحالي .

كان من حق المجمع علينا أن نحتفل بعيده الذهبي على نطاق عربي شامل اعترافاً بجميله وخدماته التي أسداها للغة العربية وثقافتها .

إن تأسيس مجمع دمشق مهد السبيل لتأسيس مجامع علمية في أقطار عربية أخرى كالأردن ولبنان ولم يكتب لمجمعي هذين القطرين الحياة الطويلة ، إلا أن مجمع اللغة العربية في القاهرة أصبح سباقاً إلى العمل من أجل الحفاظ على اللغة العربية كما يقوم مجمع علمي آخر في القطر العراقي الشقيق بما يقوم به مجمع دمشق الذي هو أقدم المجامع في العالم العربي .

ولئن فاتنا تحقيق أمنية التكريم على الوجه الذي كنا نرجوه فلا نعدم وسيلة الدعاء له بالبقاء والاستمرار وأن تكتب له السلامة والازدهار على مر الأيام ليستمر في أداء رسالته حتى يتمها خدمة للغة العربية وثقافتها .

وقد يطول بنا الوقت لو أردنا إحصاء جميع ماحققه هذا المجمع خلال سنواته الماضية وإني لأكتفي باحالة من يرغب في معرفة ذلك إلى مقال الأستاذ الدكتور حسني سبح الذي نشره في عدد مجلة المجمع الخاص الصادر حديثاً ، والذي وزع في حينه ليجد فيه مايتقع الغلة ويطفي الأوار أو أن يعود إلى مجموعة مجلة المجمع التي هي مرآة صادقة وسجل حافل لأعماله منذ تأسيسه .

ولقد صدر من هذه المجلة حتى الآن (٤٤) مجلداً يبلغ مجموع صفحاتها نحواً من (٣٠) ثلاثين ألف صفحة تضم مختلف الأبحاث اللغوية والثقافية والتاريخية والفلسفية والأدبية ، وتعتبر هذه المجلة بحق موسوعة غنية بشتى فروع المعرفة ، كما تعتبر صورة مشرقة اللامح لنشاط المجمع في سبيل دعم النهضة الأدبية واللغوية الحديثة في سائر الأقطار العربية .

إن اللغة العربية شأنها شأن سائر اللغات الأخرى فهي لاتقوم على جهد فرد أو أفراد وإنما هي حصيلة التفاعل العميق بين أفراد أسرتها جميعاً ،

وكذلك خدمتها والسهر على سلامتها فان أمرهما يعود على أفراد أسرتها جميعاً لا إلى فئة معينة من الناس .

وتقوم مجلة مجمع دمشق بنشر ما يصلها من علماء العربية في الأقطار كافة وهي ترحب دائماً بالأبحاث القيمة والمقالات الرصينة ، وكثيراً ما نشرت من هذه البحوث وساعد المجمع على طبع بعض ماحققه العلماء من تراثنا القديم الخالد . ولم يغفل المجمع في بدء عهده ناحية هامة كانت وما تزال من أهم أغراضه وهي بعث الوعي الثقافي في البلاد ، فعمل على إلقـاء سلسلة من المحاضرات الثقافية تناوب الاستماع إليها الرجال والنساء ، وقد جمع بعض هذه المحاضرات في ثلاثة مجلدات كبيرة ، كما أخذ المجمع في جملة جهوده ، بمراقبة الأقلام وتتبع هفواتها في باب (عثرات اللسان وعثرات الأقلام) فـكان لهذه الناحية أثرها الطيب في تهذيب اللغة وتقويم الأقلام .

وطبع المجمع منذ تأسيسه (١٢٥) كتاباً من عيون تراثنا الأدبي القديم وحقق أكثر هذه الكتب أعضاء المجمع وغيرهم من العلماء المرموقين في سورية وغيرها من الأقطار العربية والأجنبية ، يضاف إلى هذا (٤٤) مجلداً من مجلته ، كما أسلفنا القول ، فيكون بذلك مجموع ماطبعه (١٧٩) مجـلداً هي من أمهات كتب المراجعة ، وهذا العمل في مجموعه عمل كبير لا سيما إذا علمنا ضعف قدرة المجمع المادية ووسائله القليلة .

لقد عمل المجمع على أن يختار لعضويته أصحاب الكفايات من المؤمنـين برسالة اللغة العربية وآدابها فضم إليه خلال مدة وجوده (٢٥١) عضواً بين عامل ومراسل وجلهم من أعلام العرب والمستشرقين ، وقد توفي منهم إلى رحمة الله (١٦٦) عضوا وبقي منهم (٧٥) عضواً ما زالوا بحمد الله يعملون وينتجون ، مد الله بعمرهم وبارك أعمالهم .

هذا أيها السادة ، لمحة عاجلة من ماضي مجمعنا ، وإليكم ملخصاً مما أنجزه في الدورة السابقة (١٩٦٧ — ١٩٦٨) .

لقد كان المجمع في دورته السابقة هذه ، قرر بعض الأعمال وعهد إلى مكتب المجمع أمر تحقيقها وقد أنجز منها أو كاد المطبوعات التالية :

١ — ديوان الخالديين ، طبع وتحقيق الدكتور سامي الدهان .

٢ — قطب السرور في أوصاف الخمور لأبي أسحق إبراهيم المعروف بالرقيق النديم القيرواني تحقيق الأستاذ أحمد الجندي .

٣ — التنبية على حدوث التصحيف لحمزة بن الحسن الأصفهاني ، تحقيق محمد أسعد طلس ومراجعة السيدة أسماء الحمصي والأستاذ عبد المعين الملوحي .

٤ — سابق البربري ، شاعر من المغرب عاش في بلاد الشام ، بقلم الأستاذ عبد الله كنون .

٥ — خريدة القصر وجريدة العصر (بداية شعراء الشام) للعماد الأصفهاني الكاتب تحقيق الدكتور شكري فيصل .

٦ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم الحديث) وضع الأستاذ ناصر الدين الألباني .

٧ — فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (قسم الطب) وضع الدكتور سامي خلف حمارنة .

٨ — ديوان ابن هرمة ، جمع وتحقيق الأستاذ محمد النفاخ والدكتور حسين عطوان .

٩ — فهرس المجلدة العاشرة من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر . وضع الآنسة ملك هنانو .

١٠ — مجلة مجمع اللغة العربية المجلد (٤٣) لسنة ١٩٦٨ .

ويوجد تحت الطبع :

١ — كتاب التلخيص في أسماء الأشياء لأبي هلال العسكري ، تحقيق الدكتور عزة حسن .

٢ — نظرة عيان وتبيان في مقاله أسماء أعضاء الإنسان ، للدكتور صلاح الدين الكواكبي .

٣ — كتاب اللامات للزجاجي ، تحقيق الدكتور مازن المبارك .

٤ — ترويح القلوب في ذكر ملوك بني أيوب ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

المجلة :

صدر من مجلة مجمع اللغة العربية المجلد (٤٤) لعام ١٩٦٩ العددان الأول والثاني في عدد خاص عدد صفحاته (٤٣٨) صفحة اشترك في تحريره أعضاء المجمع العاملون والمراسلون .

الانتخابات :

١ — انتخب اللواء الركن محمود شيت خطاب (العراق) عضواً مراسلاً
٢ — الأستاذ ناصر الدين الأسد (الأردن) عضواً مراسلاً
٣ — الدكتور فيصل دبدوب (العراق) عضواً مراسلاً
٤ — الأستاذ الدكتور ناجي معروف (العراق) عضواً مراسلاً

استقبال أعضاء :

استقبل المجمع بجلستين عامتين زميلين كريمين رشحهما لعضوية المجمع علمهما وفضلهما وإخلاصهما لمبادئ المجمع وهما الأستاذان : وجيه السمان وعبد الهادي هاشم وكلاهما من الصفوة الممتازة من أعلام الفكر والمعرفة والنشاط .

اتصالات المجمع :

قام الأستاذ الرئيس برحلة إلى مصر والعراق واتصل بمجمعي القاهرة وبغداد وبحث معهما أمر تعزيز العلاقات الأخوية فيما بين المجامع الثلاثة والتعاون فيما بينهم عن طريق تبادل المطبوعات وغيرها . وكانت الاتصالات مثمرة ومفيدة تكللت بالنجاح ، وقد تم التبادل في المطبوعات فعلاً .

إهداء مكتبات :

١ — نفذ ورثة المرحوم الرئيس الأمير مصطفى الشهابي وصية مورثهم وسلموا المجمع جميع ما أوصى به المرحوم من كتب وأثاث ومخلفات وتم تسلمها ، وهي الآن قيد التسجيل والإحصاء .

٢ — كذلك نفذ ورثة المرحوم الشيخ حامد التقي وصيته وسلموا المجمع خزانة كتب المرحوم مورثهم ، وذلك بمساعي الأستاذ الزميل الشيخ محمد بهجة البيطار .

٣ — وأهدى الأستاذ خالد خليل مكتبة المرحوم والده الدكتور خليل خالد .

فلأولئك جميعاً شكر المجمع وتقديره .

إنشاءات :

إن مشروع دار الكتب الظاهرية قد بلغ مرحلته النهائية وسيتم الشروع في وقت قريب وسيجد الرواد القاعة الكبيرة من هذا البناء مجهزة بكل أسباب الراحة .

الوفيات :

ولن ينسى المجمع في حديثه عن هذه الدورة أن يذكر بالأسف والرحمة الأعضاء الراحلين ممن وافتهم المنية هذا العام وهم المغفور لهم : الأساتذة ساطع الحصري وحسن حسني عبد الوهاب ومنير القاضي رحمهم الله رحمة واسعة وأجزل ثوابهم .

المؤتمرات :

وقد دعي المجمع المشاركة في مؤتمرات عدة منها ، المؤتمر الرابع لعلوم الرياضيات في بخارست (رومانيا) والمعرض الدولي للمطبوعات العلمية الذي سيعقده المجمع العلمي في بولون (ايطاليا) .

وقد لبى المجمع دعوة مؤتمر المصطلحات الطبية الذي عقد في الموصل (العراق) ومثل المجمع فيه الأستاذ الرئيس الدكتور حسني سبح ، كما شارك المجمع بشخص رئيسه وعضوه الدكتور شكري فيصل في الحفل الذي أقامه مجمع اللغة العربية في القاهرة تأبيناً المغفور له الأمير مصطفى الشهابي رئيس مجمع دمشق ، وأحد أعضاء مجمع القاهرة سابقاً .

كما زار المجمع وفود شخصيات علمية كثيرة منها ، وفد المكتب الدائم للتعريب في الرباط ووفد الصداقة الآزربيجانية .

دار الكتب الظاهرية :

وإليكم في النهاية تقرير مديرية دار الكتب الظاهرية السنوي وخلاصة عن نشاطها وأنواع الكتب والمطبوعات فيها :

إلى الأمانة العامة لمجمع اللغة العربية

نرفع إليكم التقرير السنوي لدار الكتب الوطنية الظاهرية عن عام ١٩٦٨ .

آ ـ الكتب المخطوطة :

١ ـ بلغ عدد المخطوطات التي دخلت الدار خلال العام المنصـــرم (٦٦) مخطوطة .

٢ ـ بلغ عدد الأفلام المصـــورة لمخطوطات دار الكتب الظاهرية (٢٥٧) فلماً .

ب ـ الكتب المطبوعة :

١ ـ بلغ عدد الكتب التي دخلت الدار (١٤٢٥) كتاباً منها :

آ ـ (٤٩٢) كتاباً مشترى .

ب ـ (٧٤٩) « مهدى .

ج ـ الدوريات :

هناك (٤٩٥) عدداً من مجلات مختلفة سجلت في سجلات الدار .

د ـ الرواد :

بلغ عدد قراء دار الكتب الظاهرية ١٨٩٣٣ مطالعاً .

يرجى التفضل بالاطلاع وأخذ العلم .

٢٧/٤/١٩٦٩ — مدير دار الكتب الظاهرية

الدكتور عزة حسن



بيان في مشروعات

دورة المجمع لعام ١٩٦٩ — ١٩٧٠

أرحب بالسادة الزملاء أعضاء المجمع أطيب ترحيب وأتمنى لهم في دورتهم الجديدة نشاطاً موفوراً وجهداً مشكوراً ، كما أتمنى لهم دوام الصحة والعافية ، وآمل أن تكون العطلة الصيفية وما كان فيها من استجمام وراحة حافزاً على الجهد وباعثاً على الدأب في كل مجال من مجالات العمل المجمعي الذي يجتمع مجلسكم الموقر من أجله .

أيها الاخوة الزملاء ، إننا نبدأ في جلستنا هذه مرحلة جديدة ، بعد انقضاء خمسين سنة على تأسيس مجمعنا هذا ، ولقد كانت المرحلة التي مرت بنا مرحلة إنشاء وتأسيس ، وفترة وضعت فيها القواعد العلمية والركائز التي يستند إليها هذا الصرح ، أما المرحلة الجديدة فهي مرحلة نشاط جديد ، يرمي إلى رفع مستوى المجمع وإعلاء شأنه في كل هدف من أهدافه وكل غاية من غاياته العلمية المقدسة .

وأول ما نفتتح به عهد المجمع الجديد هذه المناسبة الكبرى التي هي أسبوع العلم العاشر الذي سيقع في الأيام الأولى من شهر تشرين الثاني من هذا العام ١٩٦٩ وسيشترك المجمع في هذا العيد الكبير ليحتفل بمرور خمسين عاماً على إنشائه ، وقد خصصت له أيام خاصة يتحدث بها المجمعيون عن تاريخ المجمع ونشاطه والخدمات التي أسداها للغة العربية وثقافتها وآدابها وصراحة على ما قامت به هذه المؤسسة من خدمات كبرى وقد دعا المجمع إلى المشاركة في هـــذا الاحتفال رئيسي ونائبي الرئيسين والأمينين العامين لمجمعي القاهرة وبغداد والأمين العام لمكتب التعريب في الرباط .

المشروعات :

إن لدى المجمع في هذه الدورة الجديدة مشروعات كثيرة نرجو أن يتحقق جلها إن لم تساعد الظروف على تحقيقها كلها ومن أهمها :

١ — ملء الشواغر بانتخاب الأعضاء العاملين والمراسلين في المجمع .

٢ — وألفت نظر السادة الزملاء في هذه المادة إلى ضرورة السعي لتعديل ملاك المجمع ودار الكتب الظاهرية فإن كثرة الأعمال أصبحت تتطلب هذا التعديل ، كما أن وضع المجمع قد أصبح يقضي بتعديل بعض المراتب والدرجات في المديريات المنبثقة عن هذه المؤسسة العلمية الجليلة .

المطبوعات :

١ — سيعمد المجمع إلى إكمال المطبوعات التي بوشر بها سابقاً وهي :

آ — فهرس المجلدة العاشرة من تاريخ ابن عساكر وضع الآنسة ملك هنانو .

ب — فهرس مخطوطات قسم الطب للأستاذ سامي حمارنة .

ج — كتاب « ترويح القلوب في ذكر الملوك بني أيوب » تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

د — فهرس مخطوطات علوم الحديث من وضع الأستاذ ناصر الدين الألباني .

هـ — طبع الجزء الثاني من كتاب التلخيص في أسماء الأشياء للعسكري . تحقيق الدكتور عزة حسن .

٢ — المباشرة بطبع الكتب الآتية :

آ — ديوان الشاعر ابن أحمر تحقيق الدكتور محمد عطوان الأستاذ في الجامعة الأردنية .

ب — ديوان عرقلة الكلبي تحقيق أحمد الجندي .

ج — طبع ديوان ابن القيسراني تحقيق السيدة أسماء الحمصي .

د — طبع ديوان الغزي تحقيق الدكتور شكري فيصل .

هـ — طبع رسائل الصابي تحقيق الدكتور سامي الدهان .

و — طبع « الحقيقة والمجاز في رحلة الشام ومصر والحجاز » للشيخ عبد الغني النابلسي وتحقيق الأستاذ عارف النكدي .

ز — طبع فهرس مخطوطات علم الهيئة والفلك عند العرب وضع الأستاذ ابراهيم الخوري .

ح — طبع فهرس مجلة المجمع (الجزء الرابع) من الجزء ٣١ — ٤٠ وضع الأستاذ عمر رضا كحالة .

ط — طبع فهرس مخطوطات قسم الأدب واللغة في دار الكتب وضع السيدة أسماء الحمصي .

ي — طبع القسم الثاني من الجزء الثاني من تاريخ دمشق لابن عساكر تحقيق الآنسة ملك هنانو .

ك — طبع المجلد (٤٥) من مجلة المجمع .

٣ — وقد قرر المجمع إعادة طبع أكبر عدد من مطبوعاته ومن أعداد مجلته التي نفدت وباشر طبع المجلد الأول من المجلة .

أما المشروعات التي تتعلق بدار الكتب الظاهرية خاصة فأهمها :

آ — السعي إلى إنجاز المرحلة الثانية من توسيع بناء دار الكتب لتصبح وافية بالغرض الذي أنشئت من أجله .

ب — تصوير ما بقي من مخطوطات دار الكتب .

الوفيات :

فجع المجمع بوفاة عضو بارز من أعضائه المراسلين وهو الدكتور عبد الرحمن الكيالي رحمه الله .

هذا ما أمكن الإشارة إليه في بياننا الجديد لدورة عام ١٩٦٩ — ١٩٧٠ من أعمال ومشروعات راجياً أن تتوفر الأسباب لتحقيقها .

مجمع اللغة العربية
الأمين العام
جعفر الحسني



إهداء كتب

١ – نفذ ورثة المرحوم الرئيس الأمير مصطفى الشهابي وصية مورثهم ، وسلموا المجمع جميع ما أوصى به المرحوم من كتب وأثاث ومخلفات وتم تسلمها ، وهي الآن قيد التسجيل والإحصاء .

٢ – كذلك ونفذ ورثة المرحوم الشيخ حامد التقي وصيته ، وسلموا المجمع خزانة كتب المرحوم مورثهم ، وذلك بمساعي الأستاذ الزميل الشيخ محمد بهجة البيطار .

٣ – وأهدى الأستاذ خالد خليل مكتبة المرحوم والده الدكتور خليل خالد ، فلأولئك جميعاً شكر المجمع وتقديره .



الوفيات

ويذكر المجمع بالأسف والرحمة الأعضاء المجمعيين الراحلين ممن وافتهم منيتهم هذا العام وهم المغفور لهم : الأستاذ الكبير ساطع الحصري من العراق والأستاذ حسن حسني عبد الوهاب من تونس ، والأستاذ منير القاضي من العراق رحمهم الله رحمة واسعة وأجزل ثوابهم .



الكتب المهداة إلى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

خلال عام ١٩٦٩

	العدد
١ — أنشودة لينينغراد ترجمة محمد جديد وميشيل كيلو	١
٢ — الفكر الألماني من لوثر إلى نيتشه تيسير شيخ الأرض	١
والدكتور أسعد درقاوي	١
٣ — العالم الثالث ترجمة حسام الخطيب وهيفاء هاشم	٢
٤ — دستور ألمانيا الديموقراطية	١
٥ — سعدي الشيرازي (البستان) ترجمه شعراً محمد الفراتي	٢
٦ — من دفتر الصامت محمد عفيفي مطر	٢
٧ — جرائم الحرب في فييتنام برتراند رسل محمود فلاحة	١
٨ — تاريخ خليفة بن خياط (القسم الثاني)	١
٩ — الحياة الجديدة ذكرى شوقي (عدد ممتاز)	١
١٠ — ديوجين مصباح الفكر (العدد السابع)	١
١١ — ميمونه عبد الله ساجي	١
١٢ — مخطوطات عربية في مكتبة صوفيا البلغارية (المجمع العلمي العراقي)	١
١٣ — داود باشا ونهاية المماليك في العراق (المجمع العلمي العراقي)	١
١٤ — مجلة المجمع العلمي العراقي المجلد ١٦	١
١٥ — في الأدب العربي الحديث يوسف عز الدين	١
١٦ — فهارس مجلة المجمع العلمي العراقي	١

	العدد
١٧ — مع الريح عبد السلام عيون السود	١
١٨ — الأرض والسماء ترجمة أدهم السمان	١
١٩ — بيت الإنسانية أكبر عمار خاتم ترجمة	١
٢٠ — الفن الإسلامي جورج ماسيه عفيف بهنسي	١
٢١ — افلاطون طيماوس ترجمة فؤاد بَرَبارة	١
٢٢ — دروس في الكيمياء الفيزيائية (الجزء الأول)	١
٢٣ — مجلة كلية الآداب . جامعة الاسكندرية (العدد ١٩)	١
٢٤ — ديوان قيس بن الخطيم ناصر الدين الأسد	١
٢٥ — ديوان الطرماح عزة حسن	١
٢٦ — القيان والغناء في العصر الجاهلي ناصر الدين الأسد	١
٢٧ — محاضرات في الشعر الحديث ناصر الدين الأسد	١
٢٨ — محاضرات عن خليل بيدس	١
٢٩ — التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد	١
٣٠ — الكيمياء العامة (الجزء الأول والثاني) التعليم العالي	١
٣١ — مختصر لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية	١
٣٢ — درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة	١
٣٣ — مناقشات مع الدكتور مصطفى جواد رؤوف جمال الدين	١
٣٤ — الاجراءات الادارية للخطيب	١
٣٥ — الأدب العربي المعاصر في سورية لسامي الكيالي	١

	العدد
٣٦ — الأعلام العربية للسامرائي	١
٣٧ — المعجم العربي حسين نصار (جزآن)	١
٣٨ — أمراء البيان	١
٣٩ — حكاية الأيام الثلاثة	١
٤٠ — مجموعة القواعد القانونية التي قررتها محكمة النقض في قضايا العمل	١
٤١ — العمل العلمي في البلاد المتدئة شيث سليمان	١
٤٢ — الاسلام والثقافة العربية أنور الجندي	١
٤٣ — امارة بهدينان العباسية محفوظ محمد عمر	١
٤٤ — نصف العيش الدكتور عادل البكري	١
٤٥ — ألوان من الجزائر (شعر) محمد الأخضر عبد القادر السباعي	١
٤٦ — مالك حداد رصيف الأزهار	١
٤٧ — البحرية الجزائرية	١
٤٨ — تاريخ الجزائر في القديم والحديث مبارك محمد الهلالي (٣ أجزاء)	١
٤٩ — عيون البصائر محمد البشير الابراهيمي	١
٥٠ — الفوائد المهمة وجيه الجباوي	١
٥١ — التنين عماد حاتم	٢
٥٢ — يا مال الشام سهام ترجمان	١
٥٣ — قول على قول حسن سعيد الكرمي	١
٥٤ — نساء متفوقات سلمى الحفار الكزبري	١

	العدد
٥٥ — عينان من اشبيلية سلمى الحفار الكزبري	١
٥٦ — الكيمياء الفيزيائية (الجزء الأول ، المجلد الثالث)	١
٥٧ — رسائل في النحو واللغة	١
٥٨ — سورية الثورة في عامها السادس وزارة الاعلام السورية	٣
٥٩ — تاريخ فن الحرب ستروكوف	٢
٦٠ — رسائل في النحو واللغة الدكتور مصطفى جواد والأستاذ يعقوب مسكوني	١
٦١ — مدخل إلى فلسفة التاريخ عند هيجل ترجمة أنطون حمصي	١
٦٢ — ليبق فرحي دائماً جان جيونو ترجمة سعيد القضماني	١
٦٣ — رباب الكاظمي - دراسة وشعر عبد الرحيم محمد علي	١
٦٤ — الكيمياء العامة (الجزء الثاني) كلية العلوم بجامعة دمشق	١
٦٥ — بطاركة الشرق أغناطيوس يعقوب الثالث	١
٦٦ — الغابة المنسية أحمد مخيمر	١
٦٧ — النبوّة سعدي لبين	١
٦٨ — اللمعة الدمشقية (الجزء ٧) محمد جمال الدين مكي العاملي	١
٦٩ — الفيزياء النظرية (الجزء الأول) وزارة التعليم العالي	١
٧٠ — معجم تاج العروس (الجزء ٥) الزبيدي	١
٧١ — من الثورة العربية الكبرى إلى العراق الحديث ابراهيم الراوي	١
٧٢ — عبر وعبرات جواد المرابط	١

	العدد
٧٣ — معجم الهندسة الميكانيكية رومي عربي كيفورك مينارجيان	١
٧٤ — المعجم الفني 〃 〃 〃 〃	١
٧٥ — الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق فاضل الخالدي	١
٧٦ — العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (٧ أجزاء) أبو الطيب الفاسي	١
٧٧ — المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية تأليف محمد بن أحمد العقيلي (قدّم الكتاب الأستاذ حمد الجاسر) .	١



فهرس المجلد الرابع والأربعين

الجزء الأول والثاني

آراء وأنبــاء

الجزء الثالث

صفحة

التعريف والنقد

آراء وأنباء

صفحة

الجزء الرابع

التعريف والنقد

تابع فهرس الجزء الرابع

آراء وأنباء

صفحة




